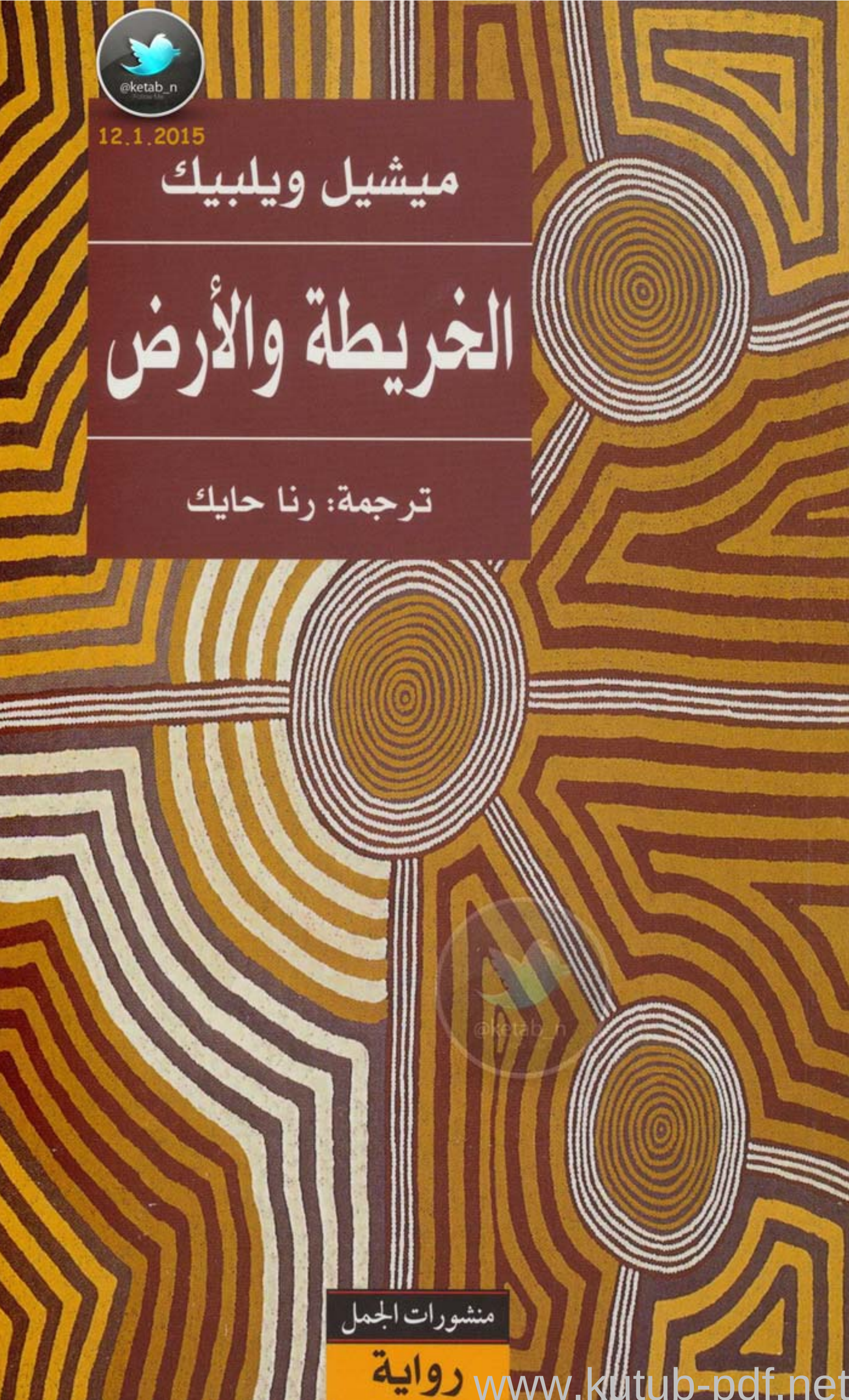

@ketab_n
12.1.2015
ميشيل ويلبيك
الخريطة والأرض
ترجمة: رنا حايك
منشورات الجمل
رواية
www.kutub-pdf.net

ميشيل ويلبيك

الخريطة والأرض

رواية

ترجمة: رنا حايك

منشورات الجمل

ميشيل ويلبيك، الخريطة والأرض، رواية

ولد ميشيل ويلبيك عام ١٩٥٨ في جزيرة لاريينيون. بدأ اهتمامه بالأدب في العشرين من عمره، وهي الفترة التي بدأ يرتاد فيها دوائر سياسية مختلفة. سنة ١٩٨٥ التقى ميشيل بولتو، مدير مجلة «نوفيل روفي دي باري» التي كانت أول من نشر نصوص ويلبيك. وبوحي من بولتو نشر ويلبيك عام ١٩٩١ بيوغرافيا «هووارد. ب. لوفيكرافت»: «**ضد العالم، ضد الحياة**». وفي السنة نفسها ظهر كتابه «**البقاءُ حيّاً**» عن دار النشر: لاديفيرونس. وعن الدار نفسها صدر في العام التالي أول ديوان له بعنوان: «**مواصلة السعادة**» الذي نال جائزة «تريستان تزارا». لكن موريس نادو، صانع الكثير من الأصوات الإبداعية في فرنسا، يظل أهمّ من دفع بميشيل ويلبيك إلى الأمام، إذْ نشر له روايته الأولى التي رُفضت من قبل العديد من دور النشر: «**توسيع ميدان الصراع**». بعدها نشر العديد من الدواوين والروايات، من أهمها: «**معنى الصراع**» و«**ولادة جديدة**»، ودون أن ننسى روايته «**المنصة**» التي توجه بعدها للاستقرار في إسبانيا لكتابة روايته: «**احتمال جزيرة**» التي صدرت ترجمتها العربية عن منشورات الجمل عام ٢٠٠٧.

رنا حايك (مواليد بيروت، ١٩٧٨). نالت إجازتها في الحقوق من الجامعة اليسوعية في بيروت عام ٢٠٠٠. عملت في الصحافة حتى العام ٢٠١١. صدرت لها ترجمة «مجهولات» عن الكاتب الفرنسي باتريك موديانو. تعمل حالياً محرّرة في مجال النشر.

ميشيل ويلبيك: **الخريطة والأرض**، رواية، ترجمة: رنا حايك، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Michel Houellebecq: *La carte et le territoire*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

«العالم ضجرٌ مني
وأنا كذلك منه..»

شارل دورليان

كان جيف كونز قد قام لتوه من مقعده، وهو يلوّح بيديه بحماسة. قبالته، على الكنبة البيضاء المغطاة جزئياً بقطعة قماش حريرية مكوّمة بدا داميان هيرست، بوجهه الأحمر المتجهّم، وكأنه على وشك الاعتراض. كان الاثنان يرتديان زياً أسود - تتخلله الخطوط الرفيعة لدى كونز - مع قميص أبيض وربطة عنق سوداء. وبين الرجلين، على الطاولة المنخفضة، وُضعَت سلة من الفاكهة المجففة لا يلتفت إليها أي منهما؛ كان هيرست يحتسي زجاجة بادوايزر لايت.

خلفهما تكشف الكوة الزجاجية مشهد مبانٍ مرتفعة مرصوصة كتشابك بابلي لمضلّعات عملاقة على تخوم الأفق. كانت الليلة مضيئة، والجوّ عليل. مناخ يحاكي أجواء قطر أو دبي. في الواقع كان ديكور الغرفة مستوحى من صورة إعلانية لفندق *الإمارات* في أبو ظبي، ظهرت في إحدى المنشورات الألمانية المترفة.

بدت جبهة جيف كونز لامعة بعض الشيء وقد ظلّلها جاد بضربة من ريشته، ثم تراجع خطوتين إلى الوراء. حتماً هنالك مشكلة مع كونز. فسمات هيرست سهلة الالتقاط في الواقع: قد تُصوّره كشخص فظّ، وقح، من نوعية «أشخّ عليكم من علياء أموالي»؛ أو

حتى كـ«*فنان متمرّد*» (لكنه ثري رغم ذلك)، *أعماله مسكونةٌ بهاجس الموت والفناء*؛ وأخيراً يبدو في تقاسيم وجهه شيء دموي وثقيل، إنكليزي بشكل خاص، يجعله أشبه بأحد مشجّعي فريق الأرسينال المتحمّسين. في المجمل كانت لديه ملامح متنوعة، لكن يصلح توحيدها في بورتريه متّسق، يجسّد فناناً إنكليزياً ممثّلاً لجيله. أما كونز فيبدو وكأنه يحمل في ذاته ازدواجية ما: تناقضاً حتمياً بين مكر التاجر المألوف ونشوة الزاهد ووجده.

مضت ثلاثة أسابيع وجاد ينقّح في تعابير وجه كونز وهو يهبّ من مقعده، ويلوّح بيديه بحماسة وكأنه يحاول إقناع هيرست بشيء ما. وكانت تلك مهمة توازي في صعوبتها مهمة رسم كاتب إباحي مورموني(*).

كانت بحوزته صور فوتوغرافية لكونز وحده، وبرفقة رومان أبراموفيتش، مادونا، باراك أوباما، بونو، وارن بوفيت، بيل غيتس... لم تنجح ولا واحدة منها في إبراز أي شيء في شخصية كونز يتخطى مظهر بائع سيارات الشيفروليه المكشوفة الذي اختار صاحبنا التباهي به في وجه العالم. كان ذلك مدعاة للحنق. أصلاً، لطالما أثار المصورون، وتحديداً *الكبار* منهم، حنق جاد، بادعاءاتهم كشف حقيقة موديلاتهم في الصّور التي يلتقطونها لهم. هم لا يكشفون شيئاً. يكتفون بالمثول أمامك وبتشغيل آلتهم ليلتقطوا مئات اللقطات، كيفما اتفق، مطلقين همهمات الرضا، قبل أن يختاروا في ما بعد الصور الأقل سوءاً من المجموعة. هذا ما يفعله، من دون

(*) طائفة دينية أميركية أنشأها جوزيف سميث عام ١٨٣٠ وأباحت تعدد الزوجات (المترجمة).

استثناء، جميع المصورين الكبار المزعومين. كان جاد يعرف البعض منهم شخصياً، ولا يضمر لهم سوى الإحتقار، فهو يعتبرهم جميعاً مبدعين بقدر ماكينة فوتوماتون(*).

في المطبخ، خلفه بعدة خطوات، أصدر سخان المياه سلسلة من القرقعات الناشفة. تجمّد في مكانه كالممسوس. كان الخامس عشر من ديسمبر قد حلّ.

(*) ماركة مسجلة لآلة تصوّر، تحمّض وتظهّر تلقائياً (المترجمة).

في مثل هذا الوقت تقريباً منذ حوالي عام أصدر السخان صوتاً مشابهاً، قبل أن يتوقف نهائياً عن العمل. خلال بضع ساعات، كانت حرارة الجو في المحترف قد هبطت إلى ثلاث درجات مئوية. كان قد توصّل إلى النوم، أو بالأحرى إلى تنويم نفسه، قليلاً، ولفترات خاطفة ومتقطعة. ونحو السادسة صباحاً، كان قد استخدم آخر ليترات متبقية من المياه الساخنة في عملية اغتسال مقتضبة، حضّر بعدها فنجاناً من القهوة، بانتظار وصول عامل شركة «*السمكرة على أنواعها*». فقد وعدوا بإرسال أحدهم في أولى ساعات الصباح.

على موقعها الإلكتروني، تتعهد «*السمكرة على أنواعها*» بـ«إدخال أعمال السباكة إلى الألفية الثالثة». ربما كان يجدر بهم البدء بالإلتزام بمواعيدهم، غمغم جاد عند الحادية عشر تقريباً، وهو يدور حول نفسه، عاجزاً عن الشعور بالدفء في المحترف. حالياً، كان يعمل على لوحة لوالده، اعتزم عنونتها «المهندس جان بيار مارتان وهو يتخلى عن إدارة شركته». بالطبع، سوف يؤدي الآن انخفاض الحرارة إلى تأخير جفاف الطبقة الأخيرة من الألوان. كما أنه كان قد وافق منذ أسبوعين، وككل عام، على تناول العشاء مع والده في ليلة الميلاد، على أمل أن ينجز اللوحة قبل الموعد. خطة أصبحت الآن عرضة للخطر ما لم يتدخّل سمكري ما على وجه السرعة.

للأمانة، لم يكن ذلك مهماً في المطلق، فهو لم يكن ينوي إهداء اللوحة لوالده، بل مجرّد *إطلاعه* عليها: إذاً، لم يكتسب الموضوع فجأة كل تلك الأهمية؟ يبدو أنه، في تلك اللحظة، كان قد استنفد أعصابه تماماً، فهو يعمل كثيراً، وقد بدأ برسم ست لوحات في الوقت عينه، ولم يتوقف عن العمل منذ عدة شهور، لم يكن ذلك تصرفاً حكيماً منه.

نحو الثالثة من بعد الظهر، قرّر الاتصال مجدداً بـ«*السمكرة على أنواعها*». خطّهم مشغول باستمرار. لم يحظ بهم إلا بعد الخامسة بقليل؛ تذرّع العامل في خدمة الزبائن بازدياد العمل الاستثنائي نتيجة وصول موجات الصقيع الكبيرة، لكنه وعد بأن يرسل أحدهم في صباح اليوم التالي، بكل تأكيد. أقفل جاد الخط، ثم حجز غرفة في فندق «ميركور» الكائن في جادة «أوغوست. بلانكي».

في اليوم التالي، انتظر مجدداً، طوال اليوم، مجيء «*السمكرة على أنواعها*» كما انتظر أيضاً... «*سباكون ببساطة*»، الذين كان قد نجح في الاتصال بهم في تلك الأثناء. تتعهد «*سباكون ببساطة*» باحترام التقاليد الحرفية لـ«*السباكة الرفيعة المستوى*»، لكن عمالها لا يبدون قادرين، مع ذلك، على احترام مجرّد موعد.

بدا والد جاد في اللوحة التي رسمه فيها واقفاً خلف منصة، محاطاً بخمسين موظفاً تحتضنهم شركته، وهو يرفع كأسه بابتسامة مرّة.

كان كأس الوداع يدور في المساحة المفتوحة لمكتب الهندسة الذي يملكه: صالة كبيرة بمساحة ثلاثين متراً على عشرين، جدرانها بيضاء، تضيئها واجهة زجاجية، تتجاور فيها مكاتب التصميم على

الكمبيوتر، مع طاولات مجهزة بقواعد تسند التصاميم الكبيرة للمشاريع الجاري تنفيذها. أما الحضور فيتألف بمعظمه من شباب يافعين هيئتهم هيئة «شطّار». هؤلاء هم مصمّمو الأبعاد الثلاثية.

تحت المنصة وقف ثلاثة مهندسين أربعينيين محيطين بوالده. بحسب تشكيل مستوحى من لوحة ثانوية للورنزو لوتو، كان كل واحد منهم يتجنب النظر إلى الآخر، بينما يحاول التقاط نظرة الوالد. وبدا أمل كل واحد منهم في أن يخلفه على رأس الشركة واضحاً. أما نظرة والده فكانت مثبّتة على مستوى أعلى من الحضور، تعبّر عن رغبة في لمّ شمل فريقه حوله للمرة الأخيرة، عن ثقة صائبة بالمستقبل، ولكن، بشكل خاص، عن حزن عميق. هو حزن مغادرة الشركة التي أسّسها، والتي بذل فيها كل مجهود ممكن، حزن الأمر المحتّم: كنا قطعاً أمام رجلٍ انتهى.

بعد الظهر، حاول جاد عبثاً، لعشر مرات متتالية، الاتصال بشركة *«الـ. . . سمكري»*، التي تستخدم محطة *«سكاي روك»*(*) كموسيقى انتظار على الهاتف، بينما اختارت *«سباكون ببساطة»* محطة *«ضحك وأغاني»* (محطة راديو فرنسية تبثّ على التوالي أغاني البوب والروك الكلاسيكية والإسكتشات الضاحكة).

نحو الخامسة، عاد إلى فندق ميركور. كان المساء يهبط على جادة «أوغوست. بلانكي»، وبعض المشرّدين قد أشعلوا النار في الممر الجانبي منها.

مضت الأيام اللاحقة على المنوال ذاته تقريباً: في طلب أرقام شركات للسباكة، وفي تحويل الاتصال مباشرة إلى موسيقى الإنتظار،

(*) محطة راديو باريسية افتتحتها عام ١٩٨٦ فرقة أوربوس الفرنسية (المترجمة).

ثم في الانتظار، وسط صقيع يشتد أكثر فأكثر، وإلى جانب لوحة تأبى أن تجفّ.

صباح الرابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر برز حلّ، اتخّذ شكل حرفيّ كرواتي يقطن على بُعد خطوتين، في شارع «ستيفان بيشون». لمح جاد لافتته بالصدفة وهوعائد من فندق ميركور. كان متوفراً، نعم، مباشرة. وكان رجلاً قصير القامة، شعره أسود، ذا سحنة شاحبة، وتقاسيم منسجمة ورقيقة، يظللها شارب يحاكي موضة *الزمن الجميل*؛ كان في الواقع يشبه جاد قليلاً، باستثناء الشارب.

توجّه فور دخوله الشقة إلى السخّان. فحصه مطوّلاً، بعد أن فك لوحة التحكم، وتتبع بأصابعه الرشيقة المسار المعقّد للأنابيب. تحدث عن صمّامات وعن رشّافات. وكان يعطي انطباعاً بأنه يعرف الكثير عن الحياة بشكل عام.

بعد ربع ساعة من التفحص جاء تشخيصه كالآتي: يستطيع إصلاحه، نعم، بمقدوره الإنكباب على نوع من الإصلاح، هي مسألة ٥٠ يورو ليس أكثر. لكنه سيكون ترقيعاً أكثر مما هو إصلاح جذري، قد يدوم لأشهر، وحتى لسنوات في أحسن الأحوال، لكنه يرفض رغم ذلك ضمانته على المدى الطويل؛ باختصار، بدا له من غير الملائم الرهان على مستقبل هذا السخان.

تنهّد جاد؛ كان يتوقع حدوث ذلك، كما قال معترفاً. فهو لا يزال يذكر اليوم الذي قرّر فيه شراء تلك الشقة، منذ تسع سنوات، تماماً كما يذكر سمسار العقارات، المدعبل والسعيد بنفسه، وهو يفاخر بالإضاءة الاستثنائية التي تتمتع بها الشقة، من دون أن يخفي ضرورة القيام ببعض «التجديدات» فيها. يومها، قال لنفسه: كان يجب أن أكون سمسار عقارات أو طبيباً نسائياً.

بعد لطف عادي أبداه السمسار المدعبل خلال الدقائق الأولى من اللقاء، مسّته شحنة وجدانية عميقة ما إن عرف أن جاد يعمل فناناً. كانت تلك هي المرة الأولى، كما صاح، التي يتسنى له فيها بيع محترف فني لفنان! لوهلة، خشي جاد من أن يعلن صاحبنا نفسه متضامناً مع الفنانين الحقيقيين في مواجهة *«البوبو»* (أي البورجوازيين البوهيميين) والجهلاء الآخرين من الفصيلة ذاتها، الذين يساهمون في ارتفاع الأسعار، مانعين بذلك المحترفات عن الفنانين، وكيف لي أن أعاكس السوق، هذا ليس دوري... إلخ... ولكن، لحسن الحظ، لم يحدث أي من ذلك. اكتفى السمسار القصير السّمين بحسم ١٠٪. كان على الأرجح قد تهيأ مسبقاً لحسمها، على إثر جولة مفاوضات قصيرة.

ما يجب الاتفاق عليه هو أن ذلك «المحترف الفني» كان عبارة عن علّية بواجهة زجاجية، واجهة جميلة من دون شك، ومعها منافع مظلمة تكاد لا تكفي شخصاً احتياجاته الصحية محدودة مثل جاد. لكن الإطلالة، في الواقع، كانت خلابة: يتجاوز النظر ساحة «الألب»، ويمتدّ حتى جادة «فانسان - أوريول»، وسكة الحديد، وأبعد قليلاً إلى تلك القلاع رباعية الزوايا التي بنيت في أواسط السبعينيات من القرن الماضي مناقضة تماماً المشهد الجمالي الباريسي العام. ذلك المشهد الذي يشكّل، إلى حد بعيد، أكثر ما يفضله جاد في باريس على المستوى الهندسي.

أنجز الكرواتي التصليحات، وقبض الخمسين يورو. ولم يسلّم جاد فاتورة، ولم يكن هذا الأخير يتوقعها أصلاً. وما إن أقفل الباب وراءه حتى دقّه مجدداً بنقرات مقتضبة. شق جاد الباب.

- «على فكرة، أستاذ» قال الرجل. «ميلاد مجيد. أردت أن أقول لك: ميلاد مجيد».

- «نعم، صحيح» أجاب جاد بارتباك. «ميلاد مجيد لك أيضاً».

عندها فقط انتبه جاد لمشكلة التاكسي. فكما كان يتوقّع رفضت شركة «*أراك بعد قليل*» بصراحة إقلاله إلى «رانسي»، بينما وافقت شركة «*تاكسي البرق*» على إيصاله إلى المحطة ليس أكثر، أو إلى مبنى البلدية على أبعد تقدير، ولكن حتماً ليس إلى تخوم «ضاحية الزيزان». «لأسباب أمنية، أستاذ...»، همس الموظف بلهجة يشوبها بعض اللوم.

«خدماتنا لا تغطي سوى المناطق الآمنة تماماً، أستاذ». هذا ما قاله موظف شركة «*سيارات فرناند غارسان*» هو أيضاً بنبرة ناعمة تعبّر عن ندم مصطنع.

تدريجياً، بدأ ينتابه شعور بالذنب لرغبته في قضاء ليلة الميلاد في منطقة غير لائقة كـ«ضاحية الزيزان»، وككل عام شعر بالغضب تجاه والده الذي يرفض بعناد مستحكم ترك ذلك المنزل البورجوازي، المحاط بحديقة فسيحة، والذي أقصته الحركة السكانية تدريجياً إلى قلب منطقة ظلّت تزداد خطورة يوماً بعد يوم، إلى أن وقعت بالكامل تحت سيطرة العصابات.

هكذا توجّب تدعيم السور، وتعزيزه بسياج مكهرب، وتركيب جهاز فيديو للمراقبة موصول بمخفر الشرطة: كل ذلك حتى يتاح لوالده التسكع وحيداً في اثنتي عشرة غرفة عاصية على التدفئة لا يطأها أحد باستثناء جاد، الذي يزوره مرة في السنة، ليلة الميلاد من كل عام. وكانت الدكاكين والمحال الصغيرة قد اختفت من الشارع منذ زمن، وقد أصبح التجول سيراً على الأقدام، في الشوارع

المحيطة، مستحيلاً. حتى السيارات لم يكن من النادر أن تتعرّض للإعتداءات أثناء توقفها عند إشارة السير الحمراء. وقد منحت بلدية رانسي الوالد مساعدة منزلية. إمرأة سنغالية شرسة، بل حتى شريرة اسمها «فاتي»، نفرت منه منذ الأيام الأولى. وكانت ترفض تغيير الملاءات أكثر من مرة واحدة كل شهر، كما أنها كانت، على الأرجح، تسرقه كلما أرسلها لشراء الحاجيات.

على أية حال، بدأت الحرارة ترتفع شيئاً فشيئاً في الغرفة. التقط جاد صورة للوحة التي يعمل عليها، وهكذا يكون بحوزته شيء ما على الأقل يطلع عليه والده.

نزع بنطاله وكنزته، وتربّع، متدثراً بغطاء، على الفراش الضيق الممدود على الأرض والذي يتخذ منه سريراً. وتدريجياً، أبطأ إيقاع تنفسّه. وتراءت له أمواج تتهادى ببطء وكسل تحت شفق مكفهرّ. وقد حاول اقتياد فكره إلى حيّز هانئ؛ وبذل قُصارى جهده لتحضير نفسه لذلك العشاء الإضافي برفقة والده.

في النهاية آتت تلك التحضيرات المعنوية ثمارها، إذ شكّلت الأمسية مساحة زمن حيادي، حتى أن أجواءها بدت شبه ودية. منذ زمن لم يعد يتأمّل أكثر من ذلك.

نحو السابعة من صباح اليوم التالي توجّه جاد سيراً على الأقدام إلى محطة «رانسي»، مفترضاً أن تكون العصابات أيضاً قد «عيّدت» بدورها، وقفل عائداً بسلام إلى «محطة قطار الشرق».

كانت تلك هي المرة الأولى التي يُصدر فيها السّخان إشارات وهن، منذ أن أجرى عليه التصليحات قبل عام.

وكانت لوحة «المهندس جان بيار مارتان وهو يتخلى عن إدارة شركته» قد أُنجزَت منذ زمن طويل، وأودعَت في المستودع لدى صاحب الغاليري الذي يتعامل معه، بانتظار معرض فردي تأخر تنظيمه. حتى جان بيار مارتان نفسه. على عكس ما توقع إبنه، الذي كان قد امتنع منذ زمن عن التحدث معه بذلك الشأن. كان قد قرّر ترك منزله في «رانسي» والإقامة في مأوى طبي للعجزة، في منطقة بولونيا.

هذه المرة سيكون عشاؤهما السنوي في حانة في جادّة «بوسكيه»، اسمها «*عند بابا*». اختارها جاد من مجلة «*باريسكوب*»(*)، على ذمّة إعلان يعد بمطعم يقدم نوعية تقليدية من المأكولات تحاكي *أيام زمان*. وعدٌ تم الإيفاء به في المجمل.

عشرات من الـ«بابانويلات» ومن أشجار الميلاد المزيّنة نُثرَت في القاعة نصف الممتلئة بمجموعات من المسنّين، بل من الطاعنين في

(*) *Pariscope*: مجلة باريسية تتضمن دليلاً للمطاعم والفنادق وروزنامة للنشاطات الثقافية والفنية في المدينة (المترجمة).

السّن، يمضغون بعناية ووعي، وتقريباً بضراوة، وجباتٍ من المطبخ التقليدي: خنزير برّي، خنّوص(*)، ديك رومي؛ وللتحلية، بالطبع، حلوى الميلاد مُعدَّة على طريقة *أيام زمان*، تقدمةً من المحلّ الذي يعمل نُدُله المهذبون، الممسوحون، بصمت، وكأنهم يعملون في قسم الحرائق الخطيرة. كان جاد يتغابى بعض الشيء، عن سابق تصور وتصميم، وهو يقدّم عشاء مماثلاً لوالده. فذلك الرجل الضامر، الجدّي، بوجهه الطويل والصارم، لم يبدُ في حياته مأخوذاً بملذات المائدة، وفي المرات القليلة التي تناول فيها جاد الطعام معه في الخارج، حين كان يحتاج للقائه بالقرب من مكان عمله، كان والده يختار مطعماً يقدم «السوشي». هو ذاته دائماً.

كان من العبث، ومن المثير للشفقة، أن يحاول إرساء ذائقة طعام مشتركة، لم يعد هنالك من داع لوجودها اليوم، والأرجح أنها لم تكن موجودة إطلاقاً في ما مضى - فلطالما كرهت زوجته، في حياتها، الطبخ.

لكنها عشية الميلاد، وإلا ماذا؟

بعد أن أهمل الوالد مسائل الملبس أصبح يقرأ أقلّ فأقل، ولم يعد يهتم بشيء، على ما يبدو. كان، بحسب مديرة مأوى العجزة، «مندمجاً بشكل معقول»، ما يعني على الأرجح أنه لا يوجّه الكلام لأحد تقريباً.

الآن كان يمضغ بمشقّة وجبته من الخنّوص، وتبدو على وجهه تعابير كما لو أنه يمضغ قطعة من الكاوتشوك تقريباً، لا شيء يشي برغبته في فضّ صمت يطول أكثر فأكثر، في حين كان جاد،

(*) جرو الخنزير (المترجمة).

المضطرب، (لم يكن يجدر به تناول الـ "Gewurz-traminer"(*) مع المحار، وقد أدرك ذلك ما إن طلب الطعام، فالنبيذ الأبيض يبلبل أفكاره دائماً)، يبحث بشدة عن أي شيء قد يصلح نواةً لحديث.

لو كان متزوجاً، لو كان قد حظي بصديقة حميمة، *بأيّ امرأة*، لكانت الأشياء قد اختلفت تماماً. فالنساء يُجدن التعامل مع القضايا العائلية أفضل من الرجال على أية حال، وكأنها ميزتهن الأصلية. حتى في ظلّ الغياب الفعلي لأطفال، تجدهم هنا، بصفة محتملة، في أفق المحادثة. والمسنّون كما هو معروف يهتمون بأحفادهم ويربطون ذلك بمراحل الطبيعة أو بشيء ما. وفي النهاية هناك عاطفة ما تنجح في اختراق رؤوسهم العجوزة. لا ريب في أن الإبن يجسّد موت الأب، ولكن بالنسبة للجد يشكّل الحفيد نوعاً من الانبعاث في ولادة جديدة، أو نوعاً من الثأر، وهو شيء يكون أكثر من كافٍ لتمضية عشاء ميلادي على الأقل. كان جاد يقول لنفسه أحياناً إن عليه استئجار *مرافِقة* لأمسيات الميلاد هذه، وترتيب سيناريو خيالي مصغّر. كان يكفي إخطار الفتاة قبل الموعد بساعتين، ولم يكن والده فضولياً في ما يتعلق بتفاصيل حياة الآخرين، مثلما هم عليه الرجال عموماً لا أكثر.

في البلدان اللاتينية قد تكفي السياسة لسدّ الحاجة إلى التحدث لدى الرجال من متوسطي العمر أو من المتقدمين في السّن، وقد يتم استبدالها أحياناً، لدى الطبقات الإجتماعية الأدنى مستوى، بالرياضة. بالنسبة للأشخاص المتأثرين بالقيم الأنغلوساكسونية يتراجع دور السياسة لحساب الإقتصاد والمال، بينما قد يُقدَّم الأدب موضوعاً مسانداً. في هذا الظرف لم يكن جاد ولا والده يهتمان فعلياً بالاقتصاد

(*) نوع من النبيذ (المترجمة).

ولا بالسياسة. فجان بيار مارتان يوافق بشكل عام على الطريقة التي تدار بها البلاد، ولم تكن لابنه آراء في هذا المجال. وعلى الرغم من ذلك توصّلا، بأسلوب تعويضي مارساه معاً خلال الجلسة، إلى الصمود، عبر استعراض الوزارات واحدة تلو الأخرى، حتى وصول عربة الجبن.

مع الجبن انتعش الوالد قليلاً، وسأل ابنه عن مشاريعه الفنية. للأسف كان جاد، هذه المرة، هو من يوشك أن يثقل الجو، لأنه قطعاً لم يشعر بعمله الأخير «داميان هيرست وجيف كونز يتقاسمان سوق الفن»، فهو يمرّ بمرحلة إبداعية متعثّرة. ثمة قوة كانت تدفعه منذ عام أو عامين وأصبحت في طريقها إلى النفاد، إلى التفتّت، ولكن لِمَ البوح بكل ذلك للوالد؟ فهو لن يستطيع شيئاً، لا هو ولا أيّ أحد آخر، فأمام بوح كهذا لا يملك الناس سوى التعبير عن حزن طفيف. على كلّ حال ليست العلاقات الإنسانية بالشيء الكثير.

«أحضّر لمعرض فردي خلال الربيع»، أعلن أخيراً. «خلاصة الأمر أن هنالك بعض المماطلة في إنجازه. فرانز، صاحب الغاليري الذي أتعامل معه، يريد كاتباً للكتالوج. وهو يفكّر في ويلبيك.

- ميشيل ويلبيك؟

- تعرفه؟» سأل جاد بدهشة. لم يكن قطّ يتخيل أن والده لا يزال يهتم بنتاج ثقافي مهما كان.

«ثمة مكتبة صغيرة في المأوى، قرأت اثنتين من رواياته. هو كاتب جيد على ما يبدو. قراءته ممتعة، ولديه رؤية عادلة نوعاً ما للمجتمع. هل ردّ عليك؟

- كلا، ليس بعد..» كان تفكير جاد قد انطلق بأقصى سرعته. إذا كان ثمة شخص عالق، بكل هذا العمق، في روتين يائس وقاتل،

شخص موغل بكل هذا العمق في الدرب المظلم، في ممرّ *ظلال الموت*، مثل والده، قد لاحظ وجود ويلبيك، فذلك يعني، بالتأكيد، أن هذا الكاتب لديه شيء ما. ثم أدرك أنه أهمل مراسلة ويلبيك عبر البريد الإلكتروني، كما طلب منه فرانز مراراً أن يفعل، لأنه لم يعد يتبقى الكثير من الوقت. فنظراً لمواعيد «آرت بازل» و«فريتزي آرت فير»(*)، كان يجب تنظيم المعرض خلال شهر نيسان/أبريل، أو على الأكثر أيار/مايو، ولم يكن الطلب من ويلبيك كتابة نص للكاتالوج خلال خمسة عشر يوماً بالأمر السهل، فهو كاتب مشهور، مشهور عالمياً حتى، بحسب فرانز على الأقل.

كانت حماسة الوالد قد هبطت، إذ أخذ يمضغ الـ«سانت نكتير»(**) بالفتور ذاته الذي مضغ به الخنّوص. لا شك في أن الشفقة هي التي تجعلنا نفترض وجود نهم متّقد بشكل خاص لدى العجائز، لأننا نتمنى أن نصدّق أنهم لا يزالون يحظون بذلك على الأقل، في حين أنه، في معظم الحالات، تكون ملذات التذوق قد خمدت لديهم بشكل لا رجوع عنه، مثل كل شيء آخر، ولم يتبق لديهم سوى الاضطرابات الهضمية وسرطان البروستات.

على بعد عدة أمتار على يسارهما بدت ثلاث نساء ثمانينيات شاخصات في طبق سلطة الفواكه. ربما تكريماً لأزواجهنّ الراحلين. مدت إحداهن يدها نحو كأس الشامبانيا، ثم ما لبثت أن أعادتها؛ إرتفع صدرها بفعل الجهد الذي بذلته. بعد بضع ثواني أعادت المحاولة فارتجفت يدها على نحو رهيب، وتشنج وجهها بفعل

(*) من أشهر المعارض الفنية عالمياً، يعقدان في سويسرا ولندن (المترجمة).

(**) نوع عريق من الجبن الفرنسي (المترجمة).

التركيز. إمتنع جاد عن التدخل، فلم يكن مطلقاً في موقع يسمح له بالتدخل. النادل نفسه، المتمركز على بعد أمتار قليلة وهو يراقب العملية بقلق، لم يكن في موقع يتيح له التدخل؛ فهذه المرأة بسنّها هذه، هي على تماس مباشر مع الله. ربما كانت أقرب إلى التسعين منها إلى الثمانين.

حتى يكون كل شيء قد تم وفق الأصول، قُدِّمَت التحلية بدورها. وانكب والد جاد باستسلام على حلوى الميلاد التي طلبها. الآن، لم يعد يتبقى الكثير. كان الوقت يمرّ بينهما بغرابة: رغم أن شيئاً لم يكن يقال، وأن الصمت الذي استمر طويلاً وتوطّد حول الطاولة من شأنه أن يكون قد أعطى إحساساً مطلقاً بالثقل، إلا أن الثواني، بل حتى الدقائق، كانت تجري بسرعة مذهلة.

بعد نصف ساعة، ومن دون أن تكون أي فكرة قد خطرت على باله، اصطحب جاد والده إلى محطة التاكسي. كانت الساعة لا تتجاوز العاشرة مساء، لكن جاد يدرك أن النزلاء الآخرين في مأوى العجزة قد أصبحوا الآن يعتبرون والده محظوظاً لأنه حظي بأحد ما، لعدة ساعات، في ليلة الميلاد. «الديك إبن صالح...»، لفتوا انتباهه في مناسبات عديدة.

بعد دخوله مأوى العجزة الطبي، وجد «السنيور» السابق. الذي أصبح، أخيراً، بشكل لا يمكن دحضه، *عجوزاً*. نفسه في موقع التلميذ في مدرسة داخلية. أحياناً يتلقى زيارات: تلك تكون الأوقات المبهجة، التي يستطيع خلالها اكتشاف العالم، وتناول الـ «بيبيتو»(*)،

(*) Pepito: شخصية كارتونية تزين علب الشوكولا والبسكوت يحبها الأطفال (المترجمة).

والتقاء المهرّج «رونالد ماك دونالد»(*). ولكن، في أغلب الأحيان، لا يتلقى أياً منها: عندها، يهيم على وجهه بحزن، بين عواميد كرة اليد، على الأرض الاسفلتية للمأوى المهجور. ينتظر التحرر، الإنعتاق.

عند عودته إلى المرسم لاحظ جاد أن السخان لا يزال يعمل، وكانت الحرارة طبيعية، بل حتى دافئة. خلع ملابسه جزئياً قبل أن يستلقي على فراشه ويغرق سريعاً في النوم، برأس فارغ تماماً.

(*) الشخصية الكرتونية التي تعتمدها سلسلة مطاعم ماك دونالد للوجبات السريعة (المترجمة).

هبّ منتفضاً في وسط الليل، كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة وثلاثة وأربعين دقيقة. حرارة الغرفة دافئة، بل حتى خانقة. كان صوت السخان هو ما أيقظه، إلا أنه لم يكن القرقعات المعتادة، فهذه المرة أصدرت الآلة خرخرة ممتدة، منخفضة، تكاد تكون تحت صوتية. فتح بحركة مفاجئة نافذة المطبخ التي كست قشرة الثلج مضلعاتها. اندفع الهواء الجليدي نحو الغرفة. على مستوى ستة طوابق نحو الأسفل كانت همهمة خنزيرية تعكّر صفو ليلة الميلاد. أغلق النافذة في الحال. من المرجّح جداً أن يكون بعض المشرّدين قد اندسّوا في فناء المبنى؛ فغداً يتاح لهم الاستفادة من تلال بقايا مآدب الميلاد المكوّمة في حاويات القمامة الخاصة بسكان المبنى. لن يجرؤ أحد من المستأجرين في المبنى أن يتصل بالشرطة ليتخلّص منهم. ليس في ليلة ميلاد. كان الأمر ينتهي عموماً بأن تتكفل بهم مستأجرة الطابق الأوّل. امرأة في الستينيات من عمرها، تصبغ شعرها بالحنة، وترتدي كنزات صوفية مرقعة بقطع من الأقمشة فاقعة الألوان، كان جاد يفترض أنها محلّلة نفسية متقاعدة.

لكنه لم يلمحها منذ فترة، لعلها تكون في إجازة. إلا إذا كانت قد ماتت فجأة. يبدو أن المشرّدين سيظلون هنا لعدة أيام، وستملأ

رائحة برازهم الفناء، مانعة السكان من فتح النوافذ. سيبدون مهذبين مع المستأجرين، بل قد يفرطون حتى في المجاملات والتزلّف، لكن مشاجراتهم كانت شرسة، تنتهي عموماً على الشكل التالي: صيحات احتضار ترتفع ليلاً، أحدهم يتصل بجهاز «سامو» "SAMU"(*)، ليجد رجلاً غريباً يسبح بدمائه، وأذنه نصف ممزقة.

إقترب جاد من الجهاز الذي كان قد صمت، رفع بحذر الكوة المفضية إلى المقابض؛ وعلى الفور أصدر الجهاز خرخرة مقتضبة، وكأنه استشعر تهديد الاقتحام. كان ثمة ضوء أصفر، غير مفهوم، يومض بسرعة. ببطء، ميليمتر إثر ميليمتر، حوّل جاد مؤشر الطاقة نحو اليسار. لا يزال يحتفظ برقم الكرواتي، في حال ساءت الأمور؛ ولكن ألا يزال هذا الأخير يعمل؟ لم تكن تبدو عليه نية «التعفن في مهنة السباكة» كما أسرّ لجاد بصراحة يوم لقائهما. طموحه هو أن يعود، بعد أن «يؤمّن آخرته»، إلى بلاده كرواتيا، وتحديداً إلى جزيرة «هفار» حيث يفتتح محلاً لتأجير الـ«سكوتر المائي». بالمناسبة، كان أحد آخر المشاريع التي عمل عليها والده قبل التقاعد يتعلق بمناقصة لإنشاء مارينا فخمة في منطقة «ستاري غراد»، في جزيرة «هفار» التي قد بدأت فعلياً بالتحول إلى وجهة فخمة. فالعام الماضي كان من المحتمل أن تلتقي هناك أنجلينا جولي وشون بين. شعر جاد بخيبة إنسانية قاتمة أمام فكرة أن يترك هذا الرجل السباكة، تلك الحرفة النبيلة، ويتفرّغ لتأجير ماكينات صاخبة وغبية لمدّعين شخّاخين محشوين بالأموال يقطنون شارع «فيزاندري»(**).

(*) خدمة الطوارئ الطبية في فرنسا (المترجمة).

(**) شارع شهير وفخم في باريس، في الدائرة ١٦ (المترجمة).

«ولكن، عمّ نتحدث هنا تحديداً؟» يتساءل موقع جزيرة «هفار» على الإنترنت، قبل أن يجيب بهذه العبارات: «تتناغم هنا حقول الخزامى، وأشجار الزيتون وكروم العنب. على الزائر الراغب بالاقتراب من الطبيعة أن يقصد أولاً حانة «كونوبا هفار» الصغيرة بدل أن يتجه إلى المطعم الأفخم، وسيتذوق النبيذ الطبيعي الحقيقي بدل الشامبانيا، سيغني أغنية شعبية من تراث الجزيرة، وسينسى كل ما يتعلق بالروتين اليومي». لعل ذلك هو ما جذب شون بين. تخيّل جاد الموسم الميت، شهري تشرين / أكتوبر العليلين، والسباك القديم يجلس هانئاً أمام طبق من «الريزوتو» بثمار البحر: من البديهي أن يكون ذلك الخيار مفهوماً، بل حتى مبرراً.

اقترب على مضض من لوحة «داميان هيرست وجيف كونز يتقاسمان سوق الفن»، الملقاة على مسند الرسم الخشبي وسط المحترف، فتملّكه مجدداً شعور بعدم الرضى، مذاقه أكثر مرارة. أدرك أنه جائع، وهو أمر غير طبيعي، فقد تناول وجبة ميلادية كاملة مع والده. مقبلات، أجبان وتحلية، لم ينقصها شيء، لكنه كان جائعاً ويشعر بحرّ شديد، وأصبح عاجزاً عن التنفس. عاد أدراجه إلى المطبخ، فتح علبة من «الكانيلوني» الجاهزة وابتلع اللفافات واحدة تلو الأخرى، مدققاً، بعين كئيبة، في لوحته الفاشلة. قطعاً، لم يكن كونز يبدو خفيفاً بما فيه الكفاية، وجوّياً بما فيه الكفاية. ربما كان يجب رسمه بجناحين، مثل الإله ميركور، فكّر جاد ببلاهة؛ فبمظهره الحالي، بالزي المخطّط وابتسامة التاجر التي تعلو وجهه، يذكّر قليلاً بسيلفيو برلسكوني.

وكونز يحتل المرتبة الثانية عالمياً في تصنيف «آرت برايس» (Art Price) للثروات الفنية الضخمة؛ كان هيرست، الذي يصغره بعشر

سنوات، قد حرمه منذ عدة سنوات من المركز الأول. أما جاد فقد بلغ، منذ عشر سنوات خلت، المركز رقم خمسمئة وثلاثة وثمانين عالمياً، ولكن، السابع عشر في فرنسا. بعدها، كما يقول معلقو «تور دو فرانس»(*)، «تراجعت مرتبته إلى أعماق التصنيفات»، قبل أن يختفي منها نهائياً. أنهى علبة الكانيلوني، واكتشف أن لديه جرعة متبقية من زجاجة الكونياك.

أضاء صف لمبات «الهالوجين» على طاقتها القصوى مصوّباً إياها على وسط اللوحة. في النظرة المقرّبة بدا الليل على غير ما يرام: كان يفتقر إلى تلك الروعة، ذلك الغموض، الذي يرتبط بليالي الجزيرة العربية؛ كان يجدر به استخدام الأزرق السّماوي لا اللازوردي. كان ما ينجزه هو لوحة خرائية بالفعل. تناول سكيناً من أدوات الرسم، وفقأ عين داميان هيرست، ووسّع الثقب بصعوبة. فالقماشة المصنوعة من ليف الكتان المشدود بإحكام قوية المقاومة. وبينما كان يقبض على القماشة اللزجة بيده مزّقها بضربة واحدة، مخلاً بتوازن المسند الذي هوى على الأرض. بعد أن هدأ قليلاً، تأمل يديه الملطختين بالألوان. ورشف آخر ما تبقى في كأس الكونياك ثم قفز برجليه على اللوحة، وأخذ يسحقها ويفركها بالأرض التي أصبحت زلقة. إنتهى به الأمر بأن فقد توازنه ووقع، صادماً مؤخرة رأسه بخشب المسند. تجشأ ثم تقيأ. وللحال شعر بتحسّن. كان هواء الليل المنعش يداعب وجهه، فأغمض عينيه بسعادة. يبدو أنه بلغ نهاية مرحلة.

(*) حدث رياضي سنوي ضخم في فرنسا: سباق بالدراجات الهوائية ينظّم لمدة ثلاثة أسابيع على مساحة تفوق ٣٦٠٠ كلم (المترجمة).

القسم الأول

١

لم يعد جاد يذكر متى بدأ الرسم. لا شك أن الأطفال يرسمون، جميعهم تقريباً، غير أنه لم يكن متأكداً من ذلك، فهو لا يعرف أطفالاً. لكنه واثق من شيء واحد حالياً، وهو أنه بدأ أولاً برسم الزهور - بأقلام تلوين، على دفاتر من القطع الصغير.

فقد كان خلال فترة بعض الظهر من أيام الأربعاء عموماً، والآحاد أحياناً، يعيش لحظات من النشوة، وهو يقضي الوقت وحيداً في الحديقة المشمسة، بينما تتحدث المربية على التلفون مع حبيبها خلال ذلك. كانت فانيسا في الثامنة عشرة من عمرها، طالبة في السنة الأولى من قسم الاقتصاد في جامعة سانت دنيز/ فيلتانوز، وظلت، لوقت طويل، الشاهدة الوحيدة على تجاربه الفنية الأولى. كانت تجد رسوماته جميلة، كما أكدت له دوماً، وبصدق. مع ذلك كانت ترمقه أحياناً بنظرة مرتابة. فالصبيان الصغار يرسمون وحوشاً دموية، ورموزاً نازية وطائرات حربية (أو، بالنسبة للمتقدمين منهم، فرج وقضيب)، ونادراً ما يرسمون الزهور.

كان جاد يجهل، وكذلك فانيسا، أن الزهور ليست، في النهاية، سوى أعضاء تناسلية، مهابل مزركشة بألوان شتّى تزيّن سطح العالم، ومتروكة لشهوانية الحشرات. فالحشرات، والرجال، وهم نوع آخر

من الحيوانات أيضاً، يبدون وكأنهم يلاحقون هدفاً، بتحركاتهم السريعة والموجهة، بينما تقبع الزهور في الضوء، مبهرة وثابتة. جمال الزهور حزين لأن الزهور رقيقة، نُذرَت للموت، مثل كل شيء على الأرض طبعاً، ولكن، بالنسبة لها على وجه الخصوص، كما بالنسبة للحيوانات، تنطوي جثتها على محاكاة تهكمية غريبة لكياناتها الحيوية. فجثتها، كجثث الحيوانات، تصدر رائحة نتنة. كل ذلك يصبح مفهوماً لمن يعيش ولو لمرة واحدة، تعاقب المواسم، وتعفّن الزهور. أمّا جاد فقد أدرك ذلك منذ أن كان في الخامسة من عمره أو حتى قبل ذلك، لأن الحديقة المحيطة بمنزل «رانسي» كانت مليئة بالزهور، وبالأشجار أيضاً، وأغصان الأشجار التي تهزها الرياح كانت ربما أول شيء يراه منذ أن كان في عربة أطفال تجرها امرأة بالغة (والدته؟)، بالإضافة إلى السماء والغيوم. تتجلّى الرغبة في الحياة لدى الحيوانات عبر تحولات سريعة : ترطيب الثقب، صلابة في الجذع، وبعدها، قذف السائل المنوي - لكن ذلك لن يكتشفه سوى لاحقاً، على شرفةٍ ما في «بور غريمو»، على يد مارت تايفير.

أما الرغبة في الحياة لدى الزهور فتتجلى عبر تكوين بقع من الألوان الرائعة التي تكبح الابتذال الأخضر للمنظر الطبيعي، مثل ذلك الجليّ عموماً في المنظر المديني، على الأقل في البلديات المزهرة.

كان والد جاد يعود إلى المنزل مساءً. كان اسمه «جان بيار»، بذلك كان أصدقاؤه ينادونه. أما جاد فيناديه: «بابا». كان والداً عطوفاً، لطالما اعتبره أصدقاؤه ومرؤوسوه كذلك؛ فأن يربّي أرملٌ ما بمفرده طفلاً أمر يتطلّب الكثير من الشجاعة. كان جان بيار والداً عطوفاً خلال السنوات الأولى، لكنه الآن لم يعد كذلك تماماً، أصبح يتكبّد ثمن المزيد من الساعات للمربية، يتناول العشاء خارج المنزل

في الكثير من الأحيان (مع الزبائن في معظم الحالات، مع مرؤوسين لديه أحياناً، ونادراً، على نحو متزايد، مع أصدقاء، لأن زمن الصداقة كان قد بدأ يولّي بالنسبة إليه، لم يعد يصدّق تماماً أن بوسع المرء أن يكون لديه أصدقاء، وأن تقوى علاقة الصداقة تلك فعلاً على التأثير في حياة رجل أو في تغيير قدره). كان يعود إلى المنزل في وقت متأخر، ولا يحاول حتى استدراج المربية إلى فراشه، علماً أن ذلك هو ما يحاول جميع الرجال فعله عادة. يستمع إلى تقرير النهار، يبتسم لإبنه، ويسدّد المبلغ المطلوب. كان ربّ عائلة مفككة لا يعتزم إعادة بنائها بأي شكل من الأشكال. كان يكسب الكثير من المال: مدير عام لشركة بناء، كان قد تخصّص في تنفيذ المنتجعات وتسليمها جاهزة للسكن وأصبح لديه زبائن في البرتغال وجزر المالديف وسانت دومينغ.

من تلك الفترة احتفظ جاد بدفاتر تحوي مجمل رسوماته في حينها. كل ذلك كان يموت بهدوء، على غير عجل (لم يكن الورق من نوعية جيدة، ولا الأقلام). وتلك عملية قد تدوم لقرنين أو ثلاثة بعد، فللكائنات وللأشياء أعمار افتراضية.

من بين تلك الأعمال لوحة منجزة بالغواش، تعود ربما للسنوات الأولى من مراهقة جاد، عنوانها: «مواسم الحصاد في ألمانيا» (لأسباب غامضة، لأن جاد لم يعرف ألمانيا في حينها ولم يحضر، ولا شارك، من باب أولى، في أي عملية من عمليات «الحصاد»). في خلفية المشهد جبال ثلجية البياض، في حين أن الإضاءة تستحضر، بديهياً، عزّ الصيف. ظهر الفلاحون الذين يعبؤون التبن في مذاريهم، مع الحمير التي تقطر العربات، بألوان زاهية متساوية.

كانت تلك اللوحة بجمال لوحة لـ«سيزان»، أو لأي كان. فمسألة الجمال ثانوية في الرسم. لقد جرى اعتبار رسامي الماضي الكبار كباراً حين طوّروا نظرة متماسكة ومبتكرة في الوقت عينه، عن العالم؛ بمعنى أنهم ظلوا يرسمون بالطريقة ذاتها، ويعتمدون الأساليب الإجرائية ذاتها، دومًا، لتحويل أشياء العالم إلى أشياء تصويرية؛ وتلك الطريقة، الخاصة بهم، لم تكن قد استُخدِمَت أبداً من قبل.

كان تقديرهم كرسامين يزداد كلما بدت نظرتهم للعالم أكثر شمولاً، صالحة لتنطبق على جميع الأشياء وعلى جميع المواقف الموجودة أو المتخيّلَة.

كانت تلك هي النظرة الكلاسيكية للرسم، التي أتيح لجاد الإطلاع عليها خلال دراسته الثانوية، والتي ترتكز على مفهوم *التصوير - تصويرٌ* كان على جاد، خلال سنوات عديدة من سيرته المهنية، أن يعود إليه، بشكل غريب، إلى أن أتى عليه، في النهاية، وبشكل أغرب بعد، بالثروة والمجد.

كرّس جاد حياته (المهنية على الأقل، والتي سرعان ما اختلطت بـ *مجمل حياته*) لـ *الفن*، لإنتاج مظاهر العالم التي، مع ذلك، لا يجدر بالبشر أبداً أن يعيشوا فيها. هكذا كان باستطاعته تصوير مظاهر نقدية. نقدية إلى حد ما، لأن الحركة العامة للفن كما لكامل المجتمع، كانت تتجه خلال سنوات شباب جاد تلك، نحو قبول العالم، بحماسة في حين، وبمسحة من التهكم في أغلب الأحيان. أما والده فلم يمتلك مطلقاً حرية الخيار تلك، فقد كان محكوماً بأن ينجز، بطريقة هي قطعاً غير تهكمية، مظاهر صالحة للسكن، معَدّة

ليعيش فيها أشخاص، وليحظوا فيها بإمكانية الإستمتاع، خلال عطلتهم على الأقل. كان مسؤولاً في حال وقوع أي خلل وظيفي خطير في الآلة المسكونة - إذا ما انهار مصعد، أو إذا ما انسدّت مراحيض، مثلاً. لم يكن مسؤولاً في حال هجوم شعب متوحش، عنيف، خارج عن سيطرة الشرطة والسلطات الرسمية؛ وكانت مسؤوليته مخفّفة في حال الزلازل.

أما والد والده فقد كان مصوّراً تضيع أصوله في نوع من المستنقع الاجتماعي غير الجذاب تماماً والراكد منذ أزمنة سحيقة، يحوي في المقام الأول عمالاً زراعيين وفلاحين فقراء. ما الذي دفع بذلك الرجل المتحدّر من بيئة بائسة للتعامل مع التقنيات الوليدة للتصوير الفوتوغرافي؟ لم تكن لجاد أية فكرة عن ذلك. ولا لوالده أيضاً؛ إلا أن ما يعرفه بالتأكيد هو أن جده كان الأول، من بين سلالة طويلة، في الخروج من حلقة إعادة الإنتاج الإجتماعي للشيء ذاته من دون قيد أو شرط.

كسب لقمة عيشه من تصوير الأعراس في معظم الأحيان، والمناولات الدينية الأولى أحياناً، أو احتفالات نهاية العام الدراسي في المدارس الريفية. وخلال حياته في مقاطعة «كروز» المهجورة والمتروكة منذ الأزل لم يحظ تقريباً بفرصة تصوير مناسبات مثل تدشين مبانٍ، أو زيارة سياسيين على الصعيد وطني. كان يُعتبَر، على المستوى الحرفي، دون المتوسط، لا يجني الكثير من المال، ما جعل من وصول ابنه إلى رتبة مهندس ترفعاً اجتماعياً لا يستهان به - من دون الحديث عن نجاحاته اللاحقة كمتعهّد بناء.

عندما التحق جاد بمعهد الفنون الجميلة في باريس كان قد أهمل

الرسم لحساب التصوير. فقبلها بسنتين كان قد اكتشف في علّية منزل جده آلة تصوير كلاسيكية قديمة ماركة «لينهوف ماستر تكنيكا كلاسيك» - لم يعد جده يستخدمها بعد تقاعده، لكنها لا تزال تعمل بشكل ممتاز. انبهر بتلك الآلة الثقيلة، الغريبة، التي تعود إلى ما قبل التاريخ، ولكنها تتميّز بمستوى استثنائي من التصنيع. بعد أن تلمّس طريقه شيئاً فشيئاً أتقن السيطرة على خروج المركز عن الصّدد، والاهتزاز، والـ«شيمفلوغ»(*)، قبل أن يندفع بسرعة نحو ما سيشغل تقريباً مجمل دراساته الفنية: التصوير المنهجي لموادّ العالم المصنّعة.

بدأ يعمل في غرفته، على إضاءة طبيعية عموماً. الملفّات المعلقة، المسدّسات، محبرة الآلة الطابعة، الّشوك: لم ينج شيء من طموحه الموسوعي في تأليف فهرس مصوّر شامل للأجهزة والأدوات التي صنعها الإنسان في العصر الصناعي.

وإذا كان قد استحقّ عن ذلك المشروع ذي الطابع المتكلّف والمبتذل معاً، أي الأحمق بعض الشيء في النهاية، احترام أساتذته، إلا أنه لم يشفع له في الانضمام إلى إحدى المجموعات التي واكب تشكّلها من حوله على أساس طموح جمالي مشترك، أو بتعبير أكثر عاميّة، على أساس تدبير محاولة دخول جماعية إلى سوق الفنّ.

بالرغم من ذلك عقد صداقات، و لو أنها لم تكن مشرقة كثيراً، من دون أن يعي إلى أي مدى ستكون سريعة الزوال. كذلك خاض بعض العلاقات العاطفية، التي لم تدم ولا واحدة منها تقريباً. في اليوم التالي من حصوله على الشهادة أدرك أنه سيكون وحده من الآن فصاعداً. خلال السنوات الست الأخيرة أفضى عمله إلى ما يزيد عن

(*) قانون هندسي في مجال التصوير الفوتوغرافي (المترجمة).

إحدى عشرة ألف صورة بقليل. خزّنها على شكل ملفات "TIFF"، مع نسخة "JPEG" إضافية أقل نقاءً، في قرص مدمج سعته «٦٤٠ Go» من ماركة «ويسترن ديجيتال»، وزنه يزيد قليلاً عن مئتي غرام. رتّب بعناية الكاميرا القديمة، وعدساته (كان يمتلك واحدة من ماركة «رودنشتوك أبوسيرونار» ١٠٥ ملم، تفتح حتى ٦،٥ وأخرى من ماركة «فوجينون» ١٨٠ ملم تفتح أيضاً حتى ٦،٥)، ثم تفرّغ لما تبقى من أغراضه. هنالك الكمبيوتر المحمول، والـ«آي بود» (جهاز صغير يحفظ الموسيقى والمعلومات)، وبعض الملابس، وبعض الكتب: ليس كثيراً، في الحقيقة، فحقيبتان كانتا كافيتين.

كان الطقس المخيّم على باريس جميلاً. لم يكن تعيساً في هذه الغرفة، ولا كان سعيداً جداً. مدة الإيجار تنتهي خلال أسبوع. تردّد في الخروج، في القيام بجولة أخيرة في الحيّ، على ضفاف حوض «الأرسينال»(*). ثم اتصل بوالده ليساعده في نقل أمتعته.

سرعان ما بدا تعايشهما في منزل «رانسي»، للمرة الأولى منذ زمن طويل، في الحقيقة للمرة الأولى منذ طفولة جاد، فيما خلا بعض فترات العطل المدرسية، سهلاً وخاوياً في الوقت عينه. كان والده لا يزال يعمل كثيراً آنذاك، ويمسك بقوة بمقاليد مؤسسته ونادراً ما يعود قبل الساعة التاسعة بل حتى العاشرة مساء؛ وكان يرتمي أمام التلفزيون بينما يسخّن جاد أحد الأطباق المطبوخة مسبقاً التي يكون قد اشتراها منذ عدة أسابيع من متجر كارفور في «أولني سو بوا» وملأ بها صندوق سيارته المرسيديس. كان يحاول التنويع، وتأمين نوع

(*) حوض ترسو فيه البواخر ويشكّل صلة وصل قناة سان مارتان بنهر السين (المترجمة).

من التوازن الغذائي، فيشتري جبناً وفواكه أيضاً. وفي جميع الأحوال قلما كان والده يعير الطعام اهتماماً؛ وكان يتابع تبديل المحطات التلفزيونية ببلادة ليصل عموماً، في النهاية، إلى إحدى النقاشات الإقتصادية المضجرة على المحطة الإخبارية (LCI). ويذهب للنوم تقريباً فور انتهائه من تناول عشائه، وفي الصباح يغادر قبل أن يستيقظ جاد. كانت النهارات جميلة ودافئة بشكل منتظم. وكان جاد يتنزّه بين أشجار الحديقة، ويجلس تحت زيزفونة كبيرة وبيده كتاب فلسفة لا يفتحه عموماً. يستعيد ذكريات من الطفولة، ليست بكثيرة على أية حال؛ ثم يدخل إلى المنزل لمتابعة البث المعاد لـ«تور دو فرانس» (سباق الدراجات في فرنسا). تعجبه اللقطات المسطحة والطويلة والمملة التي تتابع، من الهليكوبتير، كتلة السائقين وهي تتقدم بكسل في الريف الفرنسي.

كانت آن، والدة جاد، تتحدر من عائلة يهودية تنتمي إلى البورجوازية الصغرى - كان والدها صائغاً متواضعاً. تزوجت وهي في الخامسة والعشرين من عمرها جان بيار مارتان، المهندس، وكان زواجاً ناتجاً عن حبّ. بعدها بسنوات أنجبت ولداً، سمّيَ جاد، تيمناً بخاله الذي لطالما أحبته.

وخلال الأيام القليلة التي سبقت عيد ميلاد ابنها السابع انتحرت - لم يعلم جاد بذلك إلا بعد سنوات غير قليلة، عبر زلة لسان طائشة قامت بها جدته لجهة والده. كانت في ذلك الوقت في الأربعين من عمرها - وزوجها في السابعة والأربعين.

لم يكن جاد يحتفظ تقريباً بأية ذكرى عن والدته، ولم يكن انتحارها موضوعاً يستطيع التطرق إليه خلال إقامته في منزل

«رانسي»، فهو يدرك أن عليه الانتظار إلى أن يفتح والده الموضوع بنفسه. كما يدرك أن ذلك، من دون أدنى شك، لن يحصل أبداً، فهو سيظلّ يتفادى هذه المسألة، كما كل المسائل الأخرى، حتى النهاية.

ومع ذلك كانت ثمة نقطة تقتضي التوضيح تكفّل بها الوالد، خلال بعد ظهر أحد الآحاد، بعد أن تابعا معاً مرحلة وجيزة من سباق الدراجات الفردي في منطقة «بوردو» - لم تقدّم أي تبدّل حاسم في التصنيف العام. كانا في المكتبة - الغرفة الأجمل في المنزل إلى حد بعيد، بأرضيتها المكسوة بخشب البلوط، وبالظلال الخفيفة التي تعكسها واجهاتها الزجاجية الملونة، وأثاثها المصنوع من الجلد الإنكليزي. كانت الأرفف المحيطة بالغرفة تضمّ حوالي ستة آلاف مجلّد، أغلبها كتب وأبحاث علمية نُشرَت في القرن التاسع عشر. قبل أربعين عاماً اشترى جان بيار المنزل بسعر جيد جداً، من المالك الذي كان في حاجة ماسة للسيولة. كان الحي آمناً وقتها، ومنطقة سكنية أنيقة، وكان يتوقع حياة عائلية سعيدة. عموماً كان المنزل مجهزاً لإيواء عائلة كبيرة واستقبال الأصدقاء مراراً، ولكن، في النهاية، لم يتحقق أي من ذلك.

عندما ظهر مجدداً على الشاشة وجه ميشال دروكير(*) المبتسم والقابل للتنبؤ، أخفى جان بيار صوت التلفاز، واستدار نحو ابنه. «هل تنوي المتابعة في مستقبل فني؟»، سأله. ردّ جاد بالإيجاب. «وحالياً، لا تستطيع أن تكسب معيشتك؟» غمغم إجابته. فخلال العام الماضي كانت وكالتان للمصوّرين قد اتصلتا به، ما أثار دهشته

(*) مذيع تلفزيوني فرنسي شهير (المترجمة).

شخصياً. الأولى متخصصة في تصوير الأشياء، ولديها زبائن مثل كاتالوج «كاميف» و«لارودوت» (لبيع البضائع بالمراسلة)، كما تبيع صورها أحياناً لوكالات إعلانية. والثانية متخصصة في التصوير المطبخي، غالباً ما تطلب مجلات مثل «نوترتان» "Notre Temps" و«فام أكتويل» "Femme Actuelle" خدماتها. مجالات ليست فقط غير ذات مقام، بل إنها غير مجدية مادياً أيضاً: فالتقاط صورة لدراجة هوائية جبلية أو لطبق تقليدي من البطاطا المخلوطة بالبايكون والجبن يعود بأقل بكثير مما قد يعود به التقاط صورة مشابهة لـ«كايت موس» أو حتى لـ«جورج كلوني». إلا أن الطلب كان مستقراً، وثابتاً، وبالتالي، بإمكانه تأمين مدخول لائق: إذاً، لم يكن جاد، لو رضي بتكبّد العناء، من دون موارد نهائياً، كما أنه كان يعتبر، من ناحية أخرى، أنه من المفيد المحافظة على نوع من الممارسة الفوتوغرافية، المحصورة في عملية التصوير البحتة.

كان يكتفي بتسليم سلسلة الصور التي يلتقطها، مرتبة ومعرّفة على نحو تام، على أن تتفحصها الوكالة، تمسحها وتعدّلها كما تشاء؛ فقد كان يفضّل ألا ينخرط في عملية تنميق الصوّر، التي من المحتمل أن تخضع لاعتبارات تجارية وإعلانية مختلفة، وأن يكتفي بدلاً من ذلك بتسليم اللقطات الممتازة تقنياً، ولكن المحايدة.

«يسرّني أن تكون مستقلاً»، أجابه والده. «لقد عرفت في حياتي بعض النماذج ممن أرادوا أن يصبحوا فنانين، وممن كانوا يعيشون على حساب ذويهم، ولم يفلح أحد منهم. غريب، قد تظن أن الحاجة إلى التعبير عن النفس، وترك أثر في العالم، هي قوة دفع هائلة، غير أنها ليست كافية بوجه عام.

إن المحرّك الأفضل الذي يدفع البشر بشراسة ما بعدها شراسة

لتجاوز أنفسهم يظلّ، من دون قيد أو شرط، هو الحاجة إلى المال.

«مع ذلك، سأساعدك في شراء شقة في باريس»، تابع. «سوف تحتاج لمقابلة أشخاص وللتواصل مع آخرين. ثم نستطيع أن نعتبره استثماراً، فالسوق راكد حالياً».

على شاشة التلفاز، كان يدور مشهد هزلي لم يكد جاد يتعرّف عليه، تبعته لقطة مقرّبة لميشال دروكير فرحاناً جذلاً. فجأة، خطر لجاد أن والده يحتاج ربما، بكل بساطة، أن يبقى وحده. فالعلاقة بينهما لم تكن أبداً قد تعافت بالفعل.

بعد أسبوعين اشترى جاد الشقة التي لا يزال يقطنها الآن، في جادة «لوبيتال»، شمالي الدائرة الثالثة عشرة. كانت معظم الشوارع المجاورة مسماة على أسماء رسامين - «روبنز»، «واتو»، «فيرونيز»، «فيليب دو شامباني» - ما قد نعتبره عند اللزوم فألاً حسناً. ببساطة، لم تكن الشقة بعيدة عن الغاليريهات التي تكاثرت في محيط الحي الذي يحوي «المكتبة الكبيرة جداً»(*). لم يفاوض فعلاً على الثمن، لكنه استفسر، رغم ذلك، عن مسألة الأسعار التي كانت تنهار في جميع أنحاء فرنسا، وتحديداً في المدن، ومع ذلك تظلّ الوحدات السكنية فارغة، من دون أن تجد لها شارياً.

(*) الاسم الذي أطلقته وسائل الإعلام على المكتبة الوطنية الفرنسية، على سبيل السخرية، من تعبير «المكتبة الأكبر والأكثر حداثة في العالم» الذي ورد في الخطاب الرئاسي للرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران عام ١٩٨٨ (المترجمة).

٢

لم تحفظ ذاكرة جاد تقريباً أي صورة لوالدته؛ لكنه رأى صوراً لها بالطبع. كانت امرأة جميلة، بسحنة شاحبة وشعر أسود طويل، بل جميلة بوضوح في بعض الصور، تشبه قليلاً بورتريه «أغاثا فون أستيغفيلت» المحفوظ في متحف «ديجون». في تلك الصور نادراً ما بدت مبتسمة، وحتى ابتسامتها بدت وكأنها تخفي قلقاً.

بطبيعة الحال كانت فكرة انتحارها مؤثرة جدا بالنسبة للجميع؛ ولكن حتى لو تم تجاوز ذلك الاعتبار، كان لا يزال ثمة شيء فيها غير حقيقي تماماً، أو متفلت من الزمن. فقد كان من السّهل تخيلها في لوحة من العصور الوسطى، أو من بدايات عصر النهضة، ولكن بدا من المستبعد، في المقابل، أن تكون قد عاشت مراهقتها في الستينيات من القرن الماضي، وامتلكت *ترانزيستور* أو ارتادت *حفلات الروك*.

في الأعوام الأولى التي تلت موتها، حاول والد جاد متابعة أعمال إبنه المدرسية، والتخطيط لنشاطات يقومان بهَا معاً في عطلة نهاية الأسبوع، في ماك دونالد أو في المتحف. ثم توسعت، بشكل لم يكن من الممكن تفاديه تقريباً، نشاطات مؤسسته؛ حقق عقده

الأول في مجال بناء وتجهيز المنتجعات نجاحاً باهراً. ليس فقط لجهة احترام مواعيد التسليم والبيانات التقديرية للأسعار، وهو، بحد ذاته، أمر نادر نسبياً، بل أيضاً لجهة التنفيذ الذي أشيد به بالإجماع لاتزانه ولاحترامه البيئة - حظي بمقالات كالت له المديح: في الصحافة المحلية المناطقية، وفي المجلات الهندسية الوطنية، وصولاً إلى تخصيص صفحة كاملة عن إنجازاته العقارية في ملحق «ستيل» الذي يصدر عن مجلة «ليبراسيون». في منطقة «بور - أمباريس»، وُصفَ بأنه نجح في الاقتراب من «جوهر السكن المتوسطي». هو يرى أنه لم يقم سوى بصفّ مربعات بأحجام متنوعة، ذات لون أبيض كامد موحّد، مستنسخة مباشرة من العمارة التقليدية المغربية، قبل أن يفصل فيما بينها بأجمّة من الدفلى. ومن بعد ذلك النجاح الأول انهالت الطلبيات، وأصبح مضطراً للسفر أكثر فأكثر. وفي السنة التي ترفّع فيها جاد لصفّ الأول متوسط كان قد قرّر إلحاقه بمدرسة داخلية.

اختار ثانوية «روميي» التي يديرها اليسوعيون في منطقة «لواز». كانت مؤسسة خاصة ولكن ليس من تلك المخصصة للنخبة، فأقساطها معقولة، وتعليمها أحاديّ اللغة، ولا شيء خارق في معداتها الرياضية. لم يكن جمهور ثانوية «روميي» يتألف من فاحشي الثراء وإنما بالأحرى من المحافظين، والبورجوازيين السابقين (كان الكثير من أهالي الطلبة عسكريين أو دبلوماسيين)، ولكن ليس الكاثوليكيين المتعصبين، ورغم ذلك كان الأبناء وفي معظم الحالات ممن أودعوا فيها إثر طلاق فاشل.

كانت المباني رغم قتامتها وبشاعتها تمنح راحة معقولة - بعد أن

يكونوا قد وُزِّعوا على غرف بسريرين وهم في الصفوف الصغرى، يتمتع التلامذة بغرفة منفردة منذ دخولهم صف الرابع متوسط. أما نقطة القوة في تلك المؤسسة والورقة الرابحة الرئيسية في الصيت التي تحظى بها فكانت الدعم التربوي الذي تقدّمه لكل من طلابها - ومعدل النجاح في البكالوريا الذي ظل دائماً، منذ إنشاء المؤسسة في الحقيقة، يفوق ٩٥٪.

بين تلك الجدران، وفي نزهات طويلة شديدة العتمة على دروب الحديقة المظللة بالصنوبر، كان على جاد أن يقضي سنوات مراهقته الحزينة والمجتهدة في التعلم. لم يكن يشتكي من مصيره أو يتخيّل مصيراً آخر. كانت شجارات الطلاب عنيفة أحياناً، وعلاقات الذّل عنيفة وقاسية، ولم يكن جاد، النحيف الرقيق، مؤهّل للدفاع عن نفسه؛ إلا أن الضجة حول كونه يتيماً، ويتيم الأم فوق ذلك، قد انتشرت. وتلك المعاناة قد أحرجت زملائه الذين لا يعرفون طعمها؛ وهكذا تكوّنت حوله هالة من الاحترام المهيب. لم يحظ بصديق مقرَّب، ولم يبحث عن صداقة الآخر. في المقابل، كان يقضي فترات بعد الظهر كاملة في المكتبة. وفي الثامنة عشر من عمره، حين حصل على شهادة البكالوريا، كان قد كوّن معرفة واسعة، استثنائية بالنسبة لشباب جيله، بالإرث الأدبي للإنسانية. قرأ أفلاطون وأشيل وسوفوكليس؛ قرأ راسين وموليير وهوغو؛ وكان يعرف بالزاك وديكنز وفلوبير والرومانسيين الألمان، والروائيين الرّوس. وأكثر ما يذهل هو الألفة التي كوّنها تجاه مبادئ الإيمان الكاثوليكي؛ الذي كانت بصمته في الثقافة الغربية غاية في العمق - في حين كان مجايلوه عموماً يعرفون عن حياة يسوع أقل بقليل مما يعرفون عن حياة شخصية الرجل العنكبوت.

لعلّ ذلك الانطباع الذي يعطيه بوقار عفا عليه الزمن قد لعب دوراً إيجابياً في استمالة اللجنة التي راقبت ملف قبوله في معهد الفنون الجميلة؛ فقد وجدوا أنهم يقعون بوضوح على مرشّح مميز، مثقف وجدي، وعلى الأرجح مجتهد أيضاً. فالملف في ذاته، وهو عنوان «ثلاثمئة صورة لخردوات»، يدلّ على نضوج فني مذهل. ذلك أن جاد الذي يتجنب تسليط الضوء على بريق المعادن وعلى الطابع الخطير للأشكال استخدم إضاءة حيادية، قليلة التباين، وصوّر الأجهزة على خلفية مخملية بلون رمادي معتدل. هكذا بدت الصامولة مسمار التنبيت والمفتاح الإنكليزي، كجواهر ذات بريق خافت.

في المقابل لاقى مشقّة كبيرة (وتلك صعوبة سترافقه طوال حياته)، في تحرير الشروحات التي تذيّل صوره. وبعد عدة محاولات في تبرير موضوعه، التجأ إلى الموضوعية البحتة، إذ اكتفى بالإشارة إلى أن الخرداوات الأكثر بدائية، المصنوعة من الفولاذ، تحظى بدقة تصنيع نسبتها ١٠/١ مليمتر. مع انتمائها أكثر لآليات التصنيع الميكانيكية الدقيقة تُصنَع القطع التي تدخل في تكوين أجهزة التصوير الفوتوغرافي ذات الجودة العالية، أو في محرّكات الفورمولا ١، من الألومينيوم عموماً أو من خليط معدني خفيف، وتصل دقة تصنيعها إلى ١٠٠/١ مليمتر.

في النهاية، يتم في آليات التصنيع الميكانيكية الدقيقة، كما في مجالي صناعة الساعات وجراحة الأسنان، استخدام مادة التيتانيوم؛ وتقاس قدرة الجوانب على الاحتمال بالميكرون(*).

في المجمل، استخلص جاد بطريقة مفاجئة وتقريبية أن تاريخ

(*) وحدة قياس أصغر من المليمتر (المترجمة).

البشرية قد يختلط في جزء كبير منه بتاريخ السيطرة على المعادن - بينما لم تسنح الفرصة بعد لعصر الكيميائيات والبلاستيك الحديث حتى يحدث تحوّل معنوي حقيقي، بحسب رأيه.

بعد ذلك بسنوات، سوف يشير مؤرخون فنيون، أكثر ضلوعاً في تداول اللغة، إلى أن ذلك الإدراك الحقيقي الأول، وما تلاه بعد ذلك من إدراكات، رغم تنوّع دعائمها، تعكس ما لدى الفنان من *تبجيل للعمل البشري*.

هكذا انطلق جاد في مستقبل مهني فني مشروعه الوحيد - الذي لم يدرك سمته المضلّلة إلا لماماً - هو تقديم وصف موضوعي للعالم.

ورغم ثقافته الكلاسيكية، لم يكن أبداً - على عكس ما كُتب كثيراً فيما بعد - مسكوناً باحترام تقيّ للمعلمين القدماء؛ فعلى «رامبرانت» و«فيلاسكيز»، كان يفضّل إلى حدّ كبير، منذ تلك الأيام، «موندريان» و«كلي».

خلال الأشهر الثلاثة الأولى لإقامته في الدائرة ١٣ لم يفعل أي شيء تقريباً، سوى تلبية طلبيات تصوير الخردوات التي تلقاها، والتي كانت كثيرة بالمناسبة.

ذات يوم بينما كان ينزع الغلاف عن قرص صلب متعدد الوسائط من نوع «ويسترن ديجيتال»، كان قد تسلّمه للتو باليد، وعليه أن يلتقط له صوراً من زوايا مختلفة ليوم الغد، أدرك أن قصته مع تصوير الخردوات قد انتهت - على الأقل على المستوى الفني. وكأن تصويره المستمر لتلك الأغراض بهدف مهني بحت وتجاري قد أعاق أي إمكانية لاستخدامها في مشروع إبداعي.

أغرقته تلك البداهة، القاسية بقدر ما هي غير متوقعة. فقد أدركها وهو يمرّ بمرحلة اكتئاب خفيفة الوطأة، تركّزت متعته اليومية الأساسية خلالها على مشاهدة برنامج جوليان لوبير، «أسئلةٌ لبطل».

بمثابرته، وبالطاقة الهائلة على العمل التي يتمتع بها، تحوّل ذلك المذيع، القليل الموهبة في الأساس، الأحمق بعض الشيء، وصاحب وجه الحمل وشهيّته، والذي كان يتجه نوعاً ما في بداياته نحو مهنة مطرب منوعات، ولا يزال من دون شك يحتفظ بنوستالجيا سريّة تجاه ذلك، إلى وجه لا يمكن تجنّبه في المشهد الإعلامي الفرنسي، مع مرور الوقت.

وجد الناس أنفسهم فيه، من طلاب السنة الأولى في معهد «بوليتكنيك» إلى المعلمات المتقاعدات في مقاطعة «با دو كاليه»، ومن الدرّاجين في منطقة «ليموزان» إلى أصحاب المطاعم في منطقة «فار». لم يكن مؤثرا ولا بعيداً، بل يجسّد صورة معتدلة ولطيفة تقريباً عن العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

مع أن جاد كان من أتباع جان بيار فوكو(*)، بإنسانيته، وببساطته المخادعة، فقد كان عليه أن يعترف بأنه قد أصبح يقع أكثر فأكثر تحت تأثير إغواء جوليان لوبير.

في أوائل شهر تشرين الاول/أكتوبر تلقّى مخابرة هاتفية من والده يعلمه فيها، بصوت بطيء، ومغموم شيئاً ما، أكثر مما يكون عليه عادة، أن جدته توفيت. كان يدرك أن جدته لم تنجح في تخطي

(*) مذيع في الراديو والتلفزيون الفرنسيين. يقدم برنامج «من سيربح المليون؟» كما يقدّم حفلات انتخاب ملكة جمال فرنسا (المترجمة).

وفاة زوجها الذي أحبّته بشغف يبدو مذهلاً في تلك البيئة الريفية والفقيرة وغير المؤاتية عموماً للمناجاة الرومانسية التي عاشت وإيّاه فيها. بعد وفاته لم يقو شيء، ولا حتى حفيدها، على انتشالها من دوامة الحزن التي ابتلعتها وجعلتها تتخلى شيئاً فشيئاً عن جميع نشاطاتها، من تربية الأرانب إلى صناعة المربيات، حتى البستنة في نهاية المطاف.

كان على والده أن يتجه منذ صباح الغد إلى منطقة «كروز» لتنظيم مراسم الدفن ثم أمور المنزل، وقضايا الإرث؛ كان يود أن يرافقه ابنه. وفي الحقيقة كان يتمنى أيضاً لو أن باستطاعته البقاء فترة أطول للإهتمام بجميع الشكليات، فهو لديه الكثير من العمل في الشركة. وافق جاد مباشرة.

في اليوم التالي مرّ والده لاصطحابه بسيارته المرسيدس. عند الساعة الحادية عشرة كانا قد أوغلا في أوتوستراد "A20"، أحد أجمل الأوتوسترادات التي تعبر المناظر الريفية الأكثر تناغماً في فرنسا؛ كان الجو صافياً وعذباً، مع غشاوة طفيفة في الأفق.

الثالثة من بعد الظهر توقفا عند محطة قبل منطقة «لا سوترّين» بقليل؛ وبطلب من والده. وبينما كان هذا الأخير يملأ خزان سيارته بالوقود، اشترى جاد خريطة طريق من إصدار «ميشلان محافظات»(*)، خاصة بمنطقة «كروز» و«هوت فيين». هناك، وهو يفتح الخريطة، على بُعد خطوتين من السندويشات المربعة المغلّفة

(*) شركة ميشلان الفرنسية، العملاقة في صناعات الإطارات، هي أول من أصدر في فرنسا الخرائط الطرقية المتميزة بدقتها (المترجمة).

بورق السيلوفان، انكشف له وحيه الفني الكبير الثاني. بدت له تلك الخريطة مذهلة. ولشدة ارتباكه أخذ يرجف أمام رفّ العرض. في حياته لم يتأمل شيئاً بهذه الروعة، يضمّ هذا الكم من الإحساس والمعنى، مثل خريطة ميشلان تلك، المأخوذة على مقياس ١٠٠٠/ ١٥٠ من «كروز»، «هوت فيين».

كانت تندمج فيها خلاصة الحداثة، والإدراك التقني والعلمي للعالم، مع خلاصة الحياة الحيوانية. كان الرسم مركّباً وجميلاً، ذا نقاء مطلق، لا يستخدم سوى رموز محدودة من الألوان. ولكن، في كل واحدة من النجوع والقرى المعروضة بحسب أهميتها، تشعر بنبض وبنداء عشرات الحيوات البشرية، عشرات ومئات الأرواح - بعضها موعودة بعذاب الجحيم، والأخرى بالحياة الأبدية.

كان جثمان جدته المتدثّر بثوب غامق ممدّد في نعش من خشب السنديان، وكانت العينان مقفلتين واليدان مشبوكتين: لم يكن موظفو المراسم ينتظرون أحداً غيرهما حتى يغلقوا الغطاء. تركوهما وحدهما في الغرفة لمدة عشر دقائق. «هذا أفضل لها...» قال والده بعد لحظات من الصمت. نعم، على الأرجح، فكّر جاد. «كانت تؤمن بالله كما تعلم»، أضاف والده بخجل.

في اليوم التالي، خلال قداس الدفن الذي حضره جميع أهالي القرية، ثم أمام الكنيسة، عند تقبلهما التعازي، لاحظ جاد أن قدرة التكيّف مع هذه الظروف تبدو سهلة على والده وعليه. فهما بسحنتيهما الشاحبتين والضجرتين وبزّتيهما الداكنتين، لم يواجها أي صعوبة في التعبير عن الرزانة والحزن اللازمين لمواكبة المصاب؛ حتى أنهما قدّرا الملاحظة التي أبداها الكاهن حول الإيمان الرصين

من دون أن يستطيعا الإلتزام بها - كان كاهناً مسنّاً متمرّساً بدوره في مراسم الدفن، التي تشكّل بالتأكيد، نظراً لمعدلات الحياة المتوسطة لسكان المنطقة، نشاطه الأساسي.

عند العودة إلى المنزل، حيث تم تقديم النبيذ على شرف المرحومة، أدرك جاد أن تلك كانت المرة الأولى التي يحضر فيها دفناً جدياً، *على طريقة أيام زمان*، لا يسعى إلى تجنّب المواجهة مع حقيقة الموت. فقد سبق له أن حضر مراسم ترميد؛ كان آخرها يخصّ أحد زملائه في كلية الفنون قضى في حادث طائرة خلال إجازته في «لومبوك». يومها صدمه سلوك بعض الحاضرين ممن لم يطفئوا أجهزتهم الخلوية خلال إحراق الجثة.

غادر والده فوراً بعد الدفن، إذ كان لديه موعد عمل في اليوم التالي في باريس. وخرج جاد إلى الحديقة بينما كانت الشمس تغيب، والإشارات الخلفية للمرسيدس تبتعد باتجاه الأوتوستراد، عاد للتفكير في جنفييف. ظلاّ عاشقين لعدة سنوات خلال فترة دراسته في كلية الفنون؛ حتى أنها كانت هي الفتاة التي فقد عذريته معها في الحقيقة. كانت جنفييف من مدغشقر، وقد حدثته عن العادة الغريبة في نبش القبور المتّبعة في بلادها. هناك، بعد مرور أسبوع على الوفاة، يستخرجون الجثة من القبر، ويفكون القماش الذي يلفها، ويتناولون وجبة بحضورها، في غرفة الطعام العائلية، قبل أن يدفنوها مجدداً. وبعد مرور شهر على ذلك يعيدون الكرة، ثم بعد ثلاثة أشهر أيضاً. لم يعد يذكر العدد تماماً، لكنه يعتقد أنه لا يقل عن سبع مرات متتالية يكون آخرها بعد مرور عام على الوفاة، عندها يُعتبَر المتوفي ميتاً نهائياً، ويصبح بإمكانه بلوغ الراحة الأبدية. كانت تلك الآلية

المعتمدة في تقبّل الموت وفي التآلف مع الحقيقة الفيزيائية للجثة تعاكس تماماً الحساسية الغربية الحديثة، قال جاد لنفسه. وبشكل عابر ندم لأنه ترك جنفييف تخرج من حياته. كانت رقيقة وهانئة. في تلك المرحلة التي عانى فيها من نوبات الصداع النصفي الرهيبة كانت تلازمه لساعات، من دون أن تشعر بأي ملل وتحضر له الطعام وتأتي له بالشراب والدواء.

في طباعها، كانت *دافئة* نوعاً ما، وعلى المستوى الجنسي علمته كل شيء. أحب جاد رسوماتها، التي تستعير كثيراً من الـ«غرافيتي»، ولكن تتمايز عنها بالطابع الطفولي والمبهج للشخصيات، وأيضاً بشيء ما أكثر استدارة في الخط، وبالألوان التي تستخدمها - الكثير من أحمر الكادميوم، ومن الأصفر الهندي، والمغرة الحمراء الطبيعية أو المحروقة.

كانت جنفييف تسدّد تكاليف الدراسة لكي *تتاجر بجمالها*، كما كانوا يقولون سابقاً؛ وقد وجد جاد أن تلك العبارة التي عفا عليها الزمن توافقه أكثر من التعبير الأنكلوساكسوني: *المرافقة*. كانت تتقاضى مئتي وخمسين يورو في الساعة، يضاف إليها مبلغ مئة يورو في حالة الاختراق الشرجي. لم يجد ما يستدعي ممانعته لذلك النشاط، حتى أنه اقترح أن يلتقط لها بعض الصور الإباحية لتطوير شكل موقعها الإلكتروني.

بقدر ما يشعر الرجل بالغيرة، وأحياناً بالغيرة الرهيبة، من *«العشاق القدامى»* لعشيقته، متسائلاً بقلقٍ طوال سنوات، وأحياناً حتى مماته، إذا ما كانت الأمور قد جرت بشكل *أفضل* مع الآخر، إذا كان الآخر قد أحسن *إمتاعها أكثر* منه، بقدر ما يتقبل بسهولة، من دون أدنى جهد، كل ما يمكن لامرأته أن تكون قد قامت به سابقاً، في

إطار نشاط البغاء. بمجّرد أن يُنظَّم عبر معاملة مالية، يصبح أي نشاط جنسي معذوراً، غير مؤذٍ، وكأن لعنة العمل الأزلية قد نزعت عنه، بطريقة ما، الحرم.

بحسب الشهور، كانت جنفييف تجني بين خمسمئة وألف يورو، من دون أن تكرّس لعملها أكثر من بضع ساعات أسبوعياً. كانت تجعله يستفيد منها بدوره، بغرض لجم أي محاولة في «افتعال المشاكل» قد يقوم بها. هكذا قضيا معاً، على نفقتها الكاملة، عدة إجازات في «إيل موريس» أو في «المالديف». كانت غايةً في التلقائية ومفعمة بالحيوية والمرح لدرجة أنه لم يشعر يوماً بأي انزعاج لم يشعر أبداً، ولا مرة، أنه بمثابة *قوّاد*.

في المقابل، غمره حزن حقيقي يوم أخبرته أنها ستنتقل للإقامة مع أحد زبائنها الدائمين - وهو محامٍ تجاري في الثلاثين من عمره، تشبه حياته، بحسب ما نقلته لجاد، جملة وتفصيلاً، حياة المحامين التجاريين الذين يظهرون في الأفلام المثيرة التي تتناول المحامين التجاريين - وهي أفلام أميركية عموماً.

كان يعرف أنها ستفي بوعدها، وأنها ستكون وفية لزوجها. وخلاصة القول أنه، في اللحظة التي خطا فيها، للمرة الأخيرة، خارج الأستديو حيث كانت تقطن، عرف أنه لن يراها مجدداً. وقد مرّت خمسة عشر عاماً منذ ذلك الحين. من المرجح أن زوجها رجل راضٍ عن نفسه، وأنها ربة منزل سعيدة، وأن أطفالها، كان متأكداً من ذلك من دون أن يعرفهم، مهذبون وحسنو التربية، وينالون نتائج ممتازة في دراستهم.

هل إن مدخول زوجها، المحامي التجاري، يفوق، حالياً، مدخول جاد كفنان؟ تلك مسألة كان يصعب جزمها، لكنها كانت

الوحيدة ربما التي تستحق أن تطرح. «أنت خُلقتَ لتكون فناناً، رغبتك بذلك عميقة...» قالت له في آخر لقاء بينهما. «صحيح أنك تبدو صغيراً ونحيلاً وطفولياً، لكنك تمتلك الإرادة الكافية لإنجاز شيء ما، لديك طموح هائل كان أول ما لمحته في نظرتك. أما أنا، فأقوم بذلك فقط... (أشارت بحركة متملصة ودائرية إلى فحمياتها المعلقة على الجدار)، أقوم بذلك فقط كي أتسلى».

إحتفظ جاد ببعض رسومات جنفييف، وظل يجد فيها قيمة حقيقية. ربما هكذا يجب أن يكون الفن، كان يقول أحياناً لنفسه، نشاط بريء ومبهج، حيواني تقريباً. أصلاً، ثمة آراء طُرحَت في هذا السياق «حيوان مثل رسام حقيقي»، «هو يرسم كما يغني العصفور»، إلخ... ربما يصبح الفن كذلك بعد أن يتخطى الإنسان مسألة الموت، أو لعله كان كذلك في مراحل تاريخية معينة. لقد كان كذلك لدى فرا أنجيليكو على سبيل المثال، ذلك الفنان الشديد القرب من الجنة، والمفعم بفكرة أن إقامته على الأرض ليست سوى مرحلة تمهيدية مؤقتة وضبابية تسبق الحياة الأبدية إلى جانب ربّه يسوع. *والآن أنا معكم، في كل يوم، حتى نهاية العالم.*

في اليوم الذي تلا الدفن تلقى جاد زيارة الكاتب العدل. لم يتحادثا هو ووالده بشأن ذلك، وأدرك أنهما لم يتطرقا لذلك الموضوع لا من قريب ولا من بعيد - رغم أنه الدافع الأساسي لبقائه - ولكن سرعان ما بدا له قرارعدم بيع المنزل بديهياً، حتى أنه لم يشعر أنه بحاجة للاتصال بوالده لمناقشة الموضوع معه. كان يحسّ دوماً أنه بحال جيدة وهو في ذلك المنزل، وحتى في هذه المرة أحسّ أنه بحال جيدة فور وصوله مباشرة، فهو مكان يصلح للعيش. كان يعجبه ذلك التجاور العشوائي بين الجزء المرمم، بجدرانه

المكسوة بطلاء عازل من اللون الأبيض، والجزء القديم، بجدرانه المصنوعة من حجارة تبدو الفواصل بينها غير متساوية. كان يحب الباب الصّفاق، الذي يستحيل إغلاقه بشكل محكم، والمفضي إلى شارع «غيريه»، ويحب الموقد الضخم في المطبخ، الذي من الممكن تغذيته بالخشب والفحم، وبالطبع بأي نوع من الوقود. في ذلك المنزل كانت تسوّل له نفسه التفكير في أشياء مثل الحب. حب الزوجين المتبادل الذي يضفي على الجدران نوعاً من الحرارة المشعّة، حرارة رقيقة تنتقل للسكان المستقبليين فتمنحهم سكينة الروح. في هذا السياق كان ليؤمن بالأشباح أو بأي شيء.

على أية حال لم يكن الكاتب العدل ليشجّعه على البيع، على عكس ما كان ليفعل قبل ذلك بسنتين أو ثلاث سنوات فقط، كما اعترف له. ففي حينها كان المضاربون الإنكليز، المضاربون الشباب/العجائز المتقاعدون، بعد أن استثمروا في منطقة «لا دوردوني»، قد توسعوا، منطقة إثر منطقة، باتجاه «بوردوليه» و«الهضبة الوسطى»، وتقدموا بسرعة مستندين إلى المواقع المكتسبة فحاصروا منطقة «ليموزان» الوسطى. كان وصولهم في القريب العاجل إلى منطقة «كروز»، وارتفاع الأسعار الملازم له، متوقعاً.

لكن هبوط بورصة لندن، وأزمة *الرهن العقاري* ، وانهيار قيم المضاربة قد غيّرت المعطيات: عوضاً عن التفكير في تأثيث سكنٍ ساحرٍ، كان المضاربون الإنكليز، الشباب/العجائز، يلاقون صعوبة في تسديد كمبيالات منازلهم في «كينسنغتون»، بل إنهم كانوا يفكرون أكثر فأكثر في *إعادة البيع*. خلاصة الأمر أن الأسعار كانت قد هبطت كلّياً، بكل ما في الكلمة من معنى.

حاليا، كان يجب، بحسب تشخيص الكاتب العدل على الأقل،

انتظار ظهور طبقة جديدة من الأغنياء، تكون ثرواتهم أكثر تماسكاً، إذ ترتكز على إنتاج صناعي؛ قد تكون تلك الطبقة من الصينيين، أو من الفيتناميين، ما أدراه هو، ولكن، مهما يكن، يبدو له أن الأفضل حالياً هو الانتظار، والحفاظ على المنزل كما هو، مع القيام ربما ببعض التحسينات الوفية دائماً للتقاليد الحرفية المحلية. في المقابل، لم يكن من الضروري القيام بتحسينات فخمة مثل حفر بركة سباحة أو تركيب جاكوزي أو مدّ وصلة إنترنت سريعة؛ فحديثي النعمة يفضلون دائماً أن يتعهدوا المنزل بأنفسهم بعد شرائه. كان جازماً تماماً في هذه النقطة، فالخبرة هي من تتحدث، وهو رجل قد راكم أربعين سنة من العمل في هذا المجال.

حين عاد والده لاصطحابه في نهاية الأسبوع كان كل شيء قد رُتّب. فُرزَت الممتلكات ونظّمَت، كما وُزّعَت الهبات الصغيرة التي نصّت عليها الوصية على الجيران. وانتابهما إحساس بأن والدة الأول، وجدة الثاني، تستطيع الآن أن ترقد بسلام، كما يقال. استرخى جاد في المقعد الجلدي من ماركة «نابا» بينما دنت الـ «كلاس س» (موديل سيارة المرسيديس) من مدخل الأوتوستراد مصدرةً أزيز متعة ميكانيكية. وطوال ساعتين عبرا، بسرعة معتدلة، منظراً طبيعياً ذا مسحة لونية خريفية. لم يتحدثا كثيراً، إلا أن انطباعاً تكوّن لدى جاد بأن نوعاً من الانسجام قد حلّ بينهما، هو نوعٌ من الاتفاق على الطريقة العامة في تناول الحياة. مع اقترابهما من محوّل الطرقات عند «ميلان سانتر» أدرك أنه قد عاش، خلال ذلك الأسبوع، فسحة زمنية هانئة.

٣

لطالما تم تقديم أعمال جاد مارتان على أنها ناتجة عن تفكير منفصل وبارد في حالة العالم، كما تم التعامل معه وكأنه وريث كبار الفنانين المفهوميين من القرن المنصرم. غير أن شراءه لجميع خرائط ميشلان التي استطاع العثور عليها - وقد فاق عددها المئة والخمسين بقليل - فور عودته إلى باريس، كان في سياق نوبة هستيريا عصبية. وسرعان ما لاحظ أن الأكثر إمتاعاً هي تلك التي تغطي جزءاً كبيراً من أوروبا وتنتمي لمجموعات «ميشلان مناطق»، وتلك التي تقتصر على فرنسا في إطار «ميشلان محافظات»، خصوصاً. وفي خطوة أدار فيها ظهره للتصوير الفوتوغرافي التقليدي الكيميائي، الذي كان قد زاوله حصرياً حتى ذلك الحين، اشترى قارئ صورة رقمي (dos numerique) من نوع "Betterlight 6000-HS"، يحفظ الصورة على شكل ملفات 48 bits RGB، بحجم ٦٠٠٠ × ٨٠٠٠ بيكسل وألحقه بالكاميرا الكلاسيكية.

طوال ستة أشهر نادراً ما خرج من منزله، باستثناء نزهة يومية كان يقوم بها حتى سوبرماركت «كازينو» في جادة «فانسانت أوريول». وعلاقاته بزملائه في الفنون الجميلة كانت أصلاً قليلة خلال

سنوات الدراسة الجامعية تراجعت إلى أن اختفت تماماً. لذلك فوجئ في مطلع شهر آذار/ مارس حين تلقى على بريده الإلكتروني رسالة تدعوه للمشاركة في المعرض الجماعي، *كما سنسميه إذا أردنا أن* نكون مؤدبين، الذي تنظمه مؤسسة «ريكار» خلال شهر أيار/ مايو. مع ذلك ردّ برسالة وافق فيها على المشاركة، من دون أن يعي أن انفصاله الصريح تقريباً عن محيطه هو، على وجه التحديد، خلق حوله جوا من الغموض، وأن الكثيرين من زملائه القدامى يرغبون بأن يعرفوا *ما حل* به بعد كل ذلك الوقت.

صباح يوم الافتتاح أدرك أنه لم يكن قد نطق حرفا واحداً منذ حوالي شهر، باستثناء الـ«كلا» التي يرددها يومياً لعاملة الصندوق (صحيح أنها نادراً ما تكون هي ذاتها) بعد أن تسأله إن كان يمتلك بطاقة «نادي كازينو». رغم ذلك اتجه، في الموعد المحدد، نحو شارع «بواسي دانغلا». كان هناك حوالي مئة شخص ربما، فهو لم ينجح يوماً في تقدير هكذا أمور. على أية حال كان المدعوون بالعشرات، وفي البدء، انتابه قلق حين لاحظ أنه لا يعرف أحداً منهم. خاف لوهلة من أن يكون قد أخطأ بالموعد أو بالعنوان، إلا أن صوره كانت هنا، معلقة على الجدار المضاء على نحو ملائم. بعد أن جلب لنفسه كأساً من الويسكي، قام لعدة مرات بجولة في الغرفة، بحسب مسار بيضاوي، متظاهراً بطريقة أو بأخرى باستغراقه في تأملاته في حين أن دماغه كان عاجزاً عن صياغة أي فكرة باستثناء ذهوله، رغم كل شيء، من أن تكون صورة زملائه القدامى قد اختفت لهذه الدرجة من ذاكرته، وانمحت جذرياً، ما يستدعي تكهنات حول ما إذا كان ينتمي للنوع البشري. كان ليتعرّف إلى

جنفييف على الأقل، نعم، كان متأكداً من أنه كان ليتعرف إلى عشيقته القديمة، ذلك كان يقيناً يستطيع التمسك به.

عند انتهاء جولته الثالثة لفتته امرأة شابة وقفت تحدق في صوره بكثير من الانتباه. كان من الصعب عدم ملاحظتها: لا لأنها كانت، إلى حد بعيد، أجمل امرأة في تلك الأمسية، بل لأنها كانت أجمل امرأة رآها في حياته. بسحنتها الشاحبة جداً، لدرجة الشفافية، وشعرها الأشقر البلاتيني، ووجنتيها الناتئتين، كانت تطابق تماماً صورة الجمال السلافي كما عمّمتها وكالات عرض الأزياء والمجلات، بعد سقوط الإتحاد السوفياتي. خلال جولته التالية لم تكن هنا. لكنه عاد ولمحها من جديد وهو في منتصف دورته السادسة تقف مبتسمةً وبيدها قدح من الشامبانيا، وسط مجموعة صغيرة. كان الرجال يلتهمونها بأعينهم باشتهاء لا يحاولون حتى إخفاءه؛ كان نصف فكّ أحدهم قد ارتخى أمامها.

حين عاد ومرّ أمام صوره، كانت هناك مجدداً، وحدها في الوقت الحالي. انتابته نوبة تردد ثانية، تهرّب منها ووقف بثبات، بدوره، أمام الصورة، متفحصاً إياها وهو يومئ برأسه.

إستدارت نحوه، ونظرت إليه ملياً لثوان قبل أن تسأل: «أنت الفنان؟»

- نعم.

نظرت إليه مجدداً، بتمعّن أكثر، لمدة خمس ثوان على الأقل، قبل أن تردف قائلة: «أجد هذا غاية في الجمال».

قالت ذلك ببساطة، وبهدوء، ولكن باقتناع تام. ومع عجزه عن الاهتداء إلى إجابة مناسبة، أدار جاد نظره نحو الصورة. عليه أن

يعترف، في الحقيقة، أنه كان سعيداً بنفسه نوعاً ما. فقد اختار للمعرض جزءاً من خريطة ميشلان الخاصة بمنطقة «كروز»، تبدو فيه قرية جدته. لاتخاذ اللقطة كان قد استعمل محوراً منحنياً جدا، بارتفاع ثلاثين درجة أفقية، ضابطاً الميزان على أقصاه بهدف الحصول على عمق كبير لمجال الصورة. ثم، بعد ذلك، أضاف التشويش الناتج عن المسافة، والمظهر المزرقّ في الأفق، مستخدماً مبدأ طبقات الفوتوشوب. عند المستوى البياني الأول، ظهرت بحيرة «بروي» وقرية «شاتلو لو مارشيه». وراءها بقليل، بدت الطرقات المتعرجة في الغابة الممتدة بين قرى «سانت غوسو» و«لورپير» و«جابريل لي بور» كمنطقة من الأحلام، فاتنة ومنيعة. في العمق، وعلى يسار الصورة، يتبين الشريط الأبيض والأحمر للأوتوستراد ٢٠ بوضوح، وكأنه طافٍ على بقعة من الغشاوة.

- هل تلتقط غالباً صور الخرائط الطرقية؟

- نعم... نعم، غالباً ما أفعل.

- دائماً ميشلان؟

- نعم.

فكرت لثوان قبل أن تسأله:

- ألديك صورٌ كثيرة من هذا النوع؟

- أكثر من ثمانمئة بقليل.

عندها، حدقت فيه، بذهول حقيقي، لعشرين ثانية على الأقل، قبل أن تتابع:

- علينا أن نتحادث بهذا الشأن. علينا أن نلتقي للتحدث بهذا الشأن. قد يفاجئك ذلك، لكنني... أعمل لدى ميشلان.

ثم أخرجت من حقيبة «برادا» صغيرة بطاقة تعريف ناولته إياها

فتأمّلها بحماقة قبل أن يضعها في جيبه: أولغا شيريمويوفا، قسم العلاقات العامة، ميشلان فرنسا.

اتصل بها صباح اليوم التالي؛ فاقترحت عليه أن يتناولا العشاء معاً في الليلة ذاتها.

«لا أتعشى كثيراً...» اعترض. «أقصد، ليس كثيراً في المطاعم. أعتقد حتى أنني لا أعرف أي مطعم في باريس.

- أنا أعرف الكثير منها» أجابت بحزم. «أستطيع حتى أن أقول... إنها مهنتي تقريباً.»

التقيا «لدى أنتوني وجورج»، وهو مطعم صغير لا يحوي أكثر من عشر طاولات في شارع «أراس». كل شيء في القاعة، من أدوات المائدة إلى الأثاث، قد جرى ترميمه وتلميعه لدى تجار الآثار، ويشكّل خليطاً أنيقاً ومتبايناً من القطع المقلدة للأثاث الفرنسي في القرن الثامن عشر، ومن التحف العائدة لحقبة «الفن الجديد» (Art Nouveau)، ومن أدوات المائدة والخزف الإنكليزية. كان يشغل جميع الطاولات سياح، صينيون وأميركيون خصوصاً - بالإضافة إلى طاولة احتلها روسيون. جرى استقبال أولغا كزبونة دائمة من قبل جورج، النحيف، الأصلع، المقلق بشكل غامض، وصاحب هيئة تحاكي قليلاً هيئة مثليٍّ قديم من محبي ارتداء الملابس الجلدية. أما أنطوني، في المطبخ، فقد كان دباً من دون إفراط - على الأرجح أنه ينتبه لأكله، رغم أن قائمة الطعام التي يقترحها وصديقه تفشي هوساً حقيقياً بكبد الإوز المدهن (foie gras). صنّفهما جاد كثنائي مثليّ نصف - حداثي، حريص على تجنب الشّطط وقلة الذوق المرتبطين عادة بالجماعة التي ينتمون إليها، رغم تفلّتٍ قد يبديانه من

حين لآخر. عند وصول أولغا، سألها جورج: «هل آخذ المعطف حبيبتي؟» مشدداً على حبيبتي بنبرة غاية في الدلع. كانت ترتدي معطفاً من الفرو، خيارغريب بالنسبة للطقس، ولكن جاد اكتشف تحته تنورة قصيرة جداً وبلوزة من الساتان الأبيض منحسرة عن الرقبة والكتفين، مرصعة ببلورات «شواروفسكي»؛ بدت رائعة فعلاً.

«كيف حالك يا حلوتي؟» سألها أنطوني، المتدثر بمئزر المطبخ، وهو يتبختر أمام طاولتهما. «أتحبين الدجاج مع جراد البحر؟ وصلنا البعض منه اليوم من «ليموزان»، عظيم، عظيم تماماً. - مرحباً أستاذ» أضاف متوجهاً بالحديث إلى جاد.

«هل أعجبك المكان؟» سألت أولغا جاد ما إن ابتعد أنطوني.

- «أنا... نعم. نموذجي. أقصد أنه يعطي انطباعاً بأنه نموذجي، ولكن لا أعرف تماماً عن ماذا على وجه التحديد. هل هو مدرج في الدليل؟»، شعر أن ذلك هو السؤال الذي يجب طرحه.

«ليس بعد. ستتم إضافته على طبعة العام المقبل. ورد مقال عنه في "*Conde Nast Traveller*" (مجلة متخصصة بقضايا السياحة والسفر)، وفي مجلة "*Elle*" الصينية».

إذا كانت أولغا تعمل في الوقت الحالي في مكاتب ميشلان الباريسية فقد كانت، فعلياً، منتدبة من قبل *الشركة المالية* ميشلان، ومركزها الأساسي في سويسرا. ففي محاولة منطقية نوعاً ما غرضها التنويع لجأت الشركة خلال الفترة الأخيرة للقيام بمساهمات مهمة في سلسلة «*فنادق وقصور*» *(relais et chateaux)*، و«*اللمسة الفرنسية*» *(French touch)* خصوصاً، التي راجت جداً منذ عدة سنوات. مع محافظتها، لأسباب مهنية، على استقلالية صارمة في ما يتعلق بتحرير

الأدلة المتنوعة التي تصدرها. فقد أدركت الشركة سريعاً أنه، في المجمل، إلى حد ما، لم يعد بوسع الفرنسيين تحمل نفقات إجازة في فرنسا، وعلى أي حال وبالتأكيد ليس في الفنادق التي تقترحها تلك السلاسل. فقد أظهر استبيان وزعَ في «*اللمسة الفرنسية*» العام الماضي أنه يمكن تقسيم ٧٥ بالمئة من الزبائن على بلدان ثلاثة: الصين والهند وروسيا. نسبة مئوية ترتفع لـ٩٠ بالمئة بالنسبة لمؤسسات «المساكن الاستثنائية»، الأكثر فخامة في المجموعة. وقد تم توظيف أولغا بغرض تكييف المنشورات مع توقعات تلك الشرائح من الزبائن.

أضافت: لا تشكّل الرعاية الفنية، في مجال الفن المعاصر، عنصراً من عناصر الثقافة التقليدية لميشلان. الشركة المتعددة الجنسيات، التي تأسّست في كليرمونت. فيران في الأساس، والتي لا تكاد تخلو لجنتها الإدارية أبداً من متحدرٍ ما لأحد المؤسسين، تحظى بصيت مؤسسة محافظة إلى حد ما، أو حتى أبوية. مشروعها بافتتاح مساحة ميشلان المخصصة للفن المعاصر في باريس يواجه صعوبة بالغة في المرور من بين أيدي مجلس الإدارة، بينما سيترجم، وكانت متأكدة من ذلك، برفع رصيد صورة الشركة في روسيا والصين.

«هل أزعجك؟» قاطعت نفسها فجأة. «عذراً، لا أتحدث إلا في الأعمال في حين أنك فنان...

- أبداً» أجاب جاد بصدق. «أبداً، فأنا مبهور. أنظري، لم ألمس حتى كبد الإوز في طبقي...»

كان منبهراً في الحقيقة، ولكن على الأرجح بعينيها، بحركة شفتيها حين تتكلم. كانت تضع أحمر شفاه لونه زهري فاتح، صدفي قليلاً، يتناسب جداً وعينيها.

ثم نظرا إلى بعضهما البعض، بصمت، لثوانٍ، وتبدد أي شك لدى جاد: نظرتها الغارقة في نظرته كانت في الواقع نظرة رغبة. ومن خلال تعابيره، علمت سريعاً أنه يعرف ذلك.

«باختصار...» استأنفت أولغا، مرتبكة بعض الشيء، «باختصار، بالنسبة لي، من غير المتوقع، ولا في الأحلام، مصادفة فنان يتخذ من خرائط ميشلان موضوعاً لأعماله الفنية.

- ولكن، أتعرفين، أجدها جميلة، فعلاً تلك الخرائط.

- هذا واضح. هذا واضح في صورك.»

هكذا كانت دعوتها لزيارة منزله بهدف إطلاعها على لقطات أخرى اتخذها من أسهل ما يكون. رغم ذلك اعتراه ضيق عندما دخل التاكسي شارع «غوبلان».

«أخاف أن تكون الشقة غير مرتبة بعض الشيء..» قال.

طبعاً، أجابت بأنه ليس هناك من مشكلة، ولكن تفاقم انزعاجه وهما يصعدان الدرج، وحين فتح الباب، رمقها بنظرة خاطفة: فقد جفلت، بغضّ النظر عن أي شيء. غير مرتبة بدت حقاً كناية لغوية ملطفة. حول الطاولة المثلثة القوائم، التي وضع عليها كاميرا لينهوف، غطّت الأرضية صورٌ مطبوعة، تراكمت فوق بعضها لأكثر من طبقةٍ واحدة في بعض الأماكن، وكان هناك الآلاف منها ربما، بينما لم يبق سوى ممر ضيق للعبور بين الطاولة والفراش الممدود على الأرض مباشرة.

لم تكن الشقة غير مرتبة فحسب، بل إنها كانت قذرة أيضاً: كانت الملاءات ذات لون أسمر تقريباً، ملطخة ببقع عضوية.

«نعم، هي شقة صبي...» قالت أولغا بخفة، ثم تقدمت في

الغرفة قبل أن تنحني لتأمل إحدى الصور المطبوعة، فانحسرت تنورتها إلى حد بعيد عن فخذيها. كانت ساقاها طويلتان ونحيفتان بشكل غير معقول. كيف يعقل أن يملك أحدا ساقان بهذا الطول وبهذه النحافة؟ لم يحظ جاد في حياته بانتصاب كهذا، كان ذلك مؤلم، كان يرتجف في مكانه شاعراً أنه على وشك أن يفقد وعيه قريباً.

«أنا...» قال بصوت غريب عنه، متنافر. استدارت أولغا ولاحظت أن الأمر جدي، تعرّفت فوراً إلى تلك النظرة العمياء، إلى توتر الرجل الذي لم يعد يستطع تحمل المزيد من الرغبة، تقدمت نحوه بضع خطوات، أحاطته بجسدها المثير، وقبلته ملء فمه.

٤

على أية حال، كان الأجدى بهما أن يقصدا منزلها. بالطبع، كان ذلك شيئاً آخر تماماً: شقة ساحرة بغرفتين، في شارع «غينيمير» المفضي إلى حدائق اللوكسمبورغ. كانت أولغا من أولئك الروسيين الرائعين الذين تعلموا، خلال سنوات تحصيلهم العلمي والمهني، النظر بعين الإعجاب إلى صورة معينة من فرنسا - الذوق، فن الطبخ، الأدب وما إلى هنالك - ثم أصابتهم بعد ذلك، وبانتظام، الخيبة من واقع أن البلد الحقيقي هو أبعد ما يكون عن توقعاتهم.

غالباً ما نعتقد أن الروس قد أنجزوا الثورة الكبيرة التي أتاحت لهم التخلص من الشيوعية لهدف وحيد هو استهلاك طعام ماك دونالد ومشاهدة أفلام توم كروز؛ هذا صحيح إلى حد ما، ولكن، لدى أقلية منهم، كانت هناك أيضاً رغبة بتذوق الـ«بويي فويسيه»(*)، أو بزيارة «سانت شابيل»(**). بمستوى دراستها وثقافتها العامة، كانت أولغا تنتمي لتلك النخبة. والدها، عالم الإحياء في جامعة موسكو، متخصصٌ في الحشرات - حتى أن إحدى أنواع الحشرات الحرشفية

(*) نبيذ فرنسي أبيض فاخر (المترجمة).

(**) كنيسة باريسية تمثل ذروة التألق في الهندسة القوطية (المترجمة).

الأجنحة في سيبيريا تحمل اسمه. لم يستفد، لا هو ولا عائلته، من عملية السلخ الكبيرة التي دارت لحظة انهيار الإمبراطورية؛ كذلك، لم يغرق هو وإياها في البؤس، فالجامعة التي يدرّس فيها احتفظت بأرصدة لائقة، ومع مرور عدة سنوات من الإضطراب والغموض، كانت الأسرة قد استقرت عند مستوى معقول، في *الطبقة الوسطى* - ولكن، إذا كانت أولغا تستطيع الإسراف في باريس، واستئجار شقة بغرفتين في شارع «غوينمير»، وارتداء ملابس غالية الثمن، فهي تدين بذلك حصرياً للراتب الذي تتقاضاه من ميشلان.

ما إن أصبحا عشيقين، حتى رسا بينهما سريعاً نوعٌ من الإيقاع. صباحاً، يغادر جاد شقته معها في نفس الوقت. بينما تركب سيارتها الـ«ميني كوبر» قاصدة مكان عملها في جادة «غراند أرميه»، يستقل هو المترو للحاق بمحترفه في بولفار «لوبيتال». أما مساء، فيعود قبلها بقليل بشكل عام.

كانا يخرجان كثيراً. منذ وصولها قبل عامين إلى باريس، لم تلاق أولغا أية صعوبة في نسج شبكة كثيفة جداً من العلاقات الاجتماعية. نوع عملها كان يقودها لمخالطة الصحافة والإعلام - للأمانة، في قطاعين غير لامعين تماماً إلى حد ما، هما أخبار السياحة وفن الطعام. ولكن، في جميع الأحوال، كانت فتاة بجمالها لتدخل إلى أي مكان، وكانت لتُقبَل في أي وسطٍ كان. حتى أنه كان من المدهش حين التقت جاد ألا تكون قد حظيت بعشيق مكرّس؛ ومن المدهش أكثر أنها اختارته هو. بالتأكيد كان صبياً وسيماً، ولكن من النوع النحيف والقصير غير المطلوب في العادة من قبل النساء - فقد كانت صورة الوحش الفحل *المضمون في الفراش* قد عادت بقوة خلال السنوات الأخيرة، وهو أمر، في الحقيقة، كان أكثر من مجرد

تبدل في الموضة. كان ذلك يمثّل العودة إلى *أساسيات* الطبيعة، إلى الانجذاب الجنسي في مظهره الأكثر بدائية والأكثر توحشاً، بنفس الطريقة التي انتهى فيها عصر عارضات الأزياء المصابات بمرض فقدان الشهية، حتى لم يعد يهتم بالنساء الممتلئات بوفرة سوى بعض الأفارقة والمنحرفين. في جميع المجالات، من بعد تقلبات مختلفة لم تكن أصلاً ذات حجم كبير، كانت بداية الألفية الثالثة تستعيد الافتتان بنموذج بسيط، سبق اختباره: جمال ظاهر في الكمال لدى المرأة، وفي القوة الجسدية لدى الرجل.

أيضاً، لم يكن في سيرته الفنية ما يبهر - ولنكن صريحين، هو لم يكن حتى *فناناً*، فهو حتى الآن، لم يعرض أعماله بعد، ولم يحظ بمقالة تتحدث عن عمله، وتشرح أهميته للعالم. كان، في ذلك الوقت، مجهولاً تقريباً بالنسبة للجميع. نعم، كان خيار أولغا مفاجئاً، وكان جاد حتماً ليتفاجأ لو سمحت له طبيعته بأن يتفاجأ بهذا النوع من الأشياء، أو حتى بملاحظتها.

على أية حال، كانت الدعوات التي تلقاها في غضون أسابيع قليلة إلى معارض تشكيلية، وعروض أولى وكوكتيلات أدبية، تفوق ما تلقاه من دعوات طوال سنوات دراسته في الفنون الجميلة. استوعب سريعاً السلوك المناسب. ليس من الضروري أن يكون لامعاً بشكل إلزامي، بل في أغلب الأحيان، كان عدم النطق بشيء هو الأفضل حتى. ولكن ما لاغنى عنه هو الاستماع إلى من يحادثه، الاستماع إليه بجدية وتأثر، وإنعاش المحادثة من وقت إلى آخر بـ«حقاً؟» مهمتها إبداء الاهتمام والمفاجأ، أو بـ«طبعاً. . .» مصبوغة بالموافقة المتفهمة. فوق ذلك، كان قصر قامة جاد يسهّل عليه اتخاذ وضعية خاضعة يحبها عموماً العاملون في المجال الثقافي - مثلهم

مثل أي أحد آخر، في الحقيقة. في المجمل، كان وسطاً يسهل الدخول إليه، مثل جميع الأوساط من دون شك، وقد ساهم حياد جاد المهذب، وتحفّظه حول أعماله الفنية الخاصة، إلى حد بعيد، في خدمته، إذ أعطى انطباعاً يؤكده سلوكه بأننا أمام فنان جدي، فنان يعمل بحق.

وهو يطفو بين الآخرين بقلة اهتمام مهذبة، كان جاد يعتنق، قليلاً، من دون أن يدرك ذلك، سلوك *الخفة* الذي صنع نجاح أندي وورهول في أيامه، تشوبه مسحة من الجدية - سرعان ما كانت تفسّر كجدية أحد مهتم، جدية *مواطن* - ستصبح ضرورية بعد ذلك بخمسين عاماً. ذات مساء تشريني تم تقديمه حتى للشهير فريديريك بايبدير، الذي كان آنذاك في أوج مجده الإعلامي.

رمق الكاتب والصحفي، من بعد أن أطال قبلاته لأولغا (ولكن، بشكل استعراضي، مسرحي لدرجة أنها بدت بريئة أمام وضوح نية *اللعب*)، جاد بنظرة ملؤها الحيرة، قبل أن تخطفه ممثلة بورنو أصدرت لتوها كتاب مقابلات مع متدين من التيبيت. كان بايبدير وهو يومئ برأسه بانتظام لحديث النجمة الإباحية السابقة يرمق جاد بطرف عينه وكأنه يستدعيه لئلا يفلت في الحشد الذي كلما ازداد كثافة نقص عدد قطع البسكوت.

كان مؤلف كتاب "au secours pardon" بمظهره المفرط في النحول يتباهى في ذلك الوقت بلحية غير مشذبة، في نية واضحة منه للتشبه ببطل رواية روسية.

في النهاية تلقف الفتاة شاب ضخم مفلطح بعض الشيء، نصف مدهن، ذو شعر نصف طويل، ونظرة نصف ذكية نصف حمقاء، يبدو أنه يتولى مسؤوليات تحريرية لدى دار نشر «غراسيه»، ما أتاح

لبايبدير التحرر. كانت أولغا على بعد عدة أمتار، محاطة بغيمتها المعتادة من المعجبين الرجال.

«إذا، أنت هو الشاب؟» قال لجاد أخيراً، ناظراً، بحدة مقلقة، مباشرة إلى عينيه – هنا، كان فعلاً يشبه بطل رواية روسية من نوعية «رازوميخين، طالب سابق». بدا الأمر ملتبساً، كان بريق عينيه يدين من دون شك للكوكاكيين أكثر مما يدين للورع الديني، ولكن، هل هناك فرق؟ تساءل جاد. «أنت هو من حظي بها؟» سأل بايبدير مجدداً بحدة متزايدة. لم يعرف جاد ماذا يقول، فلاذ بالصمت.

«هل تعرف أنك مع إحدى أجمل خمس نساء في باريس؟» كانت نبرته قد عادت لتصبح جدية ومهنية، وكان جلياً أنه يعرف الأربع الأخريات. على هذا أيضاً، لم يجد جاد شيئاً يجيب به. وبم نجيب، عموماً، على استجوابات البشر؟

تنهد بايبدير وفجأة بدا متعباً جداً، فتوقع جاد أن تعود المحادثة لتصبح سهلة، وأن يتسنى له، كالعادة، أن يستمع إلى الطرائف والتصورات التي يسردها محدّثه وأن يوافق عليها ضمناً؛ ولكن أياً من ذلك لم يحدث. كان بايبدير مهتماً به، ويريد معرفة المزيد عنه. بدا ذلك بحد ذاته عجيباً، فبايدبير هو من أكثر المشاهير الذين يتم تملقهم في باريس، حتى الحاضرون بدوا مدهوشين، يتلفتون نحوهما ويستنتجون الخلاصات على الأرجح.

حاول جاد التملص بدايةً عبر قوله إنه يمارس التصوير الفوتوغرافي، لكن بايبدير أراد معرفة المزيد: *أي نوع من التصوير؟* تركته الإجابة مذهولاً: فهو يعرف مصوري الإعلانات، مصوري الموضة، وحتى بعض مصوري الحروب (رغم أنه قابلهم في سياق مختلف هو ملاحقة المشاهير وتصويرهم (paparazzi) التي

يمارسونها نوعاً ما في الخفاء، لأنه عموماً، في *المهنة*، يعدُّ تصوير نهدي باميلا أندرسون أقل نبلاً من تصوير الأشلاء المبعثرة لانتحاري لبناني، علماً أن العدسة المستخدمة تكون هي ذاتها عموماً والمتطلبات التقنية متشابهة تقريباً - فمن الصعب تجنب ارتجاف اليد لحظة الإفلات التلقائي، والفتحات القصوى لا تتأقلم سوى مع إضاءة قوية في الأساس، تلك هي المشاكل التي تتم مواجهتها مع الشبحية المسافية التصويرية ذات القدرة التكبيرية العالية-. ولكن، مصور خرائط طرقية، كلا، كان ذلك جديد عليه. بعد أن شوّشه السؤال قليلاً، أجاب جاد أن نعم، بمعنى ما، قد يُعتبَر *فناناً*.

«ها ها هاااااا! . . . . . .» انفجر الكاتب بضحكة مبالَغ فيها، مثيراً انتباه عشرات الأشخاص، من ضمنهم أولغا، الذين التفتوا نحوهما. «طبعاً، أكيد، يجب أن يكون المرء *فناناً*! الأدب، كخطة، اندثر! لمضاجعة أكثر النساء جمالاً اليوم يجب أن يكون المرء *فناناً*! أنا أيضاً أريد أن أصبح ف- *نا* - *نا*!»

وبطريقة مفاجئة، بعد أن فتح ذراعيه على وسعهما، أخذ ينشد بصوت عالٍ، وتقريباً بالشكل الصحيح، ذلك المقطع من أغنية «*شجون رجل الأعمال*» للمطربة الكندية سيلين ديون (les blues du businessman, Celine Dion):

لوددت أن أكون فناناً
لديّ العالم لأعيد صياغته
حتى أستطيع أن أكون فوضوياً
وأن أعيش كمليونيرا . . .

كان كأس الفودكا يرتجف بين يديه. وكانت نصف الصالة قد استدارت نحوهما في تلك اللحظة. خفض ذراعيه، وأردف بصوت مرتبك: «كلمات لوك بلامودون، ألحان ميشيل بيرجيه» وانفجر بالبكاء.

«تمت الأمور بشكل جيد مع فريديريك...» قالت له أولغا خلال عودتهما سيراً، وهما يجوبان بولفار سان جرمان. «نعم...» أجاب جاد محتاراً.

من بين قراءاته خلال سنوات المراهقة، في ثانوية الآباء اليسوعيين التي ارتادها، كان هناك روايات واقعية من القرن التاسع عشر الفرنسي حدث فيها أن حققت شخصيات شباب طموحين نجاحاً *من خلال نساء*؛ لكنه شعر بالمفاجأة لوجوده في ظرف مماثل، والحق يقال، كان قد نسي تقريباً تلك الروايات الواقعية من القرن التاسع عشر الفرنسي، ومنذ عدة سنوات لم يعد يحتمل قراءة أي شيء ما عدا روايات أغاتا كريستي، التي تتناول هيركول بوارو. في ظلّ الظروف الحالية، لم يكن ذلك ليساعد في شيء.

في النهاية، كانت عملية إطلاقه في عالم الفن قد تمّت. وبسهولة تقريباً أقنعت أولغا مديرها بتنظيم معرض جاد الأول، في أحد العقارات التي تملكها الشركة في شارع بروتوي. زار المكان فوجده واسعاً لكنه كئيب بعض الشيء، جدرانه وأرضه مصنوعة من الإسمنت الرمادي. بدا له ذلك التقشف، إلى حد ما، جيداً. لم يقترح أية تعديلات، طالباً فقط تركيب لوح إضافي كبير في المدخل. في المقابل، أعطى تعليمات غاية في الدقة بالنسبة للإضاءة، وواظب على المرور كل أسبوع للتأكد من أنها تُتبع بالحرف.

حُدد موعد الإفتتاح في ٢٨ كانون الثاني/يناير، بحركة ذكية - فذلك يمنح النقاد وقتاً ليعودوا من إجازاتهم الشتوية، وليرتبوا خطط عملهم. كانت الميزانية المخصصة لبوفيه الطعام ملائمة جداً. كانت المفاجأة الكبيرة الأولى لجاد هي المسؤولة الإعلامية: كان وهو الزاخر بالأفكار المسبقة يتخيل دائماً المسؤولين الإعلاميين ك *صواريخ*، ففوجئ حين وجد نفسه أمام شيء منمنم عليل، هزيل وتقريباً أحدب، اسمه، للأسف، مارلين، كانت بالإضافة لكل ذلك مصابة على الأرجح بخلل عصبي - قضت طوال مدة لقائهما الأول وهي تعقف شعرها الأسود الطويل والمنسدل بقلق، صانعة منه عقداً عصية على الفك، قبل أن تنزع الخصلة بحركة عصبية فجائية حادة. كان أنفها يسيل باستمرار، وفي حقيبة يدها ذات الحجم الضخم وكأنها مقطف كانت تحمل حوالي خمسة عشر علبة من المحارم الورقية - توازي معدّل استهلاكها اليومي تقريباً. تقابلا في مكتب أولغا. كان من المزعج رؤيتهما جنباً إلى جنب: تلك المخلوقة الفخمة، ذات الاستدارات المرغوبة إلى ما لا نهاية، وشبه المرأة البائسة الصغيرة تلك، ذات المهبل غير المُستكشَف بعد؛ حتى أن جاد تساءل للحظة ما إذا كانت أولغا قد اختارتها لقبحها، تجنباً لأية منافسة أنثوية. ولكن لا، حتماً لا، فهي مدركة تماماً لجمالها الخاص، وهي أيضاً أكثر موضوعية من أن تشعر أنها في موقع تنافس أو تبارٍ حين يكون الأمر لا يهدّد هيمنتها بشكل موضوعي - وذلك لم يحصل أبداً في حياتها الفعلية، ولو أنه صادف في بعض الأحيان أن حسدت كايت موس على وجنتيها أو ناعومي كامبل على مؤخرتها، لكن ذلك كان للحظات عابرة، خلال عرض للأزياء أعادت قناة M6 بثه. إذا كانت أولغا قد اختارت مارلين، فذلك لأن هذه الأخيرة

كانت تحظى بصيت ممتاز كمسؤولة إعلامية، الأحسن من دون شك في مجال الفن المعاصر - على الأقل في السوق الفرنسي.

«أنا سعيدة جداً لأنني سأعمل على هذا المشروع...» أعلنت مارلين بصوت نائح. «سعيدة جداً.»

كانت أولغا تتكوم على نفسها حتى تحاذي طولها، فشعرت بضيق شديد وانتهت بأن أرشدتهما إلى غرفة صغيرة للاجتماعات محاذية لمكتبها. «سأترككما للعمل...» قالت، قبل أن تختفي بارتياح. أخرجت مارلين مفكرة بحجم ٢١ × ٢٩,٧ وعلبتي محارم ورقية قبل أن تستأنف الكلام قائلة:

« بداية، قمت بدراسة الجغرافيا. ثم تفرعت نحو الجغرافيا الإنسانية. والآن أنا في الأمور الإنسانية فقط. يعني إذا ما استطعنا تسمية ذلك بالكائنات البشرية...» قالت محاولة تلطيف ما قالته.

أرادت أن تعلم إذا ما كانت لديه مرجعية إعلامية مفضلة في مجال الصحافة المكتوبة. لم يكن ذلك هو الحال؛ في الواقع، لا يذكر جاد أنه اشترى، طوال حياته، أي صحيفة أو مجلة. كان يحب التلفاز، خصوصاً عند الصباح، فهو يتيح القيام بجولة مهدئة للأعصاب يتنقل خلالها من الرسوم المتحركة إلى أخبار البورصة. أحياناً، حين كان يهتم تحديداً بموضوعٍ معيّن، كان يقصد الإنترنت، لكنه كان يستغرب بقاء الصحافة المكتوبة على قيد الحياة، فهي محكومة على الأرجح بالموت على المدى القصير، كما أن أهميتها تغيب عن باله تماماً.

«حسناً...» علّقت مارلين بتحفظ. «إذاً، أعتقد أن لديّ تفويضاً مطلقاً نوعاً ما».

٥

بالفعل، حظيت بتفويض مطلق، وبذلت قصارى جهدها في استخدامه. حين دخلا القاعة في شارع بروتوي ليلة الإفتتاح، أصيبت أولغا بصدمة. «هناك ناس...» قالت في النهاية، منبهرة. «نعم، جاء ناس» أكدت مارلين برضى أصمّ بدا، بشكل غير متوقع، مشوباً بنوع من الضغينة. كانوا حوالي مئة شخص، ولكن ما أرادت قوله هو أن من بينهم أشخاصاً مهمين، ولكن من أين لهما أن يعرفا ذلك؟ فالشخص الوحيد الذي يعرفه جاد بالشكل هو باتريك فوريستييه، المدير المباشر لأولغا في الترتيب الإدراي الهرمي، ومدير الاتصالات في «ميشلان فرنسا»، خريج معهد «البوليتكنيك» المنتمي إلى ذلك النوع الرائج والذي قضى ثلاث ساعات وهو يحاول أن يبدو بـ مظهر فني، مستعرضاً جميع ثيابه، قبل أن يعتمد إحدى بزّاته الرمادية المعتادة - ارتداها من دون ربطة عنق.

كان مدخل القاعة مسدوداً بلوحة كبيرة، يحيط بها من الجانبين ممران يبلغ عرض كل منهما مترين، ألصق جاد عليها، جنباً إلى جنب، صورة بالقمر الصناعي لنواحي منطقة «بالون غيبفيلير»، وصورة مكبرة لخريطة «ميشلان محافظات» خاصة بالمنطقة ذاتها. كان التباين فاقعاً: بينما لم تظهر الصورة المأخوذة بالقمر الصناعي

سوى جداول خضراء متطابقة تقريباً، ملطخة ببقع زرقاء مبهمة، أظهرت الخريطة زخرفة شجرية خلاّبة للمناطق، للطرق الممتعة، ولمختلف *زوايا النظر*، وللغابات والبحيرات والممرات الجبلية. وتحت الصورتين المكبرتين ظهر، بالخط العريض، عنوان المعرض: **«الخريطة هي أكثر إثارة للاهتمام من الأرض»**.

داخل القاعة، وعلى حاملات متحركة كبيرة، علّق جاد ثلاثين صورة فوتوغرافية مكبّرة - جميعها مأخوذ من خرائط «ميشلان محافظات»، ولكن مختارة بحسب المناطق الجغرافية الأكثر تنوعاً، بدءاً من الجبل العالي على ساحل إقليم «بروتاني»، مروراً بالمناطق المشجّرة في الـ«مانش»، وصولاً إلى سهول الحبوب في «لور إي لوار». توقفت مارلين، وهي لا تزال محاطة بأولغا وجاد، على العتبة وراحت تتأمل في حشد الصحافيين، والشخصيات المهمة والنقاد كما يتأمل حيوان كاسر قطيعاً من الظباء خرج ليشرب.

«بيبيتا بورغينيون هنا»، قالت أخيراً باستهزاء ناشف.

- بورغينيون؟ استفسر جاد.

- الناقدة الفنية في *«لوموند»*(*).

كان على وشك أن يردد بغباء: «ناقدة في العالم؟» قبل أن يتذكر أنها تتحدث عن جريدة مسائية، فقرر أن يصمت، قدر ما يستطيع، خلال ما تبقى من الأمسية. وبعد افتراقه عن مارلين لم يجد أي صعوبة في التجول بهدوء بين صوره، من دون أن يتعرف أيّ كان إلى *الفنان* الذي فيه، ومن دون حتى أن يحاول التنصت على تعليقات

(*) صحيفة فرنسية، والتعبير يعني العالم بالعربية (المترجمة).

الحاضرين. ومقارنة بحفلات افتتاح أخرى بدا له الهرج والمرج، إلى حد ما، أقل حيوية؛ كما بدا الجو مركّزاً، جامعاً تقريباً، ما يشكّل، على الأرجح، مؤشراً جيداً. كان باتريك فوريستييه الوحيد من حيص إظهار نفسه كضيف متحمس: كان بيده قدح من الشامبانيا وهو يدور حول نفسه بهدف توسيع حلقة مستمعيه، مهنئاً نفسه بصخب على «انتهاء سوء التفاهم بين ميشلان وعالم الفن».

بعدها بثلاثة أيام دخلت مارلين بسرعة إلى قاعة الاجتماعات حيث كان جاد يجلس، بقرب مكتب أولغا، في انتظار ردود الأفعال. أخرجت من مقطفها علبة محارم ورقية وعدد اليوم من جريدة «لوموند».

«ألم تقرأها؟» صرخت، بما قد يعتبَر، بالنسبة إليها، مستوى ما فوق حماسي.

«إذا، حسناً فعلت بأن قدمت.»

كان المقال، الذي وقّعه باتريك كيشيشيان - وهو عبارة عن صفحة كاملة تحوي صورة ملونة للصورة التي التقطها لخريطة «دوردوني، لو» - جياشاً بالإطراءات.

منذ السطور الأولى يشبّه الكاتب زاوية النظر في الخريطة - أو في الصورة التي تم التقاطها بالقمر الصناعي - بزاوية نظر الله. «بهدوئه العميق الذي يشبه هدوء الثوار الكبار»، كتب الناقد، «يبتعد الفنان - وهو شاب يافع - منذ العمل الافتتاحي الذي يمنحنا من خلاله جواز الدخول إلى عالمه - عن تلك النظرة الطبيعية والوثنية الجديدة التي يحاول معاصرونا من خلالها، جاهدين، العثور على صورة الغيب. ليس من دون دماغ جسور، يعتمد وجهة نظر إله

مشارك، إلى جانب الإنسان، في إعادة إنشاء العالم.» بعد ذلك يتحدث مطولاً عن الأعمال، مظهراً معرفة مدهشة بتقنيات التصوير، قبل أن يختتم: «بين الاتحاد المتصوف بالعالم واللاهوت العقلاني اختار جاد مارتان. الأول ربما في الفن الغربي، منذ النهضويين الكبار، الذي يفضّل، على الإغواءات الليلية لأحد مثل «هايلدغارد دو بنغن»(*)، التفسيرات الصعبة والواضحة للإكويني(**)، أو «الثور الأبكم»، كما اعتاد زملاؤه في جامعة كولونيا أن ينادوه. وحتى ولو كان ذلك الخيار قابلاً للنقاش بطبيعة الحال، إلا أن مستوى الرؤى التي ينطوي عليها هي تكاد لا تكون كذلك. إنه عام فني يبدأ بفأل واعد.»

«ما يقوله ليس غبياً...» علّق جاد. نظرت إليه بحنق. «إنه لشيء هائل، هذا المقال!» أجابت بحدة. «حسناً، من المفاجئ أن يكون كيشيشيان هو من فعلها، فعادة هو لا يهتم سوى بالكتب. كما أن بيبيتا بورغينيون هي من حضرت...» ارتبكت لعدة ثوانٍ قبل أن تختم بحزم: «في النهاية، أفضّل صفحة كاملة من كيشيشيان على تعليق وجيز من بورغينيون».

- والآن، ماذا سيحدث؟

- ستنهال. المقالات ستنهال، أكثر فأكثر.

إحتفلا بالحدث في الليلة ذاتها *لدى أنطوني* وجورج. «يتحدثون

(*) فيلسوفة وملحنة وكاتبة كنسية من القرون الوسطى (المترجمة).
(**) القديس المطوّب سانت توماس داكان، أحد كبار المعلمين الكنسيين في الفلسفة المدرسية واللاهوت الكاثوليكي (المترجمة).

كثيراً عنكم..»، أسرّ له جورج وهو يساعد أولغا على نزع معطفها. المطاعم تحبّ المشاهير، وتتابع باهتمام بالغ أخبار الثقافة والمجتمع، وتدرك أن وجود المشاهير فيها قد يشكل قوة جذب حقيقية لشريحة تبحث عن اجتذابها في المقام الأول، هي شريحة فاحشي الثراء؛ وفي المقابل يحبّ المشاهير، عموماً، المطاعم. هو نوع من التكافل، ذاك الذي يقوم، طبيعياً، بين المطاعم والمشاهير.

من دون صعوبة، اعتمد جاد، بوصفه مشهوراً صغيراً، سلوكية الفكاك المتواضعة التي تناسب وضعه الجديد، ما حيّاه جورج، الخبير في طبقة المشاهير المتوسطين، بنظرة متفهمة.

لم يكن هناك الكثير من الرواد في ذلك المساء، بل مجرّد زوجين كوريين لم يلبثا أن غادرا. اختارت أولغا حساء غاسباتشو بالجرجير أتبعته بوجبة من الكركند نصف المطهو مع هريس البطاطا، بينما اختار جاد صينية من صدف سانت جاك ملوّح على النار إلى جانب سوفليه سمك الترس بالكمون، يكسوها مزيج إجاص الشتاء. خلال التحلية انضم أنطوني إليهما، مزنّراً بمئزره، وملوّحاً بزجاجة كاستاريد ١٩٠٥ من إنتاج منطقة أرمانياك السفلى. «تقدمة المطعم...» قال لاهثاً قبل أن يملأ كأسيهما. بحسب دليل «روتنشتاين وباولز»، ذلك خمرٌ يأسر بغنى مذاقه، بنبله وخلطته. شراب الختام، الخوخ بالخمر المعتق، كان نموذج البراندي القديم، ذي المذاق الطويل في الفم، الذي ينتهي بنفحة من الجلد العتيق. كان أنطوني قد سمن قليلاً منذ زيارتهما الأخيرة، لا مفر من ذلك بطبيعة الحال، فإفراز التيستوسترون ينخفض مع تقدم السن، بينما ترتفع معدلات الكتل الدهنية، كان يدنو من السّن الحرجة.

استنشقت أولغا طويلاً، بتلذّذ، رائحة الكحول، قبل أن تبلّ

شفتيها بالمشروب، كانت متكيفة بشكل رائع في فرنسا، حتى أنه ليصعب تصديق أنها قضت طفولتها في أحد المساكن الشعبية في ضاحية موسكو.

«لماذا يصادف أن يكون جميع الطباخين»، قالت بعدما رشفت الجرعة الأولى، «أقصد الطباخين المشهورين، لماذا يصادف أن يكونوا جميعهم تقريباً من المثليين؟»

- هاااا. . . !» تمدد أنطوني بتلذذ على كرسيّه، وهو يجول على صالة مطعمه بنظرة مبتهجة. «هنا يا عزيزتي يكمن *الـ* سرّ الكبير، لأن المثليين لطالما ع - ش - قوا المطبخ، منذ البداية، ولكن *أحداً* لم يتحدث عن ذلك، لا *أحد* نهائياً. ما لعب دوراً مهماً، باعتقادي، هو النجوم الثلاثة التي حاز عليها فرانك بيشون. أن يتوصل طباخ متحول جنسياً إلى انتزاع ثلاثة نجوم في دليل «ميشلان»، فتلك فعلاً إشارة قوية! . . .»

تناول جرعة وبدا كأنه غاص في الماضي. «ثم، بالطبع!» استأنف بحيوية هائلة، «بالطبع، ما أثار كل شيء، القنبلة النووية، كان إعلان مذيع التلفزيون جان بيار بيرنو عن مثليته!

- نعم، بالتاكيد كان خروج جان بيار بيرنو إلى العلن شنيعاً. . .» وافق جورج على مضض. «ولكن أتعرف، طوني. . .» أكمل بنبرة هامسة مجادلة، «في الحقيقة، لم يكن المجتمع هو من يرفض الطباخين المثليين، بل إن المثليين أنفسهم هم من لم يكونوا يتقبلون أن يكونوا طباخين. خذنا نحن كمثال، لم نحظ بمقال واحد في مجلة «*تيتو*»(*)، لا شيء. كانت «*الوباريسيان*» الأولى في تناول

(*) *Têtu* المجلة الأولى الخاصة بالمثليين والسحاقيات (المترجمة).

المطعم على صفحاتها. في الوسط المثلي التقليدي لم يكن العمل في المطبخ من مفردات التألق. بالنسبة إليهم كان هذا يعتبر سلوكاً *تقليدياً تافهاً*، هكذا بالضبط، *تقليدياً تافهاً!*» حدس جاد فجأة بأن الضغينة الواضحة التي يحتفظ بها جورج تمسّ أيضاً الكتل الدهنية المتنامية لأنطوني، وبأنه قد بدأ بدوره يتحسّر على ماضٍ غامض، يرتبط بالملابس *الجلدية والسلاسل*، ويعود لحقبة ما قبل المطبخ. خلاصة الأمر أنه كان من الأفضل تغيير الموضوع. نتيجة لذلك استأنف ببراعة الحديث عن إعلان جان بيار بيرنو عن هويته الجنسية. موضوع هائل من دون شك. حتى هو، كمشاهد، هزّته يومها عبارته: «نعم، هذا صحيح، أحب دافيد» التي نطق بها مباشرة على الهواء أمام عدسات محطة فرانس ٢. بنظره، ستظلّ تلك هي إحدى اللحظات التي لا يمكن تجاهلها من الحقبة التلفزيونية لعام ٢٠١٠، وهو طرح سرعان ما حظي بإجماع الحاضرين. قام أنطوني بدورة سكبٍ جديدة من زجاجة أرمانياك السفلى. «أنا أعرّف نفسي، قبل أي شيء، كمشاهد!» أطلق جاد باندفاع انصهاري كلّفه نظرة ذهول من أولغا.

٦

بعد شهر من ذلك دخلت مارلين إلى المكتب ومقطفها محمّلٌ أكثر من العادة. وبعد أن تمخّطت على ثلاث دفعات وضعت أمام جاد ملفاً ضخماً ممسوكاً بحلقات مطاطية.

«هذه هي المقالات الصحافية..» قالت، بينما لم يبد عليه أي ردّ فعل. ثم سأل «كيف هي؟».

«ممتازة. لدينا الجميع.» لم تكن تبدو عليها بهجة عارمة. تحت هيئتها المزكومة، كانت تلك المرأة الصغيرة محاربة، أخصائية في *عمليات الكوماندو* : ما كان يهزّها هو أن تطلق الحراك، أن تظفر بمقالها الكبير الأول؛ ثم، من بعد أن تسير العجلة وحدها، كانت تقع مجدداً في بلادتها المثيرة للغثيان. خفت صوتها أكثر فأكثر، وبصعوبة سمعها جاد تضيف: «هناك فقط بيبيتا بورغينيون التي لم تفعل شيئاً.»

«حسناً...» اختتمت بحزن، «كان من الجيد التعامل معك.

- ألن نلتقي مجدداً؟

- إذا ما احتجت إليّ بلى، أكيد. لديك رقم هاتفي الجوال.»

استأذنت، مغادرةً نحو قدرٍ غامض - في الواقع، كانت تعطي

انطباعاً أنها ستقصد فوراً فراشها، بعد أن تحضّر لنفسها شراباً ساخناً. عند خروجها من الباب، استدارت للمرة الأخيرة وأضافت بصوت خامد: «أعتقد أن هذا كان أحد أكبر نجاحات حياتي.»

كانت المقالات النقدية تحقق بالفعل، كما لاحظ جاد وهو يقلّب صفحات الملف، إجماعاً استثنائياً في المديح. يحدث في المجتمعات المعاصرة، رغم مثابرة الصحافيين على رصد ومتابعة اتجاهات الموضة التي تتكون، أو حتى على خلقها إذا أمكن، أن يتطور بعضها بشكل فوضوي، برّي، وأن ينجح ويصبح رائجاً قبل أن تتم تسميته - حتى أن ذلك يحدث في الحقيقة أكثر فأكثر منذ الانتشار الهائل للإنترنت وانهيار الصحافة المكتوبة الذي رافقه. كان النجاح المتزايد لصفوف الطبخ على مجمل الأراضي الفرنسية، وانتشار المسابقات المحلية الموجهة لمكافأة الاختراعات الجديدة في مجال صناعة الجبن ولحم الخنزير خلال الفترة الأخيرة؛ والنمو الهائل الذي لا يرحم للرحلات في الطبيعة، وحتى إفصاح جان بيار بيرنو عن هويته الجنسية المثلية، كان كل ذلك قد ساهم في خلق هذا الواقع الاجتماعي الجديد: للمرة الأولى فعلياً في فرنسا، منذ جان جاك روسو، يعود الريف إلى الواجهة ويصبح نزعة. ذلك واقعٌ بدا المجتمع الفرنسي وكأنه يدركه بقوة، من خلال مجلاته وصحفه الأساسية، في غضون الأسابيع القليلة التي تلت افتتاح معرض جاد. وخريطة ميشلان، ذلك الغرض ذو المنفعة الذي لم يكن يُلاحَظ بامتياز، تحول، في غضون تلك الأسابيع ذاتها، إلى وسيلة الاطّلاع المفضلة لما أسمته مجلة *ليبراسيون*، من دون خجل، «سحر الإقليم».

كان مكتب باتريك فوريستييه، الذي تطل شرفاته على قوس النصر، مقياسي التناسب بشكل مبدع: بتحريك بعض عناصره يمكن ترتيب مؤتمر، أو عرض فيلم، أو حفلة فطور متأخر. وكل ذلك في مساحة ضيقة في النهاية لا تتعدى ٧٠ متراً مكعّباً؛ فيها فرن ومايكروايف يتيح تسخين أطباق، ويمكن النوم فيها أيضاً. ولاستقبال جاد كان فورستييه قد رسا على صيغة «فطور عمل» فوضع على الطاولة المنخفضة في مكتبه عصير الفاكهة ومعجنات وقهوة.

فتح ذراعيه واسعاً لاستقباله؛ ومن القليل القول إنه كان يشعّ. «كنت أثق... لطالما وثقت!» صاح فجأة، ما اعتبرته أولغا، التي أعطت جاد تعليماتها قبل الاجتماع، مبالغةً على أقل تقدير. «الآن... يجب تحسين التجربة!» (هزّ ذراعيه بحركات أفقية سريعة كانت، كما أدرك جاد سريعاً، محاكاة لتمريرات لعبة «الروغبي»).

«تفضّلا بالجلوس...»

اتخذا مكانين على الكنبات المحيطة بالطاولة المنخفضة؛ وسكب جاد لنفسه كوباً من القهوة.

«نحن فريق»، أضاف فوريستييه من دون ضرورة في الحقيقة.

«لقد تقدمت مبيعات خرائطنا بنسبة ١٧٪ خلال الشهر الماضي» أكمل. «باستطاعتنا، كما قد يفعل غيرنا، أن نرفع الأسعار، لكننا لن نفعل.» ترك له الوقت لقراءة وجهة النظر المترفعة التي تحكم ذلك القرار التجاري، قبل أن يضيف:

«الغير متوقع أكثر هو أننا حظينا بمشترين لخرائط قديمة كانت ميشلان قد أصدرتها في ما مضى، وقد راقبنا المزادات على الإنترنت. وتلك خرائط، كنا، حتى أسابيع قليلة ماضية، نكتفي بتلفها.»، أضاف بنبرة جنائزية. «لقد سمحنا بتبديد إرث لم يتخيل

أحد من الدار قيمته. . . إلى أن جاءت صورك المذهلة». بدا وكأنه أوغل في تأمل مرهق في ذلك المال الذي تم تبديده بحماقة، وربما، عموماً، في تدمير القيمة، لكنه استعاد توازنه.

«في ما يتعلق بـ . . .» (بحث عن التعبير المناسب)، «في ما يتعلق *بأعمالك*، علينا أن نضرب بقوة!» فجأة، انتفض مسوّياً جلسته على الكنبة، بلمحة خاطفة، حتى تراءى لجاد أنه سيقفز برجليه على الطاولة المنخفضة ويدق على صدره بقبضته مقلداً طرزان؛ فرمش بعينيه لطرد الرؤية.

«لقد قمت بمحادثة طويلة مع الآنسة شيريمويوفا، التي تجمعك بها على ما أعتقد. . .» (بحث مجدداً عن كلماته، ذلك هو المزعج مع البوليتكنيكيين(*)، يكلّفون أرخص بقليل من الإيناركيين(**)، ولكن يستغرقون وقتاً أطول لإيجاد كلماتهم؛ في النهاية، أدرك أنه قد شطّ خارج الموضوع). «باختصار، خلصنا إلى أنه من غير الوارد تسويق أعمالك بشكل مباشر من خلال شبكاتنا. من غير الوارد بالنسبة لنا أن نبدو وكأننا نسلبك استقلاليتك الفنية. أعتقد، تابع، مرتاباً، أن تجارة الأعمال الفنية تتم عادة من خلال *الغاليريهات*. . .

- لست متعاقداً مع صاحب غاليري.

- أعتقد أن هذا ما فهمته. أيضاً، فكرت في التصور التالي. نستطيع أن نلتزم تصميم وإنشاء موقع إلكتروني تقدم فيه أعمالك، وتعرضها للبيع مباشرة. بطبيعة الحال، سيكون الموقع باسمك، ولن تذكر ميشلان في أي مكان منه. أعتقد أنه من الأفضل أن تراقب

(*) خريجي معهد البوليتكنيك (المترجمة).

(**) خريجي الإينارك: المعهد الوطني للإدارة (المترجمة).

بنفسك إنجاز الطباعة. في المقابل، نستطيع أن نتعهد بالأمور اللوجيستية وبالشحن على الوجه الأكمل.

- أنا موافق.

- عظيم، عظيم. هذه المرة، أعتقد أننا فعلياً بصدد إبرام صفقة رابحة للطرفين!» قال متحمساً. «لقد صغت كل ذلك في مشروع عقد، سأتركك تدرسه بالطبع.»

خرج جاد إلى رواق طويل مضاء جداً، في آخره فتحة زجاجية تطل على أقواس «الديفانس»، كانت السماء ذات زرقة شتوية خلابة، تبدو وكأنها اصطناعية؛ زرقة افتالوسيانينية (صباغ عضوي صناعي)، فكر جاد بسرعة. كان يمشي ببطء وتردّد، وكأنه يتقدم في مادة قطنية؛ كان يعرف أنه قد قارب لتوّه منعطفاً جديداً في حياته. كان باب مكتب أولغا مفتوحاً؛ ابتسمت له.

«حسناً. ما قلته لي حصل بالضبط» قال باختصار.

٧

تابع جاد دراسات أدبية وفنية بحتة، ولم تتسن له أبداً فرصة تأمّل اللغز الرأسمالي بامتياز: *تشكّل السعر*. كان قد اختار ورقاً من نوعية "Hahnemüle Canvas Fine Art"، يمنح الألوان صفاء ممتازاً ويتيح لها صموداً جيداً جداً عبر الزمن. ولكن، مع هذا الورق، كانت معايرة الألوان صعبة الإنجاز ومتقلبة جداً، ولم يكن معالج الطباعة من ماركة إبسون متطوراً بما فيه الكفاية للقيام بذلك، فقرر أن ينحصر في عشرين تكبيراً للصورة. بشكل عام كلفته النسخة المطبوعة الواحدة ثلاثين يورو، فقرر عرضها بمئتي يورو على الموقع.

حين حمّل الصورة الأولى على الموقع، وهي تكبير لمنطقة «هازيبروغ»، نفدت المجموعة في أقل من ثلاث ساعات بقليل. كان واضحاً أن الأسعار ليست مناسبة. بعد قليل من الإرتباك والتردد على مدى عدة أسابيع، إستقر على حوالي ألفي يورو لحجم ٤٠ × ٦٠. وهكذا، أصبح يعرف الآن سعره في *السوق*.

كان الربيع يحلّ على المنطقة الباريسية، وكان جاد يتجه، من دون أن يتعمد خلاف ذلك، نحو بحبوبة مريحة. في شهر نيسان، فوجئنا حين أدركا أن دخله الشهري قد فاق دخل أولغا. ذلك العام،

كانت إجازات شهر أيار إستثنائية: صادف الأول من أيار نهار خميس، كذلك الثامن منه - ثم، كالعادة، كان هناك عيد الصعود، لينتهي كل شيء بعطلة نهاية الأسبوع الطويلة الخاصة بعيد العنصرة. كان دليل "the French touch" (اللمسة الفرنسية) قد صدر للتو. وكانت أولغا قد أشرفت على تحريره، عبر تصحيح النصوص المقترحة من الفندقيين أحياناً، وخصوصاً، عبر اختيار الصور، ومطالبة المؤسسات بإعادة صياغة النصوص في حال لم تبد لها جذابة بما فيه الكفاية.

كان المساء يهبط على حديقة اللوكسمبورغ، حين جلسا على الشرفة في جو معتدل الحرارة، بينما انطفأت آخر صرخات الأطفال في البعيد وأوشكت المحالّ على إقفال أبوابها. في الحقيقة، لا تعرف أولغا من فرنسا سوى باريس، قال جاد لنفسه وهو يقلّب دليل *اللمسة الفرنسية*؛ في الحقيقة، هو بدوره لا يعرف أكثر. من خلال المطبوعة، بدت فرنسا كبلد مسحور، فسيفساء من الأراضي الزراعية الرائعة التي تسطع فيها القصور والبيوت الريفية، تعكس تنوّعاً مدهشاً يحلو *العيش* في أي بقعة منه.

«ما رأيك في قضاء عطلة نهاية الأسبوع خارج باريس؟» اقترح وهو يضع العدد من يده. «في أحد الفنادق الواردة في الدليل الذي أعددته...

- نعم، إنها فكرة جيدة.» فكرت لثوانٍ. «ولكن، بصفة غير رسمية. من دون أن نجاهر بأنني أعمل لدى ميشلان».

حتى في هذه الظروف، قال جاد لنفسه، قد ينالان ترحيباً مميزاً من قبل المسؤولين الفندقيين: فهما زوج مديني ثري من دون أطفال، حضورهما مناسب للديكور من ناحية جمالية، ولا يزالان في الطور

الأول من حبهما - وبسبب ذلك، هما جاهزان للانبهار بكل شيء، على أمل إنشاء خزان من *ذكريات جميلة* قد تفيدهما حين تأتي لحظة مواجهتهما للسنوات الصعبة، كما قد تتيح لهما ربما تجاوز *أزمة في العلاقة* - وهما يمثلان، لأي شخص يعمل في مهنة الفنادق والمطاعم، نموذج الزبائن المثاليين.

«أين تحبين الذهاب أولاً؟» بعد التفكير، أدرك جاد أن السؤال كان أبعد ما يكون عن البساطة. كثير من المناطق، على حد علمه، تمثّل أهمية حقيقية. ربما كانت صحيحة، قال لنفسه، مقولة أن فرنسا بلد رائع - على الأقل من وجهة نظر السائح.

«سنبدأ بالهضبة الوسطى»، حسم في النهاية. «بالنسبة لك، سيكون ذلك رائعاً. ربما ليست أفضل ما هناك، لكنها فرنسية جداً؛ يعني أنها لا تشبه أي شيء آخر غير فرنسا.»

تصفّحت أولغا الدليل بدورها؛ وأشارت له إلى أحد الفنادق. عقد جاد حاجبيه. «مصراعا النوافذ ليست مختارة بعناية. على حجر رمادي، كنت لأجعلها بنية أو حمراء، خضراء في أسوأ الأحوال، ولكن بالتأكيد ليس أزرق.» غرق في النص الترويجي؛ تزايدت حيرته. «ما هذا الهراء؟» «في قلب منطقة «كانتال» المنكّهة بالجنوب الفرنسي، حيث تتماشى قافية التراث مع الاسترخاء والحرية مع الاحترام... الحرية والاحترام، تعبيران لا تتماشى قافيتهما أصلاً!».

إنتزعت أولغا العدد من بين يديه وانغمست في قراءته. «آه حسناً، فهمت!...» مارتين وعمر سيكشفان لكم أصالة الأطباق والنبيذ»، تزوجت من عربي، لذلك يتحدث الإعلان عن الاحترام.

- قد يكون ذلك جيداً، خصوصاً إذا ما كان مغربياً. المطبخ

المغربي لذيذ جداً. ربما يصنعون خليطاً غذائياً فرنسياً - مغربياً، مثل البسطيلة بكبد الإوز مثلاً.

- نعم» قالت أولغا، عن غير اقتناع تام. «لكنني سائحة، أريد ما هو فرنسي صرف. ما هو فرنسي بحت - أما ما هو مغربي أو ما هو فرنسي - فيتنامي، فقد يصلح كمطعم آخر صيحة في قنال سانت مارتان؛ ولكن بالتأكيد ليس في منطقة كانتال. ربما أحذفه من الدليل، هذا الفندق.»

لم تقم بذلك، لكن تلك المحادثة دفعتها للتفكير. وبعدها بعدة أيام، اقترحت على مدرائها إنجاز تحقيق استقصائي على الأطباق المستهلكة فعلياً في الفنادق التابعة للسلسلة. لن تظهر النتائج سوى بعد ذلك بستة أشهر، لكنها سوف تثبت بقوة حدسها الأوّلي. كان المطبخ الإبداعي، كما المطبخ الآسيوي، مرفوضين بالكامل. مطبخ إفريقيا الشمالية لم يكن مرغوباً سوى في منطقة «الجنوب الكبير» و«الكورس». مهما كانت المنطقة، كانت المطاعم التي تستثمر الصورة «التقليدية» أو «مثل أيام زمان» تسجّل حسابات تفوق الحساب الوسطي بـ ٦٣٪. لحوم الخنزير والأجبان تمثّل قيماً أكيدة، لكن الأطباق التي تتعلق بحيوانات غريبة، والتي ليست فرنسية الدلالة فقط بل أيضاً إقليمية، مثل الحمام البري والبزّاق وسمك الشلق، كانت هي بالذات ما حقق نتائج استثنائية. من دون أدنى التباس، استخلص مدير قسم «*الطعام المترف والمتوسط*» الذي حرّر الخلاصة المرافقة للتقرير، ما يأتي:

«لقد أخطأنا ربما بالتركيز على زبائن أنغلوساكسونيين يبحثون

عن تجربة تذوّق خفيفة، تجمع بين الطعم والأمن الصحي، وتقلق بشأن البسترة واحترام أصول التبريد. في الحقيقة، هذا النوع من الزبائن غير موجود: فالسائحون الأميركيون لم يكونوا يوماً كثيرين في فرنسا، والإنجليز هم في تراجع مستمر؛ العالم الأنجلوساكسوني بمجمله لم يعد يمثل سوى ٤,٣٪ من مجموع مبيعاتنا. زبائننا الجدد، زبائننا الحقيقيون، الآتون من بلاد أكثر شباباً وخشونة، الذين يحتفظون بمعايير صحية مستجدة قلما يتبعونها في جميع الأحوال، يبحثون، على العكس من ذلك، خلال إقامتهم في فرنسا، عن تجربة غذائية تراثية تكون استثنائية بمحلّيتها وبمستواها؛ وحدها المطاعم التي باستطاعتها التأقلم مع هذه المعطيات الجديدة يجب أن تستحق، مستقبلاً، ظهورها في دليلنا.»

٨

عاشا بضعة أسابيع من السعادة (علماً أنها لم تكن، ولم يعد من الممكن أن تكون، تلك السعادة الحادة المحمومة الخاصة *بالشباب*. لم يعد هناك مجال، بالنسبة لهما، لأن يجنّا ولا لأن يتجادلا بعنف خلال عطلة نهاية أسبوع؛ كانت مرحلة جديدة قد حلّت - لكنهما كانا لا يزالان في سنّ التندّر عليها - هي مرحلة التحضر لتلك السعادة الأبيقورية، الهانئة، المترفة من دون تفاخر، التي يقترحها المجتمع الغربي لممثلي طبقاته الوسطى - العليا خلال فترة منتصف العمر).

اعتادا النبرة المسرحية التي يعتمدها الخدم في المؤسسات ذات النجوم الخمسة وهم يتلون قائمة المازات و«فاتحات الشهية» الأخرى؛ كما اعتادا الأسلوب المطاط والخطابي المفخّم الذي يستخدمونه لقول: «أتمنى لكما باقي وجبة ممتازة، سيداتي سادتي!» عند تغيير كل طبق، والذي كان يذكّر جاد في كل مرة بعبارة «قداس ممتع!» التي ألقاها، ذات يوم، ذلك الكاهن السمين والاشتراكي على الأرجح، عليه وعلى جنفياف وهما يهمّان، تحت وقع اندفاع غير منطقي، بالدخول إلى كنيسة «نوتردام دي شان»، خلال قداس الأحد الصباحي، بعد أن مارسا الحب في الاستديو حيث كانت تقيم آنذاك، في بولفار «مونبارناس».

لعدة مرات، لاحقاً في حياته، فكر في ذلك الكاهن. جسدياً، كان يشبه قليلاً فرانسوا هولاند، ولكن، بخلاف الزعيم السياسي، كان قد جعل من نفسه *مخصياً من أجل الله*. بعد ذلك بعدة سنوات، إثر انطلاقه في «سلسلة المهن البسيطة»، فكر جاد عدة مرات في إنجاز بورتريه لأحد هؤلاء الرجال العفيفين والمخلصين الذين يجوبون المدن الأسقفية ليتزوّدوا منها بالتشجيع على إيمانهم والذين يقل عددهم أكثر فأكثر مع مرور الوقت. لكنه فشل، لم ينجح حتى في مقاربة الموضوع. فورثة التقليد الروحي الألفي الذي لم يعد أحد يفهمه تماماً الآن، الكهنة الذين كانوا فيما مضى يحتلون الصف الأول في المجتمع، أصبحوا اليوم مهملين. بعد خوضهم دراسات طويلة وصعبة بشكل مرعب تتطلب إتقان اللغة اللاتينية والقانون الكنسي وعلم اللاهوت القياسي ومواد أخرى غير مفهومة تقريباً، يتفرّغون للعيش في ظروف مادية بائسة، يستقلون المترو بين الناس الآخرين، يتنقلون بين مجموعة مشاركة إنجيلية من هنا ومحترف لمحو الأمية من هناك، يلقون القداس كل صباح أمام حضور يقلّ عدده ويشيخ يوماً بعد يوم، يمتنعون عن كل بهجة حسّية، حتى المباهج المبدئية المتعلقة بالحياة العائلية، في حين تجبرهم طبيعة مهنتهم على إظهار تفاؤل سرمدي يوماً بعد يوم.

جميع لوحات جاد مارتان تقريباً، كما سيشهد مؤرخو الفن فيما بعد، تمثّل رجالاً أو نساء يمارسون مهنتهم بحسن نية، ولكن ما كان يظهر هو نية حسنة منطقية لأن الخضوع الذي تستتبعه للموجبات المهنية يضمن في المقابل، وإن بنسبٍ متفاوتة، خليطاً من الارتياح المادي ومن عطايا احترام الذات. متواضعون ومفلسون، محتقرون من قبل الجميع، خاضعون لكل ضغوط القلق الذي تحمله الحياة

المدينية من دون أن يكون لهم حق الوصول لأيٍ من متعها، كان الكهنة المدينيون يشكلون، بالنسبة لمن لا يقاسمونهم معتقداتهم، موضوعاً محيّراً ومستعصياً على الفهم.

بعيداً عن كل ذلك، كان دليل *اللمسة الفرنسية* يقترح مجموعة محدودة من اللّذات لكنها مضمونة. هكذا، يمكننا أن نشاطر صاحب «*المرموط الضاحك*» رضاه حين يختم نصه الترويجي بهذه الجملة الهادئة والحازمة: «غرف رحبة مع شرفة (حوض للاستحمام مزوّد بجاكوزي)، قوائم طعام مغرية، عشرة أنواع من المربيات المنزلية للفطور: نحن في الواقع في فندق ساحر.»

كما يمكننا أن نستسلم للإنجرار وراء النبرة النثرية لمدير «كاربي ديبم»(*) حين يصف الإقامة في فندقه بالعبارات التالية: «إبتسامةٌ ستسحبكم من الحديقة (أنواع متوسطية) إلى جناحكم، المكان الذي سيقلب كل حواسكم. عندها، يكفي أن تغمضوا أعينكم لتحتفظوا في ذاكرتكم برائحة الجنة، وبدفق المياه الهادر في حمّام الرخام الأبيض (Hammam)، حتى لا يتسرّب لأرواحكم سوى يقين واحد: هنا، الحياة حلوة.»

في الإطار الفخم لقصر «بوربون بوسيه»، حيث لا يزال الورثة يخلّدون بأناقة فن حسن الضيافة، باستطاعتنا تأمل ذكريات مؤثرة (مؤثرة لعائلة بوربون بوسيه، في الأغلب) تعود لأيام الصليبيين. بعض الغرف كانت مزوّدة أسرّة بمرتبات مائية.

وذلك المزج بين *فرنسا العتيقة أو المحلية* وبين معدات المتعة

(*) Carpe Diem: جملة شهيرة من قصيدة لاتينية لهوراس تعني انتهز الفرصة (المترجمة).

المعاصرة كان ينتج أحياناً مفعولاً غريباً، يكاد يشبه مفعول قلة الذوق؛ إلا أنه قد يكون ذلك المزيج غير البديهي ربما، قال جاد لنفسه، وهو ما يبحث عنه زبائن السلسلة، أو على الأقل من *تستهدفهم السلسلة بشكل أساسي*.

إلا أنه، في جميع الأحوال كان يتم الإيفاء بالوعود المتعلقة بوقائع التي تطلقها الإعلانات الترويجية. فمثلاً، كان من المفترض أن تؤوي حديقة *قصر الغورج في منطقة سيزالييه العليا* ظباء ويحامير وحماراً صغيراً. بالفعل، كان فيها حمار صغير. خلال التنزه في حدائق «*لوبيرج فيرتيكال*»، كان من المفترض ان نقابل ميغيل سانتامايور، وهو طباخ بالفطرة يحقق «من استناده إلى التراث وإلى المستقبل خلاصة تتخطى جميع المعايير». بالفعل، كنا نرى شخصاً غامض المظهر كأنه «غورو» يتحرك في المطابخ، لا يلبث أن يأتي بنفسه، بعد أن يقدم «سمفونية من الخضار وثمار المواسم»، ليقترح على الزبون أحد أنواع سيجار هافانا التي يعشقها.

كانت عطلة عيد العنصرة هي آخر عطلة لهما معاً. قضياها في قصر «فودو لونيي»، وهو *مكان إقامة إستثنائي* تطل غرفه الباذخة على حديقة مساحتها ٤٠ هكتاراً يُنسَب تصميمها الأصلي لـ«لو نوتر»(*).

المطبخ، بحسب الدليل، «يقدم، بمهابة، إرثاً محلياً ذا ثراء لانهائي»؛ كنا هنا أمام «أجود ما لدى فرنسا لتقدمه، في كل شيء».

في ذلك المكان، في إثنين العنصرة، خلال الفطور، أعلنت أولغا لجاد أنها ستعود إلى روسيا آخر الشهر. كانت عندها تتذوق

(*) Andre le Notre: مهندس مناظر طبيعية شهير كان الحدائقي الأساسي للملك لويس الرابع عشر (المترجمة).

مربّى الفراولة البرية، وكانت عصافير لا تأبه لأي مأساة بشرية تزقزق في الحديقة التي صمّمها «لونوتر». على بعد أمتار منهما، جلست عائلة صينية تلتهم كعك «الوافل» مع النقانق. وكان قد تم إدراج النقانق في وجبة الفطور في قصر «فودو لونيي» أساساً لتلبية رغبة الزبائن الأنغلوساكسونيين المحافظين، المتمسكين بفطور دسم غني بالبروتين؛ وبهدف اعتمادها، طُرِحَت للنقاش خلال اجتماع عمل مقتضب ولكن حاسم. بعد ذلك أدّت الأذواق غير الأكيدة بعد والمتشكلة بعشوائية، ولكن الميّالة على ما يبدو نحو النقانق، للطائفة الجديدة من الزبائن الصينيين، إلى الحفاظ على خط التموين ذاك. فنادق أخرى ساحرة في منطقة «بورغينيون»، وصلت، خلال الفترة ذاتها، إلى نتيجة مشابهة. هكذا، أفلتت *النقانق وموالح مارتينو*، الراسخة في المنطقة منذ عام ١٩٢٧، من الإفلاس، ومن فقرة «إجتماعي» في نشرة أخبار القناة الفرنسية الثالثة.

إلا أن أولغا، وهي فتاة غير بروتينية *كثيراً*، كانت تفضّل مربّى الفراولة البرية، كما أنها قد بدأت تشعر بتوتر حقيقي مع إدراكها أنه سينتم التلاعب بحياتها، خلال الدقائق المعدودة التالية. فقد أصبح تطويق الرجال أصعب في أيامنا هذه. ليس كثيراً في البداية، إذ تفعل التنانير القصيرة فعلها دائماً، ولكن فيما بعد، كان الرجال يصبحون غريبي الأطوار أكثر فأكثر.

ميشلان تطمح بقوة لتعزيز حضورها في روسيا، ذلك البلد كان أحد الأولويات في محاور التطوير المتعلقة بالشركة، وكان راتبها سيزيد جذرياً لثلاثة أضعاف، بينما سيكون تحت إمرتها حوالي خمسين شخصاً. كان ذلك تحولاً لا تستطيع في أي حال من الأحوال رفضه، ففي عين الإدارة العامة لن يبدو الرفض غير مفهوم

فقط، وإنما إجرامياً حتى. فالموظف من مستوى معيّن لا تعود له واجبات تجاه المؤسسة فحسب، بل أيضاً تجاه نفسه، عليه أن يرعى حياته المهنية وأن يعتز بها، كما يفعل المسيح للكنيسة، أو الزوجة لزوجها. وعليه، على الأقل، أن يمنح متطلبات سيرته المهنية اهتماماً أدنى، من دونه، سيوحي لرؤسائه أنه لا يستحق أبداً أن يترفع لأعلى من مركز متواضع.

احتفظ جاد بصمت عنيد وهو يحرّك ملعقته داخل البيضة نصف المسلوقة التي يتناولها، رامياً أولغا بنظرات منكسرة، كطفل معاقب.

«باستطاعتك المجيء إلى روسيا...» قالت. «تستطيع أن تأتي متى تشاء.»

كانت شابة، أو بالأحرى لا *تزال شابة*، لا تزال تتخيل أن الحياة تقدم إمكانيات متنوعة، وأن علاقة إنسانية قد تعرف، مع مرور الوقت، تطورات متلاحقة ومتناقضة.

كانت نسمة هواء تحرّك ستائر الباب - النافذة المفضي إلى الحديقة. تفاقمت زقزقة العصافير فجأة، ثم سكتت. واختفت طاولة الصينيين من دون جلبة، وكأنهم تبخروا بطريقة ما. وكان جاد لا يزال صامتاً، ثم وضع ملعقته.

«تستغرق كثيراً من الوقت لتجيب...» قالت. «أيها الفرنسي الصغير...» أضافت بلوم مليء بالرقة. «أيها الفرنسي الصغير المتردد...»

٩

نهار الأحد في ٢٨ حزيران، اصطحب جاد أولغا إلى مطار رواسي. كان الموقف حزيناً، وكان شيء ما في داخله يدرك أنهما كانا يعيشان لحظة حزن قاتلة.

الطقس، الجميل والهادئ، لم يسهّل ظهور المشاعر المناسبة. كان بإمكانه وضع حدٍ لعملية فك الارتباط تلك، بالارتماء على قدميها، وتوسّلها ألا تستقل تلك الطائرة؛ فلعله كان ليُسمَع. ولكن، ما العمل بعد ذلك؟ البحث عن شقة جديدة (عقد إيجار شقة غينمير ينتهي آخر الشهر)؟ إلغاء عملية إنتقال المسكن المرتقبة يوم غد؟ كلّ ذلك ممكن، فالصعوبات التقنية ليست هائلة.

جاد لم يعد شاباً، في الحقيقة، ولم يكن يوماً كذلك؛ لكنه كان كائناً بشرياً يفتقر إلى الخبرة تقريباً. في مجال الكائنات البشرية، لا يعرف سوى والده، ويكاد لا يعرفه أيضاً. وهذه علاقةٌ ليس من شأنها حثّه على تفاؤلٍ كبيرٍ في مجال العلاقات الإنسانية. مما استطاع ملاحظته النظام وجود الناس حول *العمل*، الذي يحتل الجزء الأكبر من الحياة ويُنجَز في منظمات ذات أحجام متنوعة. بعد سنوات العمل، تبدأ مرحلة أكثر اقتضاباً، يميزها نمو أمراض متنوعة. من ناحية أخرى، تحاول بعض الكائنات البشرية، خلال المرحلة الأكثر

نشاطاً من حياتها، الانخراط في تجمّعات جزئية، تسمّى *العائلة*، هدفها إعادة إنتاج النوع؛ إلا أن هذه المحاولات، في الأغلب، كانت سرعان ما تُجهَض سريعاً، لأسباب تتعلق بـ«طبيعة الأزمنة»، قال لنفسه بغموض وهو يحتسي الإسبرسو مع عشيقته (كانا وحيدين أمام بار مقهى *«سيغافريدو»*، وبشكل عام، كانت الجلبة في المطار خفيفة، وضوضاء الأحاديث التي يتعذّر تفاديها تستبطن صمتاً بدا من جوهر المكان، مثلما هي الحال في بعض العيادات الخاصة). إلا أن ذلك لم يكن سوى وهم. فالجهاز العام لنقل البشر، والذي يؤدي دوراً بالغ الأهمية اليوم في تحقيق الأقدار الفردية، كان ببساطة يمر بفترة استراحة تسبق فترة تشغيلية سيباشرها بالطاقة القصوى، فور حلول موعد الرحلات الأولى الكبيرة المغادرة. مع ذلك كان من المغري رؤية إطراءٍ ما في ذلك. إطراء صامت من الآلية الاجتماعية لحبهما الذي لم يتسنّ له الاستمرار طويلاً.

لم يقم جاد بأي رد فعل حين اتجهت أولغا، بعد قبلة أخيرة، نحو منطقة مراقبة الجوازات، ولم يفهم، سوى وهو عائد إلى منزله، حين وصل إلى بولفار لوبيتال، أنه قد قام لتوّه، وتقريباً من دون علم منه، بالعبور نحو مرحلة جديدة من حياته. أدرك ذلك حين بدا له فجأة أن كل ما كان يشكّل، حتى بضعة أيام خلت، عالمه قد أصبح فارغاً تماماً. كانت خرائط الطرق والنسخ المطبوعة مبعثرة على الأرض، وكل ذلك لم يعد له أي معنى. خرج بإذعان، واشترى لفافتين من أكياس الزبالة المتينة من سوبرماركت «كازينو» في جادة «فانسانت أوريول» ثم قفل عائداً وبدأ يملأها. «الورق مادة ثقيلة»، قال متأملاً، سوف يتوجب عليه أن يقوم بعدة «نقلات» لينزل

الأكياس. كان ما يدمّره الآن خلاصة أشهرٍ، بل إلى حد ما سنواتٍ من العمل، لكنه، على الرغم من ذلك، لم يواجه التردد ولو لثانية واحدة. بعد ذلك بسنوات، حين أصبح مشهوراً - بل مشهور جداً للأمانة - سُئل في عدة مناسبات عما كان يعني، في نظره، واقع أن يكون *فناناً*. لم يجد ما هو مهم جداً أو مميز جدا ليقوله، باستثناء شيء واحد، كان عليه أن يكرّره في كل مقابلة تقريباً. أن يكون المرء فناناً يعني، في نظره، أن يكون، قبل كل شيء، شخصاً *خاضعاً*، خاضعاً لرسائل غامضة، غير متوقعة، علينا، في غياب أي تفسير أفضل، وفي غياب أي إيمان ديني، وصفها بـ *الحدس*؛

رسائل ملحاحة وجذرية، لا تترك للمرء أي مجالٍ للتهرّب منها - من دون أن يخسر احترامه لذاته ونزاهته.

قد تقضي تلك الرسائل بتدمير عمل، أو حتى مجموعة كاملة من الأعمال، بهدف الانخراط في اتجاه جديد جذرياً. قد تقضي بذلك حتى ولو كان المرء لا يملك اتجاهاً محدداً، ولا أي مشروع مهما كان صغيراً، ولا أي أمل في المتابعة.

إنطلاقاً من هنا، ومن هنا فقط، تختلف مهنته عن تلك الحِرف، أو *المِهن* التي سيكرّمها في الجزء الثاني من سيرته المهنية، ذلك الجزء الذي سيكسبه شهرة عالمية.

في اليوم التالي أنزل أول أكياس الزبالة، ثم عمد، على مهل، وبتأنٍّ، إلى فكّ الكاميرا الكلاسيكية التي يستخدمها، قبل أن يضع لوح التقوية، وأدوات إزالة اللمعان، والعدسات، وقارئ الصورة الرقمي الملحق، في العلب الخاصة بها.

كان الجو لا يزال جميلاً في المنطقة الباريسية. عند العصر، أدار تلفزيونه لمتابعة سباق «تور دو فرانس» التمهيدي، الذي فاز به

عدّاءٌ أوكراني غير معروف تقريباً. وما إن أطفأ الجهاز حتى قال لنفسه إنه ربما عليه الاتصال بباتريك فوريستييه.

استقبل مدير الاتصالات في مجموعة ميشلان فرنسا الخبر من دون انفعال حقيقي. إذا كان جاد قد قرر عدم إنجاز صور لخرائط ميشلان بعد الآن، فلن يجبره شيء على المتابعة؛ كان باستطاعته التوقف متى شاء، فذلك ملحوظ بشكل واضح في العقد. في الحقيقة، بدا فورستييه غير مهتم كثيراً، حتى أن جاد فوجئ حين اقترح عليه موعداً في صباح اليوم التالي.

بعد وصوله إلى المكتب الكائن في جادة «لا غراند أرميه» بوقت قليل، فهم أن فوريستييه كان يأمل في الحقيقة أن يفرّج عن نفسه، أن يستعرض هواجسه المهنية أمام مستمع متعاطف. بعد نقل أولغا فقد شريكة ذكية، مخلصة، تتقن عدة لغات؛ وما لا يكاد يُصدَّق هو أنهم لم يقترحوا عليه، للوقت الراهن، أي بديل عنها. كانت الإدارة العامة قد «ناكته تماماً»، تلك كانت عباراته المرة. طبعاً كانت تعود إلى روسيا، طبعاً هذا بلدها، طبعاً أولاد الشرموطة الروس يشترون مليارات الإطارات، بطرقاتهم الشرموطة التالفة، وجو بلادهم الغبي الشرموط، لكن هذا لا يمنع أن ميشلان تظل شركة فرنسية وأن الأشياء لم تكن لتتم بهذا الشكل منذ سنوات قليلة فقط. فحتى زمن غير بعيد كانت رغبات السلسلة الفرنسية تُعتبَر أوامر، أو على الأقل، كانت تؤخذ بعين الاعتبار، باهتمام خاص، ولكن منذ أن حظي المستثمرون الأجانب بالأكثرية في رأسمال المجموعة انتهى كل هذا. نعم، لقد تبدّلت الأشياء كثيراً، ردّد، بنبرة فيها تشمٌّ للإثم، طبعاً لم تعد مصالح ميشلان فرنسا تعني الكثير بالنسبة لروسيا، من دون أن

نتحدث عن الصين أيضاً، ولكن إذا استمر الوضع على ما هو عليه ربما يجب عليه التفكير في الالتحاق بـ«بريدجستون» أو بـ«غوديير».

«في النهاية، أقول لك هذا فيما بيننا»، أضاف بتوجس فجائي.

طمأنه جاد إلى تكتّمه الكامل، وحاول إعادة توجيه الحديث نحو حالته الخاصة. «آه، نعم، موقع الإنترنت...» بدا فوريستييه وكأنه تذكر لتوّه. «حسناً، سنزيد ملاحظة تشير إلى أنك تعتبر مجموعة الأعمال هذه منتهية. النسخ السابقة ستظل معروضة للبيع، ألديك اعتراض على ذلك؟» لم يكن لدى جاد اعتراض. «أصلاً لم يعد هناك الكثير منها، لقد بيعت بوتيرة جيدة جداً...» تابع بصوت مشوب بالتفاؤل. «كذلك، سنواصل الإشارة في مستنداتنا إلى أن خرائط ميشلان كانت في أساس عمل فني أجمع النقاد على تكريمه، هل يزعجك هذا أيضاً؟» لم يكن ذلك ليزعج جاد نهائياً.

كانت البهجة قد عادت لفوريستييه حين رافقه إلى باب مكتبه، ليختتم وهو يشد على يده بحرارة قائلاً: «لقد سعدت جداً بلقائك. كانت هذه العلاقة مربحة للطرفين. مربحة تماماً.»

١٠

لم يحدث شيء، ولا حتى ما يعادل الشيء، طوال الأسابيع التالية. ثم ذات صباح، وهو عائد من جولة تسوّقٍ لحاجيات المنزل، رأى جاد رجلاً خمسينياً، يرتدي جينزاً وسترة جلدية قديمة، ينتظر أمام مدخل البناية التي يقطن فيها، وبدا كأنه كان ينتظر منذ مدة لا بأس بها.

«صباح الخير...» قال. «أنا آسف لحضوري بهذه الطريقة، لكنني لم أجد وسيلة أخرى. رأيتك تمرّ في الحي عدة مرات. أنت جاد مارتان أليس كذلك؟»

أومأ جاد برأسه موافقاً. كان صوت محدثه هو صوت رجل متعلم، معتاد على التحدث؛ وكان مظهره يشبه مظهر «ضدّ راهني» بلجيكياً(*)، أو مثقفاً بروليتارياً - بقميص من ماركة «آرو» رغم كل شيء. ولكن، مع ذلك، تستنتج من شكل يديه القويتين، المستهلكتين، أنه قد مارس من دون شك مهنة يدوية.

(*) الضد راهنية هي حركة طالبية يسارية ثورية ضد الواقع الراهن نشأت في أواخر الخمسينيات، لعبت دوراً مهماً في إضرابات ٦٨ في فرنسا (المترجمة).

«أنا أعرف جيداً عملك حول الخرائط الطرقية، لقد تابعته منذ البداية. أنا أيضاً أقطن في الحي». مدّ له يده. «إسمي فرانز تيللير، أنا غاليريست».

في الطريق نحو الغاليري في شارع «دومريمي» (كان قد اشترى العقار في اللحظة الأخيرة قبل أن يصبح الشارع على الموضة بشكلٍ ما. وكان هذا أحد القرارات الجيدة القليلة التي اتخذها في حياته). توقفا لتناول مشروب لدى «شي كلود»، شارع «شاتو دي رانتييه»، الذي سيصبح فيما بعد مقهاهما المعتاد، والذي سيمنح جاد فكرة لوحته الثانية في «سلسلة المهن البسيطة».

كانت تلك المؤسسة التجارية تستمر في تقديم كأس النبيذ الأحمر التقليدي وسندويشات «الباتيه» مع الكبيس لآخر من تبقى من متقاعدي «الطبقات الشعبية» في الدائرة ١٣. كانوا يموتون واحداً تلو الآخر، بمنهجية، من دون أن يحل محلهم زبائن جدد.

«قرأت في أحد المقالات أنه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية اختفى نحو ٨٠ في المئة من المقاهي في فرنسا» لاحظ فرانز ملقياً نظرة دائرية على المكان. ليس بعيداً عنهما كان أربعة متقاعدين يلقون بصمت بأوراقهم على طاولة من «الفورمايكا» بحسب قواعد غير مفهومة تبدو وكأنها تنتمي لمرحلة ما قبل التاريخ في مجال لعب الورق (لعبة البلوت؟ *البيكيه*؟). أبعد بقليل، تناولت امرأة سمينة مصابة بعُدة وردية كأسها من «البستيس»(*) دفعة واحدة.

(*) مشروب معطّر بالأنيسون (المترجمة).

أصبح الناس يتناولون غذاءهم في ظرف نصف ساعة، ويشربون الكحول أقل فأقل أيضاً؛ ثم جاءت الضربة القاضية مع منع التدخين.

- أعتقد أن ما مضى سيعود، بأشكال مختلفة. هناك مرحلة تاريخية طويلة من ارتفاع الإنتاجية تشرف الآن على نهايتها، في الغرب أيضاً.

- لديك أسلوب غريب في تخيّل الأشياء...» قال فرانز بعد أن نظر إليه طويلاً. «لقد أثار اهتمامي عملك على خرائط ميشلان، اهتممت به حقاً؛ ولكن لم أكن لآخذك في الغاليري الخاص بي. كنتَ، ولأقلها، واثقاً جداً من نفسك، ولم يبدُ ذلك، بالنسبة لي، طبيعياً تماماً لشاب مثلك. ثم حين قرأت على الإنترنت أنك قررتَ إيقاف سلسلة الخرائط، قررتُ أن آتي لرؤيتك لأقترح عليك أن تصبح أحد الفنانين الذين أمثلهم.

- لكن ليست لدي أدنى فكرة عما سأفعله. لا أعرف حتى إن كنت سأتابع في الفن عموماً.

- لم تفهم...» قال فرانز بصبر. «ليس ما يهمني شكل فني معيّن، أو *أسلوب*، بل ما يهمني هو شخصية، نظرة مركزة على الحركة الفنية، على وضعها في المجتمع. لو جئتني غداً بورقة بسيطة تكون قد انتزعتها من دفتر ذي شريط معدني وكتبت عليها: «*لا أعرف إن كنت سأتابع في مجال الفن عموماً*»، لعرضت هذه الورقة من دون تردد. علماً أنني لست مثقفاً؛ لكنك تثير اهتمامي.

- لا، لا، لست مثقفاً» أصرّ على اعترافه. «صحيح أنني أحاول، بطريقة أو بأخرى، أن أتحلّى بتلك النظرة المستخفّة التي يتميّز بها مثقف الأحياء الجميلة، لأن هذا مهمّ في وسطي، لكنني لست أحدهم، لم أجتز البكالوريا حتى، ثم اشتريت ذلك العقار

الصغير، وُفِّقت ببعض ضربات الحظ مع فنانين. الحدس هوما قاد خطواتي دائماً».

لاحقاً، قاما بزيارة الغاليري، كان أكبر مما توقعه جاد، سقفه عالٍ، وجدرانه من الإسمنت مسنودة بدعامات معدنية. «كان مصنع بناء ميكانيكي»، أخبره فرانز. «أفلسوا في منتصف الثمانينيات، ثم ظل فارغاً لوقت طويل، إلى أن اشتريته. تطلّب أعمال نظافة هائلة، لكنه كان يستحقّ ذلك. فهو يشكّل مساحة جميلة، باعتقادي.»

وافق جاد. كانت حواجز الفصل المتحركة مركونة على جنب، بحيث حظيت مساحة العرض بطاقتها القصوى - ثلاثين متراً على عشرين. كانت تحتلها حالياً منحوتات كبيرة من المعدن الداكن قد تكون معالجتها مستوحاة من فن النحت الإفريقي التقليدي، لكن مواضيعها تستحضر بوضوح إفريقيا المعاصرة: كل الشخصيات تحتضر، أو تتقاتل مستخدمة المناجل والكلاشينكوف. كان ذلك المزيج من العنف الحركي والجمود في تعابير الفاعلين يترك أثراً كئيباً بشكل خاص.

«بالنسبة للتخزين» - تابع فرانز، «لديّ هنغار في «لور إي لوار». ظروف الرطوبة ليست فظيعة، الأمن غير موجود، والخلاصة أنها ظروف سيئة جداً للتخزين؛ لكن، حتى الآن، لم أواجه مشاكل.»

إفترقا بعد عدة دقائق. كان جاد مضطرباً للغاية. تسكّع طويلاً في باريس قبل أن يعود إلى منزله، حتى أنه ضلّ الطريق مرتين خلال جولته.

مرت الأسابيع اللاحقة على المنوال ذاته، كان يخرج، ويمشي

من غير هدف محدد في شوارع تلك المدينة التي لا يعرفها جيداً في النهاية، متوقفًا من وقت إلى آخر في حانة ما ليحدد اتجاهه. وفي كثيرٍ من الأحيان اضطر للإستعانة بخريطة.

خلال بعد ظهر أحد أيام تشرين الأول/ أكتوبر كان يجوب شارع «لي مارتير» فانتابه فجأة شعورٌ معكّرٌ بالإلفة. تذكر أنه أبعد من هنا بقليل هناك بولفار «كليشي»، الذي يحوي محلات «السيكس شوب» واللانجري الإيروتيكية. جنفييف وأولغا، كلتاهما، كانتا تحبان، من وقت لآخر، شراء ملابس إيروتيكية وهما برفقته، ولكن، عموماً، كانتا تقصدان «ريبيكا ريبز»، في منطقة أبعد بكثير، عند البولفار. كلا، كان ثمة شيء آخر.

توقف عند زاوية جادة «ترودان»، وأدار نظره يميناً، وحزر. على بعد عشرات الأمتار تقع المكاتب التي عمل فيها والده خلال السنوات الأخيرة. لم يزرها سوى مرة واحدة، بعد وفاة جدته بوقت قليل. كانت الشركة قد استقرت لتوّها في مركزها الجديد. فبعد أن حاز أعضاؤها على عقد المركز الثقافي في «بورت آمبون»، شعروا بضرورة القيام بقفزة في المستوى. يجب أن يصبح مركز الشركة الآن في *فندق خاص*، من المفضّل أن يكون أمامه *فناء مرصوف*، وعند اللزوم أن يكون في *شارع مزروع بالأشجار*. وجادة «ترودان»، الواسعة، التي تتحلى بهدوء يكاد يكون ريفياً، مع صفوف أشجار الدلب المرصوصة فيها، كانت تناسب تماماً شركةً هندسية ذات صيت معيّن. كان جان بيار مارتان في اجتماع سيستغرق طوال فترة بعد الظهر، كما أعلمته عاملة الاستقبال. «أنا إبنه» أصر جاد بلطف. ترددت، ثم رفعت سماعة هاتفها.

بعد دقائق ظهر والده في الردهة، بأكمام مشمّرة، وربطة عنق مفكوكة، حاملاً بيده ملفاً رقيقاً. كان يتنفّس بصوت عال، تحت تأثير انفعال عنيف.

- ماذا يحدث؟ هل وقع حادثٌ ما؟

- كلا، لا شيء من هذا. كنت ماراً في الحي فقط.

- أنا مشغول جداً، لكن... إنتظر. سنخرج معاً لاحتساء كوب من القهوة.

كانت الشركة تمر بمرحلة عصيبة، شرح لجاد. المقر الجديد مكلف جداً، وقد خسروا عقداً مهماً لإعادة ترميم منتجع على ضفاف البحر الأسود، كان قد خاض لتوّه نقاشاً عنيفاً مع أحد شركائه. وشيئاً فشيئاً بدأ تنفسه ينتظم، وبدأ يهدأ.

«لماذا لا تتوقف؟» سأل جاد. نظر والده إليه من دون أي تفاعل، وكأنه لم يفهم بتاتاً ما عناه.

«أقصد أنك جمعت ما لا بأس به من المال. من المؤكد أنك تستطيع الآن أن تتقاعد، وأن تستفيد قليلاً من الحياة.» كان والده لا يزال يحدّق فيه، وكأن الكلمات لا تصل إلى عقله، أو كأنه يعجز عن إعطائها أي معنى، وبعد دقيقة على الأقل سأل: «ولكن، ماذا سأفعل؟»، بصوتٍ يشبه صوت طفل تائه.

غالباً، ليس ربيع باريس سوى امتداد لشتائها - ممطر، بارد، موحل، وسخ. وفي معظم الأحيان يكون الصيف فيها كريهاً أيضاً: تصبح المدينة صاخبة ومغبرّة، ولا تستمر الحرارة العالية طويلاً، تختمها بعد يومين أو ثلاثة عاصفة يليها برد قارس. الخريف هو الفصل الوحيد الذي تكون فيه باريس ممتعة، بنهاراتها المشمسة

والمقتضبة، التي يولّد فيها الهواء الجاف والعليل إحساساً منشّطاً بالانتعاش. طوال تشرين الأول/ أكتوبر تابع جاد نزهاته، إذا صحّ استخدام تعبير نزهة لوصف مشيٍ آليّ تقريباً لم يكن خلاله أي انطباع خارجي يصل إلى دماغه، ولا أيّ تأمل ولا مشروعَ يشغلانه، وكان هدفه الوحيد خلاله هو العودة مساء بحالة كافية من التعب.

خلال بعد ظهر أحد أيام تشرين الثاني/ نوفمبر، عند الساعة الخامسة تقريباً، وجد نفسه أمام الشقة التي كانت تسكنها أولغا في شارع «غينمير». كان يجب أن يحدث ذلك، قال لنفسه: بوقوعه في فخ آلياته اللاإرادية التلقائية، كان قد سلك، تقريباً في الوقت ذاته من النهار، الدرب ذاته الذي كان يسلكه كل يوم خلال أشهر. وبنفَسٍ مقطوع عاد أدراجه نحو حديقة اللوكسمبورغ حيث انهار على أولَ مقعد وجده. كان بالضبط إلى جانب ذلك البناء الصغير من القرميد الأحمر، المزيّن بالموزاييك، والغريب، الذي يحتل إحدى زوايا الحديقة، على ناصية شارع «غينمير» وشارع «أساس». في البعيد، أضاءت الشمس التي تغيب أشجار الكستناء بلون برتقالي دافئ - تقريباً أصفر هندي، قال جاد لنفسه، وعن غير قصد، عادت كلمات أغنية *حديقة اللوكسمبورغ* إلى ذهنه:

يوم آخر

من دون حب

يوم آخر

من حياتي

اللوكسمبورغ

شاخت

هل هي من شاخت؟
أم أنا؟
لا أعرف.

مثل كثيرين من الروس، كانت أولغا تعشق جو داسان، خصوصاً أغاني الأسطوانة الأخيرة التي أصدرها، بشجنها المستسلم والشفاف.

كان جاد يرتجف، مستشعراً تفاقم أزمة يتعذّر كبحها، وحين تذكّر كلمات «*تحية أيها العشاق*»، بدأ بالبكاء.

أحببنا بعضنا كما نترك بعضنا
ببساطة، من دون التفكير بالغد
الغد الذي يأتي دائماً بسرعة شديدة،
والوداع الذي يحدث أحياناً بشكل أحسن من اللازم.

في المقهى على ناصية شارع «فافان»، طلب كأساً من البوربون، ثم انتبه في الحال لغلطته. بعد الارتياح من الحرقة، اعتراه الحزن مجدداً، وانهمرت الدموع على وجهه. ألقى نظرة قلقة من حوله، ولكن لحسن الحظ، لم يكن أحد يعيره اهتماماً، فجميع الطاولات كانت مأهولة بطلاب في الحقوق يتحدثون عن الحفلات أو عن «المساهمين الصغار»، يعني عن تلك الأشياء التي تهم طلاب الحقوق. كان باستطاعته البكاء على راحته.

عند خروجه أخطأ في الطريق، تسكع لعدة دقائق وهو في حالة من البلادة الذهنية وكأنه نصف - واعٍ، إلى أن وجد نفسه أمام محل «سونولييه إخوان»، شارع «لاغراند شوميير». في الواجهة، كانوا يعرضون ريشاً، أقمشة من المقاس الرائج، ألوان باستيل ومراهم

تلوين. دخل، ومن دون تفكير، اشترى علبة من «الألوان الزيتية» الأساسية. كان شكلها مستطيلاً، من خشب الزان، مقسّمة من الداخل لأجزاء، وتضم اثني عشر مرهماً من الزيت الممتاز ماركة «سونولييه». كذلك اشترى تشكيلة من الرّيش وزجاجة من مخفف الدهان.

في تلك الظروف، شهدت حياته خطوة «العودة إلى الرسم» التي ستكون محلّ تعليقات وشروحات كثيرة.

١١

لن يظل جاد وفياً لماركة سونولييه فيما بعد، وستكون معظم لوحاته من المرحلة الناضجة منجزة بزيوت «موسيني» من عند «شمينكي». هناك استثناءات، وبعض الأخضرات، تحديداً أخضرات الزنجفر (أحمر قرمزي) التي تمنح ضوءاً بالغ السحر لغابات الصنوبر الكاليفورنية النازلة صوب البحر في «بيل غايتس وستيف جوبس يتحادثان في مستقبل المعلوماتية»، تعود لمجموعة زيوت «رامبرانت» في شركة «رويال تالانس». وللمقاعد، كان عليه دائماً تقريباً استخدام زيوت «أولد هولاند» التي يحبّ سماكتها.

من الممكن للوحات جاد مارتان الأولى، كما سيشير مؤرخو الفن لاحقاً، أن تكون مضللة. بتكريسه أول لوحتين له، «فرديناند ديروش، قصّاب أحصنة»، ثم «كلود فوريلون، مدير حانة»، لمهنٍ في طريقها السريع إلى الزوال، قد يترك مارتان انطباعاً بأنه تحت تأثير نوستالجيا ما وقد يبدو متحسراً على عهد مضى، حقيقي أو متخيل، من فرنسا. إلا أن ذلك هو أبعد ما يكون عن اهتماماته، كما يظهر من بعد معاينة جميع الأعمال.

وإذا كان مارتان قد مال أولاً نحو مهنتين منكوبتين، فليس ذلك

بدافع إثارة التفجع على اختفائهما المحتمل: كان الأمر ببساطة هو أنهما ستختفيان فعلياً قريباً، ومن المهم تثبيت صورتهما على القماش ما دام لا يزال هناك وقت لذلك. وابتداء من لوحته الثالثة من سلسلة المهن، «مايا دوبوا، مساعِدة في مجال الإدارة عن بعد»، يكون قد كرّس نفسه لمهنة غير منكوبة بتاتاً ولا *قديمة الطراز*، بل على العكس من ذلك، مهنة ترمز إلى سياسة *التصريف السريع* التي قادت عملية إعادة الانتشار الاقتصادي في أوروبا الغربية على مشارف الألفية الثالثة.

في الدراسة الأولى التي أفردها لمارتان طوّر «وونغ فو كزين» تناظرية مثيرة ترتكز على عملية قياس الألوان، مفادها أنه من الممكن رسم الأشياء الموجودة في العالم بواسطة عدد معيّن من الألوان الأولية؛ تكون ثلاثة بالحد الأدنى، للحصول على تمثيل واقعي إلى حد ما. ولكن بإمكاننا تماماً إنشاء ميثاق ملواني على أساس أربعة، خمسة، ستة، أو حتى أكثر، من الألوان الأساسية؛ طيف الرسم لن يصبح، جرّاء ذلك، سوى أكثر امتداداً وأكثر رقة.

بالطريقة ذاتها، يؤكد الكاتب الصيني، من الممكن إعادة تكوين ظروف الإنتاج الخاصة بمجتمع ما من خلال عدد معيّن من المهن النموذجية، يمكن أن تتراوح بين عشر وعشرين، بحسب ما يقول (وهو رقم يطرحه من دون إثباته بأي شكل كان).

في الجزء الأكبر عددياً من سلسلة «المهن»، والذي درج مؤرخو الفن على عنونته «سلسلة المهن البسيطة»، يصوّر جاد مارتان ما لا يقل عن اثنتين وأربعين مهنة نموذجية، مانحاً بذلك، لدراسة الظروف الإنتاجية الاجتماعية في زمانه، طيفاً تحليلياً واسعاً وثرياً على وجه الخصوص. اللوحات الاثنتان والعشرون التالية، التي ترتكز على

مواجهات ولقاءات، والمسماة كلاسيكياً «سلسلة تكوينات المؤسسة»، ترمي، من ناحيتها، إلى إعطاء صورة علائقية وجدلية عن طريقة عمل الإقتصاد بمجمله.

استغرق إنجاز جاد مارتان للوحات «سلسلة المهن البسيطة» حوالي سبع سنوات تقريباً. لم يقابل خلالها الكثير من الناس، ولم يبن أي علاقة جديدة. عاطفية كانت أم ودية فقط. إلا أنه حظي بلحظات من السعادة الحسية: حفلة جنس جماعي مع المعكرونة الإيطالية، إثر غارة شنّها على سوبرماركت «كازينو» في جادة «فانسانت أوريول»؛ سهرة هنا أو هناك مع «مرافقة» لبنانية تبرّر خدماتها الجنسية بقوة النقد الإطرائي الجياش الذي تحظى به على موقع «*نياموديل.كوم*». «ليلى أحبك، أنت شمس نهاراتي في المكتب، نجمتي الصغيرة الشرقية» كان يكتب التعساء الخمسينيون، بينما تحلم ليلى، من جهتها، برجال مفتولي العضلات، فحول، فقراء وأقوياء. هذه هي الحياة، بشكل عام، كما هي متوفرة. بعد أن شُخّصَ ببساطة على أنه شاب «غريب قليلاً ولكن لطيف، وغير خطير بالمرة»، استفاد جاد مع ليلى من ذلك النوع من *الحصانة الاستثنائية* التي تمنحها الفتيات منذ الأزل للفنانين.

قد تكون ليلى، لكنها على الأرجح جنفييف، صديقته المدغشقرية القديمة، تلك التي يستحضرها في إحدى لوحاته الأكثر تأثيراً في النفس، «إيميه، فتاة مرافقة»، التي استخدم فيها مجموعة ألوان دافئة بشكل استثنائي، أساسها البني والبرتقالي الهندي وأصفر نابولي. على النقيض من «تولوز لوتريك» حين رسم عاهرة مبالِغةً في

التبرّج، مصابة باليرقان ومنحرفة، رسم جاد مارتان، في شقة حديثة، شابة متفتحة، منشرحة، حسية وذكية في الوقت ذاته، تسبح في الضوء، بينما تدير ظهرها للنافذة المفتوحة على حديقة عامة تم التوصل إلى تشخيصها كـ«سكوير الباتينيول». في تلك اللوحة، ترتدي إيميه تنورة قصيرة بيضاء تلتصق بجسدها، وتبدو على وشك الانتهاء من وضع بلوزة صغيرة جداً ذات لون أصفر مائل إلى البرتقالي، تكاد لا تغطي جزئياً صدرها الرائع.

ليست تلك هي اللوحة الإيروتيكية الوحيدة لمارتان فحسب، لكنها أيضاً الأولى التي نستطيع رصد أصداء أوتوبيوغرافية صريحة فيها.

أما الثانية في هذا السياق فهي لوحة «المهندس جان بيار مارتان وهو يتخلى عن إدارة شركته»؛ التي رسمها بعد مرور سنتين على تلك الأولى. حددت تلك اللوحة بداية مرحلة جنون إبداعي ستدوم عاماً ونصف العام لتُختتَم مع لوحة «بيل غايتس وستيف جوبس يتحادثان حول مستقبل المعلوماتية»، ذات العنوان الفرعي «*محادثة بالو ألتو*»، والتي يعتبرها الكثيرون بمثابة عمله الأروع. من المذهل التفكير في أن اللوحات الاثنتين والعشرين في «سلسلة تكوينات المؤسسة»، المركّبة في الأغلب، وذات الحجم الكبير، قد نُفِّذَت خلال أقل من ثمانية عشر شهراً. من المدهش أيضاً أن يكون جاد مارتان قد أخفق أخيراً في لوحة «داميان هيرست وجيف كونز يتقاسمان سوق الفن»، التي كان من شأنها، من جوانب عديدة، أن تشكّل الند لتأليف جوبس - غيتس.

في معرض تحليله لذلك الفشل يرى وونغ فو غسين فيه سبب

عودة جاد، بعدها بعام، إلى «سلسلة المهن البسيطة» عبر إنجازه للوحته الخامسة والستين، والأخيرة. هنا، يتغلب وضوح نظرية الكاتب الصيني على اليقين: عبر رغبته في تقديم رؤية شاملة للقطاع الإنتاجي في المجتمع الذي عاصره، مثّل جاد مارتان بالضرورة، في لحظة أو في أخرى من سيرته المهنية، فناناً.

القسم الثاني

١

استيقظ جاد من نومه مذعوراً صباح الخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر؛ كانت الساعة قد قاربت الثامنة والفجر قد طلع على ساحة الألب. وجد ممسحة في المطبخ، فمسح قيئه، ثم تأمل الأنقاض اللزجة لـ«داميان هيرست وجيف كونز يتقاسمان سوق الفن». فرانز على حق. لقد آن الأوان لتنظيم معرض، فهو يدور حول نفسه منذ أشهر، وقد بدأ ذلك يؤثر على مزاجه. يمكننا أن نعمل وحدنا لسنوات، حتى إنها الطريقة الوحيدة للعمل في الحقيقة؛ لكن تأتي دائماً لحظة نشعر فيها بالحاجة لإطلاع العالم على عملنا، ليس للحصول على حكم أو على تقييم منه، وإنما لنتيقن من وجود العمل، بل حتى من وجودنا، ففي حضن النوع الاجتماعي، ليست الفردية سوى وهم سريع الزوال. وهو يفكّر في عظات فرانز، كتب رسالة تذكير إلكترونية لويلبيك، ثم حضّر لنفسه كوباً من القهوة. بعدها بعدة دقائق أعاد قراءة رسالته باشمئزاز. «في فترة الأعياد هذه، التي أفترض أنكم تقضونها مع العائلة...» ماذا حل به ليكتب حماقات كهذه؟ رغم شهرته، كان ويلبيك إنطوائياً، كاره للبشر، يكاد لا يوجّه الحديث لكلبه. «أعرف أنكم مشغولون بالكثير، لذلك أطلب منكم قبول اعتذاري وأنا أسمح لنفسي بالإلحاح مجدداً على الأهمية

التي ستكون عليها بنظري، كما بنظر الغاليريست المسؤول عن أعمالي، مشاركتكم في كاتالوغ معرضي المقبل.» نعم، هذا أفضل، قليل من التملق لن يضرّ. «أرسل لكم مرفقاً بعض الصور لأعمالي الأخيرة، وأنا تحت تصرفكم لتقديم كل عملي بشكل كامل متى وحيث تشاؤون. أعتقد أنكم تعيشون في إيرلندا؛ باستطاعتي الحضور إذا كان ذلك يناسبكم أكثر». حسناً، هذا يفي بالغرض، قال لنفسه، وهو يضغط على زر *إرسال*.

كانت الباحة المرصوفة في مركز التسوق «أولمبياد» مقفرة في هذا الصباح من كانون الأول/ ديسمبر، والبنايات الرباعية الزوايا والمرتفعة تشبه أنهاراً جليدية ميتة. بينما كان يوغل في الظلال الباردة لبرج أوميغا، فكّر جاد بفريديريك بايبدير. كان بايبدير على معرفة بويلبيك، على الأقل ذلك كان صيته؛ ربما يتدخل ويتوسط له لدى ويلبيك. لكن رقم هاتف بايبدير الذي بحوزته قديم ولا يملك غيره، ثم إنه في جميع الأحوال وبالتأكيد لن يرد نهار الميلاد.

لكنه رد. «أنا مع ابنتي» قال بنبرة نَكِدة. «لكنني سأوصلها عند والدتها بعد قليل» أضاف للتخفيف من نبرة اللوم.

«لدي خدمة أطلبها منكم.

- ها ها ها!» قهقه بايبيدير ببهجة متكلفة. «أتعرف أنك شخص مدهش؟ لا تتصل بي خلال عشر سنوات، ثم تتصل نهار الميلاد لتطلب مني خدمة. أنت نابغة على الأرجح. يتطلب الأمر نبوغاً للوصول إلى هذا الحد من محورية الذات التي تقارب التوحد... حسناً، لنلتقي في فلور عند السابعة» ختم مؤلف «*رواية فرنسية*» بطريقة غير متوقعة.

وصل جاد متأخراً خمس دقائق، لمح فوراً الكاتب على طاولة في القعر. حوله كانت الطاولات المجاورة فارغة، تشكّل نوعاً من الحزام الآمن على بعد مترين من كل جهة.

كان ريفيّون داخلون إلى المقهى، وحتى بعض السيّاح، ينكزون بعضهم البعض بافتتان مشيرين إليه بأصابعهم. ومن وقت لآخر يخترق أحد المعارف الحزام الآمن، ويقبله قبل أن يختفي. بالطبع كانت المساحة التي يحتلها تحرم المؤسسة التجارية من بعض الأرباح المحتملة (مثلما كان للشهير فيليب سولليرز، على ما يبدو، في حياته، طاولة محجوزة باسمه في «كلوزري دي ليلا»، لا تعطى لأحد غيره، أكان حضر للغداء أم لم يحضر). إلا أن تلك الخسارة البسيطة كانت تُعوَّض بقوة من خلال الاستقطاب السياحي الذي كان يوفره للمقهى الوجود المنتظم والثابت لكاتب «*٩٩ فرنك*». حضور يتسق تماماً، بالإضافة إلى ذلك، مع النزعة التاريخية للمؤسسة. كان فريديريك بايبدير بسبب مواقفه الشجاعة التي أصدرها لصالح تشريع المخدرات وخلق حيثية للبغايا من الجنسين، وتلك الأكثر ملاءمة من الناحية الإجتماعية التي خصّص بها فاقدي الأوراق والظروف المعيشية الصعبة التي يخضع لها المساجين، قد تحول شيئاً فشيئاً إلى نوع من سارتر الأعوام ٢٠١٠، أمام ذهول من حوله وذهوله الخاص أيضاً، إذ إن ماضيه كان يؤهله لأن يؤدي بالأحرى دور كتّاب مثل «جان إيديرن هالبير» أو حتى «غونزاغ سانت بريس».

بصفته رفيق درب متشدّد لـ«*الحزب الجديد المناهض للرأسمالية*»، كان قد أشار أخيراً إلى مخاطر الانحرافات المناهضة للسامية للناطق باسمه، أوليفييه بيزانسونو، خلال مقابلة أجرتها مع مجلة «*شبيغل*»، وبذلك نجح في أن يُنسي الناس الأصول - نصف

البورجوازية، نصف الأرستقراطية - لعائلته، وأن ينسيهم حتى موقع أخيه في وسط الهيئة الإدارية الفرنسية لأرباب العمل. حتى سارتر نفسه، في الحقيقة، كان أبعد ما يكون عن نشأة بائسة في كنف عائلة فقيرة.

جالساً إلى الطاولة وأمامه طبق، كان الكاتب يتأمل بشجن مقرصة (آلة لصنع الأقراص) معدنية، فارغة تقريباً، لم تعد تحوي سوى بقايا غامضة من الكوكايين.

عند رؤية جاد، أشار له بالجلوس إلى طاولته. واقترب النادل بسرعة لأخذ الطلب.

«أمممم، لا أعرف. «فياندوكس» ربما؟ ألا يزال ذلك المشروب يقدَّم؟

- فياندوكس... كرّر بايبدير بتأمل. أنت فعلاً شخص مضحك...

- لقد فوجئت أنك تذكرتني.

- آه نعم... أجاب الكاتب بنبرة حزينة بشكل مستغرب. آه نعم، أتذكرك..»

عرض جاد قضيته.

على ذكر اسم ويلبيك، لاحظ أن إجفالاً خفيفاً انتاب بايبدير.

«لا أطلب منك رقم تلفونه، أضاف جاد سريعاً، أسألك فقط، إن كان باستطاعتك ذلك، أن تتصل به لتحدثه عن طلبي.»

جلب النادل الفياندوكس. سكت بايبدير لبرهة، مفكراً.

«حسناً» قال أخيراً. «حسناً، سأتصل به. عموماً ليس بالإمكان

أبداً توقّع رد فعله؛ ولكن، في هذه الحالة بالذات من الممكن أن تكون له مصلحة في عرضك.

- أتعتقد انه سيقبل؟

- هذا، لا أستطيع معرفته بتاتاً.

- ما الذي قد يقنعه برأيك؟

- حسناً.. سأفاجئك ربما بما سأقوله هنا، لأنه، عادةً، لا يُعرَف أبداً بهذا الصيت: المال. في المبدأ، هو لا يكترث للمال، يعيش على البلاط فحسب؛ لكن طلاقه قد عصره تماماً. بالإضافة إلى ذلك، كان قد اشترى شققاً في إسبانيا، على الساحل البحري، ستتم الآن مصادرتها من دون أي تعويض، بسبب المفعول الرجعي لقانون أصدروه هناك منذ فترة قصيرة، يهدف لحماية الشاطئ - قصة مجانين. في الحقيقة، أعتقد أنه منزعج قليلاً في هذه المرحلة - غير معقول، أليس كذلك، مع كل ما كان قد كسبه من مال؟

إذاً، هذا هو الحال: إذا اقترحت عليه مبلغاً لا بأس به من المال، أعتقد أنه ستكون لك حظوظ.»

سكت، أنهى طبقه برشفة واحدة، وطلب آخر، وهو يتأمل جاد بمزيج من النقمة والشجن.

«أتعرف...» قال أخيراً، «أولغا. كانت تحبك.»

تكوّم جاد قليلاً على كرسيه. «أريد أن أقول..» تابع بايبدير، «كانت تحبك فعلاً». سكت، وتأمله وهو يهزّ برأسه، غير مصدّق. «وتركتها ترحل إلى روسيا... وانقطعت عنها تماماً أنت وأخبارك... الحب... الحب نادر. ألم تكن تعرف هذا؟ ألم يخبرك أحد عن ذلك أبداً؟»

« أقول لك هذا، رغم أنه ليس من شأني بطبيعة الحال، تابع، إلا أنها ستعود قريباً إلى فرنسا. لا يزال لدي أصدقاء في التلفزيون، عرفت منهم ذلك، كما عرفت أن ميشلان ستنشئ قناة جديدة على باقة قنوات «تي.أن.تي» (TNT) الفرنسية، ميشلان تي.في، متخصصة في الغذاء، والمناطق، والإرث والمناظر الفرنسية، إلخ. أولغا هي من ستديرها. حسناً، على الأوراق، سيكون جان بيار بيرنو هو المدير العام؛ ولكن، في الواقع، هي من ستحظى بكل السلطة على البرامج. حسناً...»

إختتم بنبرة تشير بوضوح إلى انتهاء المحادثة، «جئت تطلب مني خدمة صغيرة، فأديت لك واحدة كبيرة.»

ألقى نظرة لاذعة على جاد الذي كان يهمّ بالمغادرة. «إلا إذا كنت تعتبر أن معرضك هو الأهم...» هزّ رأسه مجدداً، وأضاف بتقزز، وهو يتمتم بصوت غير مسموع تقريباً: «تباً للفنانين...».

٢

كان مطعم «مخزن السوشي» في القطاع E2، من مطار رواسي (شارل دو غول) يقدم خيارات مميزة من المياه المعدنية النروجية. قرر جاد أن يتناول الـ«هوسكفارنا»، وهي مياه معبأة في وسط النروج نوعاً ما، فوارة بتحفظ. كانت شديدة النقاء - في الحقيقة، ليس أكثر بكثير من الأصناف الباقية. فجميع الأصناف المقدمة تتميز بأنها فوارة، مع اختلاف ملمس كل واحدة منها في الفم بشكل بسيط؛ إلا أن أياً منها لم تكن مملحة ولو قليلاً، ولا حديدية. يبدو أن النقطة المشتركة بين جميع أصناف المياه المعدنية النروجية هي الاعتدال. لا شك أن هؤلاء النروجيين هم مُتعيّون(*) بارعون، قال جاد لنفسه وهو يدفع ثمن الزجاجة التي تناولها؛ فمن الرائع، تابع مخاطباً نفسه، أن تكون متوفرة لديهم كل تلك الأشكال المتنوعة من النقاء.

سريعاً، وصلت مرحلة السقف الغائم في الرحلة، ومعها ذلك اللاشيء الذي يميز سفراً جوياً فوق السقف الغائم. بشكل مقتضب،

(*) نصراء لمذهب المتعيَّة، القائل بأن كل نشاط اقتصادي يقوم على إرضاء طبقات المجتمع وتحقيق أكثر ما يمكن من رغباته (المترجمة).

في منتصف الرحلة، لمح السطح الهائل والمجعد للبحر، كجلد عجوز في المرحلة النهائية من حياته.

في المقابل، سحر مطار «شانون» جاد، بأشكاله المستطيلة والواضحة، وارتفاع سقفه، والأحجام المذهلة لممراته - المتحركة ببطء. فهو لم يعد مستخدماً أبداً إلا للشركات *ذات التعرفة المنخفضة* ولنقل القوات العسكرية الأميركية، لكنه كان مجهزاً على ما يبدو لاستيعاب حركة مرور أكبر بخمس مرات. ببنيته المكونة من دعائم معدنية، وبسجادته الممدودة، كان تاريخ إنشائه يعود على الأرجح إلى مطلع الستينيات، أو حتى أواخر الخمسينيات، كان يستحضر، أكثر من مطار أورلي، مرحلة الحماسة التكنولوجية تلك التي كان النقل الجوي، أكثر من غيره، أحد إنجازاتها المرموقة والمبتكرة. فقد كان السفر الجوي، منذ مطلع السبعينيات، ومع أوائل الهجمات الفلسطينية - التي استبدلت فيما بعد، بشكل أكثر دراماتيكية ومهنية بهجمات القاعدة - قد تحوّل إلى تجربة تعيد المرء طفلاً وتشبه الاعتقال، فيُتمنّى اجتيازها في أسرع وقت ممكن.. ولكن آنذاك فكّر جاد وهو ينتظر حقيبته في صالة الوصول الشاسعة - عربات نقل الأمتعة المعدنية المربعة والثقيلة كانت هي أيضاً على الأرجح من ذلك الزمن - في ذلك الزمن المدهش العائد لـ«*الثلاثين المجيدة*» (لقب أطلقه الاقتصادي جان فوراستييه عام ١٩٧٩على سنوات ١٩٤٥ حتى ١٩٧٥ التي عرفت فيها البلدان المتطورة طفرة اقتصادية هائلة)، كان السفر الجوي، رمز المغامرة التكنولوجية الحديثة، شيئاً آخر.

بعد أن اقتصر بادئ ذي بدء على المهندسين و*الكوادر*، بناة عالم الغد، كان في طريقه لأن يصبح، لم يشك أحد في ذلك في سياق ديمقراطية اجتماعية مسيطرة، متاحاً أكثر فأكثر للشرائح الشعبية،

تزامناً مع التطور الذي شهدته *قدرتهم الشرائية* و*وقتهم الحرّ* (وهو ما حصل فعلاً في النهاية، ولكن، من بعد التفاف قامت به الليبرالية المتطرفة المتمثلة تماماً بـ *الشركات ذات التعرفة المنخفضة*، وعلى حساب خسارة تامة للامتياز الذي كان يرتبط سابقاً بالنقل الجوي).

بعد ذلك بدقائق، تلقى جاد تأكيداً على نظريته حول عمر المطار. كان رواق الخروج الطويل مزيناً بصور شخصيات بارزة قد شرّفت المطار بزيارتها - تحديداً رؤساء للولايات المتحدة وباباوات. جان بول الثاني، جيمي كارتر، جان الثالث والعشرون، جورج بوش الأول والثاني، بول السادس، رونالد ريغان... لم تهمل اللائحة أحداً. حين وصل إلى نهاية الرواق، فوجئ جاد حين اكتشف أن أول هؤلاء الزائرين المشهورين لم يخلَّد بواسطة صورة وإنما، في الواقع، بواسطة *لوحة*.

واقف على المدرج، كان جون فيتزغيرالد كينيدي قد ابتعد عن المجموعة الصغيرة من الرسميين - الذين نلاحظ بينهم وجود كنسيين اثنين؛ وفي الخلفية رجال يرتدون قماش الغبرديني ينتمون على الأرجح لأجهزة الأمن الأميركية. وهو يطلق يده إلى الأمام وإلى الأعلى - صوب الحشد المتكدس وراء الحواجز، كما يمكننا التوقع - كان كينيدي يبتسم ابتسامةً تنضح بذلك التفاؤل وتلك الحماسة القميئين اللذين يصعب جدا على غير الأميركيين افتعالهما. وجهه، بعد أن قلنا قولنا هذا، كان يبدو وكأنه قد خضع لعمليات تجميل بالبوتوكس. وهو يتراجع إلى الوراء، راقب جاد بانتباه مظهر مجمل الشخصيات البارزة. كان بيل كلينتون لحيماً ومالساً مثله مثل سلفه الأشهر؛ فالرؤساء الديمقراطيون الأميركيون، يجب الاتفاق على

ذلك، يشبهون عموماً رجالاً شبقين خضعوا لعمليات البوتوكس.

على أنه بالعودة إلى بورتريه كينيدي توصّل جاد إلى خلاصة من نوع آخر. فالبوتوكس لم يكن موجوداً في ذلك الزمن، لذلك كان التحكم بالانتفاخات الدهنية والتجاعيد، الذي يتم اليوم بواسطة الحقن عبر الجلد، يتم وقتها بريشة الفنان البارعة. هكذا، في نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات، كان لا يزال من الملائم تلزيم عناية زخرفة وتمجيد لحظات من الحكم إلى فنانين رسامين - على الأقل للأقل موهبة منهم.

كنا من دون شك أمام لوحة رديئة، وتكفي مقارنة الطريقة التي عولجت بها السماء بتلك التي كان ليعتمدها تورنر أو كونستابل، حتى رسامو المائيات الإنجليز من الصف الثاني كانوا ليتدبروا أمرهم أفضل من ذلك. على أن ذلك لا يمنع أنه كان في تلك اللوحة نوع من الحقيقة الإنسانية والرمزية، تتعلق بجون فيتزغيرالد كينيدي، لم تبلغها أي من صور الغاليري الأخرى - حتى تلك الخاصة بجان بول الثاني، التي تم التقاطها وهو على سلّم الطائرة، فاتحاً ذراعيه على وسعهما ليحيي أحد آخر الشعوب الكاثوليكية الأوروبية، رغم أنها منجزة بحسب الأصول.

كان فندق «أووكوود آرمز» يستوحي بدوره ديكوراته من المراحل الأولى للطيران التجاري: إعلانات للخطوط الجوية الفرنسية وللوفتهانزا تعود لتلك السنوات، صور بالأبيض والأسود لطيارتي «دوغلاس دي سي - ٨» و«كارافيل» تخترقان أجواء صافية، ولملاحين بزيّهم الكامل متموضعين بفخر في قُمرة القيادة. عرف جاد من الإنترنت أن مدينة «شانون» تدين بوجودها للمطار. فقد تم بناؤها

في الستينيات، على موقع خال من السكان وليس فيه أي قرية قبل ذلك. والهندسة الإيرلندية، بحسب ما رآه، لم تكن تتحلى بأي طابع مميز: كانت خليطاً من البيوت الصغيرة ذات السقف القرميدي الأحمر، تشبه تلك التي قد نراها في الضواحي الإنكليزية، ومن الشاليهات الواسعة البيضاء، المحاطة بمساحة مزفتة تحيط بأطرافها النجيلة، على الطريقة الأميركية.

كان يتوقع، بصورة أو بأخرى، أن يضطر إلى ترك رسالة لويلبيك على مجيبه الآلي، فحتى الآن لم يتواصلا سوى عبر البريد الإلكتروني، ثم بالرسائل الإلكترونية بعد ذلك. إلا أن هذا الأخير ردّ، بعد عدة رنّات.

«ستهتدي للمنزل بسهولة، هي النجيلة الأقل اعتناء في المنطقة» قال له ويلبيك. «وربما في كل إيرلندا» أضاف. في لحظتها، اعتبر ذلك مبالغة، لكن الحشيش كان يصل، في الواقع، لمستويات من الطول استثنائية. سلك جاد درباً مبلّطة تتلوّى على مسافة عشرة أمتار تقريباً بين شتول الشوك والعليق حتى وصل إلى أرض منبسطة مزفتة. هناك كان الكاتب يركن سيارته الـ«ليكسوس ¸يو.في آر. إكس ٣٥٠».

كما هو متوقع، كان ويلبيك قد اعتمد خيار الشاليه: كانت ملكية كبيرة بيضاء وجديدة، سقفها من الأردواز - بيت عادي تماماً، في الحقيقة، إذا ما وضعنا جانباً حال النجيلة المزري.

دق على الباب، وانتظر حوالي ثلاثين ثانية قبل أن يفتح له مؤلف «*الجزيئيات الأساسية*». كان ينتعل خفّين، ويرتدي بنطالاً مخملياً مضلعاً وسترة منزلية مريحة مصنوعة من الصوف الخام. تأمل

جاد طويلاً، وبتفكّر، قبل أن ينقل نظره نحو المرجة بتأمل عابس يبدو أنه معتاد عليه.

«لا أعرف كيف أستخدم الجزّازة»، قال باختصار. «أخاف أن أقص أصابعي بالشفرات، يبدو أنها حادثة كثيرة الوقوع. باستطاعتي شراء خروف، لكنني لا أحب الخرفان. ليس هناك ما هو أكثر غباء منها.»

تبعه جاد في الغرف المبلّطة، الفارغة من أي أثاث، باستثناء بعض صناديق الكرتون المستخدمة في نقل المسكن، المرمية هنا وهناك. كانت الجدران مكسوة بورق الجدران ذاته، ذي اللون الأبيض العاجي؛ وكانت طبقة خفيفة من الغبار تكسو الأرضية. كان المنزل شاسعاً، يحوي حوالي خمس غرف على الأقل؛ لم يكن الجو حاراً جداً، ست عشرة ردجة ليس أكثر؛ حزر جاد، بالحدس، أن جميع الغرف ربما، باستثناء تلك التي ينام فيها ويلبيك، فارغة.

«انتقلت إلى هنا حديثاً؟

- نعم. أعني، منذ ثلاث سنوات.»

وصلا أخيراً إلى غرفة أكثر دفئاً بقليل. نوع من الحديقة الداخلية الصغيرة مربعة الشكل، ثلاثة من جدرانها زجاجية، ما يسمّيه الإنكليز «مشتل ورود زجاجي». كانت تلك الغرفة مؤثثة بكنبة، وبطاولة منخفضة، وبكرسي ذي ذراعين؛ بينما تزيّن الأرضية سجادة شرقية كان قد اشتراها خلال فترة التنزيلات الموسمية. كان جاد قد جلب معه ملفين بحجم "A3"؛ يضمّ أحدهما حوالي أربعين صورة تؤرخ لمراحل سيرته السابقة. منتقاة تحديداً من سلسلة «موادّ العالم المصنّعة» ومن مرحلة «خرائط الطريق». أما في الملف الثاني، فقد

أرفق أربعاً وستين صورة للوحاته الكاملة منذ «فرديناند ديروش، قصّاب أحصنة» حتى «بيل غايتس وستيف جوبس يتحادثان حول مستقبل المعلوماتية».

«أتحب لحوم الخنزير الباردة؟ سأل الكاتب.

- نعم... فلنقل أنه ليس لديّ شيء ضدها.

- سأحضر القهوة.»

قام بحيوية وعاد بعدها بعشر دقائق تقريباً، حاملاً كوبين وإبريق قهوة إيطالي.

«ليس لديّ حليب ولا سكر، أعلن.

- لا مشكلة. لا أتناولهما.»

كانت القهوة لذيذة. طال الصمت، مطبقاً، لحوالي دقيقتين أو ثلاثة.

«كنت أحب جداً تناول لحوم الخنزير الباردة» قال ويلبيك أخيراً، «لكنني قررت التوقف عن تناولها. أتعلم، أعتقد أنه لا يجب أن يُسمَح للإنسان بقتل الخنازير. أخبرتك عن رأيي السلبي بالخرفان؛ وأصرّ على رأيي. ويبدو لي أن البقرة نفسها، وأختلف في هذه النقطة مع صديقي بونوا دوتورتر، تحوز على تقدير مبالغ به. لكن الخنزير حيوان رائع، ذكي، حساس، قادر على منح عاطفة صادقة وحصرية لسيده. وذكاؤه، في الحقيقة، يفاجئ، ولا نعرف بالظبط حدوده. أتعرف أنهم توصلوا لتلقينه العمليات الحسابية البسيطة؟ الجمع على الأقل، في نهاية الأمر، والطرح على ما أعتقد عند بعض الأجناس الموهوبة جداً. هل يحق للإنسان التضحية بحيوان قادر على الارتقاء إلى مصاف أصول الحساب؟ بصراحة، لا أعتقد ذلك».

من دون أن ينتظر إجابة، انغمس في تأمل ملف جاد الأول. بعد

أن تأمل سريعاً صور المسامير والصمولات، توقّف، لوقت بدا لجاد لا نهائياً، أمام أعمال الخرائط الطرقية. من وقت لآخر، وبطريقة غير متوقعة، كان يقلب صفحة. ألقى جاد نظرة خاطفة على ساعته: كان قد مر أكثر من ساعة بقليل على وصوله. كان الصمت تاماً؛ إلى أن شقه، من بعيد، صوت قرقرة مجوّفة لمضخة الثلاجة.

«هذه أعمال قديمة»، قال جاد في النهاية. «أحضرتها فقط لتحديد الموقع الذي تحتله أعمالي الفنية. المعرض... يتناول فقط محتوى الملف الثاني.»

رفع ويلبيك باتجاهه نظرة فارغة، بدا وكأنه نسي ماذا كان جاد يفعل عنده، وسبب وجوده. رغم ذلك، فتح، منصاعاً، الملف الثاني. مرت نصف ساعة أيضاً قبل أن يغلقه بحركة جافة، ويشعل سيجارة. عندها لاحظ جاد أنه لم يدخّن أبداً، طوال الوقت الذي كان يتأمل خلاله صوره.

«سوف أقبل»، قال. «أتعرف، لم أقم بذلك أبداً من قبل؛ لكنني كنت أعرف أن ذلك سيحصل، في لحظة ما أو في أخرى من حياتي. كثير من الكتّاب، إذا راقبت عن كثب، كتبوا عن فنانين؛ وذلك منذ عصور. غريب. هناك شيء أتساءل عنه منذ أن اطّلعت على أعمالك منذ قليل: ما الذي يجعلك تترك التصوير؟ لم العودة إلى الرسم؟»

فكر جاد طويلاً قبل أن يجيب. «لست متأكداً إن كنت أعرف» اعترف في النهاية. «لكن مشكلة الفنون التشكيلية، على ما أعتقد»، تابع بتردد، «هي غزارة المواضيع. مثلاً، أستطيع بسهولة اعتبار جهاز التدفئة المركزي هذا كموضوع تصويري فني مناسب.»

استدار ويلبيك برشاقة ملقياً على الجهاز نظرة ارتياب، وكأنه يتوقع أن يطير هذا الأخير من الفرحة لفكرة أنه سيرسَم. إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث.

«أنت، لا أعرف إن كان باستطاعتك القيام بشيء، على المستوى الأدبي، فيما يتعلق بالجهاز»، قال جاد بإصرار. «في النهاية نعم، هناك روب جريلليه، كان ببساطة ليصف الجهاز... لكن، لا أعرف، لا أجد هذا شيّقاً...».

كان يورّط نفسه أكثر فأكثر، واعياً بارتباكه وحتى بعشوائيته. فهو لا يملك أدنى فكرة عما إذا كان ويلبيك يحب روب جريلليه أم لا، ولكنه كان يتساءل بصورة رئيسية، بنوع من القلق، لماذا تحوّل نحو الرسم، الذي لا يزال، بعد مرور سنوات، يطرح له مشاكل تقنية يعجز عن تجاوزها، بينما يتقن تماماً مبادئ التصوير وأصبح ضليعاً بأجهزته.

«لننسَ روب جريلليه» حسم محدّثه، فتنفّس الصعداء. «نعم، في نهاية المطاف، بهذا الجهاز، نستطيع القيام بشيء... مثلاً، أعتقد أنني قرأت على الإنترنت أن والدك كان مهندساً...

- نعم، هذا صحيح؛ لقد رسمته في إحدى لوحاتي، يوم ترك إدارة شركته.

- قلّما يشتري الناس بصفتهم أفراداً هذا النوع من أجهزة التدفئة المركزية. شركات البناء، مثل تلك التي كان والدك يديرها، هي من تشتريها عادة، وتشتري العشرات منها، بل حتى المئات. باستطاعتنا تخيّل سيناريو شيّق عن سوق مهم يتعلق بآلاف الأجهزة - مثلاً لتجهيز كل قاعات الصفوف في مدارس بلد ما - رشاوى، تدخلات سياسية، وسيطة تجارية مثيرة جداً لشركة مصنّعة رومانية. في هذا

الإطار، يمكن بسهولة تخصيص صفحات عديدة نصف على مداها بشكل مسهب هذا الجهاز ومختلف الموديلات المتنافسة منه.»

كان يتحدث الآن بسرعة، وهو يشعل سيجارة تلو الأخرى، ويعطي انطباعاً بأنه يدخّن ليهدأ، وليبطئ عمل دماغه. بشكل عابر، فكر جاد في أن والده، نظراً لنشاطات الشركة، كان في موقع يخوّله فعلاً شراء أجهزة تدفئة على نطاق واسع. ولا شك في أنه قام بذلك.

« هذه الأجهزة مصنوعة من الحديد، تابع ويلبيك بانتعاش؛ الحديد المصبوب على الأرجح، بمعدلات كربون عالية، تناول الخبراء خطورتها عدة مرات في تقاريرهم. قد نعتبر أنه من الشائن أن يكون هذا المنزل الحديث قد جُهّز بأجهزة قديمة إلى هذا الحد، عليها تنزيلات بطريقة ما، وفي حال وقوع حادثة، مثل انفجار الجهاز، أستطيع على الأرجح أن أدّعي على المقاولين. أعتقد أن والدك، في حال كهذا، سيعتبر مسؤولاً؟

- نعم، من دون شك.

- هاك موضوعاً رائعاً، مثير جداً حتى، *مأساة إنسانية صادقة!»* تحمّس مؤلف *«الرصيف»*. «بديهياً، يحيل الحديد القرن ١٩، للأرستقراطية العاملة في مصاهر الحديد، التي سقطت كلياً بالتقادم بشكل عام. ورغم ذلك لا نزال نصنّع الحديد المسبوك، ليس في فرنسا طبعاً، ولكن في بلدان مثل بولونيا أو ماليزيا. اليوم باستطاعتنا بسهولة أن نتناول في روايةٍ ما مسار الحديد الخام، والانصهار التحليلي للحديد ولفحم الكوك المعدني، وتصنيع المنتج، وتسويقه في النهاية - قد يأتي ذلك في افتتاحية الكتاب، كتأريخ لأجهزة التدفئة المركزية.

- في جميع الأحوال، أعتقد أنك تحتاج إلى شخصيات...

- نعم، هذا صحيح. حتى ولو كان موضوعي الفعلي هو العمليات الصناعية، من دون شخصيات، لن أستطيع القيام بشيء.

- أعتقد أن ذلك هو الفرق الأساسي. عندما اقتصر عملي الفني على تجسيد أشياء ناسبني التصوير تماماً. ولكن حين قررت أن أتخذ من البشر موضوعاً لأعمالي شعرت بأنه عليّ العودة إلى الرسم؛ لا أستطيع أن أقول لك تماماً لماذا. في المقابل، أصبحت أعجز تماماً عن التوصل إلى إيجاد أهمية في الطبيعة الصامتة؛ فمنذ اختراع التصوير أعتقد أنها لم تعد لها أي معنى. في النهاية هذه وجهة نظر شخصية...» اختتم بنبرة آسفة.

كان المساء يهبط. عبر النافذة الجنوبية، بدت الحقول الممتدة نزولاً حتى مصب نهر شانون؛ وفي البعيد طفت على سطح الماء سحابة تعكس بوهن أشعة الشمس وهي تغيب.

«مثلاً، هذا المنظر...» تابع جاد. «حسناً، أعرف أن ثمة لوحات مائية انطباعية جميلة جداً من القرن ١٩؛ ولكن، لو كان عليّ نقل هذا المنظر اليوم، لالتقطت له صورة فقط. في المقابل، لو كان هناك كائن بشري في الديكور، حتى ولو كان مجرد فلاح يلوح في البعيد وهو يرمّم سياج حقله مثلاً، عندها سأميل نحو اللجوء إلى الرسم. أدرك أن هذا قد يبدو عبثياً؛ البعض قد يقول لك إن الموضوع غير ذي أهمية، وإن ربط طريقة التنفيذ به لأمرٌ سخيف، وإن الشيء الوحيد المهم هو الأسلوب الذي تنجز به اللوحة أو الصورة لناحية تأليف الأشكال والخطوط والألوان.

- نعم، وجهة النظر الشكلية... نجد هذا لدى الكتّاب أيضاً؛ حتى أنها أكثر شيوعاً في الأدب عما هي عليه في الفنون التشكيلية، على ما أعتقد».

سكت ويلبيك، ثم خفض رأسه، ورفع نظره نحو جاد؛ وفجأة بدا كأن أفكاراً غاية في الحزن قد اجتاحته. قام ومشى باتجاه المطبخ؛ عاد بعدها بدقائق حاملاً زجاجة نبيذ أحمر أرجنتيني وكأسين.

«سنتناول العشاء معاً، إذا أردت ذلك. مطعم «أووكوود آرمز» ليس سيئاً. يقدّمون الأطباق الإيرلندية التقليدية - السلمون المدخن، اليخنة الإيرلندية، أشياء تافهة وبدائية في الحقيقة؛ ولكن لديهم أيضاً وجبات الكباب والتاندوري وطباخهم باكستاني.

- الساعة لم تبلغ السادسة بعد» قال جاد متفاجئاً.

- نعم، أعتقد أنهم يفتحون عند السادسة والنصف. يتناولون الطعام باكراً، لعلمك، في هذه البلاد، لكنه ليس باكراً بما فيه الكفاية بالنسبة لي. ما أفضله، الآن، هو نهاية كانون الأول/ ديسمبر؛ حين يهبط الليل عند الساعة الرابعة. عندها أستطيع ارتداء ثياب النوم، وتناول عقاقيري المنومة، والذهاب إلى السرير مع زجاجة نبيذ وكتاب. بهذه الطريقة أعيش منذ سنوات. تشرق الشمس عند التاسعة صباحاً؛ بين الاغتسال وجرعات القهوة المتتالية، تقترب الظهيرة، فلا يبقى من النهار سوى أربع ساعات عليّ تحمّلها، وغالباً ما أتوصل لذلك من دون أضرار كثيرة. ولكن الوضع لا يحتمل في الربيع، حيث غياب الشمس لانهائي وخلاب، كنوع من الأوبرا الأخّاذة اللعينة. هناك دائماً ألوان جديدة، وإضاءات جديدة. حاولت مرة أن أبقى هنا طوال الربيع والصيف، وكدت أموت. كنت أصل عند كل مساء لحافة الانتحار، بانتظار ذلك الليل الذي لا يهبط أبداً.

مذ ذاك، ما إن يبدأ شهر نيسان/ أبريل، حتى أذهب إلى تايلاندا وأظل هناك حتى آب/ أغسطس. هناك يبدأ النهار في السادسة وينتهي

في السادسة، الأمر أبسط، إستوائي، إداري، يكون الحرّ قاتلاً لكن التكييف يعمل جيداً. صحيح أن الموسم الميت سياحياً يكون خلاله، حتى لا تكاد تعمل المواخير، إلا أنها لا تقفل أبوابها رغم كل شيء، وتظل خدماتها ممتازة أو جيدة جداً على الأقل، وذلك يناسبني.

- هنا، لدي انطباع أنك تؤدي الدور الخاص بك بعض الشيء...

- نعم، هذا صحيح» وافق ويلبيك بتلقائية مفاجئة، «هذه أشياء لم تعد تهمني كثيراً. سوف أتوقف قريباً. في جميع الأحوال سأعود إلى «لواريه»؛ قضيت طفولتي في «لواريه»، كنت أبني أكواخاً في الغابة، وأعتقد أن باستطاعتي أن أجد لنفسي نشاطاً في النطاق ذاته. صيد «الراغوندين»(*) ربما؟»

كان يقود بسرعة، وبمرونة، وبمتعة سيارته الـ«ليكسوس». «مع ذلك، هنّ يلحسن العضو التناسلي من دون واقٍ، وهذا شيء جيد...» غمغم مؤلف «*الجزيئيات القاتلة*» بغموض، وكأنه يسترجع حلماً ميتاً، قبل أن يركن سيارته في موقف الفندق؛ ثم دخلا قاعة المطعم، الواسعة والمضاءة جيداً.

كمقبلات، طلب كوكتيل قريدس، بينما اختار جاد السلمون المدخّن. وضع النادل البولوني أمامهما زجاجة «شابلي»(**) فاترة.

«لا ينجحون في ذلك...» قال الروائي بتذمر. «لا يتوصلون إلى تقديم النبيذ الأبيض بحرارة مناسبة.

(*) حيوان من الثدييات القارضة (المترجمة).

(**) نبيذ يصنّع في منطقة بورغاندي في فرنسا (المترجمة).

- أتهتم بالنبيذ؟

- يمنحني حيثية؛ يمثل الهوية الفرنسية. ثم يجب الاهتمام بشيء ما في الحياة، أجد أن هذا يساعد.

- أنا متفاجئ قليلاً...» اعترف جاد. «كنت أتوقع أن أجد عند لقائك شيئاً... يعني، لنقل، أصعب من هذا. لديك صيت بأنك اكتئابي جداً. كنت أعتقد مثلاً أنك تتناول الكحول أكثر بكثير.

- نعم...» كان الروائي يطالع من جديد وباهتمام لائحة النبيذ. «إذا كنت ستتناول فخذ الخروف لاحقاً يجب اختيار شيء آخر: ربما نبيذ أرجنتيني من جديد؟ أتعلم، الصحافيون هم من صنعوا صيتي بأنني سكّير؛ الغريب هو أن أحداً منهم لم يدرك أنني إذا كنت أشرب كثيراً بحضورهم فذلك فقط حتى أستطيع تحملهم. كيف لك أن تدير حديثاً مع نعنوع مثل جان بول مارسوان من دون أن تكون سكراناً حتى الموت؟ أو كيف لك أن تقابل شخصاً يعمل لحساب مجلة «*ماريان*» أو «*الباريسي المنعتق*» *(le parisien libere)* من دون أن تستحوذ عليك رغبة مباشرة في التقيء؟ الصحافة، على أية حال، الصحافة هي من الغباء ومن الإمتثالية بشكل لا يحتمل، ألا ترى ذلك؟» أصرّ.

«لا أعرف، بصراحة، لا أتابعها.

- ألم تفتح في حياتك صحيفة؟

- نعم، على الأرجح...» قال جاد بإرادة طيبة، ولكن في الحقيقة من دون أن يكون لديه أي ذكرى محددة عن ذلك؛ لكنه توصّل إلى تخيل أكوام من مجلة «*فيغارو*» مكدسة على طاولة منخفضة، في قاعة الانتظار لدى طبيب الأسنان الذي يقصده؛ رغم أنه كان قد مر وقت طويل منذ أن حلّ مشاكل أسنانه. في جميع

الأحوال، هو لم يشعر *بالحاجة* أبداً لشراء صحيفة. في باريس، يبدو الجو وكأنه متخم بالمعلومات، نلمح، شئنا أو أبينا، العناوين في الأكشاك، نستمع إلى الأحاديث في طابور السوبرماركت. حين قصد «كروز» لدفن جدته انتبه إلى أن الكثافة الجوية للمعلومات تتدنى بوضوح كلما ابتعدنا عن العاصمة؛ وأنه بشكل عام تفقد الأشياء الإنسانية أهميتها، كل شيء يختفي رويداً رويداً، باستثناء النبات.

«سوف أكتب في كاتالوج معرضك» تابع ويلبيك. «ولكن، هل أنت متأكد من أنها ستكون فكرة سديدة بالنسبة لك؟ فأنا مكروه جداً من قِبَل وسائل الإعلام الفرنسي، أوتعلم شيئاً، أنا مكروه منها لدرجة غير معقولة؛ إذ لا يمر أسبوع من دون أن تنال مني مطبوعة أو الأخرى.

- أعرف، تصفّحت الإنترنت قبل أن آتي.

- حين تربط نفسك بي، ألا تخاف أن تحترق؟

- تحدثت في ذلك مع صاحب الغاليري، هو يرى أن ذلك غير مهم. فنحن لا نستهدف السوق الفرنسية كثيراً في هذا المعرض. وفي جميع الأحوال، لا يوجد في الوقت الحالي تقريباً مشترون فرنسيون للفن المعاصر.

- من يشتري؟

- الأميركيون. إنها آخر صيحة منذ سنتين أو ثلاث، الأميركيون يشترون من جديد، والإنكليز أيضاً قليلاً. ولكن قبل أي أحد، الصينيون والروس.»

نظر ويلبيك إليه وكأنه يزن المحاسن والمساوئ. «إذاً، إن كان

الصينيون والروس هم من يُحسَب لهم حساب فربما يكون الحق معك..» ختم. «أعذرني، أضاف وهو يهب فجأة، أحتاج إلى سيجارة، فلا أستطيع التفكير من دون تبغ.»

خرج إلى الموقف وعاد بعد خمس دقائق، في الوقت الذي كان فيه النادل يقدم طبقيهما. انكبّ على صحن خروف البرياني الذي طلبه بحماسة بينما تأمل طبق جاد بارتياب. «أنا متأكد أنهم وضعوا مرقة النعناع على فخذ الخروف المحشي...» علّق. «ذلك هو التأثير الإنكليزي، لا نستطيع القيام بشيء حياله. علماً أن الإنكليز استعمروا باكستان أيضاً. ولكن هنا الوضع أسوأ، لأنهم اختلطوا بالمواطنين الأصليين.» واضح أن السيجارة نفعته. «هذا المعرض مهم جداً بالنسبة إليك، إليس كذلك؟» تابع. «نعم، كثيراً. لدي انطباع بأنني، منذ بدأت بإنجاز سلسلة المهن، لم يعد أحد يفهم إلى أين أتجه. تحت عذر أنني أمارس الرسم على القماش، وتحديداً ذلك النوع القديم تاريخياً من الرسم بالزيت، يتم دائماً تصنيفي في نوع من الحركة التي تبجّل العودة إلى الرسم، رغم أنني لا أعرف هؤلاء الناس ولا أشعر بأية صلة بيني وبينهم.

- هل ثمة عودة إلى الرسم، في هذه المرحلة؟

- تقريباً، في النهاية هي إحدى النزعات. عودة إلى الرسم، أو إلى النحت، في النهاية، عودة إلى الشيء. ولكن، برأيي، الأسباب اقتصادية بشكل خاص. تخزين الشيء وإعادة بيعه أكثر سهولة من تخزين وبيع التجهيز أو الأداء. في الحقيقة لم أنجز أبداً عملاً أدائياً، لكن لدي انطباع بتقاسم ملمح ما مع هذا النوع. من لوحة إلى أخرى أحاول بناء مساحة مصطنعة، رمزية، أستطيع أن أصوّر فيها مواقف ذات معنى بالنسبة للجماعة.

- هذا ما يحاول المسرح أيضاً القيام به. باستثناء أنك غير مهووس بالجسد... أعترف أن ذلك مريح.

- لا، هو في طريقه إلى الاندثار نوعاً ما، ذلك الهوس بالجسد. حسناً، في المسرح ليس بعد، ولكنه كذلك في الفنون البصرية. ما أقوم به، في جميع الأحوال، يصب كاملاً في خانة الاجتماعي.

- حسناً، فهمت... فهمت تقريباً ما أستطيع القيام به. متى تحتاج النص؟

- حددنا افتتاح المعرض في أيار/مايو، ولكن علينا استلام نص الكاتالوج في نهاية آذار/مارس. يعني لديك شهران من الوقت.

- هذا ليس كثيراً.

- ليس على النص أن يكون طويلاً. خمس أو ست صفحات ستفي بالغرض. إذا أردت كتابة المزيد تستطيع ذلك طبعاً.

- سأحاول... في النهاية هذا خطئي. كان عليّ أن أرد على رسائلك قبل ذلك.

- بالنسبة للأجر، كما قلت لك، لقد خصصنا عشرة آلاف يورو. فرانز، الغاليريست الذي أتعامل معه، قال إن باستطاعتي أن أقترح عليك لوحة بدلاً من المبلغ، لكنني أجد هذا مزعجاً، لأن رفضها قد يحرجك. إذاً مبدئياً سنقول عشرة آلاف يورو؛ ولكن إذا فضّلت تقاضي لوحة، فأنا موافق.

- لوحة...» قال ويلبيك مفكراً. «في جميع الأحوال لديّ جدران لأعلقها عليها. هذا الشيء الوحيد الذي أملكه فعلياً في حياتي: الجدران».

٣

مع حلول الظهر كان على جاد تسليم غرفته في الفندق. الطائرة التي سيستقلها إلى باريس لن تقلع قبل السابعة مساء وعشر دقائق. كان اليوم هو الأحد، ومع ذلك كان المركز التجاري المجاور مفتوحاً. اشترى زجاجة ويسكي محلية الصنع. كان اسم أمينة الصندوق ماجدة، وسألته إن كان يمتلك بطاقة وفاء لـ«مخازن ديونز». تسكع لبضع دقائق في الأروقة ذات النظافة المبهرة، والتقى مجموعات من الشباب تتجوّل بين مطعمٍ للوجبات السريعة و صالةٍ لألعاب الفيديو. بعد أن تناول كوباً من عصير الفواكه - برتقال وكيوي وفراولة - لدى «رونيز روكيت»، اعتبر أنه أصبح يعرف ما يكفي عن مركز «سكاي كورت» للتسوق، فطلب تاكسي ليقلّه إلى المطار؛ كانت الساعة قد بلغت الواحدة ظهراً تقريباً.

كان لمقهى «إستواري» الخواصّ ذاتها من الرزانة والاتساع اللذين لاحظهما في باقي المبنى: الطاولات المستطيلة، من الخشب الداكن، كانت متباعدة جداً، أكثر حتى مما قد تكون عليه في مطعم فخم من مطاعم هذه الأيام: كانت مصمّمة لاستيعاب ستة أشخاص مرتاحين في جلستهم. حينئذ تذكر جاد أن الخمسينيات كانت أيضاً سنوات الانفجار السكاني.

طلب طبقاً من دجاج كورما الهندي إلى جانبه سلطة ملفوف خفيفة، وجلس أمام إحدى الطاولات، يحتسي مع وجبته كأساً من الويسكي ويراقب شاشة مواعيد الرحلات المغادرة من مطار شانون. لم تكن ثمة رحلات نحو أي عاصمة من عواصم بلدان أوروبا الغربية، فيما عدا باريس ولندن اللتين تؤمن الوصول إليهما الخطوط الجوية الفرنسية والخطوط البريطانية. في المقابل، لم يكن هناك أقل من ستة خطوط باتجاه إسبانيا وجزر الكناري، ومناطق: أليكانت، جيرون، فويرتيفانتورا، مالاغا، ريوس، تينيريف. جميع هذهِ الرحلات كانت مؤمّنة عبر خطوط «رايان إير». كذلك، تؤمن الشركة ذات *التعرفة المحدودة* الرحلات نحو ست وجهات في بولونيا: كراكوفيا، دانسك، كاتوفيتسيه، لودز، فارسوفيا، روكلاو. البارحة على العشاء، أخبره ويلبيك أن هناك الكثير من المهاجرين البولونيين في إيرلندا. فهم يفضلونها على غيرها، من دون شك بسبب صيتها المغتصب كمعبد للكاثوليكية. هكذا تعيد الليبرالية رسم جغرافيا العالم بحسب توقعات الزبائن، أكان هؤلاء يتنقلون بهدف السياحة أم لكسب العيش. بدل خريطة العالم المسطحة، والمتساوية القياس، كانت تحلّ طوبولوجيا غير مألوفة، تبدو فيها شانون أقرب إلى كاتوفيتسيه منها إلى بروكسل، وإلى فويرتيفانتورا مما هي لمدريد. بالنسبة لفرنسا، كان «بوفيه» و«كاركاسون» هما المطاران اللذان تديرهما «رايان إير». هل نتحدث هنا عن وجهتين سياحيتين بشكل خاص؟ أم أنهما تصبحان سياحيتين لمجرد أن «رايان إير» اختارتهما؟ متأملاً في السلطة وفي طوبولوجيا العالم، غرق جاد في نعاس خفيف.

كان في وسط مساحة بيضاء، غير محدودة ظاهرياً. لم يكن

هناك من خط أفق مميز، في البعيد حيث اختلطت الأرض ذات البياض الخافت بسماء بياضها مماثل. على سطح الأرض بدت كتل من النصوص من مكان إلى آخر، غير منتظمة، تحوي حروفاً سوداء تشكّل نتوءات طفيفة؛ في كل كتلة حوالي خمسين كلمة تقريباً. عندها، فهم جاد أنه موجود في كتاب، وتساءل إن كان هذا الكتاب يسرد قصة حياته. وهو يميل نحو الكتل التي كان يصادفها في طريقه كوّن في البدء انطباعاً بأن نعم: فقد تعرّف إلى أسماء مثل أولغا، جنفييف؛ لكنه عجز عن استخلاص أي معلومة، معظم الكلمات كانت ممحية أو مشطوبة بشراسة، وقراءتها متعذرة، بينما ظهرت أسماء جديدة لا تعني له أي شيء إطلاقاً. كان من المتعذر كذلك تحديد أي إشارة زمنية: وهو يتقدم على طول خط مستقيم طالعه اسم جنفييف عدة مرات بعد اسم أولغا. في حين أنه كان متأكداً، متأكداً تماماً، أنه لن تتسنّى له أبداً فرصة لقائها مجدداً، بينما كانت أولغا لا تزال، ربما، تشكل جزءاً من مستقبله.

استيقظ على وقع نداءاتٍ موجّهةٍ عبر مكبّرات الصوت تدعو المسافرين إلى باريس للالتحاق بطائرتهم. ما إن وصل إلى جادة «لوبيتال» حتى اتصل بويلبيك - الذي، من جديد، رفع السماعة مباشرة. «حسناً» قال له، «فكرت ملياً. بدل أن أهديك لوحة، أود أن أرسم البورتريه الخاص بك وأهديك إياه.»

ثم انتظر؛ على الناحية الأخرى من الخط، احتفظ ويلبيك بالصمت. غمز بعينيه؛ كانت إضاءة المحترف لاذعة. في وسط الغرفة كانت الأرض مكسوة بالبقايا الممزقة لـ«داميان هيرست وجيف كونز يتقاسمان سوق الفن». بعد أن طال الصمت، أضاف جاد: «هذا

لن يؤثر على المبلغ الذي ستتقاضاه، ستضاف اللوحة إلى مبلغ العشرة آلاف يورو. لدي رغبة في رسمك. لم أرسم كاتباً قط، وأشعر أن عليّ القيام بذلك.»

كان ويلبيك لا يزال صامتاً، فبدأ جاد يشعر بالقلق؛ ثم، في النهاية، بعد مرور ثلاث دقائق من الصمت على الأقل، أجابه بصوتٍ مبحوحٍ من فرط السّكر: «لا أعرف. لا أشعر أنني سأتمكن من التموضع لساعات.

- آه، ليس لذلك أية أهمية! فعصر التموضع أمام الرسام قد انقضى تماماً أصلاً، لم يعد أحد يقبل القيام به، أصبح الناس مشغولون جداً أو يتخيلون أنهم مشغولون أو يدّعون ذلك، لا أعرف، لكنني لا أعرف أحداً، إطلاقاً، قد يقبل بأن يظل جامداً من دون حراك لمدة ساعة. لا، سأقوم بالتقاط صور لك. الكثير من الصور: صور عامة ولكن أيضاً صور أخرى للمكان الذي تعمل فيه، لأدوات عملك. وأيضاً صور مفصلة ليديك، لنسيجك الجلدي. ثم سأتصرف انطلاقاً من كل هذا بمعرفتي.

- حسناً...» أجابه الكاتب من دون حماسة. «موافق.

- هل هناك يوم أو أسبوع مميز تكون فيه حراً؟

- ليس تماماً. معظم الوقت، لا أقوم بشيء. إتصل بي مجدداً حين تنوي المجيء. تصبح على خير.»

باكراً في صباح اليوم التالي، اتصل جاد بفرانز، الذي تفاعل بحماسة مقترحاً أن يعرّج عليه مباشرة في الغاليري. كان جذلاً، يفرك يديه حرفياً، ونادراً ما رآه جاد بهذه الحماسة.

«الآن نستطيع الإعداد لشيء... وأضمن لك أنه سيكون له

صدى. نستطيع مبدئياً أن نبدأ باختيار المسؤول الإعلامي. فكرت في مارلين بريجان.

- مارلين؟

- تعرفها؟

- نعم، كانت هي من اهتمت بمعرضي الأول، أذكرها جيداً.»

الغريب هو أن مظهر مارلين كان قد تحسّن مع تقدمها في العمر. نحفت قليلاً، وقصّت شعرها قصيراً جداً - لأنه بشعرٍ رقيقٍ ومتهدّلٍ كشعرها كان ذلك الشيء الوحيد الذي يمكن فعله، كما قالت، شارحة كيف قررت اتباع نصائح المجلات النسائية - كانت ترتدي بنطلوناً وسترة جلدية ضيقين جداً. وهي في تلك الملابس بدت وكأنها تقليدٌ مزوّر لفتاة مثلية الجنس مثقفة، باستطاعتها، في نهاية المطاف، جذب شبابٍ من أصحاب المزاج البليد. في الحقيقة، كانت تشبه قليلاً كريستين آنغو - ولكن على ألطف من دون شك. ثم، وقبل كل شيء، كانت قد نجحت في التخلص من ذلك النخير شبه الدائم الذي كان يميزها.

«تطلّب ذلك مني سنوات»، قالت. «خصّصت جميع إجازاتي للخضوع لعلاجات في جميع الحمامات المعدنية التي يمكن تخيلها، ولكن في النهاية وجدنا العلاج. مرة في الأسبوع أخضع لجلسات أتنشق خلالها الكبريت، نجح الأمر، على الأقل حتى الآن.»

حتى صوتها كان أقوى، وأوضح، وقد أصبحت تتحدث عن حياتها الجنسية من دون حرج، ما أذهل جاد. رداً على فرانز الذي أثنى على سمارها، أجابت أنها قد عادت لتوّها من إجازتها الشتوية التي قضتها في جامايكا. «مارست جنساً رائعاً»، أضافت، «تباً،

الشباب هناك مذهلون». رفع حاجبيه تعجباً، لكنها سرعان ما غيّرت الحديث وهي تسحب من شنطة يدها - شنطة أنيقة الآن، من الجلد الأسمر المصفرّ، ماركة هيرميس - دفتراً غليظاً ممسوكاً بشريط معدني حلزوني لونه أزرق.

«لا، هذا شيء لم يتغير»، قالت لجاد مبتسمة. «ما زلت لا أملك الجهاز الرقمي الشخصي المساعد... لكنني تطورت قليلاً رغم ذلك.» وسحبت من الجيب الداخلي لسترتها جهاز «يو أس بي» (ناقل معلومات متسلسل عام). «هنا توجد جميع المقالات حول معرضك الذي أنجزته مع ميشلان. ستفيدنا كثيراً.» أومأ فرانز برأسه رامقاً إياها بنظرة إعجاب وارتياب.

إنقلبت على مقعدها، وتمطّت. «حاولت أن أتابع قليلاً ما كنت تفعله...» قالت لجاد - رفعت الكلفة في التعامل معه، وكان ذلك جديداً بدوره. «أعتقد أنك حسناً فعلت بالتروي قبل تنظيم العرض، كان معظم النقاد ليستصعبوا تتبع تحوّلك - لست أتحدث هنا حتى عن بيبيتا بورغينيون، فهي في جميع الأحوال لم تفهم أبداً شيئاً من عملك.»

أشعلت سيغاريللو - موضة جديدة أيضاً - قبل أن تتابع. «بما أنك لم تعرض، لم تتح لهم فرصة التعبير. هكذا، إذا كان عليهم القيام بنقد إيجابي الآن فلن يبدوا بمظهر من يتراجع عن حكم أبرمه. ولكن صحيح، هنا أوافقكما، يجب استهداف المجلات الإنجليزية مباشرةً؛ وهنا من الممكن أن يساعدنا اسم ويلبيك. تنويان سحب الكاتالوج في كم نسخة؟

- خمسمئة نسخة» قال فرانز.

«ليست كافية؛ إسحب ألف. أحتاج إلى ثلاثمئة لا لشيء سوى لخدمات الإعلام. وسنسمح باقتباس مقاطع، مقاطع كبيرة حتى، هنا وهناك ؛ علينا مراجعة الأمر مع ويلبيك أو ساموسلسن، وكيله، حتى لا يصعّبا الأمور علينا فيما بعد. لقد أخبرني فرانز بخصوص بورتريه ويلبيك. فكرة جيدة جداً، فعلاً. بالإضافة إلى أنه، لحظة المعرض، ستكون هذه آخر أعمالك؛ هذا ممتاز. ذلك سيضفي أثراً إضافياً كبيراً على القصة كلها، أنا متأكدة من ذلك.»

«هذه الفتاة متباهية...» لاحظ فرانز بعد مغادرتها. «لطالما سمعت عنها لكنني لم أتعامل معها أبداً قبل الآن.

- تغيرت بما لا يستهان به» قال جاد «أعني على المستوى الشخصي في النهاية. فمهنياً، في المقابل، هي لم تتغير مطلقاً. من المثير، على كل حال، أن تراقب كيف يتوصّل الناس إلى تقسيم حياتهم إلى جزءين لا يمتّان لبعضهما بصلة، ولا يتفاعلان مطلقاً مع بعضهما. أجد نجاحهم بذلك لهذه الدرجة مذهلاً.

- صحيح أنك اهتممت كثيراً بالعمل... المهن التي يزاولها الناس»، تابع فرانز ما إن جلسا لدى «شي كلود». «أكثر من أي فنان أعرفه.»

- ما الذي يحدّد هوية الإنسان؟ ما هو السؤال الأول الذي نسأله لشخص نود أن نستعلم عن حاله؟ في بعض المجتمعات نسأله أولاً إذا كان متزوجاً، وإذا كان لديه أبناء؛ أما في مجتمعاتنا فنسأل أولاً عن مهنته. إن مكانته في عملية الإنتاج، وليس مكانته ككائن يتناسل، هي ما يحدّد، قبل كل شيء، هوية الرجل الغربي.

أفرغ فرانز بتأمّل، وبجرعات صغيرة، كأس النبيذ الذي كان يشربه. «أتمنى أن يكتب ويلبيك نصاً جيداً...» قال أخيراً. "إن ما نفعله يعدّ مراهنة كبيرة، كما تعلم. فمن الصعب جداً إقناع الجمهور بتطور فني جذري مثل تطورك. رغم أنني أعتقد أن ثمة إجماعاً على الامتياز الذي تحويه الفنون التشكيلية. ففي الأدب، وفي الموسيقى، من المستحيل تغيير الاتجاه تماماً، ولا شك أن نتيجة ذلك ستكون حكم الإعدام. من ناحية أخرى، إذا تابعت القيام بالشيء ذاته يتهمونك بالتكرار وبأنك في تراجع، ولكن إذا غيّرت يتهمونك بعدم الاتساق وبالتشتت. أعرف أنه، في حالتك، كان للعودة إلى الرسم، وتحديداً لرسم البشر، معنى. لا أستطيع تحديد هذا المعنى، أنت أيضاً ربما تعجز عن ذلك؛ لكنني أعرف أنه لم يأت من فراغ. إلا أن هذا ليس سوى حدس، لا يكفي عادة لحصد المقالات النقدية. هذا لا يكفي، ويجب إنتاج خطاب نظري مهما كان. وهذا ما أجدني عاجز عن فعله؛ مثلك تماماً.»

خلال الأيام التي تلت حاولا تحديد الآلية التي سيتّبعانها في ترتيب الأعمال، ثم قررا في النهاية اعتماد التسلسل الزمني. إذاً كانت «بيل غايتس وستيف جوبس يتحادثان حول مستقبل المعلوماتية» هي اللوحة الأخيرة، بينما ظل هناك مكان فارغ لبورتريه ويلبيك الذي ينوي إنجازه. في نهاية الأسبوع حاول جاد التواصل مع الكاتب، لكنه لم يرد على هاتفه هذه المرة، ولم يكن يملك مجيباً آلياً. بعد محاولات عديدة قام بها في ساعات مختلفة من النهار، كتب له رسالة إلكترونية؛ ثم رسالة ثانية، ثم أخرى ثالثة بعدها بعدة أيام، ودائماً من دون الحصول على إجابة.

بعد مرور أسبوعين بدأ جاد يقلق فعلاً، ضاعف الرسائل الهاتفية والأخرى الإلكترونية. إنتهى الأمر بأن اتصل ويلبيك به. كان صوته واهناً، ميتاً تقريباً. «أنا آسف» قال له «أمرّ ببعض المشاكل الشخصية. لكن باستطاعتك الحضور لالتقاط الصور التي تحتاج إليها».

٤

كانت ثمن التذكرة في الرحلة التي تغادر مطار بوفيه في تمام الساعة الواحدة وخمس وعشرين دقيقة باتجاه شانون في اليوم التالي معروضة على موقع «رايان إير» بمبلغ ٤,٩٩ يورو، فاعتقد جاد في البدء أنه ثمة خطأ ما. بعد المزيد من الإطلاع على شبابيك التذاكر، لاحظ وجود رسوم وضرائب إضافية؛ وصل المبلغ النهائي إلى ٢٨,٠١ يورو، وهو مبلغ ظل زهيداً.

وجد باصاً يصل حتى مطار بوفيه، وينطلق من «بورت مايو». وهو يستقله لاحظ أنه يكتظ بشبابٍ على وجه الخصوص، طلاب على الأرجح، ذاهبين معاً في رحلة، أو عائدين منها - فقد كان ذلك موسم إجازة شهر شباط/ فبراير. كان هناك بعض المتقاعدين أيضاً، وبعض النساء العربيات، يرافقهن أطفال يافعون. في الحقيقة كان الجميع هنا تقريباً، باستثناء الأعضاء المنتجين، من الناشطين في المجتمع. انتبه جاد أيضاً لشعوره بأنه في مكانه في تلك المركبة، التي منحته إحساس *الذهاب في إجازة* - بينما في المرة الأخيرة، في رحلة الخطوط الجوية الفرنسية، كان لديه انطباع من *يتنقل من أجل عمله*.

بعد أن تجاوز الضواحي الصعبة أو السكنية المنتشرة شمالي

باريس، انطلق الباص بسرعة بين حقول القمح والشمندر على طريق سريع مهجور تقريباً. كانت غربان متفرقة، ضخمة، تعبر الجو الرمادي. ولم يكن أحد يتكلم من حوله، حتى الأطفال كانوا هادئين. ورويداً رويداً اعترى جاد إحساس بنوع من السلام.

كانت عشر سنوات قد مرت، قال لنفسه؛ عشر سنوات عمل خلالها بشكل غامض، ومنزوٍ جداً في النهاية. كان يعمل وحيداً، من دون أن يطلع أحداً على لوحاته - باستثناء فرانز، الذي كان من ناحيته ينصرف لتقديمه بشكل خاص وسرّي، من دون أن يطلعه أبداً على النتائج - يمتنع عن حضور أي افتتاح، وأي نقاش، وتقريباً أي معرض. كان جاد قد ترك نفسه ينزلق، خلال تلك السنوات الأخيرة، خارج حالة الفنان المحترف. ورويداً رويداً كان في نظر العالم، وحتى في عيونه هو إلى حد ما، قد تحول إلى *رسام هاو*. هذا المعرض سيُعيده فجأة إلى الوسط، إلى الدائرة، وتساءل إن كان يرغب بذلك فعلاً. من دون شك، ليس أكثر مما قد يرغب شخص في القفز لأول وهلة في مياه البحر الصاخبة والباردة على ساحل بريتاني - رغم علمه بأنه سيجد على بعد عدة أمتار، سيجد عذوبة الموج منعشة ولذيذة.

بينما كان ينتظر على مقاعد المطار الصغير موعد إقلاع الطائرة فتح دليل آلة التصوير التي اشتراها قبل ذلك بيوم من محلات «فناك». فقد بدت له كاميرا «نايكون D3x»، التي اعتاد الاستعانة بها لالتقاط صور تحضيرية للبورتريهات التي ينوي إنجازها، مهيبة جدا واحترافية جداً. وبما أنه يحيط بويلبيك صيت بأنه يكنّ كرهاً متجذراً

للمصورين؛ شعر جاد بأن استخدام آلةٍ منزلية وأكثر مرحاً قد يكون أنسب في هذه الحالة بالذات.

فوراً، هنأته شركة سامسونج، ليس من دون نوع من المغالاة، على اختياره موديل "ZRT-AV2". لا سوني ولا نايكون كانتا لتفكران في تهنئته: فهاتان الشركتان كانتا غاية في التبجح، وغاية في الإرتكان إلى مهنيتهما. وإلى جانب التبجح الياباني الموصوف، كانت هذه الشركات اليابانية المكرسة، في جميع الأحوال، لا تُحتمَل. في المقابل، يحاول الألمان في كتيبّاتهم الإرشادية أن يصونوا وهمَ الخيار الحكيم والمخلص. فعلياً، تظل قراءة دليل استخدام سيارة مرسيدس متعة حقيقية إلا أنه على مستوى علاقة النوعية / السعر، كان الوهم المنشود، والديمقراطية الإجتماعية التي توفّرها سيارات غريملن الأميركية المنخفضة الثمن، يتبخران.

يبقى السويسريون مع سياستهم المعتمدة للأسعار القصوى التي من الممكن أن تجذب البعض. كان جاد، في مرات عديدة، قد فكر في شراء منتج سويسري، آلة تصوير «ألبا» في العموم، وفي مرات أخرى ساعة؛ إلا أن فارق السعر، الذي يتراوح بين ١ إلى ٥ بالنسبة لمنتج عادي، جعله يتراجع. طبعاً، الحل الأمثل بالنسبة لمستهلك يود *أن يتباهى* في أعوام ٢٠١٠ هذه هو أن يلتفت نحو منتج كوري: بالنسبة للسيارات، سيكون لديه «كيا» و«هيونداي»، وبالنسبة للإلكترونيات، لديه «أل.جي» و«سامسونج».

كان الموديل "ZRT-AV2" يجمع، بحسب مقدمة الدليل الإرشادي، بين الابتكارات التكنولوجية الأكثر براعة - كتقصي الابتسامة الآلي مثلاً - وسهولة الاستعمال الأسطورية التي أكسبت الماركة شهرتها.

بعد هذا المقطع النثري، يصبح الباقي أكثر وقائعية. تصفّح جاد الدليل بسرعة، محاولاً إيجاد المعلومات الأساسية فقط. كان من الواضح أن تفاؤلاً منطقياً، وافرًا وموحداً، كان وراء الأسلوب المعتمد في تصميم المنتج. رغم شيوعها في الأدوات التكنولوجية الحديثة، إلا أن تلك النزعة لم تكن قدراً لا مفرّ منه. فمثلاً، بدل برامج «مفرقعات نارية»، «شاطئ»، «المولود ١»، «المولود ٢»، التي تقترحها الآلة على مستوى نوعية *المشهد*، كان من الممكن تماماً أن نرى «دفن»، «يوم ماطر»، «عجوز ١»، و«عجوز ٢».

لماذا «المولود ١» و«المولود ٢»؟ تساءل جاد. بعد مراجعته الصفحة ٣٧، فهم أن تلك الخاصية تسمح بحفظ تواريخ ولادة طفلين مختلفين، بالإضافة إلى المعلومات الخاصة بكل صورة لكلٍّ منهما فيما بعد. معلومات أخرى تعطيها الصفحة ٣٨: لقد تم تصميم هذه البرامج، كما يؤكد الدليل، بهدف استعادة البشرة «الصحية والنضرة» للأطفال. فعلى الأرجح أن والدي الطفلين سيحبطان من أن يبدو «المولود ١» و«المولود ٢» بوجه متجعد ومصفرّ في صور أعياد ميلادهما؛ لكن جاد لا يعرف، شخصياً، أي أطفال. كذلك لن تكون فرصه أكبر في استخدام برنامج «حيوان أليف»، ولا بشقّ النفس، برنامج «عيد». في النهاية، ربما لا تكون هذه الآلة مصنوعة له.

مطرٌ منتظم كان يهبط على شانون، وكان سائق التاكسي شريراً أحمق. «أنت في إجازة؟» سأله بالإنجليزية، وكأنه يستمتع مسبقاً بخيبة أمله. «كلا، أعمل» أجاب جاد، الذي لم يكن يريد أن يمنحه تلك البهجة، لكن الآخر، على ما يبدو، لم يصدقه. «ما هو نوع

العمل الذي تمارسه؟» سأل، موحياً بشكل واضح، من خلال نبرته، أنه لا يرى من المرجح أن يكون جاد مؤتمناً على أي عمل. «تصوير» أجاب جاد. شهق الآخر، مسلماً بخسارته.

دق لمدة دقيقتين على الأقل على باب ويلبيك تحت مطر غزير قبل أن يأتي ويفتح له. كان مؤلف «الجزيئيات الأساسية» يرتدي بيجاما رمادية مخططة تجعله يبدو قليلاً مثل المدانين في المسلسلات التلفزيونية؛ كان شعره منكوشاً ووسخاً، ووجهه أحمر، وردي تقريباً، وتفوح منه رائحة نتنة بعض الشيء. عدم القدرة على الاغتسال هي أحد المؤشرات الأكثر دلالة على وجود حالة اكتئابية، تذكر جاد.

«أنا آسف لاقتحامي بابك. أعرف أن الأمور لا تجري على ما يرام. لكنني متحمس للبدء برسم لوحتي عنك...» قال، مرفقاً عبارته تلك بابتسامة أرادها مفحِمة. «*ابتسامة مفحمة*»، هي عبارة لا تزال تطالعنا في بعض الروايات، وهي بالتأكيد تلائم حقيقة ما. مع أن جاد، من ناحيته، لم يكن يشعر، ويا للأسف، أنه ساذج بما فيه الكفاية حتى تفحمه ابتسامة؛ وويلبيك لم يكن من ذلك الصنف أيضاً، كما توقع. تراجع مؤلف «معنى القتال» متراً إلى الوراء، لمسافة لا تكاد تكفيه للاحتماء من المطر، من دون أن يفسح له مجالاً لدخول البيت رغم ذلك. «جلبت معي قنينة من النبيذ. قنينة جيدة!» صاح جاد فجأة بحماسة مزيفة بعض الشيء، تشبه تقريباً تلك التي نستخدمها حين نقدم الكراميل للأطفال، وهو يخرجها من شنطة السفر التي يحملها. كانت قنينة «شاتو أوزون ١٩٨٦»، وقد كلفته في النهاية ٤٠٠ يورو - أي ثمن دزينة من رحلات باريس. شانون عبر خطوط «رايان إير».

«زجاجة واحدة؟» سأل كاتب «*البحث عن السعادة*» وهو يمدّ رقبته نحو العلامة التجارية الملصقة على الزجاجة. كان نتناً ولكن أقل من جثة؛ كان يمكن أن تكون الأشياء أسوأ بعد، في النهاية. ثم استدار من دون أي كلمة، بعد أن انتزع القنينة؛ ففهم جاد هذا التصرف كدعوة.

الغرفة الرئيسية، غرفة المعيشة، كانت، كما يذكر على الأقل، فارغة؛ الآن، أصبح فيها سرير وتلفاز.

«نعم، قال ويلبيك. بعد زيارتك، انتبهت إلى أنك الزائر الأول الذي يدخل إلى هذا البيت، وعلى الأرجح أنك ستكون الأخير. عندها قلت لنفسي، لماذا إذاً الحفاظ على وهم غرفةٍ للاستقبال؟ لم لا أنشئ بصراحة في الغرفة الرئيسية غرفة نومي؟ في النهاية، أنا أقضي معظم أيامي مستلقياً؛ أتناول طعامي أغلب الأحيان في السرير، وأنا أشاهد الرسوم المتحركة على قناة «فوكس تي.في»؛ ليس الأمر وكأنني أنظم حفلات عشاء».

كانت بقايا بسكوت وقطع من المرتديلا تلطخ فعلاً الملاءات المرقطة بالنبيذ والمحروقة في عدة أماكن.

«سنذهب إلى المطبخ على أية حال... اقترح مؤلف «*نهضة*».

– جئت لألتقط صوراً.

– ألا تعمل آلة التصوير خاصتك في المطابخ؟»

«عدت وانغمست... عدت وانغمست تماماً في لحوم الخنزير الباردة» تابع ويلبيك بحزن. في الواقع، كانت أغلفة علب نقانق الخنزير والمرتديلا، والفطائر البلدية، منثورة على الطاولة. ناول جاد

فتاحة نبيذ وما إن فتحَت الزجاجة حتى كرع كأساً أولاً بجرعة واحدة، من دون أن يستنشق عبق النبيذ، من دون حتى أن يؤدي مشهد تذوّق زائف. التقط جاد عشرات الصور المقربة، محاولاً تنويع الزوايا.

«أود التقاط صورٍ لك في مكتبك... حيث تعمل.»

أصدر الكاتب دمدمة غير المتحمس، إلا أنه قام وسبقه في الرواق. كانت صناديق الكرتون المتراصة على طول الجدران لا تزال على حالها لم تفتح بعد. وكان هو قد ربّى كرشاً منذ آخر مرة رآه فيها، ولكن عنقه لا يزال هزيلاً، وذراعاه كذلك. كان أشبه بسلحفاة عجوزة مريضة.

كان المكتب عبارة عن غرفة مستطيلة فسيحة بجدران عارية، خاوية تقريباً باستثناء ثلاث طاولات بلاستيكية من تلك الخاصة بالحدائق، خضراء، ومصفوفة بمحاذاة الحائط. على الطاولة المركزية، وضع جهاز كمبيوتر «آي ماك ٢٤ إنش» وآلة طابعة بالليزر ماركة سامسونج. على الطاولات الأخرى أوراق مبعثرة، مطبوعة أو مكتوبة بخط اليد. الترف الوحيد في الغرفة كان مقعداً إدارياً من الجلد الأسود، ظهره مرتفع، ويتحرك على عجلات.

التقط جاد عدة صور لمجمل الغرفة. وهو يراه يقترب من الطاولات، جفل ويلبيك بشكل عصبي.

«لا تقلق، لن أنظر إلى كتاباتك، أعلم أنك تكره ذلك. مع ذلك...»، فكر للحظة، «أود أن أرى كيف تبدو ملاحظاتك وتصحيحاتك.

- أفضّل ألا تفعل.

- لن أنظر إلى المحتوى، مطلقاً. أريد القيام بذلك فقط لتكوين

فكرة عن الهندسة العامة للمكان، أعدك أنه في اللوحة لن يتعرف أحد إلى الكلمات».

أخرج ويلبيك بعض الأوراق بتردّد. الخربشات قليلة جداً، ولكن ثمة إشارات كثيرة في متن النص، ترافقها أسهم تحيل لمقاطع أخرى منه، بعضها في الهامش، والأخرى في صفحات منفصلة. داخل تلك المقاطع، المستطيلة إجمالاً، كانت إشارات جديدة تحيل إلى مقاطع جديدة، ليشكل كل ذلك شجرة. كانت الكتابة مائلة، غير مقروءة تقريباً. لم يحد ويلبيك بنظره عن جاد طوال المدة التي كان يلتقط فيها الصور، ولم يتنفس بارتياح واضح سوى بعد أن ابتعد عن الطاولة. وهو يغادر الغرفة، أقفل الباب وراءه بعناية.

«لم يكن ذلك هو النص الذي أكتبه عنك. لم أبدأ بعد»، قال وهما عائدان إلى المطبخ. «إنها إعادة إصدار لأعمال جان لويس كورتيس من «دار أومنيبوي» عليّ أن أسلّمها. أتود كأساً من النبيذ؟».

كان الآن يتحدث بمرح مبالغ فيه، من دون شك ليغطّي البرودة الأساسية التي استقبله بها. كانت قنينة «شاتو أوزون» قد فرغت تقريباً. بحركة سريعة، فتح درجاً فيه ما لا يقل عن أربعين قنينة.

«الأرجنتين أو تشيلي؟

- تشيلي على سبيل التغيير.

- لقد تم نسيان جان لويس كورتيس تماماً اليوم. ألّف حوالي خمس عشرة رواية، قصصاً، و مجموعة مذهلة من المعارضات... برأيي يحوي كتابه «*فرنسا أرهقتني*» المعارضات الأنجح في الأدب الفرنسي: محاكاته لسان سيمون، ولشاتوبريان هائلة؛ وهو يتدبر أمره جيداً أيضاً مع ستاندال وبالزاك. ومع ذلك لم يبق منه شيء اليوم، لم يعد يقرأه أحد. هذا ظلم، فهو كاتب جيد نوعاً ما، ضمن نوع

محافظ قليلاً، كلاسيكي بعض الشيء، لكنه حاول، بشرف، القيام بعمله، أو ما كان يعتبر أنه عمله في نهاية الأمر. «*سن الأربعين*» هو كتاب ناجح جداً، برأيي. فيه نوستالجيا حقيقية، وإحساس بالفقد يرافق مراقبة فرنسا التقليدية وهي تتحوّل إلى العالم الحديث، باستطاعتنا فعلاً عيش تلك اللحظة خلال قراءتنا له. وهو قلما يكون كاريكاتورالياً، فيما عدا حين يعالج بعض شخصيات رجال الدين اليساريين أحياناً. ثم، «*زوجان شابان*» كتاب مدهش. رغم أنه يعالج الموضوع ذاته الذي يتناوله جورج بيريك في «*الأشياء*»، إلا أنه ينجح في ألا يبدو مضحكاً بالمقارنة، وهذا بحد ذاته إنجاز ضخم. طبعاً، هو ليس بمهارة بيريك، ولكن من كان عليها في عصره؟ قد نفاجأ أيضاً ونحن نراه يتبنى قضية الشباب، جحافل الهيبيز الذين، على ما يبدو، كانوا يجتازون أوروبا في حينها، بشنط على ظهورهم، رافضين «المجتمع الاستهلاكي»، كما كانوا يقولون وقتها. إلا أن رفضه للمجتمع الاستهلاكي يضاهي رفضهم قوة، ويرتكز على قواعد أكثر متانة من قواعدهم إلى حد بعيد، كما ظهر لاحقاً بوضوح. في المقابل، يقبل جورج بيريك مجتمع الاستهلاك، ويعتبره، بصورة مبررة، الأفق الوحيد الممكن، وتأملاته حول سعادة أورلي مقنعة جداً بنظري. في الحقيقة، لقد كان تصنيف جان لويس كورتيس كـ رجعي غير صائب، فهو مجرد كاتب جيد، حزين قليلاً، ولديه قناعة بأن البشرية لن تتغير أبداً، بأي اتجاه من الاتجاهات. عاشق لإيطاليا، ومدرك تماماً لقسوة النظرة اللاتينية للعالم. في النهاية، لا أعرف لِمَ أخبرك بكل ذلك، لا يهمك جان لويس كورتيس، وذلك خطأ منك أيضاً، يجب أن تكون مهتماً بنتاجه الفكري، فلديك أيضاً أشعر بنوع من النوستالجيا، ولكن، هذه المرة، هي نوستالجيا للعالم الحديث،

للعصر الذي كانت فيه فرنسا بلداً صناعياً، هل أنا مخطئ؟» أخرج من الثلاجة نقانق الخنزير، سجق، وخبزاً ريفياً.

«هذا صحيح»، أجاب جاد بعد وقت طويل من التفكير. «لطالما أحببت المنتجات الصناعية. لم يخطر على بالي قط تصوير، مثلاً... السجق». مدّ يده نحو الطاولة، ثم اعتذر فوراً. «في النهاية، هو لذيذ الطعم، لست أقصد ذلك، أستمتع بتناوله... لكن تصويره، كلا. فيه عيوب ذات مصدرعضوي. شعيرات الدهن المختلفة تلك من قطعة لأخرى. هي إلى حد ما... مثبطة».

هز ويلبيك برأسه، وفتح ذراعيه وكانه أُخذَ بانجذاب تنتري(*) - إلا أنه كان على الأرجح قد سكر ويحاول الآن تثبيت توازنه على مقعد المطبخ الذي تربع فوقه. حين استأنف الكلام، كان صوته رقيقاً، عميقاً، مفعماً بعاطفة ساذجة. «في حياتي كمستهلك» قال، «عرفت ثلاثة منتجات ممتازة: أحذية «بارابوت للمشي»، الكمبيوتر المحمول الذي يحوي آلة طابعة في الوقت ذاته - الآلة الطابعة «كانون ليبريس» - وسترة «كاميل ليجاند». أحببت هذه المنتجات بشغف، وكنت لأقضي حياتي، لو ظلت متوفرة، وأنا أشتري منها بانتظام، بحسب وتيرة الاستخدام الطبيعية. كانت علاقة كاملة ومخلصة قد تشكّلت بيني وبينها، جاعلة مني مستهلكاً سعيداً. لم أكن سعيداً في المطلق، من جميع النواحي في حياتي، ولكن، على الأقل، كان لدي هذا: كنت أستطيع، بشكل منتظم من وقت لآخر، أن أعيد شراء زوج من حذائي المفضل. هذا قليل، ولكنه يصبح كثيراً، خصوصاً في ظل حياة حميمة فقيرة. إلا أن تلك المتعة، تلك

(*) فلسفة دينية سنسكريتية (المترجمة).

المتعة البسيطة، لم تُترَك لي. فخلال سنوات قليلة اختفت منتجاتي المفضلة من على أرفف المحال، هكذا، ببساطة، توقفت صناعتها. وبالنسبة لسترة كاميل ليجاند الحزينة، أجمل سترة صُنِّعت أبداً، من دون شك، فهي لم تعش سوى لموسم واحد...» ثم أخذ يبكي، بهدوء، وبدموع كبيرة، وهو يسكب لنفسه كأساً آخر من النبيذ. «هذا قاس، أتعلم، قاس جداً. فبينما تستغرق الأنواع الحيوانية الأكثر تفاهة آلاف، بل حتى ملايين السنين لتختفي، يتم محو البضائع المصنعة من على وجه الكوكب في غضون أيام، ولا تُمنح أبداً فرصة ثانية، بل تخضع، بعجز، للحكم غير المسؤول والفاشي الذي يصدره مسؤولو خطوط الإنتاج الذين يعرفون، بطبيعة الحال، أحسن من أي أحد غيرهم، ما يريده المستهلك، ويدّعون التقاط *انتظارات الجديد* لدى المستهلك، بينما كل ما يفعلونه، في الحقيقة، هو تحويل حياته إلى بحث مضنٍ ويائس، إلى ضياع لا نهاية له بين أرفف تتبدل من دون نهاية.

- أفهم تماماً ما تريد قوله»، تدخل جاد، «أعرف أن الكثيرين من الناس قد انفطر قلبهم مع التوقف عن تصنيع الـ«رولليفليكس» ذات العدسة المزدوجة. ولكن ربما أيضاً... ربما يجب الاحتفاظ بالثقة والحب فقط للمنتجات الثمينة جداً، التي تحظى بمكانة أسطورية. مثلاً، لا أتخيل أن تتوقف رولكس عن إنتاج ساعتها الكلاسيكية oyster perpetual day-date (وهي أول ساعة تحوي التاريخ مع الوقت).

- أنت لا تزال صغيراً... صغيراً جداً... رولكس ستقوم بما قام به غيرها». ثم التقط ثلاث دوائر من قطع النقانق، صفّها على قطعة من الخبز، وابتلع اللقمة بالكامل، ثم سكب كأساً من النبيذ.

«اشتريت لتوك آلة تصوير جديدة، كما قلت لي. . . أرني الدليل.» تصفّح لمدة دقيقتين دليل استخدام السامسونج zrt-av2، وهو يومئ برأسه وكأن كل واحد من السطور يثبّت تنبؤاته القاتمة.

«آه نعم. . .» قال في النهاية وهو يردها له. «هذا منتج جميل، منتج حديث؛ باستطاعتك أن تحبه. ولكن عليك أن تعرف أنه في غضون سنة أو سنتين على الأكثر سيتم استبداله بمنتج أكثر حداثة، خصائصه أكثر تطوراً كما سيزعمون.

«نحن أيضاً، نحن منتجات. . .» تابع «منتجات ثقافية. فنحن أيضا سيصيبنا السقوط بالتقادم. طريقة عمل الجهاز مشابهة. طالما أنه، في العموم، ليس هناك وجود لتحسّن تقني أو وظيفي بديهي؛ تبقى وحدها المطالبة الملحّة بالجديد في صيغته البحتة.

«ولكن ليس ذلك بشيء، ليس ذلك بشيء. . .» تابع بخفة. بدأ بتقطيع قطعة جديدة من النقانق، ثم، والسكين بيده، توقف ليغنّي بصوت جهور: «الحب، الضحك والغناء! . . .» وبحركة واسعة، أطاح بقنينة النبيذ، التي تحطمت على الأرض.

«سوف أجمع الزجاج، قال جاد وهو يهب واقفاً.

- كلا، أتركها، ليست بالشيء الخطير.

- بلى، هناك نثرات من الزجاج، قد نجرح أنفسنا. ألديك ممسحة خشنة؟» نظر من حوله، كان ويلبيك يتمايل من دون أن يجيب. في إحدى الزوايا، لاحظ وجود مكنسة ومجرفة من البلاستيك.

«سوف أفتح زجاجة أخرى. . .» قال الكاتب. ثم قام، واجتاز المطبخ مترنحاً بين نثرات الزجاج التي حاول جاد جمعها بقدر ما استطاع.

«لقد شربنا كثيراً. . . شخصياً، لقد التقطت الصور التي أحتاج إليها.

- هيا، لن تغادر الآن! لقد بدأنا للتو نتسلى. . .» «الحب، الضحك والغناء. . .»، عاد يغني من جديد قبل أن يبلع برشفة واحدة كأساً من النبيذ التشيلي. «شرلم برلم! تراتم! تراتم!» أضاف عن اقتناع. منذ فترة، كان الكاتب المشهور قد التقط هوس استخدام كلمات غريبة، لم تعد مستخدمة أحياناً او غير ملائمة بوضوح، هذا إذا لم تكن مجرّد ألفاظ طفولية مخترعة على طريقة الكابتن هادوك(*). أصدقاؤه النادرون القلائل، كما ناشروه، كانوا يتغاضون عن نقطة ضعفه هذه، كما قد يتغاضى المرء عن كل شيء يتعلق بعجوز متدهور متعب.

«أشعرتني بالإطراء، تلك الفكرة التي أتتك برسم البورتريه الخاص بي، فعلاً أشعر بالإطراء. . .

- حقاً؟» قال جاد متفاجئاً. أنهى جمع قطع الزجاج، ووضع ما جمعه في كيس للقمامة خاص بالبقايا الثقيلة (لا يقتني ويلبيك على ما يبدو نوعاً آخر)، وجلس أمام الطاولة متناولاً قطعة من النقانق.

«أتعلم. . .» تابع من دون إظهار ثقة مطلقة، «لدي نية حقيقية بالنجاح في رسم هذه اللوحة. خلال السنوات العشرة الأخيرة، حاولت أن أرسم أشخاص ينتمون لجميع الشرائح الإجتماعية، من قصّاب الأحصنة حتى رئيس مجلس الإدارة في شركة متعددة الجنسيات. فشلي الوحيد كان حين حاولت رسم فنان - تحديداً جيف كونز، لا أعرف لِمَ. على كل حال، فشلت أيضاً في حالة

(*) صديق شخصية الكارتون الشهيرة تانتان (المترجمة).

رجل الدين، لم أعرف كيف أقارب الموضوع، ولكن في حالة جيف كونز كان الوضع أسوأ، بدأت اللوحة لكنني اضطررت لتدميرها. لا أريد أن أظل على هذا الفشل - ومعك، أعتقد أنني سأنجح في تحقيق ذلك. ثمة شيء ما في نظرتك، لا أعرف كيف أصفه، لكنني أعتقد أن باستطاعتي نقله...»

اخترقت كلمة شغف فجأة فكر جاد، وبلمح البصر، عاد عشر سنوات إلى الوراء، إلى العطلة الأخيرة التي قضاها مع أولغا. كان ذلك على شرفة قصر «فودو لونيي»، في أحد عيد العنصرة. كانت الشرفة تطل على الحديقة الضخمة التي تهز أشجارها نسمة خفيفة. كان الليل يهبط، والحرارة لطيفة بشكل مثالي. بدا على أولغا انغماسها في تأمل طبقها من الكركند، لم تكن قد قالت شيئا منذ دقيقة على الأقل، حين رفعت رأسها ونظرت مباشرة إلى عينيه وسألته:

«أتعرف، في النهاية، لم تعجَب النساء بك؟»

غمغم بإجابة غامضة.

«لأن النساء يُعجبن بك»، أصرّت أولغا، «أعتقد أن الفرصة قد واتتك لملاحظة ذلك. فأنت فاتن نوعاً ما، ولكن ليس هذا هو السبب، هذا تفصيل تقريباً. كلا، ثمة شيء آخر....

- أخبريني.

- الأمر بسيط: لأن لديك نظرة قوية. نظرة شغوفة. وهذا هو، قبل كل شيء، ما تبحث عنه النساء. ما إن يلمحن في نظرة الرجل طاقةٍ ما، أو شغفاً، يجدنه جذاباً.»

تركته يتأمل في خلاصتها هذه وتناولت رشفة من كأس «الميرسو»، ثم تذوقت من طبق المقبلات الذي طلبته. «طبعاً...»

قالت لاحقاً بنبرة يشوبها بعض الحزن، «حين يتوجه هذا الشغف نحو عمل فني وليس نحوهن، يعجزن عن الانتباه له... في البداية على الأقل».

بعدها بعشر سنوات، وهو يتأمل ويلبيك، أدرك جاد أن في نظرة هذا الأخير أيضاً شغفٌ ما، شيءٌ ما هاذٍ حتى. لا بد من أنه قد أثار في حياته علاقات حب شغوفة، وحتى عنيفة ربما. نعم، بحسب كل ما يعرفه عن النساء، بدا من المرجح أن تكون بعضهن قد تُيّمن بهذا الحطام المعذب الذي يومئ حالياً برأسه وهو يلتهم قطعاً من فطيرة ريفية، والذي من الواضح أنه قد أصبح غير مبالٍ بكل ما يتعلق بعلاقة حب، وعلى الأرجح أيضاً بأي علاقة إنسانية.

«هذا صحيح، فأنا لا أشعر سوى بإحساس ضئيل من التعاطف تجاه الجنس البشري...» قال ويلبيك وكأنه قرأ أفكاره. «قد أقول إن إحساسي بالانتماء يتقلص قليلاً يوماً بعد يوم. رغم ذلك، أعجبتني لوحاتك الأخيرة ولو أنها تصوّر كائنات بشرية. لديهم شيء ما... عام، قد أقول، يتجاوز الطرفة. في النهاية لا أريد استباق نصّي وإلا لن أكتب شيئاً. بالمناسبة، ألن يزعجك كثيراً إذا لم أنته في آخر آذار/ مارس؟ فعلاً لست في حالة جيدة حالياً.

- لا مشكلة بتاتاً. نؤجل المعرض؛ وننتظر لما يلزم من الوقت. أتعرف، لقد أصبحت مهماً بالنسبة لي، بالإضافة إلى أن ذلك حصل بسرعة، لم يكن لأي إنسان أبداً هذا التأثير علي!» صرخ جاد بحيوية فوق العادة.

«الغريب أيضاً، أتعرف...» تابع بهدوء أكثر، «يُتوقَع من رسام البورتريه أن يبرز ميزة الموديل، بما يجعل منه كائناً بشرياً فريداً.

وهذا ما أفعله بطريقة ما، ولكن من وجهة نظر أخرى، لدي انطباع بأن البشر يشبهون بعضهم البعض أكثر بكثير مما نقول عادة، خصوصاً حين أعمل على خطوط المستوى والفك العلوي، يتكون لدي انطباع بأنني أرسم أنماطاً متكررة في لعبة بازل.

أعرف تماماً أن الكائنات البشرية هي موضوع رواية، هي موضوع *الرواية الغربية العظيمة* وأحد المواضيع الكبيرة في الرسم أيضاً، لكنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير بأن الناس هم أقل اختلافاً مما يعتقدون عن بعضهم البعض. أقل بكثير. أن يكون هناك الكثير من التعقيدات في المجتمع، الكثير من التمييز، من الفئات...

- نعم، هذا موضوع بيزطيني...» قال مؤلف «*الرصيف*»، موافقاً بصدق على الطرح. «ولكن ليس لدي انطباع بأنك رسام بورتريه في الواقع. بماذا يفيدنا بورتريه «دورا مار» لبيكاسو؟ في جميع الأحوال، أعمال بيكاسو بشعة، هو يرسم عالماً مشوهاً بشكل مقرف لأن روحه مقرفة، وهذا كل ما قد يقال عن بيكاسو، ليس هناك أي سبب يدعو لتمييز لوحاته، هو لم يقدم شيئاً، ليس لديه أي نقطة مضيئة، أي ابتكار في تنظيم الألوان والأشكال، في الواقع ليس لدى بيكاسو بتاتاً أي شيء يستحق الذكر، مجرّد غباء عارم وشخبطة ذكورية قد تغوي بعض النساء الستينيات من ذوات الأرصدة البنكية العالية. أما بورتريه دوكون، المنتمي لـ «جمعية التجار» كما كانت تسمّى في القرون الوسطى، والذي رسمه فان دايك، فهو شيء آخر، لأنه ليس دوكون هو ما يهم فان دايك، وإنما جمعية التجار. في النهاية، هذا ما أفهمه من لوحاتك، ولكن ربما أكون مخطئاً تماماً. في جميع الأحوال إذا لم يعجبك نصي لن يكون عليك سوى رميه في الزبالة. أعذرني، أصبحت عدوانياً، إنها الفطريات...» أمام

نظرة جاد المذهولة، أخذ يحك قدميه بعنف حتى بدأت تنفر منهما قطرات الدم. «لدي فطريات، إصابة بكتيرية، أكزيما عامة مستشرية، هي جرثومة حقيقية، أنا أتعفن في مكاني وليس هناك من يبالي، لا أحد يستطيع القيام بشيء من أجلي، لقد تخلى الطب عني بصورة مخزية، ماذا يبقى لدي لأفعله؟ أن أحك نفسي، أن أحك نفسي من دون توقف، هذا ما أصبحت حياتي عليه الآن: جلسة لانهائية من الحكّ...»

ثم رفع قامته، وبدا عليه الارتياح قليلاً، قبل أن يضيف: «أنا متعب قليلاً الآن، أعتقد أنني سأذهب للراحة.

- طبعاً!» وقف جاد بسرعة. «أنا ممتن بالفعل لأنك كرّست لي كل هذا الوقت» ختم مع إحساسه بأنه قد نجح في اجتياز الموقف.

رافقه ويلبيك حتى الباب. في اللحظة الأخيرة، فقط قبل أن يغوص في الظلام، قال له:» أتعرف، أنا أدرك ما تفعله، أعرف نتائجه. أنت فنان جيد، نستطيع قول ذلك من دون الدخول في التفاصيل. النتيجة هي أن صوري قد التُقطَت آلاف المرات، ولكن إن كان هنالك صورة واحدة عني، واحدة فقط، ستعيش للأجيال القادمة، فستكون لوحتك.» فجأة ارتسمت على وجهه ابتسامة صبيانية، وهذه المرة، مفحِمة بالفعل. «أرأيت، أنا آخذ الرسم على محمل الجد في النهاية...» قال، قبل أن يقفل الباب.

٥

تعثّر جاد بعربة أطفال، ولم يتدارك نفسه من الوقوع سوى عند بوابة كشف المعادن، ثم عاد ليأخذ مكانه في الصف. فيما عداه لم يكن هناك سوى عائلات، في كل منها ولدان أو ثلاثة. أمامه كان ولد أشقر عمره حوالي أربع سنوات يصدر نشيجاً، مطالباً بما هو غير واضح تماماً، قبل أن يرتمي فجأة على الأرض وهو يصرخ، مرتجفاً من الغضب: تبادلت والدته نظرة منهكة مع زوجها الذي حاول لمّ القذارة الصغيرة الفاسدة. من المستحيل كتابة رواية، كان ويلبيك قد قال له عشية اليوم السابق، للسبب ذاته الذي يجعل العيش مستحيلاً: بسبب الأثقال التي تتراكم. وجميع نظريات الحرية، من جِيد إلى سارتر، ليست سوى فجوراً صمّمه عزاب غير مسؤولين. مثلي، أضاف وهو ينقض على زجاجة النبيذ التشيلي الثالثة.

لم تكن المقاعد مرقمة في الطائرة. عند الصعود، حاول أن يتسلل بين مجموعة من المراهقين، لكنه احتُجِز عند أسفل السلم الكهربائي - كانت شنطة يده ذات حجم كبير، فاضطر أن يسلّمها لأحد أفراد الطاقم - ليجد نفسه بعد ذلك قرب الممر الرئيسي، محصوراً بين فتاة صغيرة في سنواتها الخمس تتململ على مقعدها مطالبة بالبونبون بشكل مستمر، وامرأة بدينة، شعرها باهت، تحمل

في حضنها طفلاً بدأ بالصراخ مباشرة بعد الإقلاع. أما بعد ذلك بحوالي نصف ساعة، فقد كان يجب تغيير حفاظه.

توقف عند مخرج مطار بوفيه. تيليه، وضع شنطة سفره، وتنفّس بهدوء محاولاً استعادة انتعاشه. كانت العائلات المحملة بعربات الأطفال وبالأطفال تندفع إلى داخل الباص المتجه نحو «بورت مايو». بمحاذاتهم مباشرة كانت مركبة صغيرة بيضاء، بجوانب زجاجية واسعة، تحمل شارة «المواصلات المدنية في بوفيه». اقترب جاد مستفهماً: كانت تلك هي المركبة التي تقلّ إلى بوفيه، أخبره السائق، مشوار يكلف ٢ يورو. أخذ بطاقة، كان الراكب الوحيد.

«أأنزلك عند المحطة؟

- كلا، في مركز المدينة».

رمقه الموظف بنظرة متعجبة؛ على ما يبدو، لم تكن السياحة البوفياوية تستفيد من تبعات وجود المطار فيها. رغم ذلك، كان ثمة مجهود قد بُذل، كما في جميع مدن فرنسا، لشق طرقات مخصصة للمشاة في مركز المدينة، مع يافطات تحوي معلومات تاريخية وثقافية. وتعود آثار السكن الأول لموقع بوفيه إلى ٦٥ ألف عام قبل عصرنا. كانت المدينة معسكراً تم تعزيزه من قبل الرومان حين اتخذت لها اسم سيزاروماغوس، ثم بيلوفاكوم، قبل أن تدمّر عام ٢٧٥ على يد الغزو البربري.

عرفت بوفيه، الواقعة بين تقاطع طرق تجارية، والمحاطة بحقولٍ وافرة من القمح، منذ القرن الحادي عشر، ازدهاراً كبيراً، وتطوّرت فيها الحرف النسيجية - كانت ملاءات بوفيه تُصدَّر حتى بيزنطة. ثم

في عام ١٢٢٥ أطلق الكونت المطران ميلون دو نانتوي مشروع كاتدرائية سانت بيار (ثلاثة نجوم لدى ميشلان، *تستحق السفر*) التي بالرغم من أن تشييدها لم يكتمل ذاع صيتها لأنها تحوي أعلى قبب قوطية في أوروبا. أما تراجع بوفيه، الذي رافق تراجع صناعة النسيج، فقد بدأ منذ نهاية القرن الثامن عشر؛ ولم يتوقف فعلياً مذ حينها. وجد جاد بسهولة غرفة في فندق «كيرياد». وقبل حلول موعد العشاء كان يعتقد أنه الزبون الوحيد في المكان. ولكن بينما كان يباشر تناول قطعة العجل - الصحن اليومي لذلك اليوم - لمح شاباً يابانياً وحيداً، في الثلاثينيات من عمره تقريباً، يرمي نظرات هلعة من حوله، قبل أن يتقدم ويستقر إلى الطاولة المجاورة. أربكت قطعة العجل الرجل الياباني الذي غاص في بحر من القلق، قبل أن يعتمد قطعة من لحم الأنتركوت لم تلبث أن وصلت بعد عدة دقائق. تحسّسها بحزن، وبتردد، بطرف شوكته. شك جاد في أنه سوف يحاول فتح حديث معه؛ وهذا ما قام به فعلاً، بالإنكليزية، بعد أن تلذذ بتناول بعض أصابع البطاطا المقلية. كان الرجل المسكين موظفاً لدى كوماتسو، شركة متخصصة في الماكينات. الأدوات، نجحت في وضع إحدى أحدث ماكينات النسيج التي تصنّعها، إلى جانب المؤسسة الوحيدة لصناعة الجوخ والأقمشة التي لا تزال ناشطة في المنطقة. تعطلت برمجة الآلة، فجاء ليحاول تصليحها. لرحلةٍ من هذا النوع، قال متحسراً، كانت شركته ترسل فيما مضى ثلاثة أو أربعة تقنيين، قل اثنين على أقل تقدير؛ إلا أن قيود الميزانية رهيبة. هكذا وجد نفسه وحيداً في بوفيه، في مواجهة زبون غاضب وآلة برمجتها معطلة.

كان بالفعل في ورطة وسخة، اعترف جاد. ولكن ألم يكن من

الممكن لزملائه مساعدته، على الأقل عبر الهاتف؟ «*فرق التوقيت*...» قال الياباني بحزن. ربما يتوصل، عند الواحدة صباحاً، إلى إيجاد أحد، عند فتح المكاتب في اليابان؛ لكنه، حتى الآن، كان وحيداً، ولم يكن لديه حتى قنوات فضائية يابانية في غرفته. تأمل سكينه المخصصة لقطع اللحم للحظة، وكأنه ينوي ارتجال سيبوكو(*)، ثم قرر الانقضاض على قطعة الأنتركوت.

في غرفته، وهو يشاهد *تالاسا (برنامج وثائقي فرنسي)* مخفياً الصوت، فتح جاد تلفونه المحمول. كان فرانز قد ترك له ثلاث رسائل. أجاب منذ الرنة الثانية.

«إذاً؟ كيف كان اللقاء؟

- جيد، تقريباً جيد. باستثناء أنني أعتقد أنه سيتأخر قليلاً في كتابة النص.

- آه لا! هذا غير مقبول. أنا بحاجة لاستلام النص في نهاية آذار/ مارس، وإلا لن أستطيع أن أطبع الكاتالوج.

- قلت له...» تردد جاد، ثم اندفع قائلاً «قلت له إنه لا مشكلة في ذلك، فليأخذ كل الوقت الذي يحتاج إليه».

أصدر فرانز نوعاً من الغمغمة المشككة، ثم سكت قبل أن يعاود الحديث بصوت متوتر، على حافة الانفجار.

«إسمع، علينا أن نلتقي للتحدث بهذا الشأن. هل باستطاعتك أن تمرّ الآن عليّ في الغاليري؟

- كلا، أنا في بوفيه.

(*) انتحار طقسي تقليدي يمارسه الساموراي (المترجمة).

- في بوفيه؟ ماذا تفعل في بوفيه؟
- آخذ بعض المسافة. من الجيد أخذ بعض المسافة في بوفيه.»

كان ثمة قطار ينطلق عند الثامنة و٤٧ دقيقة، بينما تستغرق الطريق حتى محطة الشمال أكثر من ساعة بقليل. عند الحادية عشرة كان في الغاليري، يواجه نسخة محبطة من فرانز. «أنت لست فناني الوحيد، كما تعلم...» قال بلهجة معاتبة. «إذا استحال تنظيم المعرض في أيار/مايو، سوف أكون مضطراً لتأجيله حتى كانون الأول/ديسمبر.»

أعاد وصول مارلين بعد ذلك بعشر دقائق إرساء جو من المرح. «أوه، بالنسبة لي كانون الأول/ديسمبر سيكون رائعاً»، قالت بداية، قبل أن تتابع ببهجة قاطعة: «من شأن ذلك أن يمنحني المزيد من الوقت لمتابعة المجلات الإنجليزية؛ يجب العمل تدريجياً، من الأدنى نحو الأعلى، مع المجلات الإنجليزية.

- حسناً إذاً، فليكن كانون الأول/ديسمبر...» تنازل فرانز، مقطباً ومهزوماً.

«أنا...» بدأ جاد وهو يرفع يديه قليلاً قبل أن يتوقف. كان على وشك أن يقول: «أنا الفنان»، أو جملة من هذا النوع، فيها من التشدق ما يثير السخرية قليلاً، لكنه احتوى نفسه وأضاف ببساطة: «عليّ أن أحظى بالوقت الكافي لإنجاز بورتريه ويلبيك، أيضاً. أريدها أن تكون لوحة جيدة. أريدها أن تكون أفضل لوحاتي.»

٦

في «ميشيل ويلبيك، كاتب»، كما يشير معظم مؤرخي الفن، يحقق جاد مارتان القطيعة مع تلك الأعماق الواقعية التي كانت تتميّز بها مجمل أعماله طوال مرحلة «المهن». يحقق القطيعة بصعوبة، ونشعر أن تلك القطيعة تكلّفه الكثير من الجهود، لدرجة أنه يجتهد، من خلال حيلٍ عديدة، في إبراز الوهم المخادع لعمقٍ واقعيٍ محتمَل.

في اللوحة، يقف ويلبيك أمام مكتب مغطى بالأوراق المكتوبة أو نصف المكتوبة بخط اليد. وراءه، على بعد مسافةٍ ممكن تقديرها بخمسة أمتار، يبدو الحائط الأبيض مكسواً تماماً بأوراقٍ لاصقة متراصة من دون أي فواصل مهما كانت صغيرة. بسخرية، يلفت المؤرخون إلى أن جاد مارتان يولي، في ذلك العمل، أهمية كبيرة للنص المتفلّت من أية مرجعية واقعية، مستقطباً الأنظار نحوه. إلا أنه، وكما يؤكد جميع مؤرخي الأدب، إذا كان ويلبيك يحب، خلال مرحلة إنجاز عمل جديد، أن يكسو جدران غرفته بوثائق متنوعة، فإن هذه الأخيرة غالباً ما تكون صوراً، تمثل الأماكن التي تدور فيها مشاهد رواياته؛ ونادراً ما تكون مشاهد مكتوبة أو نصف مكتوبة.

لعلّ جاد مارتان رغب في عدم اتخاذ موقف من مسألة الواقعية في الأدب حين قدّم الكاتب وسط عالم من الورق، وتفادى زجّه في موقف شكلي كان هذا الأخير قد نبذه بصراحة في الأصل. لا شك في أنه قد انجرف، ببساطة، وراء انبهار تشكيلي بحت أثارته فيه صورة تلك النصوص المتشعبة، المترابطة، والمتداخلة كأنها غشاء مخاطي متورم هائل.

أصلاً، قلة من الناس التفتوا، خلال عرض اللوحة، إلى عمقها، المحجوب بالتعبيرية المذهلة للشخصية الأساسية فيها. لأن اللقطة جاءت في اللحظة التي كان قد وقع فيها على خطأ يجب تصحيحه في إحدى الأوراق المودعة أمامه على المكتب، فقد بدا الكاتب في حالة من الارتعاش، مأخوذاً بهيجان لم يتردد البعض بوصفه بالشيطاني: يده التي تحمل قلم التصحيح، والتي عولجت بضبابية حركية خفيفة، ترتمي على الورقة «بسرعة كوبرا تتمدد لتضرب فريستها»، كما يصفها، بطريقة صورية وونغ فو كزين، الذي يلجأ هنا على الأرجح إلى تحوير ساخر لكليشيهات الحماسة المجازية المرتبطة تقليدياً بكتاب الشرق الأقصى (كان وونغ فو كزين يريد أن يكون شاعراً قبل كل شيء؛ إلا أن قصائده لم تعُد تُقرأ تقريباً، ولم تعد متوفرة بسهولة كذلك؛ بينما تبقى كتاباته عن أعمال مارتان مرجعاً لا يمكن تجنبه في مجال تاريخ الفن). الإضاءة، الأوضح تبايناً بكثير مما هي عليه في لوحات مارتان السابقة، تخلّف جزءاً كبيراً من جسد الكاتب في الظلال، وتركّز فقط على أعلى الوجه، وعلى اليدين ذواتي الأصابع العوجاء، الطويلة، والهزيلة مثل مخالب طير جارح. وقتها، بدا تعبير النظرة، كما قيّمه النقاد، غريباً لدرجة تستعصي معها مقارنته بأي تراثٍ تصويري موجود، ولكن من الممكن مقارنته، إلى حد ما،

ببعض الصور الأرشيفية الإثنية المأخوذة خلال طقس من طقوس الفودو.

اتصل جاد تلفونياً بفرانز في الخامس والعشرين من تشرين الاول/أكتوبر، ليعلمه أنه قد أنجز لوحته. لم يلتقيا كثيراً منذ عدة أشهر؛ وبخلاف ما كان يفعله في أغلب الأوقات لم يتصل به ليطلعه على أعمال تحضيرية، أواسكتشات. من ناحيته، ركّز فرانز في تلك الفترة على معارض أخرى، كانت ناجحة نوعاً ما. فالغاليري الذي يملكه كان قد بدأ يلفت الأنظار منذ عدة سنوات، وقد أخذ ترتيبه يعلو شيئاً فشيئاً - ولكن من دون أن يُترجَم ذلك عبر مبيعات جوهرية.

وصل فرانز حوالي الساعة السادسة. كانت اللوحة في وسط المحترف، مشدودة على شاسيه عادي مقاسه ١١٦ سنتم على ٨٩، مضاءة جيداً بنورٍ يبثّه صف من لمبات الهالوجين. جلس فرانز على كرسي من القماش قابل للطي، في مقابلها تماماً، وراح يتأملها من دون أن ينبس ببنت شفة لعشر دقائق.

«حسناً...» قال في النهاية. «أنت خرائي في بعض الأحيان، لكنك فنان جيد. عليّ أن أعترف أن الأمر كان يستحق الانتظار. هذه لوحة جيدة؛ جيدة جداً حتى. أنت متأكد من أنك تودّ أن تهديه إياها؟

- لقد وعدته.

- والنص، هل يصل قريباً؟

- قبل نهاية الشهر.

- هل تتواصل معه أم لا؟

- ليس تماماً. لقد أرسل لي رسالة في آب/أغسطس يخبرني فيها أنه سيعود للاستقرار في فرنسا، وأنه قد نجح في إعادة شراء المنزل الذي قضى فيه طفولته في منطقة لواريه. لكنه أكد أن ذلك لن يغير شيئاً، وأن النص سيكون بحوزتي مع نهاية تشرين الأول/أكتوبر. وأنا أثق به».

٧

بالفعل، في صباح الواحد والثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر، تلقى جاد بريداً إلكترونيا مرفقاً بنص من دون عنوان، من حوالي خمسين صفحة، حوّله مباشرة إلى مارلين وإلى فرانز، مبدياً تخوفه: أليس طويلاً جداً؟ طمأنته مارلين مباشرة: بالعكس، قالت له، من الأفضل دائماً «أن يكون هنالك حجم».

حتى وإن أصبح اليوم يُعتبَر من نوادر التاريخ، إلا أن نص ويلبيك - الأول بهذه الأهمية الذي يتناول أعمال مارتان - لا يخلو من بعض الاستبصار المثير للاهتمام. ففيما يتعدّى تنوّع المواضيع والتقنيات، يؤكد النص للمرة الأولى وحدة عمل الفنان، إذ يكتشف منطقاً عميقاً لواقع أنه، من بعد أن كرّس سنوات دراسته لرصد أساس منتجات العالم المصنّعة، اهتم في مرحلة ثانية من حياته بصنّاعها أنفسهم.

إن نظرة جاد مارتان إلى المجتمع الذي يعيش فيه، كما يلفت ويلبيك، هي نظرة عالِم بالسلالات أكثر مما هي نظرة معلّق سياسي. إن مارتان، كما يؤكد، لا يملك شيئاً من مقوّمات الفنان الملتزم، وإذا كان من الممكن للوحة «إدراج سهم بيت أوس(*) في البورصة»،

(*) شركة ألمانية تعمل في مجال صناعة الجنس والترفيه للبالغين (المترجمة).

وهي من اللوحات النادرة التي رسم فيها حشداً، أن تستحضر المرحلة التعبيرية، إلا أننا أبعد ما نكون، رغم ذلك، عن المعالجة الحادة واللاذعة التي قد يعتمدها أحد مثل جورج غروس أو أوتو ديكس. *إن المضاربون الذين يظهرون في لوحته*، بثياب الرياضة المريحة، مهللين بتراخٍ ضجرٍ للشركة الكبيرة في صناعة البورنو الألماني هم الورثة المباشرون للبورجوازيين لا بسي الجاكيتات الذين يلتقون بشكل لا نهائي في الاستقبالات التي يقوم بإخراجها مخرجٌ مثل فريتز لانغ في فيلم مثل «وصية الدكتور مابوز»؛ فمعالجتهم تتم بالتجرد ذاته، وبالبرودة الموضوعية ذاتها. في عناوينه كما في رسوماته نفسها، يبدو مارتان دائماً بسيطاً ومباشراً: هو يصف العالم، من دون أن يسمح لنفسه، إلا نادراً، بأن يرفق ذلك الوصف بتدوينة شعرية أو بعنوان فرعي يكون بمثابة تعليق. إلا أنه يقوم بذلك في أحد أنجح أعماله، «بيل غايتس وستيف جوبز يتحادثان حول مستقبل المعلوماتية» الذي اختار له عنواناً فرعياً آخر هو «محادثة بالو ألتو».

في تلك اللوحة يبدو بيل غايتس، الغارق في مقعدٍ مصنوعٍ من أغصان الصفصاف، فاتحاً ذراعيه على وسعهما، وهو يبتسم لمحدثه. كان يرتدي بنطالاً من القماش، وبلوزة كاكية أكماكها قصيرة، وخفاً تبدو منه قدماه العاريتان. لم يكن في ذلك تجسيدٌ لبيل غايتس بالزي الأزرق الغامق، كما كان يظهر في تلك المرحلة التي أحكمت فيها مايكروسوفت سيطرتها على العالم، والتي كان فيها هونفسه، بعد أن خلع سلطان بروناي عن عرشه، قد ارتقى لمرتبة الثروة الأولى العالمية. كما أنه لم يكن تجسيداً لبيل غايتس المهتم، المتألم، وهو يزور دور أيتام سريلانكية، أو وهو يناشد المجتمع

الدولي التنبه لعودة تفشي مرض الجدري في بلاد الشرق الإفريقي. لم يكن كل ذلك، بل كان نسخة من بيل غايتس وسيطاً، مرتاحاً، سعيداً على ما يبدو لتركه مركز الرئيس في شركة البرمجيات الأولى عالمياً. في الخلاصة، كان يبدو كبيل غايتس في إجازة. وحدها نظارته ذات الإطار المعدني، والزجاج الذي يكبّر جداً، قد تذكّر بماضيه كـ *طالب مجتهد*.

قبالته، كان ستيف جوبز، رغم جلوسه القرفصاء على الكنبة الجلدية البيضاء، يبدو، في مفارقة واضحة، تجسيداً للزهد وللنزعة الخيرية الملازمين تقليدياً للرأسمالية البروتستانتية. لم يكن ثمة شيء «كاليفورني» في الطريقة التي تشدّ بها يده اليمنى على فكه وكأنها تساعده في تفكيرٍ شاق، ولا في النظرة المثقلة بالشك التي يوجهها نحو محدّثه. حتى قميص هاواي الذي ألبسه إياه مارتان لم ينجح في تبديد انطباع عام بالحزن توحي به جلسته المقوّسة، وتعبير القلق البادي على ملامحه.

كان اللقاء قد تمّ. طبعاً، لدى جوبز. حيث مزيج من الأثاث الأبيض ذي التصميم المصقول ومن البسط الإثنية ذات الألوان الزاهية: كل شيء في الغرفة يوحي بالعالم الذي ينتمي إليه مؤسس شركة «آبل». فقد كان العالم الجمالي الذي ميّز، بحسب الأسطورة، المنزل الذي بناه مؤسس مايكروسوفت لنفسه في ضاحية سياتل، على نقيض الإفراط في أدوات التكنولوجيا العالية، وعلى حدود الخيال العلمي. وقد وضِعت بين الرجلين، على طاولة منخفضة، لعبة شطرنج قطعها مصنوعة بشكل حِرَفي من الخشب؛ كانا قد توقفا عن إكمال الجولة عند حالة غير مؤاتية للسود - أي لجوبز.

في بعض الصفحات من سيرته الذاتية، «طريق المستقبل»، يظهر

لدى بيل غايتس أحياناً ما يمكن أن نعتبره تهكماً تاماً - تحديداً في المقطع الذي يعترف فيه بصراحة أنه ليس من الضروري أن يكون طرح المنتجات الأكثر ابتكاراً مفيداً لشركة ما. ففي أغلب الأحيان قد يكون من الأفضل مراقبة ما تقوم به الشركات المنافسة (وهو يشير هنا بوضوح، من دون أن يسميها، إلى منافسته آبل)، وتركها تطرح منتجاتها وتواجه الصعوبات المرافقة لأي فكرة جديدة، أي أن تتحمل وحدها الأعباء؛ ثم، في وقت لاحق، إغراق السوق بنسخ من المنتجات المنافسة منخفضة السعر.

إلا أن ذلك التهكم الظاهر لا يعكس، كما يلفت ويلبيك في نصه، الحقيقة العميقة لغايتس؛ فهذه تظهر أكثر في المقاطع المذهلة، والمؤثرة تقريباً، التي يؤكد فيها إيمانه بالرأسمالية، بـ «اليد الخفية» الغامضة؛ وقناعته المطلقة، والراسخة بأنه مهما كانت مساوئ تلك الفكرة ومهما توفرت البراهين المعاكسة لها يظل السوق دائمًا، في النهاية، على حق. ودائما، يلتقي صالح السوق مع الصالح العام. هنا، يبدو بيل غايتس، في حقيقته العميقة، ككائن مؤمن. وذلك الإيمان، ذلك الإخلاص الذي يبديه رأسمالي صادق، هو ما نجح جاد مارتان في إبرازه وهو يرسمه: فاتحاً ذراعيه على وسعهما، دافئاً وودياً، بينما تلمع نظارته تحت تأثير آخر خيوط الشمس الغاربة في المحيط الهادئ. على عكسه، يبدو جوبز وقد أعياه المرض، يحاكي، بوجهه القلق، وبذقنه غير المشذبة التي تستريح بألم على يده اليمنى، أحد هؤلاء المبشرين الجوالين في اللحظة التي يجدون فيها أنفسهم، للمرة الثانية ربما، وهم يتلون مواعظهم أمام حضور مشتّت وغير مكترث، فيعتريهم الشك فجأة.

رغم كلّ ذلك، كان جوبز، الساكن، المنهك، الذي يبدو في

موقع الخاسر، هو من يعطي انطباعاً بامتلاك قواعد اللعبة: كانت تلك هي، كما يشير ويلبيك، المفارقة العميقة التي تطرحها تلك اللوحة. في نظرته، كانت لا تزال تلمع تلك الشعلة التي لا تخصّ الواعظين والأنبياء فحسب، ولكن أيضاً المخترعين الذين لطالما وصفهم جول فيرن. وإذا نظرنا بتمعن إلى رقعة الشطرنج التي رسمها مارتان، سوف نكتشف أنها ليست خاسرة بالضرورة؛ وأنه كان باستطاعة جوبز، إذا ما ضحّى بالملكة، أن يختم الجولة بضربة ثلاثية جريئة يقتل فيها الشاه والمجنون والفارس. بالطريقة ذاتها، كان لدينا انطباع بأن باستطاعته، عبر حدس ساطع متعلق بمنتج جديد، أن يفرض على السوق، بشكل فجائي، قواعد جديدة.

من النافذة الزجاجية خلف الرجلين، بدا منظر من الحقول ذات خضرة زمردية تكاد تكون سوريالية، تنحدر عبر انحناءة ناعمة تنتهي بجرفٍ يلاقي غابة من الصنوبر. في المدى الأبعد، كان المحيط الهادئ يبسط أمواجه البرونزية اللون التي لا نهاية لها. فتيات صغيرات، في المنطقة الخضراء البعيدة، كن يلهون بالفريسبي. كان المساء يبسط ظلاله، بروعة، وسط انفجار ضوئي لشمس توشك على المغيب في شمالي كاليفورنيا، أرادها مارتان غير محتملة تقريباً، بروعتها البرتقالية. وكان المساء يبسط ظلاله على الجزء الأكثر تقدماً من العالم؛ كان ذلك أيضاً، ذلك الحزن غير المحدد للوداعات، هو ما نستطيع قراءته في نظرة جوبز.

هكذا بدا المناصران المقتنعان باقتصاد السوق؛ الداعمان المتشددان أيضاً للحزب الديمقراطي، غير أنهما الوجهان المتعارضان للرأسمالية، اللذان يختلفان بقدر ما يختلف مصرفي لبالزاك عن مهندس لفيرن.

«*محادثة بالو ألتو*»، يختم ويلبيك، كانت عنواناً فرعياً متواضعاً إلى حد بعيد. «*حكاية مقتضبة عن الرأسمالية*»، ذلك هو العنوان الذي كان يجدر بمارتان اختياره للوحته؛ لأن ذلك هو ما كانت عليه، في الحقيقة.

٨

بعد بعض التردد والمماطلة حُدّد افتتاح المعرض في ١١ كانون الأول/ديسمبر، الذي يصادف نهار أربعاء - النهار الأمثل، بحسب مارلين. وصلت نُسخ الكاتالوج في الوقت تماماً بعد طباعتها بشكل طارئ في مطبعة إيطالية. كانت أشياء أنيقة، وحتى فخمة - لم يكن مسموحاً التقشف في طباعتها، كما حسمت مارلين، التي أصبح فرانز أكثر خضوعاً لها، الأمر الذي بدا مستغرباً، إذ كان يتبعها أينما ذهبت من غرفة إلى أخرى، ككلب، وهي تقوم باتصالاتها.

بعد أن وضعوا رزمة من الكاتالوجات قرب المدخل، وتأكدوا من تعليق جميع اللوحات، لم يبق لديهم شيء يقومون به حتى موعد الافتتاح، المحدد عند السابعة، وبدأ صاحب الغاليري يُظهر علامات عُصاب بَيّنة؛ كان يرتدي بلوزة غريبة مزخرفة تشبه بلوزة فلاحة سلوفاكية، وقد وضع أطرافها تحت بنطاله من الجينز الأسود ماركة «ديزل».

كانت مارلين، بكامل هدوئها، تتأكد من بعض التفاصيل على هاتفها المحمول، وهي تتنقل من لوحة إلى أخرى، بينما يسير فرانز على خطاها. هي لعبة، *هي لعبة بمليار من الدولارات*.

عند السادسة والنصف تقريباً، بدأ جاد يتعب من حركة الكومبارس الثنائي حوله فأعلن أنه سيخرج في جولة. «فقط جولة بسيطة في الشوارع، سوف أتمشى قليلاً، لا تقلقا، المشي مفيد.» كانت الملاحظة تدلّ على تفاؤل مبالغ فيه، أدرك ذلك ما إن وضع رجليه على بولفار فانسان - أوريول. كانت السيارات تمرّ مسرعة فترشّه بالماء، فالطقس بارد، والمطر ينهمر بغزارة. كان ذلك كل ما لدى بولفار فانسان - أوريول ليمنحه في ذلك المساء. بدا سوبرماركت «كازينو»، ومحطة بنزين «شيل»، وكأنهما مركزا الطاقة الوحيدان المحسوسان في المكان، والاقتراحان الاجتماعيان الوحيدان القادران على خلق الرغبة، والسعادة، والبهجة. أماكن الحياة تلك كان جاد يعرفها جيداً: بالنسبة لسوبرماركت «كازينو»، فقد كان زبوناً منتظماً لديه، لسنوات طويلة، قبل أن يتحول إلى محلات «فرانبري» في بولفار «لوبيتال». أما محطة البنزين شيل فكان يعرفها جيداً: فقد كان يقدّر أيّما تقدير أن تتيح له، في آحاد كثيرة، التزود بال «برينغلز» وبزجاجات «هيبار»، لكن ذلك لم يكن ضرورياً في هذا المساء، فهنالك كوكتيل منظّم بطبيعة الحال، وينظمه متعهد *طعام* أيضاً.

دخل، رغم ذلك، بين عشرات الزبائن الآخرين، المتجر الكبير، وتمكن سريعاً من ملاحظة بعض التحسينات التي أجريت على المكان. قرب منطقة المكتبة كان رف مخصص للصحافة يقترح خياراتٍ مهمة من الصحف اليومية والمجلات. وكان الرفّ حيث يُعرَض عجين الباستا الإيطالية الطازجة قد اغتنى بمزيد من الأصناف، ومن المؤكد أن لا شيء قادر على إيقاف تطور عجين الباستا الطازجة الإيطالية. بشكل عام، كانت جميع معروضات منطقة الطعام في

المتجر قد اغتنت ببار جديد رائع للسلطات، يضم حوالي خمسة عشر صنفاً يبدو بعضها شهياً ويمكن للزبون سكب ما يرغب فيه منها لأن الخدمة ذاتية. ها هو ذا شيء يعطيه الرغبة في العودة؛ يعطيه الرغبة *الإبليسية* في العودة، كما كان ليقول ويلبيك، الذي أسف جاد فجأة لعدم حضوره، وهو يقف في مقابل بار السلطات حيث كانت مجموعة من النساء المتوسطات العمر يحاولن التكهن، متشككات، بقيمة السعرات الحرارية التي تحويها تشكيلات السلطة المقترحة. فهو يعرف أن الكاتب يشاركه استحسانه للمتاجر الكبيرة، المتاجر *الحقيقية* كما يحلو له أن يسميها، ومثله تماماً يتمنى من كل قلبه، أن يحدث في مستقبل بعيد ومثالي إلى حد ما اندماج بين مختلف سلاسل المتاجر في متجر كبير شامل، يغطي مجمل الاحتياجات الإنسانية. كم كان الأمر ممتعاً لو أمكنهما أن يزورا معاً هذا المتجر، «كازينو» المجدّد تماماً، فيخز أحدهما الآخر بكوعه ليدلّه على ظهور قِطع جديدة من المنتجات لأول مرة، أو ليدله على ماركة غذائية جديدة واضحة وشاملة!...

هل كان يكوّن *مشاعر صداقة* تجاه ويلبيك؟ في تلك الكلمة مبالغة، وجاد لا يعتقد، في جميع الأحوال، أنه مؤهل لأن يشعر بشعور كهذا: لقد تجاوز المراهقة، ومرحلة الشباب الأولى، من دون أن يكون فريسة صداقات حيوية؛ كان من المستبعد أن تأتيه الصداقة الآن، بعد *كل هذا العمر*. لكنه، في آخر الأمر، قدّر لقاءهما، وقبل كل شيء، أحب نصّه كثيراً، حتى أنه وجده ذا مستوى حدسي مذهل، نظراً للغياب البديهي للثقافة التصويرية لدى الكاتب. بطبيعة الحال، لقد دعاه إلى الافتتاح؛ ردّ ويلبيك أنه «سيحاول أن يعرّج»، ما يعني أن فرص لقائه كانت شبه معدومة.

عندما حدثه عبر الهاتف كان متحمساً جداً لتوضيب منزله الجديد: فحين عاد إلى فرنسا منذ شهرين، في رحلة كانت أشبه بحجّ عاطفي، وقصد ربوع قريته التي قضى فيها طفولته، وجد المنزل الذي ترعرع فيه معروضاً للبيع. اعتبر ذلك حدثاً «عجائبياً تماماً»، إشارة من القدر، وسرعان ما اشتراه، من دون أن يجادل في السعر، ونقل إليه حاجياته - التي لم تكن بمجملها قد غادرت الصناديق التي كانت فيها أصلاً - وتفرّغ في الوقت الحاضر لتأثيثه. في المحصلة، لم يتحدث سوى عن ذلك، وبدت لوحة جاد من آخر اهتماماته؛ على أية حال، وعده جاد بأن يجلبها له بنفسه، بمجرّد أن ينتهي الافتتاح وتمضي الأيام الأولى من المعرض، التي يمكن أن يأتي خلالها بعض الصحافيين المتأخرين.

في حوالي السابعة، عندما عاد جاد إلى الغاليري، لمح من بين النوافذ الزجاجية حوالي خمسين شخصاً يتجولون في الأروقة بين اللوحات. كان الناس قد وصلوا على الوقت، وذلك مؤشر جيد على الأرجح. رأته مارلين من بعيد، فلوّحت له قبضتها في إشارة إلى الانتصار.

«لدينا زوّار من العيار الثقيل، قالت له حالما التقيا فيها. «من الثقيل جداً».

في الحقيقة، على بعد عدة أمتار، لمح فرانز يتحادث مع فرانسوا بينو ترافقه امرأة شابة جميلة، من أصول إيرانية على الأرجح، تساعده في إدارة مؤسسته الفنية.

كان يبدو على الغاليريست الذي يتولى أعماله أنه يعاني، وهو يحرّك ذراعيه في الهواء بطريقة مضطربة. ولوهلة رغب جاد في إنقاذه، قبل أن يتذكر ما كان يعرفه منذ الأبد وما أكدته له مارلين

بشكل واضح وصريح منذ عدة أيام خلت: إنه يكون بأفضل حال حين يكون صامتاً.

«لم ينته الأمر. . .» تابعت المسؤولة الإعلامية. «أترى ذلك الشاب الذي يرتدي الرمادي هناك؟» كانت تشير إلى رجل ثلاثيني يبدو على وجهه الذكاء، أنيق المظهر، تشكّل بزّته وربطة عنقه وقميصه مجموعة رهيفة من نبرات الرمادي الفاتح. كان قد توقف أمام «الصحافي جان بيار بيرنو وهو يدير اجتماعاً تحريرياً»، وهي لوحة قديمة نسبياً لجاد، الأولى التي يصوّر فيها موضوعه بصحبة زملاء في العمل. كانت تلك، كما لا يزال يذكر، لوحة صعبة التنفيذ بصورة استثنائية، إذ لم يكن من السهل نقل تعابير زملاء جان بيار بيرنو وهم يستمعون إلى إرشادات قائدهم الكاريزماتي بمزيج مثير للفضول من التبجيل والقرف، ما جعل رسمها يستغرق ستة أشهر تقريباً. لكن هذه اللوحة حررته، فمن بعدها بقليل انطلق في إنجاز «المهندس جان بيار مارتان وهو يغادر إدارة شركته»، ولوحاته الكبيرة الأخرى بشكل عام، التي اتخذت من عالم العمل إطاراً لها.

«هذا الرجل هو مشتري رومان أبراموفيتش في أوروبا» قالت مارلين. «التقيته من قبل في لندن، وفي برلين، ولكن ليس في باريس أبداً وليس في غاليري للفن المعاصر على أية حال.»

«من الجيد أن يكون لديك موقف تنافسي محتمل منذ يوم الافتتاح»، تابعت قائلة.

«إنه عالم صغير. هم يعرفون بعضهم البعض. سيبدأون بالتكهن، بتخيل الأسعار. إذاً، بديهياً، يتطلب ذلك وجود شخصين على الأقل. وهنا. . .» ابتسمت ابتسامة ساحرة، متمردة، جعلتها

أشبه بفتاة صغيرة، وفاجأت جاد. «هنا لدينا ثلاثة... أترى الرجل هناك، أمام لوحة بوغاتي؟» كانت تشير إلى رجل مسنّ ذي وجه متعب ومنتفخ، وشارب صغير رمادي، يرتدي زياً أسود خياطته غير دقيقة. «هذا كارلوس سليم حلو. مكسيكي من أصل لبناني. أعرف أن ذلك لا يبدو على مظهره؛ لكنه قد ربح الكثير من الأموال في مجال الاتصالات: بحسب التقديرات، هو يمتلك ثالث أو رابع ثروة عالمياً. وهو مقتني لوحات فنية...»

ما أطلقت عليه مارلين اسم *لوحة بوغاتي* كان في الحقيقة «المهندس فرديناند بييخ وهو يزور مصانع إنتاج مولشايم»، التي تظهر فيها فعلاً سيارة الـ بوغاتي فيرون ١٦,٤، السيارة الأسرع - والأغلى ثمناً - في العالم. فهي تحظى بمحرك قوته ١٦ سيلاندر، ١٠٠١ حصان، تكملّه أربع دوافع عَنَفية (توربينات)، وباستطاعتها تحويل سرعتها من صفر إلى مئة كلم في الساعة خلال ثانيتين ونصف الثانية. لم يكن يتوفر في الأسواق نظام للهواء المضغوط قادر على تحمّل سرعات كهذه، حتى أن ميشلان اضطرت إلى تطوير صمغ خاص بتلك السيارة.

ظل سليم حلو واقفاً أمام اللوحة لخمس دقائق على الأقل، يتحرك قليلاً، يبتعد ويتقدم لعدة سنتمترات. لقد اختار، لاحظ جاد، مسافة النظر المثالية للوحة بهذا الحجم؛ كان بوضوح مقتنيَ أعمال فنية حقيقي.

بعدها، استدار الملياردير المكسيكي واتجه صوب الباب؛ لم يلقِ التحية على أحد، ولم يتحدث مع أحد. عند مروره، رمقه فرانسوا بينو بنظرة حادة؛ فأمام منافس كهذا، في الحقيقة، لن يبدو رجل الأعمال الذي تعود أصوله إلى منطقة بريتاني ذا ثقل. ومن دون

أن يلتفت إليه استقل سليم حلو المقعد الخلفي في سيارة ليموزين مرسيدس كانت متوقفة أمام الغاليري.

اقترب موفد رومان أبراموفيتش بدوره من *لوحة بوغاتي*. كانت، فعلياً، عملاً مثيراً للفضول. قبل إنجازها بعدة أسابيع كان جاد قد اشترى من «سوق البراغيث» في مونتروي، بسعر تافه - هو سعر الورق المستخدم، لا أكثر - ورق كرتون تم انتزاعه من أعداد قديمة من مطبوعتي «بكين إنفورمايشن» و«بناء الصين»، استخدمهم في إنجازها، لتبدو في النهاية وكأن بها شيئاً فسيحاً وجوّياً قرّبها من الواقعية الإشتراكية على الطريقة الصينية. كان تكتّل الفريق الصغير من المهندسين على شكل V واسعة وهم يتبعون المهندس فرديناند بييخ خلال زيارته المصانع يذكر جداً، كما سيشير لاحقاً أحد المؤرخين الفنيين المشاكسين والمطّلعين بصورة إستثنائية، بمجموعة المهندسين الزراعيين والفلاحين المتوسطي الحال والفقراء وهم يرافقون الرئيس ماو تسي تونغ في لوحة مائية نشرت في العدد ١٢٢ من «بناء الصين»، وعنوانها: «إلى الأمام في زراعة الأرزّ المروي في محافظة هو نان!» بالإضافة إلى ذلك، كانت تلك هي المرة الوحيدة، كما أشار مؤرخون فنيون آخرون منذ زمن، التي اختبر بها جاد نفسه في تقنية الألوان المائية. بدا المهندس فرديناند بييخ، الذي يتقدم الفريق بحوالي مترين، وكأنه يطفو أكثر من كونه يمشي، وكأنه في وسط عملية استرفاع تحمله لعدة سنتمترات فوق الأرض المصنوعة من الأبوكسي الشفاف. ثلاث منصات للعمل، من الألومنيوم، حملت شاسيهات البوغاتي فيرون في مراحل متعددة من تصنيعها؛ بينما تفتح الجدران الزجاجية بالكامل، في الخلفية، على بانوراما سلسلة جبال الفوسج. عبر مصادفة غريبة، يشير ويلبيك في نصه المنشور في

الكاتالوج إلى أن قرية مولشايم تلك، ومناظر الفوسج المحيطة بها، كانت مركزية في الصّور، سواء أتلك المأخوذة عن خرائط ميشلان الأرضية أم عن الأقمار الصناعية، التي اختار جاد، منذ عشر سنوات خلت، افتتاح معرضه الفردي الأول بها.

تلك الملاحظة البسيطة، التي لا شك في أن ويلبيك ذا الفكر المنطقي لا بل والصارم، لم ينظر من خلالها إلى أكثر من علاقة وقائعية مهمة ولكن نادرة، سوف تقود باتريك كيشيشيان لكتابة مقال ملتهب، أكثر غموضاً من أي وقت آخر: بعد أن أرانا أن الله يشارك، مع الإنسان، في خلق العالم، يرينا الفنان الآن، استكمالاً لحركته نحو التجسيد، الإله وقد نزل بين البشر. بعيداً عن انسجام الدوائر السماوية، جاء الإله حالياً «يغمس يديه في الحمأة»، حتى يتم، بحضوره الكامل، تكريم العظمة الكهنوتية للعمل الإنساني. هو نفسه إنسان حقيقي وإله حقيقي، جاء ليقدم للإنسانية العاملة الإحسان الذبائحي لمحبته المتقدة، كتب. كيف لا نتعرّف، أكمل مصرّاً، في سلوك الميكانيكي إلى اليسار، الذي ترك عمله ليلحق بالمهندس فرديناند بييخ، إلى سلوك بطرس وهو يترك شباكه استجابة لدعوة المسيح: «تعال، سأجعل منك صياداً للبشر»؟ وحتى في ظل غياب البوغاتي فيرون ١٦,٤ في مرحلة تصنيعها النهائية، ظلّ يلمس تلميحاً للقدس الجديدة.

رفضت صحيفة «لو موند» المقال، بعد أن هددت بيبيتا بورغينيون، مسؤولة الزاوية، بتقديم استقالتها إذا ما تم نشر تلك الـ «السذاجة الربانية»؛ إلا أن «آرت برس» نشرته، في الشهر التالي.

«الصحافة، في جميع الأحوال، في هذه المرحلة، لا تهمنا كثيراً. لم تعد الأمور تدور في فلكها فعلياً» اختصرت مارلين في نهاية

السهرة، بينما كان جاد يبدي قلقه من الغياب المتكرر لبيبيتا بورغينيون.

في حوالي الثامنة، بعد مغادرة آخر المدعوين، وبينما كان موظفو متعهد الطعام يطوون المفارش، انهار فرانز على مقعد بلاستيكي لزج بجانب مدخل الغاليري. «تباً، لقد نُسفت...» قال. «نُسفت تماماً». كان قد أنهك نفسه تماماً وهو يسرد من دون كلل، على مسمع جميع من قد يهتمون، مسيرة جاد الفنية أو تاريخ الغاليري الذي يمتلكه، كان قد تحدث طوال السهرة من دون توقف؛ من ناحيته، كان جاد قد اكتفى بهزّ رأسه من وقت لآخر.

«أتجلب لي زجاجة من البيرة أرجوك؟ من ثلاجة المخزن.» عاد جاد حاملاً صندوقاً صغيراً من الـ«ستيلا أرتوا». أفرغ فرانز الزجاجة في جوفه بجرعة واحدة قبل أن يستكمل حديثه.

«حسناً، الآن، لم يعد هناك سوى انتظار العروض..» قال باختصار. «سنقيّم النتائج بعد أسبوع من الآن.»

٩

حين وصل جاد إلى فناء كنيسة «نوتر دام دو لا غار»، كان مطر رقيق وجليدي قد هبط بشكل مفاجئ، كأنه إنذار، ليتوقف بالشكل الفجائي ذاته، بعدها بعدة ثوانٍ. صعد الدرجات القليلة التي تقود إلى المدخل. كانت أبواب الكنيسة، كالعادة، مشرعة على الآخر. بدا الداخل مقفراً. تردد، ثم استدار. كان شارع جان دارك ينحدر حتى بولفار فانسان أوريول، الذي يظلّ المترو الأرضي عليه. في البعيد، كانت قبة البانتيون ظاهرة للعيان، والسماء ذات لون رمادي داكن ومعتم.

أساساً، لم يكن لديه شيء يقوله لله؛ ليس في الوقت الحالي.

كانت ساحة «الناسيونال» مقفرة، والأشجار، المجرّدة من أوراقها تسمح بظهور التشكيلات المستطيلة، المعلبة، لكلّية «تولبياك». دخل جاد من شارع «شاتو دي رانتييه». كان متقدماً، لكن فرانز قد سبقه. كان يجلس أمام كأس من النبيذ الأحمر العادي، وعلى ما يبدو، لم يكن كأسه الأول. وكان بوجنتيه المتوردتين، وشعره الأشعث، يعطي انطباعاً بأنه لم ينم منذ أسابيع.

«حسناً»، قال ما إن استقر جاد. «تلقيت عروضاً على جميع اللوحات تقريباً، حتى الآن. رفعت المزادات، ربما أستطيع رفعها

أكثر بقليل، في النهاية، حالياً، يستقر السعر الوسطي على حوالي خمسمئة ألف يورو.

- عفواً؟

- سمعتني جيداً. خمسمئة ألف يورو.» كان فرانز يبرم بعصبية خصلاً من شعره الأبيض غير المرتب؛ تلك كانت المرة الأولى التي يلاحظ جاد فيها حركته العصبية تلك. أفرغ كأسه، وسرعان ما طلب آخر.

«إذا بعت الآن، تابع، نحصل على ثلاثين مليون يورو تقريباً.»

عاد الصمت ليخيم على المقهى. بجانبهما، كان عجوز بالغ النحافة، يرتدي معطفاً رمادياً، يكبو فوق كأسه من الجعة. أمام قدميه، تمدد كلب صغير، صائد جرذان أبيض وأصهب، سمين، نصف نائم كمعلمه. عاد المطر للهطول بلطف.

«إذاً؟» سأل فرانز بعد مرور دقيقة. «ماذا أفعل؟ أبيع الآن؟

- كما تريد.

- هكذا، كما أريد، تباً! ألا تدرك كمية المال الذي نتحدث عنه هنا؟» كان قد صرخ تقريباً، فاستفاق العجوز القريب منهما مذعوراً وانتصب الكلب بمشقة، نابحاً في وجهيهما.

«خمسة عشر مليون يورو... خمسة عشر مليون لكل واحد...» تابع فرانز بنبرة أكثر هدوءاً ولكن بصوت مخنوق. «ولدي انطباع بأن ذلك لا يهزك بتاتاً...

- بلى، بلى، أعذرني» أجاب جاد سريعاً. «فلنقل أنني تحت الصدمة» أضاف بعد ذلك بقليل.

تأمله فرانز بمزيج من الشك والاشمئزاز. «أوكيه، فليكن» قال

أخيراً. «أنا لست لاري غاغوسيان، لا أملك أعصاباً لهذا النوع من الأشياء. سأبيع الآن.»

«معك حق بالتأكيد». قال جاد بعد مرور دقيقة كاملة. مجدداً، حل صمتٌ لم يكن يقطعه سوى شخير صائد الجرذان الذي كان قد تمدد من جديد، مطمئناً، تحت قدمي معلمه.

«برأيك...» تابع فرانز. «برأيك، ما هي اللوحة التي حازت على السعر الأعلى؟»

فكر جاد قليلاً. «بيل غايتس وستيف جوبز ربما...» افترض أخيراً.

«بالضبط. وصل سعرها إلى مليون ونصف المليون يورو. من خلال مندوب أميركي يعمل لحساب جوبز ذاته على ما يبدو.

- منذ مدة طويلة...» تابع فرانز بصوت متوتر، على حدود الغضب، «منذ مدة طويلة، وسوق الفن محكوم من قبل رجال الأعمال الأغنى على الكوكب. واليوم هم يحظون، للمرة الأولى، بفرصةٍ لشراء ما هو الأكثر طليعية في المجال الفني، وما يمثلهم شخصياً، في الوقت ذاته. لن أخبرك عن عدد الاقتراحات التي تلقيتها، من قبل رجال أعمال أو صناعيين، يرغبون أن ترسم بورتريهاتهم. لقد عدنا لأزمنة الرسم البلاطي الذي كان سائداً في عهد النظام القديم، قبل الثورة الفرنسية... في المحصّلة، ما أريد قوله هو أن هناك ضغطاً، ضغطاً كبيراً عليك حالياً. ألا تزال تنوي إعطاء ويلبيك لوحته؟

- بالطبع، لقد وعدت.

- براحتك. هي هدية جميلة. هدية بسبعمائة وخمسين ألف

يورو. . . لاحظ أنه يستحقها. لقد لعب نصه دوراً مهماً. من خلال تأكيده على الناحية المنهجية والنظرية في مسيرتك سمح بتفادي تصنيفك مع الرمزيين الجدد، مع جميع أولئك التافهين. . . بطبيعة الحال، لم أترك اللوحات في مخزني في «لور إي لوار»، استأجرت صناديق أمانات في أحد البنوك. سأعدّ لك ورقة تستطيع بموجبها المرور وسحب بورتريه ويلبيك متى أردت ذلك».

«تلقيت زيارة أيضاً» تابع فرانز بعد استراحة جديدة. «صبية روسية، أفترض أنك تعرف من تكون». أخرج بطاقة وسلمها لجاد. «صبية غاية في الجمال. . .»

بدأ الضوء ينحسر. احتفظ جاد بالبطاقة في جيب داخلي من سترته، وارتدى نصفها.

«إنتظر. . .» قاطعه فرانز. «قبل أن تغادر، أريد أن أتأكد من أنك فهمت الوضع تماماً. لقد تلقيت حوالي خمسين اتصالاً من رجال يُعتبَرون من أصحاب أكبر الثروات عالمياً. أحياناً اتصل مساعدوهم، ولكن، في أغلب الأحيان، كانوا هم، بأنفسهم، من يتصلون. جميعهم، يريدون أن ترسم بورتريهاتهم. جميعهم، يقترحون عليك مليون يورو - على أقل تقدير.»

انتهى جاد من ارتداء سترته، وأخرج محفظته ليدفع.

«على حسابي. . .» قال فرانز مع تكشيرة خبيثة. «لا تُجب، لا داعي لذلك، أعرف تماماً ماذا ستقول. سوف تطلب مهلة للتفكير؛ وبعد مرور عدة أيام ستتصل بي لتخبرني أنك ترفض. ثم ستتوقف. بدأت أعرفك، لطالما كنت كذلك، منذ مرحلة خرائط ميشلان:

تعمل، تنكبّ في ركنك لسنوات؛ ثم، ما إن يتم عرض أعمالك، ما إن تحصل على الاعتراف والتقدير، حتى تسقط كل شيء من يدك.

- هنالك بعض الفروقات. هنا، كنت قد بدأت أتعثّر في اللحظة التي تخليت فيها عن «داميان هيرست وجيف كونز وهما يتقاسمان سوق الفن.»

- نعم، أعرف؛ ذلك أصلاً ما جعلني أقرر تنظيم المعرض. أنا مسرور أيضاً أنك لم تنه تلك اللوحة. رغم أنني أحببت الفكرة جداً، ففي مشروع اللوحة تلك مطابقة تاريخية. كانت لتكون بمثابة شهادة صحيحة إلى حد ما على حالة الفن في لحظة معينة.. في الحقيقة، ثمة قسمةٍ ما واقعة: من ناحية، هناك المرح، والجنس، والكيتش، والبراءة؛ ومن الناحية الأخرى هناك القمامة، الموت، والتهكم. ولكن، في حالتك، كان ذلك العمل بالتأكيد ليُفسَّر كعملٍ لفنان من الصف الثاني، غيران من نجاح زملائه الأكثر ثراء. نحن أصلاً في مرحلة حيث النجاح، بمفهوم السوق، يبرّر أي شيء ويشرعنه، ويحلّ محل جميع المبادئ، هكذا يعجز أي أحد عن النظر إلى ما هو أبعد، أي أحد مطلقاً. الآن، قد تسمح لنفسك برسم تلك اللوحة، فقد أصبحت الفنان الفرنسي الأعلى أجراً في هذه اللحظة؛ لكنني أعرف أنك لن ترسمها، ستتحول الآن لموضوعٍ آخر. ربما ستتوقف عن رسم البورتريهات بكل بساطة؛ أو ستترك الرسم التصويري بشكل عام؛ أو أنك ستتوقف عن الرسم من أصله، وتعود ربما للتصوير الفوتوغرافي، لا أعرف.»

لاذ جاد بالصمت. على الطاولة المجاورة، استفاق العجوز من كبوته، ثم قام، واتجه نحو الباب؛ تبعه كلبه بصعوبة، وجسمه يتهادى على سيقانه القصيرة.

«في جميع الأحوال»، قال فرانز، «أريدك أن تعرف أنني أظل وكيلك. مهما حصل.»

وافق جاد. خرج صاحب الحانة من المستودع، أشعل صف لمبات النيون فوق البار، هزّ برأسه لجاد، فبادله جاد التحية. كانا فرانز وهو من الزبائن المنتظمين، والقدامى حتى، إلا أن ذلك لم يؤدّ لنشوء أي نوع من الإلفة بينهما وبينه. كان صاحب المؤسسة قد نسي أنه، لعشر سنوات خلت، كان قد سمح لجاد بأن يلتقط صوراً له ولمقهاه، استوحى منها هذا الأخير في إنجاز «كلود فوريلون، مدير حانة»، اللوحة الثانية في سلسلة المهن البسيطة - التي عرض عليه أخيراً سمسار أميركي شراءها بثلاثمئة وخمسين ألف يورو. لطالما رأى فيهما زبونين شاذين، ليسا من السن ذاتها ولا من الوسط ذاته اللذين ينتمي إليهما باقي زبائنه، خلاصة الأمر، لم يكونا يشكلان جزءاً من *الشريحة الأساسية التي يستهدفها*. قام جاد، متسائلاً متى سيقابل فرانز مجدداً، وفي الوقت ذاته أدرك فجأة أنه أصبح رجلاً ثرياً، ومباشرة قبل أن يتوجه نحو الباب سأله فرانز: «ما هي مشاريعك لليلة الميلاد؟

- لا شيء، سأقابل والدي كالعادة.»

١٠

كالعادة؟ ليس حقاً، فكّر جاد وهو يمشي باتجاه ساحة جان دارك. كان والده قد بدا في غاية الكآبة على التلفون، حتى أنه اقترح بداية أن يلغيا العشاء السنوي. «لا أريد أن أكون عالةً على أحد...» كان سرطان المستقيم الذي يعاني منه قد تفاقم فجأة، وقد دخل الآن مرحلة *التبرّز اللاإرادي*، كما أعلن ببهجة مازوشية، وسيتوجب وضع شرج اصطناعي له. بعد إصرار جاد، وافق على اللقاء، شرط أن يستضيفه ابنه في شقته. «لم أعد أستطيع تحمّل ترّهات البشر...».

عند وصوله إلى فناء كنيسة «نوتر دام دو لا غار»، تردّد، ثم دخل. في البداية، بدت له الكنيسة مقفرة، لكن مع تقدمه صوب المذبح لمح صبية سوداء، في الثامنة عشرة من عمرها على أبعد تقدير، راكعة على أحد المقاعد، ويداها مضمومتان، أمام تمثال للعذراء؛ كانت تتمتم كلمات بصوت منخفض. ولشدة تركيزها في الصلاة لم تلاحظ وجوده حتى. لاحظ جاد غصباً عنه مؤخرتها المقوّسة بسبب الركوع، والتي بدت محكمةً بدقة في البنطال المصنوع من القماش الأبيض الناعم الذي ترتديه. أيكون لديها خطايا تطلب الصفح عنها؟ أهلٌ مرضى؟ الاثنان، على الأرجح. بدا إيمانها كبيراً. بغضّ النظر عن أي شيء، في النهاية، يبدو أن ذلك الإيمان

بالربّ عملاني بمقدار لا بأس به. فحين لا يعود بوسعنا تقديم أي شيء للآخرين - وهذا هو الحال غالباً في الحياة، ذلك في الواقع هو الحال دائماً تقريباً، وتحديداً في ما يتعلق بسرطان والده - يظل هناك بديل واحد ممكن هو *الصلاة من أجلهم*.

قفل عائداً وهو يشعر بعدم الإرتياح. كان الليل يهبط على ساحة جان دارك، والأضواء الحمراء للسيارات تبتعد ببطء نحو بولفار فانسان أوريول. في البعيد، بدت قبة البانتيون تسبح في نور يميل نحو الأخضر، غير قابل للتفسير، وكأن مخلوقات دائرية من كوكب آخر تعد لهجوم هائل على المنطقة الباريسية. لا ريب في أن ثمة أناساً يموتون في هذه اللحظة بالذات هنا وهناك في المدينة.

في الوقت ذاته من اليوم التالي، وجد نفسه يشعل شموعاً مبهجة ويضع *أصداف السلمون* على طاولته القابلة للطي، مع امتداد رقعة العتمة على ساحة الألب. وعده والده بأن يصل في تمام الساعة السادسة. ضغط زر الجرس من مدخل البناية عند السادسة والدقيقة الواحدة. ففتح له جاد عبر الإنترفون، وتنفس بهدوء، بعمق، ولعدة مرات، قبل وصول المصعد. قبّل سريعاً وجنتي والده الخشنتين وهو يقف ساكناً، في وسط الغرفة. «إجلس، إجلس...» قال له. رضخ والده على الفور وجلس على أقصى طرف كرسيٍ، وألقى نظرات خجولة من حوله. «لم يأت مطلقاً، انتبه جاد فجأة، لم يأت أبداً قبل اليوم إلى شقتي». حتى أنه اضطر أن يدعوه ليخلع معطفه. كان والده يحاول أن يبتسم، تقريباً كرجلٍ يحاول أن يبدو بمظهر من يتحمّل الخسارة ببسالة. أراد جاد أن يفتح زجاجة الشامبانيا إلا أن يديه كانتا ترتجفان قليلاً. وكاد أن يوقع قنينة النبيذ الأبيض التي أخرجها لتوّه

من الثلاجة؛ كان يتصبّب عرقاً. وكان والده لا يزال يبتسم ابتسامة متحجرة بعض الشيء. هوذا رجل أدار بدينامية، وأحياناً بتشدد، مؤسسة من خمسين موظفاً، اضطر فيها إلى طرد البعض وتوظيف آخرين؛ وناقش فيها عقوداً بعشرات، وأحياناً بمئات ملايين اليوروهات. لكن دنوّ الموت يجعل الناس متواضعين، وقد بدا والده راغباً، في ذلك المساء، أن يمر كل شيء على أحسن ما يمكن، وبدا راغباً على الأخص في عدم التسبب بأي تعكير للأجواء، وكان ذلك على ما يبدو طموحه الوحيد على الأرض في تلك اللحظة. نجح جاد في فتح الشامبانيا، فاسترخى قليلاً.

«علمت بنجاحك...» قال والده وهو يرفع كأسه. «لنشرب بصحة نجاحك».

ذلك مدخل، سرعان ما قال جاد لنفسه، بابٌ لمحادثة ممكنة، وشرع يحكي عن لوحاته، عن ذلك العمل الذي بدأه منذ عشر سنوات مضت، وعن رغبته في وصف الأجهزة المختلفة التي تتآزر في تسيير مجتمعٍ ما، بالرسم. تكلم بحبور، لحوالي ساعة تقريباً، مقدّماً بانتظام الشامبانيا ثم النبيذ، بينما يتناولان الأطباق التي اشتراها قبل ذلك بيوم من عند متعهد الطعام، وما كان يقوله، وقد انتبه لذلك بذهول في اليوم التالي، لم يكن قد قاله لأحد في حياته.

كان والده يصغي إليه بانتباه ويطرح سؤالاً من وقت إلى آخر، وبدت عليه تعابير الذهول والفضول التي قد تبدو على وجه ولد صغير. خلاصة الأمر أن كل شيء مضى بشكل رائع حتى مرحلة الجبن. عندها بدأ الوحي يجفّ لدى جاد، في حين وقع والده، كما لو كان ذلك بتأثير من الجاذبية، في كآبة موجعة. إلا أن العشاء قد أبهجه قليلاً بشكل عام. هكذا، من دون حزن فعلي، وهو يهزّ رأسه

غيرمصدق، أطلق بصوت خفيض: «تباً... شرج إصطناعي...»

«أتعلم»، قال بصوت يعاند حالة سكر خفيفة، «بمعنى ما، أنا سعيد أن والدتك لم تعد هنا. هي التي كانت بمنتهى الأناقة والنقاء... لم تكن لتتحمل هذا الانحطاط الجسدي».

تجمّد جاد في مكانه. ها هي، قال لنفسه. ها هي، *لقد وصلنا*؛ بعد كل هذه السنوات، سيتكلم. لكن والده باغت تبدّل تعابيره.

«لن أكشف لك هذا المساء لِمَ انتحرت والدتك!» هتف بصوت قوي، يقترب من الغضب. «لن أكشف لك لأنني لا أعرف شيئاً عن الموضوع!» بعدها فوراً، هدأ، وتقوقع على نفسه. كان جاد يتصبّب عرقاً. ربما لأن الجو كان حاراً أكثر من اللازم، فقد كان من المستحيل تقريباً ضبط جهاز التدفئة، وكان يساوره خوف دائم من أن يتعطل مجدداً. الآن، بعد أن أصبح يملك المال، سوف ينتقل من هذه الشقة بالتأكيد، وهذا ما يفعله الناس حين يحصلون على المال، يحاولون تحسين إطار حياتهم. ولكن الانتقال إلى أين؟ لم تكن لديه رغبة عقارية محددة. كان سيبقى، ويقوم بتصليحات ربما، وفي جميع الأحوال سيغيّر جهاز التدفئة. قام وحاول بشكل أو بآخر معالجة أزرار التحكم في الجهاز. كان والده يومئ برأسه، ويتمتم بكلمات غير مفهومة، بصوت منخفض. عاد جاد إلى جانبه. كان يجب أن يمسك بيديه، أن يلمس كتفه أو شيء من هذا القبيل، ولكن كيف؟ فهو لم يقم بذلك بتاتاً قبل الآن. «شرج اصطناعي...» تمتم من جديد، بصوت حالم.

«أعرف أنها لم تكن راضية عن حياتنا»، تابع؛ «ولكن، هل ذلك سبب كاف للموت؟ أنا أيضاً لم أكن راضياً عن حياتي، أعترف لك أنني كنت آمل شيئاً آخر من سيرتي المهنية كمهندس، عوضاً عن بناء

منتجعات حمقاء لسيّاح مهابيل، تحت إشراف متعهدين غير أمينين في الأساس وسوقيين بشكل غير محدود تقريباً؛ ولكن، كان ذلك هو العمل، العادات... الأرجح أنها لم تكن تحب الحياة، هذا كل شيء. أكثر ما صدمني هو ما أخبرتني به جارتها، التي التقتها قبل ذلك مباشرة. كانت عائدة من التبضع، والأرجح أنها كانت قد تزوّدت بالسم - أصلاً، لم نعرف حتى الآن كيف. ما قالته لي تلك المرأة هو أن والدتك بدت سعيدة، متحمسة وسعيدة بشكل لا يصدّق. كانت، كما قالت لي المرأة، تحمل تعابير أحد يتحضر للمغادرة في عطلة. تعاطت مادة السيانيد، الأرجح أنها ماتت فوراً؛ أنا متأكد تماماً أنها لم تتعذب.»

ثم سكت، وامتد الصمت طويلاً، فانتهى الأمر بجاد أن فقد وعيه بعض الشيء. تراءت له حقول شاسعة، يتهادى عشبها تحت وقع نسمة خفيفة، وكان الضوء ضوء ربيع أبدي. استيقظ مذعوراً، كان والده لا يزال يهز برأسه ويغمغم، وهو يكمل صراعاً داخلياً مؤلماً. تردد جاد. كان قد جهّز تحلية: ثمة بروفيترول بالشوكولاتة في البراد. هل يخرجها؟ أم على العكس، عليه انتظار أن يعرف المزيد عن انتحار والدته؟ في الحقيقة، لم يكن يملك عن والدته أي ذكرى. كان ذلك مهماً لوالده تحديداً، على الأرجح. قرر أن ينتظر، على أية حال، قبل تقديم البروفيترول.

«لم أعرف أي امرأة أخرى في حياتي...» قال والده بصوت لا نغمة فيه. «ولا واحدة، مطلقاً. حتى أنني لم أشعر بالرغبة في ذلك.» ثم عاد يغمغم ويهز برأسه. في النهاية، قرر جاد إحضار البروفيترول. تأملها والده بذهول، وكأنها شيء جديد تماماً لم

يتحضّر للتعرف عليه في حياته السابقة. تناول واحدة، قلّبها بين أصابعه، وهو يتأملها باهتمام يشبه ما قد يبديه من اهتمام في تأمل براز كلب؛ لكنه وضعها، في النهاية، في فمه.

تبع ذلك دقيقتان إلى ثلاثة من الهستيريا الصامتة، التقطا خلالها البروفيترول واحدة تلو الأخرى، بغضب شديد، ومن دون أي كلمة، من العلبة المزيّنة التي قدّمها صاحب الباتيسري، والتهماها مباشرة. ثم هدأت الأمور، واقترح جاد أن يشربا القهوة. قبل والده فوراً.

«أرغب في تناول سيجارة... قال. هل لديك واحدة؟

- أنا لا أدخن.» هبّ جاد واقفاً. «لكن أستطيع أن أذهب وأحضرها. أعرف محلاً يبيعها في ساحة إيتالي يفتح حتى وقت متأخر في المساء. ثم... راجع ساعته غير مصدق، ليست سوى الثامنة.

- أتعتقد أنهم يعملون حتى في ليلة الميلاد؟

- بوسعي المحاولة.»

ارتدى معطفه. صفعته رياح عنيفة وهو يخرج؛ كانت ندف الثلج تتطاير في الجو الجليدي، والحرارة قد هبطت إلى عشر درجات تحت الصفر تقريباً. في ساحة إيتالي، كان المحل يهمّ بالإقفال. عاد صاحب المحل إلى خلف البار وهو يتذمر.

«إذاً، ماذا لدينا؟

- سجائر.

- من أي نوع؟

- لا أعرف. من النوع الجيد.»

رمقه الآخر بنظرة إعياء. «دانهيل! دانهيل وجيتان! وولاعة!...»

لم يكن والده قد تحرك من مكانه. بقي مكوّماً على كرسيّه، ولم يبد أي رد فعل وهو يسمع الباب يفتَح. مع ذلك، سحب سيجارة جيتان من العلبة، وتأملها بفضول قبل أن يشعلها. «لم أدخن منذ عشرين عاماً...» قال ملاحظاً. «ولكن، ما أهمية ذلك الآن؟» سحب نفساً منها، ثم نفسين. «هذا قوي... قال. هذا لذيذ. في شبابي، كان الجميع يدخنون. في اجتماعات العمل، في نقاشات المقاهي، كنا دائماً ندخّن. غريب كيف تتبدل الأشياء...»

تناول جرعة من الكونياك الذي وضعه ابنه أمامه، وسكت مجدداً. في الصمت، استطاع جاد أن يميز صفير الرياح وهو يصبح أعنف فأعنف. ألقى نظرة من النافذة: كانت ندف الثلج تتساقط بكثافة شديدة، كانت عاصفة حقيقية.

«رغبت دائماً أن أكون مهندساً، على ما أعتقد...». تابع والده. «في صغري، كنت أهتم بالحيوانات، مثل جميع الأطفال على الأرجح، حين كانوا يسألونني، كنت أجيب أنني أود أن أصبح طبيباً بيطرياً لاحقاً في المستقبل، ولكن في الصميم، أعتقد أنني كنت منجذباً للهندسة. في العاشرة من عمري، أذكر أنني حاولت أن أبني عشاً لطيور السنونو (الخطاف) التي تحطّ شتاءً في السقيفة. كنت قد وقعت في إحدى الموسوعات على إرشادات عن الطريقة التي يبني بها الخطاف عشه، من التراب واللُّعاب. قضيت في ذلك أسابيع...» كان صوته يرتجف قليلاً. توقف عن الكلام مجدداً. نظر إليه جاد بقلق؛ بلع جرعة كبيرة من الكونياك،على دفعة واحدة، قبل أن يكمل.

«لكنها لم ترضَ أبداً باستعمال العش الذي بنيته لها. أبداً. حتى أنها توقفت عن بناء أعشاشها في السقيفة...». فجأة، أجهش

العجوز بالبكاء، وانهمرت الدموع غزيرة على وجهه، وكان مشهداً مريعاً. «بابا...»، قال جاد وهو في غاية الاضطراب، «بابا...»، لكنه بدا عاجزاً عن التوقف عن البكاء.

«السنونو لا يستعمل أبداً الأعشاش التي ينبشها البشر بأيديهم» قال جاد بسرعة، «مستحيل. حتى حين يلمس بشري ما عشّها، تهجره لتبني آخر جديداً.

- كيف تعرف ذلك؟

- قرأته منذ عدة سنوات في كتاب عن السلوك الحيواني، كنت أبحث يومها عن بعض المعلومات لإنجاز لوحة.»

لم يكن ذلك صحيحاً، لم يقرأ شيئاً كهذا في حياته، لكن والده بدا وكأنه ارتاح مباشرة، وهدأ في لحظتها، بعد أن حمل ذلك العبء على صدره طوال ما يزيد عن ستين عاماً!... ورافقه على الأرجح طوال مسيرته كمهندس!...

«بعد البكالوريا، التحقت بالفنون الجميلة في باريس. أقلق ذلك والدتي بعض الشيء، فقد كانت تفضّل أن أدخل إلى كلية الهندسية؛ لكن جدك دعمني كثيراً. أعتقد أنه كان لديه طموح فني، كمصوّر، لكنه لم يحظ أبداً بفرصة تعهّد أي شيء غير حفلات الأعراس والقرابين...»

لم يكن جاد قد رأى والده قط مهتماً بشيء آخر غير المشاكل التقنية، وفي أواخر حياته، كانت طبيعة تلك المشاكل مالية أكثر فأكثر. كانت فكرة أن يكون والده قد دخل الفنون الجميلة أيضاً، وأن تكون الهندسة تنتمي إلي الاختصاصات الفنية، مذهلة وغير مريحة.

«نعم، أنا أيضاً كنت أود أن أصبح *فناناً*...» قال والده بحدة، وبضغينة تقريباً. «لكنني لم أنجح في ذلك. كان التيار المسيطر في

شبابي هو ذاك الوظيفي، في الحقيقة كان هو المسيطر منذ عقود، ولم يكن قد طرأ على الهندسة أي جديد منذ لو كوربوزييه وفان دير روييه. جميع المدن الجديدة، جميع المدن التي تم بناؤها في الضواحي خلال الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، كانت مدموغة بتأثيراتهم. كان لدينا، أنا وبعض الزملاء في الفنون الجميلة، طموح أن نقوم بشيء آخر. لم نكن نرفض تماماً أولوية الوظيفة، ولا مفهوم «الآلة المجهزة للسكن»: ولكن ما كنا نعيد النظر فيه هو ما كانت تشمله مسألة السكن في مكان ما. مثل الماركسيين، مثل الليبراليين، كان لو كوربوزييه إنتاجي النزعة. ما كان يتخيله للإنسان هو بنايات مربعة، نفعية، من دون أي زخرفة من أي نوع للمكاتب؛ وبنايات للسكن متشابهة تقريباً، مع بعض الوظائف الإضافية - حضانات للأطفال، قاعات للرياضة، برك للسباحة؛ وبين الإثنين، طرق سريعة. في الخلية التي يسكنها على الإنسان أن ينعم بالنور وبالهواء النقي، كان ذلك مهماً جداً في نظره؛ وبين بنايات العمل وبنايات السكن كانت المساحة الحرة مخصصة للطبيعة الوحشية: غابات وأنهر - أتخيل أنه، بنظره، يجب أن تتمكن العائلات البشرية من التنزه أيام الآحاد، ومهما حصل فقد كان يأمل الحفاظ على تلك المساحة، وكان بطريقة ما إيكولوجياً منذ ما قبل شيوع النزعة الإيكولوجية. كان يرى أنّ على الإنسانية أن تكتفي بأشكال من السكن مزروعة في وسط الطبيعة، ولكن من دون أن تغيّرها بأي حال من الأحوال. هذا تصوّر بدائي بشكل مرعب حين نفكر فيه، فهو يشكّل تراجعاً مخيفاً بالنسبة لأي منظر طبيعي - مزيج غير ملحوظ، مركّب، قابل للتوسع من الحقول، والبراري، والغابات والقرى. تلك رؤية يطرحها فكرٍ

عنيف، شمولي. كان كوربوزييه يبدو لنا ذهناً شمولياً وعنيفاً، يحركه ميلٌ حاد نحو القبح؛ لكن رؤيته كانت هي ما ساد طوال القرن العشرين. نحن، كنا متأثرين أكثر بشارل فورييه...» ابتسم وهو يلمح تعابير التفاجؤ لدى ابنه. «كانت النظريات الجنسية لفورييه هي أكثر ما حفظناه وصحيح أنها كانت ساخرة إلى حد ما. من الصعب قراءة فورييه على المستوى الأول، بقصصه عن الزوابع والفقيرات وساحرات جيش الراين، من المفاجئ حتى أن يكون قد حاز على أتباع، أشخاص أخذوه على محمل الجد، وتوقعوا فعلاً بناء نموذج اجتماعي جديد استناداً إلى كتبه. يصبح ذلك غير مفهوم إذا ما حاولنا التفكير فيه كـ مفكّر، لأن فكره ذاك لا نفهم منه شيئاً. إلا أن فورييه ليس مفكراً في الصميم، هو شيخ روحي حكيم (غورو)، يُعَدّ الأول في نوعه، وكما هي الحال بالنسبة لجميع الشيوخ الروحيين، لا يتأتّى النجاح من ارتباطهم الفكري بنظرية ما ولكنه ينجم على العكس من ذلك من عدم الفهم التام، المرتبط بتفاؤل راسخ، وتحديداً على المستوى الجنسي، فالبشر يحتاجون إلى التفاؤل الجنسي بدرجة لا تصدق. بالرغم من ذلك فإن موضوع فورييه الحقيقي، والذي يهمه في المقام الأول، ليس الجنس وإنما تنظيم الإنتاج. والسؤال الكبير الذي يطرحه هو: لماذا يعمل الإنسان؟ ما الذي يجعله يحتل مكانة محددة في التنظيم الاجتماعي، ويدفعه إلى التمسك بها وأداء وظيفته؟ عن هذا السؤال أجاب الليبراليون بأن السبب هو إغواء الربح، بكل بساطة؛ كنا نرى أن تلك إجابة غير شافية. أما الماركسيون فلم يجيبوا بشيء، لا بل لم يُبدوا اهتماماً حتى، وهذا ما جعل الشيوعية تفشل أصلاً: ما إن أُلغي الحافز المالي حتى توقف الناس عن العمل، وخرّبوا وظائفهم،

وتزايد التغيّب عن العمل بنسب ضخمة؛ لم تكن الشيوعية يوماً قادرة على توفير إنتاج وتوزيع السلع الأكثر أساسية.

كان فورييه قد عايش النظام القديم(*)، وكان مدركاً أنه قبل أن تظهر الرأسمالية بكثير، كان ثمة أبحاث علمية، وتطورات تقنية تُنجَز، وكان ثمة أشخاص يعملون بجدّ، وبمنتهى الجد أحياناً، من دون أن يكونوا مدفوعين بإغواء الربح وإنما بشيء هو في نظر الإنسان الحديث أكثر غموضاً: حب الله، في حالة الرهبان، أو، ببساطة أكثر، شرف المهنة.»

سكت والد جاد، ولاحظ أن ابنه يستمع إليه الآن بمزيد من الإهتمام. «نعم...» علّق، «بالتأكيد هناك صلة مع ما حاولت أن تقوم به في لوحاتك. هناك الكثير من الثرثرة لدى فورييه، وهو غير قابل للقراءة تقريباً في مجمله؛ ولكن، مع ذلك، هنالك أيضاً ما يمكن استخلاصه. في النهاية هذا ما كنا نعتقده في آنذاك...»

سكت، بدا وكأنه يغوص مجدداً في ذكرياته. كانت العواصف قد هدأت، مفسحة المجال لبروز لليلة مزدانة بالنجوم صامتة؛ بينما كست أسطح المنازل طبقة سميكة من الثلج.

«كنت يافعاً...» قال أخيراً بنوع من التشكيك الملطَّف. «ربما لن تستطيع إدراك ذلك تماماً، لأنك ولدت في عائلة ثرية أصلاً. لكنني كنت شاباً، أتحضر لأن أصبح مهندساً، وكنت في باريس؛ بدا لي أن كل شيء ممكن. ولم أكن وحدي، كانت باريس ملتهبة حينها، وكان لدينا انطباع أن باستطاعتنا إعادة بناء العالم. هنا، قابلت

(*) أي نظام ما قبل الثورة الفرنسية (المترجمة).

والدتك، وكانت تتعلم في معهد الموسيقى، وتعزف على الكمان. كنا مثل ثلّة من الفنانين، حقاً. في النهاية، اقتصر الأمر على كتابة أربعة أو خمسة مقالات في مجلة هندسية، وقّعناها معاً. كانت نصوصاً سياسية في المجمل. دافعنا فيها عن فكرة أن مجتمعاً مركباً، متشعباً، بمستويات متعددة من التنظيم، كذلك الذي يقترحه فورييه، يسير جنباً إلى جنب مع هندسة مركبة، متشعبة، متعددة، تترك مجالاً للإبداع الفردي. في تلك المقالات هاجمنا بعنف فان دير روييه - الذي كان يقدم بنىً فارغة، نمطية، هي ذاتها التي ستستخدَم كنموذج لـ *المجال المفتوح* في المؤسسات - وخصوصاً لو كوربوزييه، الذي كان يبني، من دون كلل، مساحات تشبه معسكرات الاعتقال، مقسومة إلى حجيرات متشابهة تصلح تماماً، كما كنا نكتب، لسجن نموذجي. حظيت تلك المقالات ببعض الوقع، وأعتقد أن دولوز تحدث عنها. ولكن كان علينا أن نعمل. التحقنا، الباقون وأنا، بمكاتب مهندسين كبار، وأصبحت الحياة فوراً أقل تسلية بكثير. وسرعان ما تحسنت ظروفي المادية، كان هناك الكثير من العمل في تلك الفترة حيث كانت وتيرة الإعمار في فرنسا عالية.

اشتريت المنزل في رانسي، وفي اعتقادي أن شراءه فكرة جيدة لأنها كانت مدينة ممتعة في تلك المرحلة. ثم إنني حصلت عليه بسعر جيد جداً، وقد دلّني عليه زبون، هو متعهد عقاري. كان المالك رجلاً مسناً، مثقفاً على ما يبدو، يرتدي دائماً زياً رمادياً من ثلاث قطع، مع وردة على العروة. في كل مرة كنت أراه فيها كانت الوردة مختلفة. كان يبدو عليه وكأنه خارج من الزمن الجميل، من سنوات الثلاثين على الأكثر، لم أتوصل أبداً لربطه ببيئته. كان يمكن تخيّل الالتقاء به، لا أعرف، على رصيف محطة فولتير... وبالتأكيد

ليس في رانسي على أي حال. كان أكاديمياً قديماً، متخصصاً في الحركات الباطنية وتاريخ الأديان. أذكر أنه كان ملمّاً جداً بالكابال(*) والغنوصية(**)، لكنه كان يهتم بهما بطريقة خاصة جداً، مثلاً، لم يكن يكنّ لرينيه غينون(***) سوى الاحتقار. «ذلك المعتوه غينون»، هكذا كان يتحدث عنه، وأعتقد أنه كتب عدة مقالات نقدية لاذعة عن كتبه. لم يتزوج قط، وأعتقد أنه وهب *حياته لأعماله* كما يقال. قرأت مقالاً طويلاً كان قد كتبه في مجلة للعلوم الاجتماعية شرح فيه تأملات مثيرة للإهتمام حول القدر، وحول إمكانية تطوير دين جديد يرتكز على مبدأ التزامن. كانت مكتبته وحدها تكاد تضاهي ثمن المنزل، على ما أعتقد - كان يملك أكثر من خمسة آلاف عنوان، بالفرنسية والإنجليزية والألمانية. في تلك المكتبة، اكتشفت أعمال ويليام موريس.»

توقف حين لمح تبدلاً في تعابير وجه جاد.

«أتعرف ويليام موريس؟

- كلا، بابا. لكنني عشت في ذلك المنزل، أنا أيضاً، وأتذكر المكتبة...» تنفّس، وتردد قليلاً ثم قال: «لا أفهم لم انتظرت كل هذه السنوات لتحدثني عن كل هذا».

«هذا لأنني سوف أموت قريباً على ما أعتقد» قال والده ببساطة. «يعني ليس مباشرة، ليس بعد غد، لكنني لن أبقى طويلاً بعد، ذلك أمر بديهي...» نظر حوله، وابتسم بمرح. «هل أستطيع تناول

(*) تعاليم الحركات الباطنية في الديانة اليهودية (المترجمة).

(**) من مذاهب المسيحية القديمة (المترجمة).

(***) عالم ميتافيزيقي مستشرق عرف أيضاً باسم الشيخ عبد الواحد يحيى (المترجمة).

المزيد من الكونياك؟» سكب له جاد فوراً. أشعل سيجارة جيتان، وتنشق الدخان بتلذذ.

«ثم، حملت والدتك بك. كانت نهاية الحمل متعثرة، ما اضطرها إلى الخضوع لعملية قيصرية. أخبرها الطبيب أنها لن تستطيع أن تتجنب المزيد من الأطفال، كما أن العملية خلّفت لديها ندوباً بشعة. كان ذلك قاسياً عليها؛ فقد كانت امرأة جميلة كما تعلم... لم نكن تعساء في حياتنا معاً، ولم يقع خلاف جدي بيننا ولا مرة، ولكن صحيح أنني لم أكن أكلّمها كثيراً. هناك الكمان أيضاً، أعتقد أنه كان يجب ألا تتوقف عن العزف. أذكر ذات مساء، في «بورت دو بانيوليه»، كنت عائداً من عملي في سيارتي المرسيديس، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة لكن زحمة السير لا تزال خانقة، على غير عادة. لا أعرف ما أثار ذلك يومها، ربما بنايات الـ«ميركوريال»، لأنني كنت أعمل على مشروع قريب منها جداً وأجده بشعاً وغير ذي أهمية. المهم أنني وجدت نفسي في سيارتي وسط شبكة من الطرق السريعة، وأمامي تلك البنايات المقززة. فجأة قلت لنفسي إنني لم أعد أستطيع الاستمرار. كنت قد قاربت سنوات عمري الأربعين، حياتي المهنية ناجحة، لكنني لم أعد أستطيع الاستمرار. خلال دقائق قليلة، قررت أن أؤسس شركتي الخاصة، حتى أمارس الهندسة كما أراها. كنت أعرف أن ذلك سيكون صعباً، لكنني لم أرد أن أموت قبل أن أكون قد جرّبت. اتصلت بزملائي القدامى الذين كنت على صداقة معهم في الفنون الجميلة، وكانوا جميعاً قد استقروا في الحياة - نجحوا، هم أيضاً، ولم يعودوا راغبين في المجازفة. عندها انطلقت وحدي. اتصلت مجدداً ببرنارد لامارش - فاديل، وكنا قد التقينا قبلها بسنوات،

وانسجمنا نوعاً ما، وقدّم لي جماعة التصوير الحر(*): كومباس، دي روزا... لا أعرف هل حدثتك عن ويليام موريس قبل الآن؟

- نعم بابا، لقد تحدثت عنه للتوّ، منذ خمس دقائق.

- فعلاً؟» توقف، واجتاز وجهه تعبير متشتت. «سوف أجرّب دانهيل...» سحب بعض الأنفاس. «لذيذة أيضاً. مختلفة عن الجيتان ولكن لذيذة. لا أفهم لمَ توقف الجميع عن التدخين، فجأة.»

سكت، تلذذ بسيجارته حتى النهاية. انتظر جاد. بعيداً، تردّد صوت بوق سيارة يحاول تقليد لحن: «وُلِدَ الطفل الإلهي»، لكنه فشل في بعض النغمات، فأعاد الكرة؛ ثم خيّم الصمت مجدداً، وحفل الأبواق لم يقع. على أسطح باريس، كانت طبقة الثلج قد أصبحت سميكة الآن، ومستقرة. ثمة شيء حاسم في ذلك الصمت، قال جاد لنفسه.

«ويليام موريس كان قريباً من أخوية ما قبل الرافائيليين(**)»، تابع والده، «من غابرييل دانتي روسيتي في البدء، ودو بورن - جونز، حتى النهاية. الفكرة الأساسية لما قبل الرافائيليين هي أن الفن قد بدأ بالانحطاط بعد العصور الوسطى مباشرة، وأنه، مع بداية النهضة، كان قد فك ارتباطه بأي روحانية، وأي أصالة، ليصبح نشاطاً صناعياً وتجارياً محضاً، وأن من يسمّون بـ *المعلمين الكبار* للنهضة - أكان بوتيتشيللي، رامبرانت أو ليونارد دو فنشي - كانوا في الحقيقة يتصرفون ببساطة مثل رؤساء المؤسسات التجارية؛ تماماً مثل

(*) حركة فنية في فرنسا الثمانينيات (المترجمة).

(**) مجموعة من الشعراء والرسامين الإنجليز الذين رفضوا ما اعتبروه المقاربة الميكانيكية للفن التي اعتنقها الفنانون الأسلوبيون الذين خلفوا رافائيل ومايكل أنجلو (المترجمة).

جيف كونز أو داميان هيرست اليوم. كان من سمّوا بـ *المعلمين الكبار* للنهضة يقودون بيد من حديد محترفات فيها خمسون أو مئة مساعد ينجزون وفق منهجية العمل المتسلسل لوحات، ومنحوتات، وجداريات جصّية. أما هم فقد كانوا يكتفون بالإشراف العام، وبتوقيع العمل بعد إنهائه، وعلى الأخص بتكريس أنفسهم لتوطيد شبكة من العلاقات العامة مع رعاة الفن في تلك المرحلة. أكانوا أمراء أم بابوات. بالنسبة إلى ما قبل الرافائيليين، مثل ويليام موريس، كان لا بدّ من إلغاء التمييز بين الفن والحرفة، بين التصور والتنفيذ: بإمكان كل إنسان، على مستواه، أن يكون منتجاً للجمال - أكان ذلك من خلال إنجاز لوحة، أم قطعة ثياب أم قطعة أثاث؛ كذلك يحق لكل إنسان في حياته اليومية أن يكون محاطاً بأشياء جميلة. كان موريس يعيد تلك القناعة إلى نشاط اشتراكي دفعه أكثر فأكثر للالتحاق بحركات تحرر البروليتاريا؛ كان بكل بساطة يريد وضع حد لنظام الإنتاج الصناعي.

«المثير للاهتمام هو أن غروبيوس، حين أسّس الباوهاوس، كان على الخط ذاته تماماً - ربما أقل تسييساً بقليل، مع المزيد من الاعتبارات الروحية - علماً بأنه كان في الحقيقة اشتراكياً هو أيضاً. في *بيان الباوهاوس* عام ١٩١٩، أعلن عن نيته تجاوز التناقض بين الفن والحرفة، وعن الحق في الجمال للجميع: ذلك هو بالضبط برنامج ويليام موريس. ولكن شيئاً فشيئاً، مع اقترابه من الصناعة، أصبح الباوهاوس أكثر وظيفية وإنتاجية؛ تم تهميش كاندينسكي وكلي داخل الجسم التعليمي، وفي اللحظة التي تمّ فيها إقفال المعهد على يد غورينغ كان في جميع الأحوال قد تحوّل تماماً لخدمة الإنتاج الرأسمالي.

أما نحن فلم نكن مسيّسين؛ إلا أن فكر ويليام موريس ساعدنا على التحرر من الممنوع الذي كان لو كوربوزييه قد فرضه على أي زخرفة. أذكر أن كومباس كان متحفظاً جدا، في البداية - لم يكن الرسامون ما قبل الرافائيليين عالمه تماماً؛ ولكن كان عليه أن يوافق أن موتيفات ورق الجدران التي رسمها ويليام موريس جميلة جداً، وحين أدرك فعلاً ماهية الموضوع أصبح بالغ الحماسة. لا شيء كان يمتعه مثل رسم موتيفات لأقمشة الأثاث، وورق الجدران، أو أفاريز خارجية تُستخدم في مجموعة كاملة من الأبنية. على أية حال كان جماعة التصوير الحر وحيدين بعض الشيء في تلك المرحلة، فالتيار المينيمالي ظلّ هو المسيطر، والـ *غراف* لم يكن موجوداً بعد - على الأقل، لم يكن أحد يتكلم عنه. في ذلك الوقت وضعنا ملفات لجميع المشاريع المهمة تقريباً والمطروحة في مسابقة، وانتظرنا..»

سكت والده مجدداً، وظل عالقاً في ذكرياته، ثم تقوقع على نفسه، بدا وكأنه يصغر ويتقلص، فانتبه جاد عندئذ للاندفاع والحماسة اللذين تحدث بهما خلال تلك الدقائق الأخيرة. في حياته لم يسمعه يتحدث هكذا، منذ أن كان طفلاً - وفي حياته لن يسمعه مجدداً يتحدث هكذا، فكّر جاد، فهو قد عاش لتوّه، وللمرة الأخيرة، الأمل والفشل اللذين يشكلان قصة حياته. بشكل عام ليست الحياة البشرية بالشيء الكثير. قد يختزلها عدد محدود من الأحداث، وهذه المرة كان جاد قد فهم فعلياً المرارة والسنوات الضائعة، والسرطان والتوتر، وانتحار والدته أيضاً.

«كان الوظيفيون في موقع السيطرة في جميع اللجان...» لخّص والده برقّة. «ارتطمت بجدار؛ جميعنا ارتطمنا بجدار. كومباس ودي

روزا لم يستسلما سريعاً، ظلا يتصلان بي هاتفياً لسنوات، من أجل الاستعلام عما إذا كانت بعض العقبات قد أزيلت... ثم، بعد أن أدركا أن لا شيء يحدث، ركزا على أعمالهما كرسامين. وأنا، انتهى بي الأمر بأن أقبل طلبية عادية. الأولى كانت بورت - آمباريس، ثم تتالت الطلبيات، كانت خصوصاً تتعلق بتخطيط منتجعات. جمعت مشاريعي في صناديق لا تزال في خزانة في مكتبي، في رانسي، تستطيع أن تذهب وتطلع عليها...» وما كاد يتمالك أن يضيف: «بعد أن أموت»، لكن جاد فهم.

«لقد تأخر الوقت»، قال وهو ينتصب على كرسيه. ألقى جاد نظرة على ساعته: الرابعة صباحاً. وقف والده، ودخل الحمام، ثم عاد وارتدى معطفه. خلال مدّة الدقائق الاثنتين أو ثلاث التي استغرقتها تلك العملية انتاب جاد شعور جامح، بديل، بأنهما قد استهلا للتو مرحلة جديدة في علاقتهما، أو أنهما، على العكس من ذلك، لن يتقابلا أبداً مجدداً. وبينما تسمّر والده أمامه، في وضعية الانتظار، قال: «سوف أطلب لك تاكسي».

١١

عندما استيقظ، صباح الخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر كان الثلج يغطي باريس. عند بولفار فانسان أوريول مرّ بشحاذ ذي ذقن غزيرة شعثاء، يكاد جلده يبدو أسمر من شدة القذارة. وضع له في الوعاء قطعتَي يورو، ثم عاد أدراجه وأضاف ورقة ١٠ يورو، فهو اليوم رجل ثري. دمدم الآخر متفاجئاً. كانت الجسور المعدنية للمترو الأرضي تثقل المنظر اللطيف، القاتل. خلال النهار سيذوب الثلج، وسيتحول كل ذلك إلى وحل، ومياه آسنة؛ ثم ستستكمل الحياة دورتها، على إيقاع بطيء. بين هذين الموعدين القويّين المتميّزين بكثافة ترابطية وتجارية عالية، والمتمثّلين بليلة الميلاد وليلة رأس السنة، يمر أسبوع لانهائي، ليس في الصميم سوى وقت ميت - إذ لا تعود الحركة للظهور، وإن كان ذلك بطريقة متفجرة ومفاجئة، سوى بحلول ليل ٣١.

عند عودته إلى المنزل تفحّص بطاقة أولغا: تلفزيون ميشلان، شارع بيار الأول من صربيا، مديرة برامج. لقد نجحت، هي أيضاً، على المستوى المهني، من دون أن تلهث، محمومة، وراء النجاح. لكنها لم تتزوج، وتلك الفكرة ضايقته، من دون أن يكون قد فكّر

فعلياً في المسألة، إلا أنه لطالما خُيّل إليه أنها وجدت الحب، أو على الأقل *الحياة العائلية*، في مكان ما في روسيا.

إتصل في اليوم التالي، مع نهاية الصبيحة، متوقعاً أن يكون الجميع في إجازة، إلا أن ذلك لم يحصل أبداً: فقد ردّت عليه، بعد خمس دقائق من الانتظار، سكرتيرة مرهقة أخبرته أن أولغا في اجتماع الآن وأنها ستعلمها باتصاله.

خلال الدقائق التي مرت وهو ينتظر متسمّراً قرب هاتفه ازدادت عصبيته. كانت لوحة ويلبيك قبالته، تستريح على الحاملة الخشبية، وكان قد سحبها في الصباح ذاته من البنك. نظرة الكاتب، الحادة جداً، زادت من اضطرابه. قام، وقلب اللوحة لجهة الشاسيه. سبعمئة ألف يورو... قال لنفسه. لم يكن لذلك أي معنى. بيكاسو أيضاً لم يكن له أي معنى، ربما أقل بقليل، إذا ما تمكّنا من وضع ترتيب تدرّجي في اللامعنى.

في اللحظة التي كان يتّجه فيها نحو المطبخ رنّ الهاتف. أسرع ليردّ. لم يكن صوت أولغا قد تغيّر. صوت الناس لا يتغير أبداً، ليس أكثر من التعبير في نظراتهم. وسط الانهيار الجسدي العام الذي يختصر الشيخوخة يمثّل الصوت، ومعه النظرة، الشهادة الموجعة لشدة ما هي قاطعة، والتي تؤكد ثبات الطبع والطموحات والرغبات في كل ما يشكّل الشخصية البشرية.

«مررتِ بالغاليري؟» سألها حتى يبدأ الحديث من على *أرض حيادية*، ثم فوجئ من أن عمله الفني كان قد أصبح بنظره *أرضاً حيادية*.

«نعم، وأحببت الأعمال كثيراً. هي... مبتكرة. لا تشبه بأي

شكل من الأشكال ما تسنّى لي رؤيته سابقاً. لكنني لطالما عرفت أنك تملك الموهبة.»

تبع ذلك صمت تام.

«أيها الفرنسي الصغير...» قالت أولغا، من دون أن تنجح نبرة السخرية التي اعتمدتها في إخفاء عاطفة حقيقية، وشعر جاد مجدداً بالارتباك، وبأنه على حافة البكاء. «الفرنسي الصغير *الناجح*...

- بوسعنا أن نلتقي» أجاب جاد بسرعة. كان على أحد ما أن يقولها أولاً؛ وكان هو ذلك الأحد.

«لديّ الكثير من العمل هذا الأسبوع.

- حقاً؟ ولِم ذلك؟

- سوف نبدأ البث في الثاني من كانون الثاني/يناير. ثمة الكثير من الأشياء التي يجب حلها قبل ذلك». فكرت للحظات. «هناك حفلة ساهرة تنظمها المحطة يوم ٣١. أستطيع دعوتك.» سكتت مجدداً لعدة ثوانٍ. «يسعدني أن تأتي...»

خلال السهرة، تلقى بريداً إلكترونياً تشرح له فيه جميع التفاصيل. كانت الحفلة ستقام في منزل جان بيار بيرنو الخاص - يقطن في نويي، بولفار السابلون. كان موضوع الحفلة كان على نحو غير مفاجئ هو «أقاليم فرنسا».

كان جاد يعتقد أنه يعرف كل شيء عن جان بيار بيرنو؛ إلا أن الصفحة المخصصة له على موقع ويكيبيديا كانت لا تزال تحتفظ له ببعض المفاجآت. هكذا عرف أن المذيع الشعبي كان أيضاً مؤلف مجموعة مهمة من الأعمال المكتوبة. إلى جانب «فرنسا، بلد النكهات» و«فرنسا في عيد» و«في قلب مناطقنا»، نجد أيضاً «المهن

الحرفية الرائعة»، بجزأين. مجمل الأعمال كانت منشورة لدى دار ميشيل لافون..

كذلك فوجئ بالنبرة التمجيدية والإطرائية لصفحة التعريف. على ما يذكر، كان جان بيار بيرنو محط بعض الانتقادات؛ لكن ذلك انتهى اليوم على ما يبدو. إن مسحة النبوغ التي يتحلى بها جان بيار بيرنو، يلفت المحرر منذ البداية، كانت في إدراكه أنه، بعد انقضاء سنوات الثمانينيات، سنوات «المال والزيف»، كان الجمهور متعطشاً للبيئة، وللأصالة، وللقيم الحقيقية. ومع أنه من الممكن الاعتراف بالفضل لرجل الأعمال وصاحب قناة TF1 مارتان بويغ في ما يتعلق بالثقة التي أضفاها عليها، إلا أن نشرة أخبار الساعة الواحدة على القناة الأولى في التلفزيون الفرنسي (TF1) كانت تحمل بصمة شخصيته المتبصرة قبل كل شيء. إنطلاقاً من الأخبار الفورية - العنيفة، السريعة، المسعورة، الغريبة - كان جان بيار بيرنو يؤدي كل يوم تلك الوظيفة المسيحانية المتمثلة بتوجيه المشاهد، المُروَّع والمجهَد، نحو المناطق الشاعرية في المحميات الريفية حيث يعيش الإنسان متناغماً مع الطبيعة، متوافقاً مع إيقاع الفصول. أكثر من مجرّد نشرة تلفزيونية، اتخذت نشرة الواحدة من بعد الظهر على القناة الأولى في التلفزيون الفرنسي طابع مسير ليلي يُختتَم بترنيمة. على أن كاتب المقال - ولو أنه يعترف، بصفة شخصية، بكاثوليكيته - لا يخفي أن رؤية جان بيار بيرنو للكون (weltanschauung)(*)، وإن كانت

(*) وهو مصطلح في الفلسفة والإبيستمولوجيا الألمانية يدل على مفهوم مستخدَم في تلك الفلسفة يشير إلى طريقة الإحساس وفهم العالم بأكمله (المترجمة).

تتماشى تماماً مع فرنسا الريفية ومع اعتبار فرنسا بمثابة «الابنة الكبرى للكنيسة»، قد تتوافق جيداً كذلك مع الحلولية أو حتى مع حكمة أبيقورية.

في اليوم التالي اشترى جاد الجزء الأول من كتاب «المهن الحرفية الرائعة» من مكتبة «فرانس لوازير» في مركز «إيطاليا ٢». كان تقسيم الكتاب بسيطاً، ويرتكز على المواد المشغولة بحسب نوعها: صلصال، حجارة، معادن، خشب...

فعلياً، لم تكن قراءته (السريعة نوعاً ما، فهو مؤلف كلّه من صور تقريباً) تترك انطباعاً بالتعلق في الماضي. بأسلوبه في تأريخ ظهور مختلف الحرف التي يصفها بشكل منهجي، والتطورات الكبيرة التي طرأت على ممارستها، بدا جان بيار بيرنو في كتابه ذاك مدافعاً عن التطور البطيء أكثر مما هو مدافع عن الثبات. ربما كانت هناك نقاط التقاء بين فكر جان بيار بيرنو ووبليام موريس - هذا طبعاً، إذا ما وضعنا جانباً التعنّت. وإذا ما كان المشاهدون قد اعتبروا أنه أقرب إلى اليمين نوعاً ما، إلا أن جان بيار بيرنو قد برهن دائماً، في إدارته اليومية لنشرته، عن حذر مهني فائق. حتى أنه تفادى أن يبدو بمظهر المرتبط بمغامرة *صيد بري، صيد بحري، طبيعة، تقاليد*، وهي حركة تأسست عام ١٩٨٩ - أي بعد عام بالضبط من استلامه مهمة الإشراف على نشرة الساعة الواحدة في التلفزيون الفرنسي TF1. كان بالتأكيد ثمة انقلابٍ ما قد وقع في أواخر نهاية الثمانينيات، قال جاد لنفسه: انقلاب تاريخي كبير، مرّ مرور الكرام آنذاك، مثلما يحصل عادة. تذكر أيضاً «القوة الهانئة»، ذلك الشعار الذي اخترعه جاك سيغيلا والذي سمح، على عكس جميع التوقعات، بإعادة انتخاب الرئيس فرانسوا ميتران عام ١٩٨٨. تراءت له مجدداً الملصقات التي تمثل

المومياء المسنّة البيتانية(*) وعلى خلفيتها قبب كنائس، ومدن.

كان يومها في الثالثة عشرة من عمره، وكانت تلك هي المرة الأولى في حياته التي يلفته فيها شعار سياسي وحملة رئاسية ما.

وإذا كان جان بيار بيرنو يشكّل العنصر الأكثر دلالةً والأكثر استمراريةً على ذلك الانقلاب الإيديولوجي الكبير، إلا أنه رفض دائماً أن يستثمر شهرته الواسعة في محاولة بناء سيرة مهنية، أو في تبنّي التزام سياسي: أراد، حتى النهاية، أن يكون في صفوف فئة *المرفّهين*. وبخلاف نويل مامير لم يسمح لنفسه حتى بنمو شاربه. وحتى إذا ما كان على الأرجح يتشارك مع جان سانت جوس، الرئيس الأول لـ *صيد بري، صيد بحري، طبيعة، تقاليد*، في جميع القيم، إلا أنه امتنع دائماً عن دعمه علناً، لا هو ولا فريديريك نيهوس، خلفه.

من مواليد عام ١٩٦٧ في منطقة فالانسيان (شمالي فرنسا)، كان فريديريك نيهوس قد تلقى من والده في عمر الرابعة عشرة بندقيته الأولى، بمناسبة نيله الشهادة المتوسطة. وبعد أن حاز على دبلوم الدراسات المعمقة في القانون الاقتصادي الدولي والأوروبي، وعلى دبلوم الدراسات المعمقة في الدفاع الوطني والأمن الأوروبي، درّس مادة القانون الإداري في كلية كامبراي. بالإضافة إلى ذلك كان رئيس «جمعية صيادي الحمام والعصافير المهاجرة في الشمال». وفي عام ١٩٨٨ فاز بالمرتبة الأولى في مسابقة صيد نُظمَت في منطقة ليرو حين اصطاد سمكة شبوط وزنها ٧,٢٥٦ كيلوغرام. بعدها بعشرين عاماً، سوف يتسبب في انهيار الحركة التي ترأسها مع اقترافه خطأ

(*) نسبة إلى الماريشال بيتان (المترجمة).

التحالف مع فيليب فيلبيه - وهو أمر لن يسامحه عليه أبداً صيادو المنطقة الجنوبية الشمالية، المعروفون تقليدياً بكرههم للإكليروس وبحركتهم التي هي أقرب، نوعاً ما، إلى الجذرية أو الاشتراكية.

بعد ظهر يوم ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر اتصل جاد بويلبيك. كان الكاتب في أحسن أحواله؛ لقد قضى لتوّه ساعة في قطع الخشب، كما أخبره. قطع الخشب؟ نعم، في منزله في منطقة لواريه أصبح لديه الآن مدفأة على الحطب. كذلك، أصبح لديه كلب - هجين عمره سنتان، أتى به ليلة الميلاد من ملجأ SPA في منطقة مونتارجي.

«هل لديك مشاريع لليلة ٣١؟» سأل جاد.

- كلا، لا شيء محدد؛ أعاود حالياً قراءة توكفيل. كما تعلم، ينام المرء باكراً في الريف، خصوصاً في الشتاء.»

فكّر جاد للحظة بدعوته، ثم انتبه في اللحظة المناسبة أنه لا يستطيع دعوة أحد ما إلى سهرة لا ينظمها هو شخصياً؛ على أية حال سوف يرفض الكاتب بالتأكيد.

«سوف آتيك بالبورتريه الذي رسمته لك، كما وعدتك. خلال الأيام الأولى من كانون الثاني/ يناير.

- البورتريه، نعم... بكل سرور، بكل سرور.» بدا وكأنه لا يعبأ بالموضوع بتاتاً. تحادثا بشكل ممتع لدقائق عديدة. كان في صوت صاحب *الجزيئيات الأساسية* شيء لم يعهده جاد فيه من قبل، و لم يكن يتوقع أن يجده فيه ذات يوم، واستغرق وقتاً لتشخيصه، لأنه، في الأساس، لم يعد يجده لدى أيٍّ كان، لسنوات غير قليلة مضت: كان سعيداً.

١٢

كان يحرس كل جهة من باب المدخل المقوّس الذي يقود إلى فندق جان بيار بيرنو الخاص فلاحٌ مسلّح بمذراة. ناول جاد أحدهما الرسالة التي طبعها والتي تحوي نص الدعوة، ليصل بعدها إلى فناء كبير مربع، أرضه مزفتة، تضيئه المشاعل بالكامل. كان حوالي عشرة مدعوين يتجهون نحو البابين الكبيرين المفتوحين على وسعهما، واللذين يقودان إلى صالونات الاستقبال. ببنطاله المخملي وقميصه المصنوع من السيمباتكس والذي كان قد اشتراه من محلات "C&A"، شعر أنه يرتدي ثياباً غير لائقة بشكل فظيع: كانت النساء يرتدين أثواباً طويلة، ومعظم الرجال يرتدون بدلات سموكينغ. تعرّف إلى جوليان لوبير الذي كان يقف أمامه بمترين، ترافقه شابة سوداء رائعة تفوقه طولاً؛ كانت ترتدي ثوباً طويلاً لامع البياض ذهبيّ الزركشة، منحسر عن ظهرها حتى مطلع الردفين؛ بينما يشكّل ضوء المشاعل انعكاسات متحركة على ظهرها العاري. بدا المذيع، ببزته السموكينغ العادية، التي كانت تفيده خلال سهرات «مدارس كبيرة مميزة»، ما يعني نوعاً ما أنها بزّته السموكينغ الخاصة بالعمل، غارقاً في مناقشة صعبة مع رَجل صغير ودموي، سيّئ المظهر، يوحي بأنه يمارس مسؤوليات مؤسساتية. تجاوزهما جاد، ليطالعه في صالون

الاستقبال الأول نشيج عشرة من عازفي القرب المتحدرين من منطقة بروتاني الذين كانوا قد انطلقوا لتوّهم في أداء قطعة سلتية لا نهائية، موجعة تقريباً. اخترق المسافة، ونفذ إلى الصالون الثاني حيث تناول قطعة من اللحم المنكّه بجبنة الإيمنتال مع كأس من نبيذ الـ «غيفورتزترامينا» المصنوع من «محصول رجعي» قدمتها له نادلتان من الألزاس تعتمران قلنسوتين ضيقتين، وترتديان مئزرين لونهما أبيض وأحمر مربوطين على خصريهما، كانتا تجولان بصينيتيهما بين المدعوين؛ كانتا متشابهتين لدرجة أنهما قد تكونان توأماً.

كانت منطقة الاستقبال تتشكل من أربعة صالونات متتالية، يبلغ علو سقفها ثمانية أمتار على أقل تقدير. لم يكن جاد قد رأى في حياته شقة كبيرة بهذا الشكل، ولم يكن يعرف أصلاً أنه قد توجد شقة بهذا الحجم الكبير. على الأرجح أنها ليست بالشيء العظيم، قال لنفسه في ومضة وعي، مقارناً إياها بشقق من يشترون لوحاته اليوم. كان ثمة مئتين إلى ثلاثمة مدعو على الأرجح. رويداً رويداً، غطت ضجة الأحاديث على عويل القرَب، وشعر أنه على وشك أن يقع ضحية دوار، فاستند إلى منصة تحوي منتجات من منطقة أوفيرنيا، بعد أن قبل من النادل سيخاً من الكباب وكأساً من نبيذ سان بورسان. رائحة الجبن القوية النفاذة أعادت له التوازن، كرع كأسه من نبيذ سان بورسان كرعة واحدة، وطلب الثاني، وتابع تقدمه بين الحشد. بدأ يشعر بحر شديد، وكان عليه أن يودع معطفه في غرفة الملابس على المدخل. كان معطفه متنافراً تماماً مع طبيعة اللباس المتعارف عليه في مثل هذه المناسبات، قال لنفسه مؤنباً من جديد، فجميع الرجال كانوا في لباس السهرة، جميعهم بصورة مطلقة، ردّد بيأس. في تلك اللحظة بالظبط وجد نفسه أمام بيار بيلمار، الذي كان

يرتدي بنطالاً من الترغال الأزرق البترولي وقميصاً أبيض تتخلله صُدرة مغطاة ببقع الدهون. كان بنطاله ممسوكاً بحمالات عريضة، بألوان العلم الأميركي. مدّ جاد يده بحرارة لملك التسوق التلفزيوني الفرنسي، الذي شدّ عليها متفاجئاً بدوره، قبل أن يتابع مسيره مطمئناً.

استغرق الأمر أكثر من عشرين دقيقة حتى يلاقي أولغا. كانت تقف خلف كوّة في الجدار تغطي نصفها ستارة، وهي غارقة مع جان بيار بيرنو في حديث ذي طبيعة مهنية على ما يبدو. كان هو من يتكلم على وجه الخصوص، ملقياً جمله بطريقة درامية، مستعيناً بحركات محددة يقوم بها بيده اليمنى؛ وهي تهز رأسها من وقت لآخر، متنبهة ومركّزة، مبدية القليل جداً من الملاحظات والاعتراضات. تسمّر جاد في مكانه، على بعد عدة أمتار منها. كان شريطا القماش العاجي اللون المعقودان خلف عنقها والمرصّعان بقطع من البلور يغطيان ثدييها ويلتقيان عند الصرّة، يجمعهما مشبك معدني فضي على شكل شمس، قبل أن يرتبطا بتنورة قصيرة وضيقة، مرصعة هي أيضاً بالبلور، وتترك مجالاً لرؤية عروة قطعة الملابس الداخلية البيضاء التي تتعلق بها جوارب النايلون. جواربها، البيضاء أيضاً، كانت ذات أناقة فائقة. إن التقدم في السن، تحديداً ذلك الظاهر، ليس على الإطلاق عملية مستمرة، بل باستطاعتنا إلى حد ما وصف الحياة على أنها سلسة من نقاط الارتكاز تفرّق بينها انهيارات مفاجئة. حين نلتقي أحداً لم نره منذ سنوات يتكوّن لدينا انطباع بأنه قد عجّز فجأة أو نشعر أحياناً، على العكس من ذلك، بأنه لم يتغير بتاتاً.

وهذا الأخير هو انطباع مضلّل - فالتدهور، السرّي، يشق دربه

أولاً داخل الكائن الحي، قبل أن ينفجر ويخرج إلى العلن. منذ عشر سنوات كانت أولغا لا تزال تحافظ على موقعها في نقطة ارتكاز متألقة من جمالها. من دون أن يكون ذلك كافياً لجعلها سعيدة. هو أيضاً، كما يعتقد، لم يتغير كثيراً خلال تلك السنوات العشر الأخيرة، كان قد *أنجز شيئاً*، كما يقال، من غير أن يجد، أو حتى يتوقع إيجاد، المزيد من السعادة.

سكت جان بيار بيرنو وابتلع رشفة من مشروبه بوم دو فنيس. إنحرف نظر أولغا بضع درجات، فرأته فجأة، يقف ساكناً بلا حراك، وسط حشد المدعوين. قد تكفي عدة ثوانٍ، إن لم يكن لبتّ قرار مصيري يتعلق بحياة كاملة، فعلى الأقل لكشف توجهها الأساسي. أسندت كفها برقة إلى ساعد المذيع، متمتمة بعبارات الاستئذان، لتمثل، بعدة وثبات، أمام جاد، وتقبله ملء فمه، قبل أن تتراجع قليلاً وهي لا تزال تمسك بيديه. ظلا صامتين لثوانٍ.

ببزّته المذيّلة أرتور فان آشندونك كان جان بيار بيرنو يبدو لطيفاً وقد رآهما يعودان باتجاهه. وكان بأساريره المنفرجة يعطي في تلك اللحظة انطباعاً بأنه يعرف الحياة، وبأنه يتعاطف معها حتى. قامت أولغا بتقديمهما لبعضهما البعض.

«أنا أعرفك!» هتف المذيع، بابتسامة تتسع أكثر فأكثر. «تعال معي!».

عبر بسرعة الصالون الأخير، محتكاً بذراع باتريك لولاي (الذي حاول عبثاً أن يشارك في رأسمال القناة)، وسبقهما في رواق واسع سطحه عالٍ ومقبّب من الكلس الخالص. كان مسكن جان بيار بيرنو أكثر من فندق مميز، كان يستحضر معبداً رومانياً، بأروقته وأقبيته.

توقفوا أمام باب سميك منجد بجلد مدبوغ. «مكتبي. . .»، قال المذيع.

توقف عند العتبة، مفسحاً لهما مجال اكتشاف الغرفة. صفٌّ من المكتبات المصنوعة من خشب الماهوغوني تحوي، بشكل أساسي، كتباً سياحية. من جميع الأنواع والمذاهب، من «*دليل المتسكّع*» إلى «*الدليل الأزرق*» مروراً بـ«*المحتال الصغير*» و«*لونلي بلانيت*».

على أرفف العرض اصطفّت أيضاً كتب جان بيار بيرنو، من «المهن الحرفية الرائعة» إلى « فرنسا بلد النكهات». وراء واجهة زجاجية استقرت جوائز الـ «سيت دور» الخمس التي نالها من التلفزيون الفرنسي طوال مسيرته المهنية، إلى جانب كؤوس رياضية غير محددة المصدر، بينما أحاطت بالمكتب المصنوع من خشب الماهوغاني كنبات جلدية وثيرة. أما خلف المكتب، المضاء بلمبة هالوجين خافتة، فقد تعرّف جاد مباشرة إلى إحدى صوره من مرحلة ميشلان. بشكل مثير للفضول، لم يكن خيار المذيع قد وقع على صورة تختزل مشهداً مؤثراً وجذاباً، مثل تلك التي كان قد التقطها لكورنيش الساحل الفاروازي، أو لمضيقات فيردون الجبلية.

كانت الصورة، التي ركّزت على مدينة غورنيه آن براي، معالَجة بلونٍ متساوٍ، من دون استخدام أية مفاعليل إضاءة ولا منظورية. تذكر جاد أنه كان قد التقطها من زاوية عمودية تماماً. كانت البقع البيضاء، والخضراء، والبنية تتوزع فيها بالتساوي، تجتازها شبكة متوازية من الطرقات التي تجمع بين المقاطعات. لم يتم فصل أي منطقة سكنية بشكل واضح، فبدت جميعها تقريباً بذات الأهمية، لتعطي جميع هذه المكونات مع بعضها البعض انطباعاً بالسكينة، بالتوازن والتجريد إلى حدّ ما. أدرك أن ذلك المنظر كان على

الأرجح هو الذي عبر فوقه على علو منخفض، مباشرة بعد الإقلاع من مطار بوفيه، حين ذهب للقاء ويلبيك في إيرلندا. بحضور الحقيقة المحسوسة، ذلك التراصف المبهم للحقول، والسهوب، والمدن، كان قد شعر بالشيء ذاته: التوازن، والانسجام الساكن.

«أعرف أنك تحولت الآن للرسم»، تابع جان بيار بيرنو، «وأنك أنجزت لوحة لي. في الحقيقة، لقد حاولت حتى أن أشتريها؛ لكن فرانسوا بينو زايد عليها، ولم أستطع اللحاق به.

- «فرانسوا بينو؟» تفاجأ جاد. لكن «الصحافي جان بيار بيرنو وهو يدير اجتماعاً تحريرياً» هي لوحة متواضعة، تندرج في قائمة الكلاسيكيات، لا توافق مطلقاً الخيارات التقليدية، وتُعتبَر أكثر جموحاً بكثير بالنسبة للمضارب البريتاني. لعله كان قد قرّر التنويع.

«ربما كان عليّ أن...» قال. «أنا آسف... ربما كان عليّ إدراج بند تفضيلي لحساب الشخصيات المرسومة.

- إنه السوق...» قال بيرنو بابتسامة واسعة، منتعشة، تخلو من الضغينة، حتى أنه ربّت على كتفه.

سبقهما المذيع مجدداً في الرواق المقبب، وذيل سترته يطفو وراء ظهره ببطء. ألقى جاد نظرة خاطفة إلى ساعته: كان منتصف الليل قد اقترب.

مرّوا مجدداً عبر الأبواب الخافقة التي تقود إلى غرف الاستقبال: في الصالونات، كان الضجيج الآن في أوجّه؛ فقد وصل مدعوون جدد ليبلغ عدد الحاضرين حوالي أربعمئة أو خمسمئة شخص.

وسط مجموعة صغيرة، كان باتريك لو ليي، مخموراً، يخطب بصخب؛ بعد أن اختطف بجرأة زجاجة شاتونوف دو باب، وأخذ

يكرع النبيذ منها مباشرة بجرعات طويلة. كانت كلير شازال(*)، المتوترة بشكل واضح، تضع يدها على ذراعه، محاولة مقاطعته؛ فرئيس القناة كان، على ما يبدو، قد تجاوز بعض الحدود. «في TF1، نحن الأكبر!» كان يهتف عالياً. «أمنحه ستة أشهر على الأكثر لجان بيار! M6، نفس الموضوع، تخيلوا أنهم سينيكوننا مع برنامجهم لتلفزيون الواقع «لوفت»، فضاعفنا الرهان مع بثّنا لبرنامج كوه لانتا ونكناهم حتى العظم!» ردد، مطوّحاً خلف كتفه بالزجاجة التي لامست رأس جوليان لوبير قبل أن تحط، مسحوقة، بين أقدام ثلاثة رجال كبار في السنّ، يرتدون بزات من ثلاث قطع ذات لون رمادي، فحدجوه بنظرات لاذعة.

من غير تردد، اتجه جان بيار بيرنو نحو رئيسه السابق، ووقف أمامه. «لقد شربت كثيراً، باتريك» قال بصوت هادئ؛ كانت عضلاته مشدودة تحت قماش البزة، بينما تجهّم وجهه وكأنه يتحضر لمعركة. «حسناً حسناً. . .» قال لولايي وهو يؤدي بيده حركة مهدئة رخوة، «حسناً حسناً. . .». في تلك اللحظة، ارتفع صوت تينور مؤثر، ذي قوة غير معقولة، من الصالون الثاني. بعده، ارتفعت أصوات أخرى، جهورة، ثم من القرار، مستعيدة النغم ذاته، عبر تناغم صوتي، من دون كلام. كثيرون التفتوا نحو ذلك الإتجاه، بعد أن تعرفوا إلى الفرقة ذات الأصول الكورسيكية، التي اشتهرت بتعدد الأنغام. كان اثنا عشر رجلاً، من جميع الأعمار، يرتدون سراويل ومرايل سوداء ويضعون على رؤوسهم قلنسوات، قد انطلقوا في أداء صوتي تتجاوز مدته الدقيقتين بقليل. كان ذلك على حافة الموسيقى، والأحرى أنه

(*) مذيعة الأخبار في قناة TF1 (المترجمة).

كان نوعاً من الهتاف الحربي، الوحشي بشكل مباغت. ثم سكتوا فجأة. تقدم جان بيار بيرنو وهو يفتح ذراعيه بابتهاج أمام الحشد، وانتظر حتى عمّ الصمت، ثم أطلق بصوت مدوٍّ: «كل سنة وأنتم جميعاً طيبون!». تطايرت أوائل سدّادات الشمبانيا. بعدها اتجه المذيع نحو الرجال الثلاثة الذين يرتدون بزات من اللون الرمادي المعتدل وشد على أياديهم واحداً واحداً. «هم أعضاء في المجلس التنفيذي لميشلان...» قالت أولغا لجاد قبل أن يقتربا من المجموعة. «مالياً، لا تساوي TF1 شيئاً بالنسبة لميشلان. ويبدو أن بويغ(*) قد سئمت من امتصاص خسائرها...»، تمكنت من الإضافة قبل أن يقدمها جان بيار بيرنو للرجال الثلاثة. «تقريباً، كنت أتوقع أن يقوم باتريك بتصرفٍ فاضحٍ من هذا النوع...» كان يشرح لأعضاء المجلس التنفيذي، «فهو لم يتحمل فكرة رحيلي كما يجدر به أن يفعل».

«على الأقل، ذلك يعني أن مشروعنا يترك أثراً» أجاب الأكبر سناً بينهم. في تلك اللحظة، رأى جاد رجلاً أربعينياً يقترب، بسروال رياضي وبلوزة تتصل بها قبعة، يضع على رأسه كاسكيت بالمقلوب، تعرّف عليه، بتشكك: باتريك فوريستييه، المدير الإعلامي في ميشلان فرنسا. «يو!» هتف هذا الأخير باتجاه المدراء الثلاثة قبل أن يضرب كفه بكفهم. «يو» أجاب كل منهم بدوره، في تلك اللحظة بدأت الأمور بالانفلات من عقالها تماماً: تكثّف صخب الأحاديث فجأة في حين بدأت الأوركسترا الباسكية والسافوياردية بالعزف في

(*) مجموعة صناعية عملاقة في فرنسا تملك TF1 من بين مؤسسات كثيرة أخرى في مجالات متنوعة (المترجمة).

الوقت ذاته. كان جاد مبتلاً بالعرق، وحاول لعدة دقائق اللحاق بأولغا وهي تتنقل، ودودة ومبتسمة، من مدعو إلى آخر متمنية لهم عيداً سعيداً. من التعبير الودي ولكن الجدي الذي أظهره الناس عند اقترابها منهم، فهم أنها كانت تقوم بجولة على *فريقها*.

شعر بتفاقم الغثيان، فانطلق مسرعاً نحو الباحة حيث أفرغ ما في جوفه على شجرة نخيل قزمة. كانت الليلة لطيفة بشكل غريب، وكان بعض المدعوين قد بدأوا بمغادرة الحفل، من بينهم أعضاء المجلس التنفيذي الثلاثة. من أين جاؤوا؟ هل كانوا ينزلون في الفندق ذاته؟ كانوا يتقدمون بخفة، حسب تشكيل مثلث، حين مروا بصمت أمام الفلاحين حاملي المذراة، مدركين أنهم يمثلون سلطة العالم وحقيقته. كانوا ليشكّلوا موضوعاً جيداً للوحة، قال جاد لنفسه وهو ينسحب بهدوء من الحفل، في الوقت الذي بدا خلفهم نجوم التلفزيون الفرنسي وهم يضحكون ويزعقون، كانت مسابقة للأغاني البذيئة قد تنظمت تحت رعاية جوليان لوبير. كان جان بيار بيرنو الذي يلفّه الغموض بثيابه ذات اللون الأزرق الليلي يحدق بنظرة جسورة في كل شيء، في حين كان باتريك لو لاي، مخموراً وذليلاً، يتعثر على البلاط، وينادي أعضاء المجلس التنفيذي في ميشلان الذين لم يلتفتوا إليه حتى بنظرة. «تحوّل في تاريخ التلفزيون الشرق أوروبي»، ذلك عنوان كان ليصلح لتلك اللوحة التي لن يرسمها جاد. تقيأ مجدداً، كان لا يزال يشعر بمرارة في معدته، كان من الخطأ على الأرجح تناول مشروب الآبسنت وكوكتيل الروم معاً.

بجبهته المضرجة، كان باتريك لولاي الآن يزحف أمامه على الرصيف، وقد فقد أي أمل بملاقاة أعضاء المجلس التنفيذي الذين كانوا ينعطفون في تلك الأثناء عند زاوية شارع شارل دي غول.

كانت الموسيقى قد هدأت. من صالونات الاستقبال، تسرب خفقان بطيء لموسيقى الغروف السافواردية. رفع جاد رأسه باتجاه السماء، نحو المجرّات اللامبالية. كانت تشكيلات روحانية من نوع جديد تظهر. وكان شيء ما، على كل حال، يتحرك بثبات في هيكلية المشهد السمعي/البصري الفرنسي، ذلك ما توصل جاد لاستنتاجه من أحاديث المدعوين المتجهين بخطى بطيئة، بعد أن تناولوا معاطفهم، نحو الأبواب الحوذية. التقط، بصورة عابرة، كلمات «دم جديد»، و«امتحان دخول»، ففهم أن الكثير من الأحاديث تدور حول أولغا، التي كانت هي جديد المشهد التلفزيوني الفرنسي، هي الـ«آتية من النظام المؤسساتي»، كان ذلك أحد أكثر التعليقات المتكررة، إضافة إلى تلك المتعلقة بجمالها. كانت الحرارة الخارجية صعبة التقييم، فقد اجتازته موجات ارتعاش باردة وحارّة بالتناوب، ومن جديد انتابه تشنّج، فتجشأ بصعوبة قرب شجرة النخيل. وبينما كان يرفع نفسه رأى أولغا، وقد ارتدت معطفاً من فرو الفهد، تنظر نحوه ببعض القلق.

«هيا بنا لنعود.

- نعود... إلى منزلك؟»

من دون أن تجيبه، أمسكته من ذراعه، وقادته حتى سيارته.

«أيها الفرنسي الصغير الهشّ...» قالت مبتسمة قبل أن ينطلقا.

١٣

تسرّبت خيوط النهار الأولى من بين الستائر المزدوجة السميكة المنسدلة بنقوشاتها القرمزية والصفراء. كانت أولغا إلى جانبه تتنفس بانتظام، بينما انحسر قميص نومها القصير حتى خصرها. داعب جاد ردفيها البيضاوين والمستديرين بلطف، من دون أن يوقظها. جسدها لم يتغير تقريباً خلال السنوات العشر الأخيرة، رغم أن ثدييها قد اكتسبا بعض الثقل. زهرة الجسد الرائعة تلك كانت قد بدأت تذبل؛ وأصبح التدهور الآن في طريقه إلى التسارع. كانت تكبره بسنتين؛ هكذا أدرك فجأة أنه سيبلغ الأربعين في الشهر المقبل. كانا تقريباً في منتصف عمريهما؛ مرّت الأشياء بسرعة. قام، ولملم ثيابه المبعثرة على الأرض. لا يذكر أنه انتزع ملابسه في الليلة السابقة، وهي من قامت بذلك من دون شك؛ كان لديه انطباع بأنه غفا بمجرد أن لامس رأسه المخدة. هل مارسا الحب؟ على الأرجح أن لا، وتلك الحقيقة البسيطة كانت خطيرة بالفعل، لأنه بعد كل تلك السنوات الطويلة من الفراق، كان عليهما أن يحاولا على الأقل. عدم انتصابه الفوري لم يكن سوى سهل التوقع نسبة لكمية المشروبات الكحولية التي احتساها، ولكن كان باستطاعتها أن تحاول مصّ عضوه. لا يذكر أنها فعلتها. ربما كان عليه أن يطلب منها؟ ذلك التردد، أيضاً، على

الحقوق الجنسية، حول ما كان يُعتبر طبيعياً وبديهياً في علاقتهما فيما مضى، كان مقلقاً، وإنذاراً محتملاً بالنهاية. الجنس موضوع حساس، من الصعب الدخول فيه، وسهل جداً الخروج منه.

أغلق وراءه باب الغرفة المنجّد والمكسو بالجلد الأبيض، وولج رواقاً طويلاً يربط بين غرف أخرى ومكتبٍ لجهة اليمين، وبين صالونات الاستقبال شمالاً - صالونات صغيرة على طراز لويس السادس عشر، أرضها خشبية مرقطة من هنغاريا. في الظل المشع من مكان إلى آخر بلمبات المصابيح الكبيرة، بدت له الشقة شاسعة. اجتاز أحد الصالونات وفتح ستارةً: كان شارع فوش يمتد إلى ما لا نهاية، بعرضٍ غير طبيعي، وقد غطّته طبقة خفيفة من الجليد. علامة الحياة الوحيدة كانت كاتم الصوت في جاغوار إكس جي سوداء يدور محركها ببطء في ممر الجانبي.

ثم خرجت امرأة بثياب السهرة وهي تتهادى بخفة من إحدى البنايات، وجلست إلى جانب السائق؛ لتنطلق السيارة فوراً باتجاه قوس النصر. صمتٌ تامٌ عاد وخيّم على المنظر المديني. بدا له كل شيء واضحاً بشكل غير اعتيادي بينما كانت شمس شتوية وخفيفة تبزغ بين أبراج الديفانس، وتضفي بريقاً على أرض الشارع النقية. على طرف الرواق دخل إلى مطبخ واسع مؤثث بخزائن معدنية مدهونة تحيط برخام بازالتي.

كانت الثلاجة خاوية، باستثناء علبة من شوكولا «دوبوف وغاليه» وإناء مفتوح، على شكل زورق، من عصير البرتقال «ليدر برايس». اهتدى وهو يلقي نظرة دائرية إلى ماكينة قهوة، فأعدّ لنفسه كوباً من النيسبرسو. كانت أولغا لطيفة، لطيفة ومحبّة. أولغا تحبه، ردد

لنفسه، بحزن يتزايد وهو يدرك أنه لن يحدث بينهما شيء بعد الآن، من غير الممكن أن يحدث بينهما شيء بعد الآن، فالحياة تمنحك فرصة أحياناً، قال لنفسه، ولكن، حين نكون أكثر جبناً أو تردداً من التقاطها، تعود وتسحبها. هناك لحظة محددة للقيام بالأفعال، وللدخول في سعادة محتملة. قد تدوم تلك اللحظة أياماً، وأحياناً بعض الأسابيع أو بعض الأشهر، لكنها لا تقع سوى مرة واحدة، وواحدة فقط، وإذا ما أردنا لاحقاً العودة إليها يكون ذلك بكل بساطة مستحيلاً، لأنه لا يعود هنالك متسع لا للحماس، ولا للإيمان والاعتقاد، بل يبقى هناك مجرّد تخلٍّ لطيف، تبقى شفقةٌ متبادلة وحزينة، إحساسٌ غير ذي جدوى وحقيقي بأن شيئاً ما كان باستطاعته أن يحدث، وبأننا قد برهنا ببساطة عن عدم استحقاقنا للهبة التي كانت قد مُنحَت لنا.

أعدّ لنفسه كوباً آخر من القهوة طرد تماماً آخر آثار النعاس، ثم قرّر أن يترك لأولغا رسالة. «علينا أن نفكر»، كتب، قبل أن يشطب تلك الصيغة ويكتب: «أنت تستحقين ما هو أفضل مني». شطب الجملة مجدداً وكتب مكانها: «والدي يحتضر»، ثم انتبه أنه لم يحدّث أولغا بتاتاً عن والده، فطوى الورقة قبل أن يرميها في سلة القمامة.

قريباً يبلغ السن التي كان والده فيها حين أنجبته أمه. بالنسبة لوالده كان الحصول على طفل يعني نهاية أي طموح فني، وبشكل أكثر عمومية، القبول بالموت، كما هو الأمر بالنسبة للكثيرين من دون شك، ولكن تحديداً بالنسبة لوالده. اجتاز الرواق مجدداً حتى الغرفة؛ كانت أولغا لا تزال مستغرقة في النوم، متقوقعة على نفسها. بقي مكانه حوالي دقيقة، مراقباً تنفّسها المنتظم، عاجزاً عن التوصل

إلى خلاصة، وفجأة، فكّر في ويلبيك. على الكاتب أن يكون ملماً ببعض أمور الحياة، أو على الأقل، أن يوهم بذلك. بطريقة أو بأخرى، على ويلبيك أن يكون جزءاً من الخلاصة.

كان النهار قد طلع الآن تماماً، لكن شارع فوش كان لا يزال مهجوراً. في حياته لم يحدّث أولغا عن والده، ولم يحدّث والده عن أولغا، كذلك لم يحدّث ويلبيك ولا فرانز عن الاثنين أبداً. لقد حافظ بالتأكيد على ترسّبات حياة اجتماعية لكن هذه الأخيرة لم تكن تستدعي وجود نسيج عضوي في شيء، ولا أي شيء حي. كنا أمام رسم بياني بدائي ومينيمالي، غير متشعّب، أغصانه مستقلة عن بعضها البعض وجافة.

عند عودته إلى المنزل، وضّب بورتريه الكاتب في صندوق من التيتانيوم أحكم ربطه على سقف سيارة الصيد من ماركة أودي التي يملكها. اتّجه من بورت ديتالي صوب الطريق العام رقم A10.

بعد أن تجاوز الضواحي الأخيرة، وآخر مستودعات التخزين، لاحظ أن الثلج لا يزال صامداً. كانت الحرارة الخارجية تبلغ ٣ درجات تحت الصفر لكن جهاز التدفئة كان يعمل بشكل مثالي، وكان دفء منتظم يعمّ المقصورة. فسيارات أودي تتميّز بمستوى تجهيز نهائي عالٍ بشكل خاص، لا ينافسه، بحسب *مجلة السيارات*، سوى بعض أنواع الليكسوس. كانت تلك السيارة هي أول ما اشتراه منذ وصوله إلى مرتبة الثراء الجديدة الخاصة به. في زيارته الأولى للوسيط التجاري أغوته دقة تركيبتها المعدنية وصلابتها، وصوت الإغلاق الرقيق لأبوابها. كل ذلك كان مصنّعاً وكأنها خزنة.

بدّل عجلة جهاز التحكم بالسرعة، واختار سرعة مناسبة هي

١٠٥ كلم في الساعة. كانت دعسات البنزين الخفيفة، المقسّمة إلى وحدات من ٥ كلم في الساعة، تسهّل تشغيل الجهاز؛ هذه السيارة هي قطعاً كاملة. كان غشاء مالس من الثلج يغطي السهل الأفقي؛ والشمس تلمع بجسارة وببهجة تقريباً، فوق منطقة بوس (شمالي فرنسا) النائمة. قبل أن يصل إلى أورليان بقليل، سلك الـ E60 باتجاه كورتني. على عمق عدة سنتمترات تحت سطح الأرض كانت بذور تنتظر الإيراق، الصحوة. ستكون الرحلة قصيرة، قال لنفسه، كان يحتاج إلى ساعات، وأيام كاملة على الطريق العام، بسرعة مستقرة، حتى يتمكن من البدء بتكوين رسم تخطيطي لتفكير واضح. إلا أنه اضطرّ إلى التوقف أمام محطة للوقود، وانتبه وهو ينطلق مجدداً أنه كان يجب عليه الاتصال بويلبيك لينذره بقدومه.

خرج عند غرب - موتارجيس، وأوقف السيارة على بعد خمسين متراً قبل بوابة العبور، وضرب رقم الكاتب، وتركه يرنّ عشر مرات قبل أن يقفل الخط.

كانت الشمس قد اختفت، وظهرت سماءٌ لبنية فوق الثلج. أكملت الأكواخ العاجية المحاذية لبوابة العبور تلك السمفونية المبهمة للنبرات اللونية الفاتحة. خرج، فلفحه الصقيع، الأكثر حيوية مما هو عليه في المنطقة الحضرية، وتسكّع لدقائق على رصيف منطقة الاستراحة. حين رأى صندوق التيتانيوم على سقف سيارته، تذكر فجأة سبب سفره، وقال لنفسه أن الآن سيتسنى له قراءة ويلبيك بعد أن انتهى كل شيء. الآن وقد انتهى *ماذا*؟ في الوقت ذاته الذي طرح فيه السؤال على نفسه أجاب عليه، وفهم أن فرانزا يتمتع ببصيرة نافذة: كانت «ميشيل ويلبيك، كاتب» هي آخر لوحاته. من دون شك أنه لا يزال يملك أفكاراً للوحات، رؤى للوحات، لكنه لن يشعر أبداً

بعد الآن بالطاقة أو بالحماسة اللازمتين لإنجازها. باستطاعتنا دائماً، كان ويلبيك قد قال له في معرض حديثه عن مهنته كروائي، أن ندوّن ملاحظات على حِدَة، أن نحاول صفّ جملٍ بجانب بعضها البعض؛ ولكن، للإنطلاق في كتابة رواية يجب الانتظار حتى يصبح كل ذلك مكثفاً، قاطعاً، يجب بالضرورة انتظار ظهور نواة فعلية. أبداً لا يقرّر المرء بنفسه كتابة كتاب، أضاف يومها؛ فالكتاب، بحسب رأيه، هو مثل كتلة من الإسمنت تقرّر التشكّل، وإمكانيات تحرك الكاتب تنحصر في أن يكون موجوداً، وأن ينتظر، بسكون مقلق، انطلاق العملية من تلقاء نفسها. في تلك اللحظة أدرك جاد أن السكون لن يسبب له القلق أبداً بعد الآن. وعادت صورة أولغا لتطفو في ذاكرته، مثل شبح سعادة لم تكتمل، ولو استطاع لكان صلى من أجلها. ركب سيارته مجدداً، وانطلق بهدوء باتجاه كوخ العبور، مهيئاً بطاقته الزرقاء ليدفع التعرفة.

كان الوقت ظهراً تقريباً حين وصل إلى القرية التي يقطنها ويلبيك، لكن الشوارع كانت مقفرة. هل ثمة من يأهل شوارع هذه القرية أصلاً؟ فقد كان المكان عبارة عن سلسة متعاقبة من المنازل الجصّية، أسطحها من القرميد القديم، لعلها نموذجية في المنطقة، ومن منازل أخرى مفرَّغة، مطلية بالكلس، يتوقع المرء رؤيتها في الريف النورماندي بشكل عام. كانت الكنيسة، ذات الأقواس الساندة المكسوة باللبلاب، تحمل آثار ترميم أُنجزَ باجتهاد؛ من الواضح أننا، في هذه المنطقة، لا نمزح مع التراث. في جميع الأنحاء كان ثمة شجيرات للزينة، ومساحات خضراء؛ ويافطات من الخشب الداكن تدعو الزائر لجولة مغامرة على تخوم بويزاي. وكانت الصالة الثقافية

المتعددة الاستخدامات تحتضن معرضاً مستمراً للأعمال الحرفية المحلية. على الأرجح أن هذه المنطقة لم تحوِ سوى أماكن إقامة ثانوية منذ زمن.

كان منزل الكاتب يقع خارج القرية بعض الشيء. وكانت إرشاداته واضحة بشكل استثنائي حين نجح في التحدث إليه عبر الهاتف. كان قد قام بنزهة طويلة برفقة كلبه، قال له، نزهة طويلة في الجبل الجليدي؛ ويسعده أن يستضيفه على الغذاء. ركن جاد السيارة أمام بوابة منزل ريفي واسع على شكل L، حيطانه من الجير. فكّ الصندوق الذي يحوي اللوحة، ثم ضرب الجرس. وعلى الفور انفجر في المنزل صوت نباح. بعدها بثوانٍ فُتح الباب، واندفع كلب كبير، مشعّث، نحو البوابة، وهو ينبح. ثم ظهر مؤلف *الجزيئيات الأساسية* وهو يرتدي سترة مبطنة بالفرو وسروالاً مخملياً. لقد تغيّر، لاحظ جاد فجأة. بجسد أكثر امتلاء، وعضلات مفتولة أكثر على الأرجح، كان يمشي بحيوية، وعلى شفتيه ابتسامة ترحيب. في الوقت نفسه، كان قد خسر وزناً، وانحفرت على وجهه تجاعيد تعبيرية حادة، وشعره، المقصوص قصيراً جداً، كان قد ابيضّ. كان يبدو كحيوان أعاد ارتداء فروته الشتائية، قال جاد لنفسه.

كانت نار كبيرة تستعر في مدفأة صالة الجلوس؛ استقرا على كنبتين مخمليتين ذواتي لون أخضر فاتح. «كان لا يزال فيها بعض الأثاث القديم...» قال ويلبيك»، اشتريت الباقي من متجرٍ للأغرض المنزلية المستعملة. على طاولة منخفضة، كان قد وضع حلقات من النقانق وزيتوناً، ؛ فتح زجاجةً من نبيذ شابليه. أخرج جاد البورتريه من الصندوق، وأسنده إلى ظهر الكنبة. ألقى ويلبيك عليه نظرة

شاردة، ثم جال بنظره في الغرفة. «سيبدو جيداً فوق الموقدة، ألا تعتقد؟» سأل أخيراً. بدا أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يهمه. ربما يكون ذلك جيداً، قال جاد لنفسه؛ ففي النهاية، ما اللوحة سوى عنصر من الأثاث نفيس بشكل خاص؟ كان يحتسي كأسه بجرعات صغيرة.

«أترغب في القيام بجولة؟» اقترح ويلبيك. بطبيعة الحال، وافق جاد. أعجبه المنزل كثيراً، ذكّره قليلاً بمنزل جديه؛ ولكن جميع منازل الريف التقليدية تلك تتشابه بشكل أو بآخر في الحقيقة. خارج صالة الجلوس، كان هناك مطبخ كبير، تتصل به غرفة للمؤونة - تُستخدَم أيضاً كمستودع للحطب وكقبو للنبيذ. ناحية اليمين، بدا بابا غرفتين. الأولى غير مشغولة، ويقتصر أثاثها على سرير ضيقٍ وعالٍ من طابقين، وكانت البرودة قارسة فيها. في الغرفة الثانية سرير مفرد، سرير ولادي، مثبّت في زاوية حميمية، ومنضدة ذات واجهة خفاقة. قرأ جاد عناوين الكتب المرصوصة على رفّ الطاولة الخشبية المحاذية للسرير: شاتوبريان، فيني، بالزاك. «نعم، هنا هو المكان الذي أنام فيه...»، أكد ويلبيك بينما كانا يعودان نحو صالة الجلوس، ليستقرا مجدداً أمام النار. «في سرير طفولتي القديم... ننتهي دائماً كما بدأنا...» أضاف بصيغة صعبة التأويل (رضى؟ استسلام؟ مرارة؟) لم يفطن جاد لأي تعليق ملائم.

بعد الكأس الثالثة من الـ«شابليه»، شعر أن خمولاً قد اعتراه. «لننتقل إلى المائدة...» قال الكاتب. «لقد أعددت حساءً يوم أمس، سيكون ألذّ طعماً اليوم. من الممكن تسخين الحساء جيداً».

تبعهما الكلب إلى المطبخ، واستلقى في سلة كبيرة من القماش متنفساً الصعداء. كان الحساء لذيذاً، وكانت ساعة الحائط تصدر

تكتكة خفيفة. وبدت من النافذة الحقول مكسوة بالثلج، بينما قطعت الأفق أيكة من الأشجار السوداء.

«لقد اخترت لنفسك حياة هادئة...» قال جاد.

«نقترب من النهاية؛ نشيخ بهدوء.

- ألم تعد تكتب؟

- في مطلع كانون الأول/ديسمبر حاولت كتابة قصيدة عن العصافير؛ تقريباً خلال الفترة التي اتصلت بي فيها لتدعوني إلى معرضك. اشتريت معلفاً، ووضعت لها قطعاً من لحم الخنزير المقدد؛ لكن البرد حلّ قبل المتوقع، كان شتاءً مبكراً. جاءت عديدة: برقش ودغناش وأبو الحناء... أحبت كثيراً اللحم المقدد، لكن ذلك لم يعن كتابة القصيدة... في النهاية كتبت عن كلبي. بما أنه عام حرف الـ«ب»، أطلقت على كلبي اسم بلاتون، ونجحت في كتابة قصيدتي؛ هي إحدى أفضل القصائد التي كُتبَت عن فلسفة أفلاطون - وعلى الأرجح أيضاً عن الكلاب. ستكون إحدى آخر أعمالي، ربما الأخيرة».

في اللحظة ذاتها، تحرّك بلاتون في سلته، مصفقاً ساقيه في الهواء، وأطلق دمدمة طويلة في حلمه، ثم عاد للنوم.

«العصافير ليست بشيء»، تابع ويلبيك، «هي لطخات صغيرة من الألوان الفاقعة تفقس بيضاً وتلتهم آلاف الحشرات وهي ترفرف بشكل مثير للشفقة من ناحية إلى أخرى، حياة مشغولة وغبية، متفرغة بالكامل لالتهام الحشرات. مع موائد متواضعة من اليرقات أحياناً - ولاستنساخ النوع نفسه. أما الكلب فهو يحمل في داخله قدراً فردياً وتصوراً للعالم، لكن مأساته فيها شيء غير متمايز، ليس هو بتاريخي ولا حتى بسردي، وأعتقد أنني قد انتهيت من *العالم* كسردية - عالم

الروايات والأفلام، وعالم الموسيقى أيضاً. لم أعد أهتم بالعالم سوى بوصفه تركيبةً من الشعر والرسم. أتتناول المزيد من الحساء؟»

رفض جاد العرض. أخرج ويلبيك من الثلاجة أجبان «سانت نكتير» و«إيبواس». قطّع شرائح من الخبز، وفتح زجاجة جديدة من نبيذ شابليه.

«لطيف منك أن تجلب لي هذه اللوحة»، أضاف بعد بضع ثوانٍ. «سوف أتأملها من وقت لآخر، وستذكرني أنني قضيت حياة كانت بعض لحظاتها مكثفة».

عادا إلى غرفة الجلوس لتناول القهوة. أضاف ويلبيك حطبتين إلى النار، ثم دخل المطبخ ليقوم بشيء ما. غرق جاد في تفحص المكتبة. فاجأه عدد الروايات القليلة. الكلاسيكية تحديداً. في المقابل، كان هناك عدد مذهل من الأعمال العائدة للمصلحين الاجتماعيين من القرن التاسع عشر: الأكثر شهرة مثل ماركس وبرودون وكومت؛ ولكن أيضاً فورييه، كابيه، سان سيمون، بيار لورو، أوين، كارليل، وآخرون لا يعنون له شيئاً. عاد الكاتب وهو يحمل صينية عليها إبريق قهوة، وحلوى الماكارون، وزجاجة من الكحول بخلاصة الخوخ. «أتعرف ماذا يؤكد كومت؟»، قال، «أن الإنسانية مؤلفة من كم من الأموات يعادل كم الأحياء. المدهش هو أنني الآن، هنا، أجدني على تماس مع الأموات خصوصاً...» هنا أيضاً، لم يجد جاد إجابة. كانت طبعة قديمة من «*ذكريات توكفيل*» مودعة على الطاولة المنخفضة.

«حالة مذهلة، توكفيل...» تابع الكاتب. «*عن الديمقراطية في أميركا*» يُعدُّ تحفة، كتاب له قوة رؤيوية غير مسبوقة، مجدّدٌ تماماً،

وفي جميع المضامير؛ لا شك أنه الكتاب السياسي الأكثر نبوغاً الذي كتب يوماً. وبعد أن أنتج ذلك العمل المذهل، بدل أن يكمل، كرّس كل طاقته ليتم انتخابه كنائب في دائرة متواضعة في المانش، ثم ليتحمل المسؤوليات في حكومات زمانه، تماماً كأي سياسي عادي. ومع ذلك، لم يفقد شيئاً من حدته، من قوة ملاحظته...». تصفّح كتاب *الذكريات* وهو يمسّد ظهر بلاتون، الذي كان قد تمدد قرب قدميه. «إسمع هذا، حين يتحدث عن لامارتين! أولالا، أي صفعة مدوية يوجهها له. قرأ، بصوت لطيف ومنغّم:

«لا أعلم إن كنت قد صادفت، في هذا العالم المليء بالطموحات الأنانية، الذي عشت في وسطه، نفساً خالية من التفكير في الصالح العام أكثر من نفسه. رأيت في ذلك العالم حشداً من الرجال يكدّرون البلاد بهدف أن تكبر ذواتهم: ذلك هو الفساد الشائع. أما هو فعلى ما أعتقد هو الشخص الوحيد الذي بدا لي دوماً جاهزاً لزعزعة العالم من أجل أن يلهو.»

«لا يصدّق توكفيل أنه في حضرة عيّنة مشابهة من البشر. فهو نفسه رجل صادق في الأساس، يحاول أن يقوم بما يراه الأفضل لبلده. الطموح، الطمع، يستطيع أن يتفهمها؛ ولكن، أمام مزاج من هذا النوع يشبه مزاج ممثّل كوميدي، فيه خلطة كهذه من قلة المسؤولية ومن الانفعالية، تراه مشدوهاً. إسمع أيضاً ماذا يقول مباشرة بعد ذلك:

«كذلك لم أعرف في حياتي نفساً أقل صدقاً، ولا نفساً

لديها احتقار كامل للحقيقة أكثر من نفسه. حين أقول إنه كان يحتقرها أكون مخطئاً، فهو لم يكرمها أصلاً بما يكفي حتى ينشغل بها بأي طريقة كانت. وهو يتحدث، أو وهو يكتب، يخرج من الحقيقي ويدخل فيه من دون أي احتراس؛ يشغله فقط تأثير ما يودّ إحداثه من انطباع في تلك اللحظة...»

وكأنه نسي ضيفه، تابع ويلبيك القراءة لنفسه، وأخذ يقلب الصفحات ببهجة متزايدة.

إنتظر جاد، تردّد، ثم أفرغ كأسه من كحول الخوخ بجرعة واحدة، وبلع ريقه. رفع ويلبيك نظره باتجاهه. «لقد جئت...» قال جاد، «لأعطيك هذه اللوحة، طبعاً، ولكن أيضاً لأنني أنتظر منك رسالة.

- رسالة؟» انطفأت ابتسامة الكاتب رويداً رويداً، واعترى وجهه حزن ترابي، معدني. «الانطباع الذي لديك...» قال أخيراً بصوت بطيء، «هو أن حياتي تنتهي، وأنني خائب الأمل، أليس كذلك؟

- أممم... نعم، تقريباً.

- في الحقيقة، معك حق: حياتي تنتهي، وأنا أشعر بالخيبة. لا شيء مما كنت أتمناه في شبابي حصل. مرت لحظات ممتعة، لكن دائماً صعبة، ودائماً منتزَعة من أطراف أعصابي، ولم يبد لي أي شيء، مطلقاً، كهبة. الآن نفد صبري، أريد فقط أن ينتهي كل شيء من دون عذابات مفرطة، من دون أمراض وعجز، ومن دون عاهة.

- أنت تتحدث مثل والدي...» قال جاد بهدوء. انتفض ويلبيك عند سماع كلمة *والد*، وكأنه قد نطق فحشاً، ثم كست وجهه ابتسامة تقزّز، مهذبة ولكن من دون حرارة. ابتلع جاد ثلاث قِطع من

حلوى الماكارون الواحدة تلو الأخرى، أتبعها بكأس كبير من مشروب الخوخ الكحولي، قبل أن يتابع.

«والدي...» كرّر أخيراً، «حدثني عن ويليام موريس. كنت أود أن أعرف إن كنت تعرفه، وعن رأيك فيه.

- ويليام موريس...» عادت لهجته مجدداً للتحرر وللموضوعية. «من الغريب أن يكون والدك قد حدثك عنه، تقريباً لا أحد يعرف ويليام موريس.

- بلى، على ما يبدو، في أوساط المهندسين والفنانين الذين كان يخالطهم في شبابه.»

قام ويلبيك، وبحث في مكتبته لمدة خمس دقائق على الأقل قبل أن يخرج كتاباً رقيقاً غلافه قديم ومصفرّ، مزيّن بموتيفات متشابكة من «الآرت نوفو» (Art Nouveau). جلس مجدداً، قلّب الصفحات المبقعة والمتخشبة بحذر - كان واضحاً أن الكتاب لم يُفتح منذ سنوات.

«خذ» قال أخيراً، «ذلك يبيّن قليلاً وجهة نظره. هو مأخوذ من محاضرة ألقاها في إدينبورغ عام ١٨٨٩:

«ها هو، بإيجاز، موقفنا كفنانين: نحن الممثلين الأخيرين للحرفة التي أصابها الإنتاج التجاري بمقتل».

«في النهاية، التحق بالماركسية، ولكن، في البداية، كان الأمر مختلفاً، مبتكراً بالفعل. ينطلق من وجهة نظر الفنان حين ينجز عملاً، ويحاول تعميم ذلك على مجمل عالم الإنتاج - الصناعي والزراعي. من الصعب علينا اليوم تخيّل ثراء الفكر السياسي في ذلك

العصر. في «عودة دون كيشوت»، نوّه شيستيرتون بويليام موريس. كانت تلك رواية غريبة، يتخيل فيها ثورة ترتكز على العودة إلى الحرفية وإلى مسيحية العصور الوسطى، وهي تنتشر شيئاً فشيئاً في الجزر البريطانية، لتخلف الحركات العمالية، الإشتراكية والماركسية الأخرى، وتقود إلى التخلي عن نظام الإنتاج الصناعي لصالح المجموعات الحرفية والزراعية. حبكة مستبعدة تماماً، عالجها في مناخ سحري غير بعيد كثيراً عن *الأب براون*. في تلك الرواية وضع تشيستيرتون الكثير من قناعاته الخاصة، على ما أعتقد. ولكن يجب الاعتراف أن ويليام موريس، بحسب كل ما نعرفه عنه، كان شخصاً غير عادي إلى حد بعيد.»

إنهارت خشبة في المدفأة، مثيرة زوبعة من الرماد المتطاير. «كان عليّ أن أشتري واقياً للنار...» دمدم ويلبيك قبل أن يغمس شفتيه في كأسه من الكحول. كان جاد لا يزال يحدق فيه، ساكناً ومتنبهاً، وكان قد غزاه توتر عصبي غير اعتيادي، وغير مفهوم. كان ويلبيك ينظر إليه باندهاش، فانتبه جاد، بإحراج، أن يده اليسرى كانت تتحرك بارتجافات متشنجة. «آسف» قال أخيراً وهو يسترخي فجأة. «أنا أمر في مرحلة... خاصة».

«لم يحظ ويليام موريس بحياة مبهجة جداً، بحسب المعايير المعتادة»، أكمل ويلبيك. «رغم ذلك تقدمه لنا جميع الشهادات جذلاً، متفائلاً ونشطاً. في سن الثالثة والعشرين تعرّف بجاين بوردن التي كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وتعمل كموديل لدى الرسامين. بعد ذلك بسنتين تزوجها. تأمل أن ينطلق هو نفسه في الرسم، قبل أن يصرف النظر عن تلك الفترة مع شعوره بأنه غير موهوب بما فيه الكفاية. كان يحترم الرسم فوق كل شيء. شيّد منزلاً

له في أوبتون، على ضفاف التايمز، بحسب تصاميم وضعها بنفسه، وزينه بنفسه ليقيم فيه مع زوجته وابنتيه الصغيرتين. كانت زوجته، بحسب كل من قابلوها، فائقة الجمال؛ لكنها لم تكن مخلصة. أقامت، بالتحديد، علاقة مع دانتي غابرييل روسيتي، زعيم الحركة الما قبل رافائيلية. كان ويليام موريس يكنّ له، كرسام، الكثير من الإعجاب. في نهاية الأمر جاء وعاش معهما في المنزل، وحل محله صراحةً في السرير الزوجي. عندها انطلق موريس في رحلات متتالية إلى إيسلاندا حيث أتقن اللغة وبدأ بترجمة ملاحم الساغا. بعدها بعدة سنوات عاد مصمماً الحصول على تفسير. وافق روسيتي على الرحيل، لكن شيئاً ما كان قد انكسر، ولم يستعد الزوجان من بعدها أي حميمية جسدية فعلية.

خلال ذلك كان قد التحق بحركات إجتماعية متعددة، لكنه ترك *الإتحاد الديمقراطي الاشتراكي*، الذي بدا له مبالغاً في الاعتدال، لينشئ *العصبة الاشتراكية*، التي دافعت عن المواقع المجاهرة بشيوعيتها، وحتى مماته كدّ من دون حساب من أجل القضية الشيوعية، ضاعف مقالات الصحف، والمحاضرات، والاجتماعات...»

سكت ويلبيك، وهز رأسه باستسلام، ثم مد يده بنعومة على ظهر بلاتون، الذي غمغم برضا.

«حتى النهاية أيضاً» قال ببطء، «حارب الحشمة الفكتورية، وناضل من أجل الحب الحرّ...»

«أتعلم»، أضاف أيضاً، «لطالما كرهت تلك الفكرة المقززة ولكن التي تتمتع بمصداقية رغم كل شيء. أقصد تلك القائلة بأن

النشاط النضالي، الكريم، غير النفعي ظاهرياً، ليس سوى تعويض عن مشاكل خاصة. . .»

سكت جاد، وانتظر دقيقة على الأقل قبل أن يسأل: «أتعتقد أنه كان يوتوبياً؟ شخصاً غير واقعي بالكامل؟»

- بمعنى ما، نعم، من دون أي شك. كان يريد إلغاء المدرسة، معتبراً أن الأولاد يتعلمون أكثر في مناخ من الحرية الكاملة؛ كان يريد إلغاء السجون، مؤمناً بأن مشاعر الندم ستكون عقاباً كافياً للمجرم. من الصعب قراءة جميع أفكاره العبثية من دون الشعور بمزيج من التعاطف والنفور. «ورغم ذلك، رغم ذلك، . . .» تردد ويلبيك، باحثاً عن كلماته. «رغم ذلك، وللمفارقة، عرف عدة نجاحات على المستوى العملي. حتى يضع أفكاره حول العودة إلى الإنتاج الحرفي قيد الممارسة أسّس باكراً جداً شركة تزيين وتأثيث؛ كان عمالها يعملون أقل بكثير من زملائهم في مصانع تلك الفترة، التي كانت، فعلياً، سجوناً لا أكثر ولا أقل. وأهم من كل شيء، كانوا يعملون بحرية وكان كل منهم مسؤولاً عن واجبه منذ البداية حتى النهاية، فالمبدأ الأساسي لويليام موريس كان أن التصميم والتنفيذ لا يجب أن ينفصلا، ليس أكثر مما كانا عليه خلال العصور الوسطى. واستناداً إلى جميع الشهادات كانت ظروف العمل مثالية: محترفات غير معتمة، ذات تهوئة جيدة، على ضفاف نهر. كانت تتم إعادة توزيع جميع الأرباح على العمال، باستثناء جزء صغير منها، كانت مخصصة لتمويل البروباغندا الاشتراكية. بشكل مثير للتعجب، وعلى عكس كل التوقعات، كان النجاح مباشراً، لا سيما على المستوى التجاري. من بعد النجارة اهتموا بأعمال المجوهرات، والجلود، ثم الزجاج الملوّن، الأقمشة ومواد التنجيد، محققين دائماً النجاح ذاته: لطالما

كانت شركة موريس وشركاه رابحة من أول وجودها حتى آخره. ذلك لم تحققه أية تعاونية عمالية من تلك التي تكاثرت طوال القرن التاسع عشر، أكانت المستوطنات التي أنشأها فورييه أم المجمعات الإيكارية التي أنشأها إيتيان كابيه؛ إذ لم تتوصل أي منها إلى تنظيم إنتاج فعال للسلع وللمحاصيل الزراعية. باستثناء الشركة التي أنشأها ويليام موريس ليس باستطاعتنا سرد شيء سوى سلسلة من الإخفاقات. هذا من دون أن نتحدث عن الشركات الشيوعية، في المرحلة اللاحقة...»

سكت مجدداً. في الغرفة بدأ النور يخفت. قام، وأشعل مصباحاً، ورمى حطبة في المدفأة قبل أن يعود ويجلس. كان جاد لا يزال يحدق فيه بانتباه، بينما تستقر يداه على ركبتيه، وهو صامت تماماً.

«لست أدري» قال ويلبيك، «أنا عجوز جداً. لم تعد لدي الرغبة ولا العادة في أن أختم ما بدأته، إلا إذا كانت المواضيع بسيطة. هناك بورتريهات له، أتعلم، رسمها بورن - جونز: وهو يجرّب خليطاً جديداً من الصباغ النباتي، أو وهو يقرأ لابنتيه. رجل مربوع القامة، مشعث الشعر، وجهه مخضّب وحيوي، مع نظارتين صغيرتين ولحية غير مشذبة، في جميع الرسومات، يعطي انطباعاً بالحركة الزائدة المستمرة، بالنية الحسنة والإخلاص اللذين لا ينضبان. ما نستطيع قوله من دون شك هو أن النموذج الاجتماعي الذي اقترحه ويليام موريس لم يكن بوسعه أن يكون يوتوبياً في عالم جميع رجاله يشبهون ويليام موريس.»

مجدداً، انتظر جاد طويلاً، بينما كان الليل يهبط على الحقول

المجاورة. «أشكرك» قال أخيراً وهو يقوم. «أنا آسف لأنني أقلقت عزلتك، لكن رأيك كان يهمني. لقد أفدتني كثيراً.»

على عتبة المنزل، تمكّن الصقيع منهما. كان الثلج يلمع بشحوب. وكانت أغصان الأشجار العارية السوداء تسقط على السماء الرمادية الداكنة. «سيكون الجليد على الطرقات» قال ويلبيك، «قُد بحذر». بينما كان جاد يستدير بالسيارة تمهيداً للانطلاق رآه وهو يحرك يده ببطء شديد على مستوى كتفه، في إشارة الوداع. بدا كلبه الجالس بقربه وكأنه يهز برأسه مصادقاً على رحيله. كان جاد ينوي أن يلتقيه مجدداً، لكنه حدس أن ذلك لن يحدث، وأنه ستكون هناك دائماً موانع ما، وعوائق ستحول دون ذلك.

سالكاً الطرق السريعة المثلجة والمهجورة وصل ببطء، من غير أن يتخطى سرعة ٣٠ كلم في الساعة، إلى مدخل الطريق العام A 10. في اللحظة التي ولج فيها بوابة العبور، لمح، في الأسفل، الشريط الهائل لأضواء السيارات، فأدرك أنه سيعلق في زحمة لانهائية. كانت الحرارة في الخارج قد هبطت إلى ١٢ درجة تحت الصفر لكنها لا تزال ١٩ درجة داخل السيارة، وكان التكييف يعمل على نحو رائع، فلم يشعر بالانزعاج.

أدار المذياع على محطة «فرنسا الدولية»، فوقع على برنامج يفنّد الواقع الثقافي لذلك الأسبوع؛ كان كتّاب العواميد يضحكون بصخب، وصيحاتهم المتفق عليها وضحكاتهم كانت مبتذلة بشكل لا يطاق. أما «فرانس موزيك»، فكانت تذيع أوبرا إيطالية سرعان ما أزعجته حيويتها الخافقة والمصطنعة؛ فأغلق الراديو. في حياته لم يحب الموسيقى، وعلى ما يبدو، أصبح يحبها الآن أقل من أي وقت

مضى. تساءل فجأة عما قاده للاندفاع في التجسيد الفني للعالم، أو حتى للتفكير أن التجسيد الفني للعالم هو شيء ممكن، فالعالم هو كل شيء سوى موضوع انفعال فني، يظهر العالم تماماً كأداة عقلانية، خالياً من السحر ومن ميزة محددة. حوّل نحو «أوتوستراد أف.أم» التي كان بثّها يقتصر على إذاعة معلومات ملموسة: كانت ثمة حوادث قد وقعت عند فونتانبلو ونيمور، ما يعني أن تباطؤ السير سيستمرّ على الأرجح حتى باريس.

نحن نهار الأحد في ١ كانون الثاني/يناير، قال جاد لنفسه، إنها ليست نهاية إحدى عطلات نهاية الأسبوع فحسب، ولكنها أيضاً نهاية فترة عطلة، وبداية سنة جديدة لجميع هؤلاء الناس العائدين، ببطء، متذمرين على الأرجح من بطء السير، والذين سيصلون بعد عدة ساعات من الآن إلى تخوم الضاحية الباريسية ثم، بعد قضاء ليلة قصيرة، سيستعيدون أماكنهم - الوضيعة أو الرفيعة - في نظام الإنتاج الغربي. عند ميلان سود العالية امتلأ الجو بضباب يميل نحو اللون الأبيض، فتباطأ تقدم السيارات أكثر، وكانت هذه تسير على إيقاع دورة دولاب بين الحين والآخر، لمسافة تزيد عن خمسة كيلومترات، قبل أن تنقشع الطريق قليلاً على ارتفاع ميلان - سانتر. كانت الحرارة الخارجية ١٧ درجة تحت الصفر. حتى هو، كان قد استفاد، منذ أقل من شهر، من *قانون العرض والطلب*، إذ غلّفه الثراء فجأة مثل مطر من البريق، وخلّصه من أي قيد مالي، فأدرك أنه سيغادر الآن هذا العالم الذي لم يكن يوماً جزءاً منه، وعلاقاته الإنسانية القليلة أصلاً ستجف واحدة تلو الأخرى، وسيكون في الحياة كما هو الآن داخل المقصورة المثالية التصنيع لسيارته الـ أودي «أولرود A6»، هانئاً ومن دون بهجة، وحيادياً بشكلٍ لا شفاء منه.

القسم الثالث

١

ما إن فتح باب سيارة الرونو سافران حتى أدرك جاسلان أنه سيعيش إحدى أسوأ لحظات حياته. بين العشب على بعد عدة خطوات من السور كان الضابط فيربيه يجلس ورأسه بين يديه، وقد بدا منهاراً، غارقاً في سكون مطلق. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها زميلاً بهذه الحالة - في الشرطة القضائية، كانوا جميعاً يكتسبون في النهاية صلابة سطحية تسمح لهم بالتحكم في انفعالاتهم الشعورية، أو يستقيلون، وفيربيه كان ذا رصيد مهني يزيد على عشر سنوات. على بعد بضعة أمتار كان ثلاثة من رجال شرطة مونتارجيس مصدومين: إثنان منهما يحدقان في العشب، راكعين، بنظرات فارغة، والثالث - على الأرجح رئيسهم، خمّن جاسلان أن يكون عميداً - كان يدور ببطء حول نفسه، على حافة فقدان الوعي. وكانت رائحة نتنة تهبّ من ناحية الجسر، تحملها نسمة تحرّك برقة نبتة زر الذهب التي تغطّي الحقل المخضرّ المضيء. لم يتحرك أي من الرجال الأربعة مع قدوم السيارة.

تقدم نحو فيربيه، الذي ظل قابعاً في مكانه. بسحنته الشاحبة، وأزرق عينيه الفاتح جداً وسواد شعره الطويل بعض الشيء، كان كريستيان فيربيه، يتمتع، وهو في الثانية والثلاثين من عمره، بمظهر

رومانسي يعود لشاب وسيم وكئيب وحساس، من غير الاعتيادي تواجده في قطاع الشرطة. مع ذلك كان شرطياً كفوءاً، وعنيداً، وأحد المفضلين بالنسبة إليه ليعمل معهم.

«كريستيان...» قال جاسلان بهدوء، ثم بصوت أقوى. وببطء، مثل ولد معاقب، رفع فيربيه عينيه، وألقى عليه نظرة استياء حزينة.

«ألهذه الدرجة؟ سأل جاسلان بهدوء.

- بل أسوأ، أسوأ مما تستطيع أن تتخيل. من قام بذلك... لا يجب أن يكون موجوداً. يجب شطبه من على وجه الأرض.

- سنقبض عليه يا كريستيان. نقبض عليهم دائماً.»

هز فيربيه رأسه وبدأ يبكي. كان المشهد، ككل، يتحوّل إلى مشهد غير اعتيادي.

بعد وقت بدا له طويلاً جداً، قام فيربيه، وهو لا يزال غير واثق من قدره ساقيه على حمله، ورافق جاسلان نحو مجموعة الشرطيين. «مسؤولي، المفوض جاسلان...» قال بصوت منخفض. على وقع تلك الكلمات، أخذ أحد الشرطيين يتقيأ مطولاً، وكان يستعيد أنفاسه ثم يتقيأ مجدداً على الأرض، من دون أن يهتم لأحد، وذلك أيضاً لم يكن مألوفاً جداً، لدى شرطي. «أيها العريف بيغودو» قال مسؤوله بشكل آلي، من غير أن يوقف حركته الدائرية التي لا معنى لها. خلاصة الأمر أنه، في تلك الظروف لم يكن هناك ما يمكن توقّعه من درك منطقة مونتارجيس. «سيتم رفع يدهم عن القضية»، قال فيربيه. «نحن من أطلقنا التحقيقات، كان لديه موعداً في باريس تخلّف عنه، فاتصل بنا من تخلّف عن لقائهم. وبما أن لديه مكان إقامة هنا، طلبت منهم التأكد؛ فوجدوه.

- إذا كانوا هم من وجدوا الجثة بوسعهم الطلب أن تُعهَد القضية لهم.

- أعتقد أنهم سيقومون بذلك.

- ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

- أعتقد أنك ستكون من رأيي بعد أن ترى... حالة الضحية».

انقطع عن الكلام، وانتابته قشعريرة، وأزمة غثيان جديدة، لكن لم يكن لديه شيء بعد في جوفه ليفرغه سوى شيء من مادة الصفراء. ألقى جاسلان نظرة نحو باب المنزل المفتوح على مصراعيه. كانت سحابة من الذباب قد تجمعت على مقربة من المكان، تطير في مكانها مطنطنةً وكأنها تنتظر دورها. من وجهة نظر ذبابة، ليست الجثة البشرية سوى لحم، لحم بمنتهى البساطة. انبعثت نحوهم دفقات جديدة من الرائحة النتنة كانت فظيعة فعلاً. إذا كان مضطراً لتحمل رؤية مسرح الجريمة تلك فعليه إذاً، أدرك ذلك بوعي تام، أن يعتمد لبضع دقائق وجهة نظر ذبابة؛ الموضوعية المميزة للذبابة، *ذبابة المنزل*. باستطاعة كل أنثى من جنس *ذبابة المنزل* أن تبيض حتى خمسمئة وأحياناً ألف بيضة. ذلك البيض الأبيض يبلغ طول الواحدة منه حوالي ١,٢ ملمتر. خلال نهار واحد تخرج من كل بيضة يرقة، تعيش وتقتات من المادة العضوية (الميتة عموماً والتي تكون في طريقها إلى التحلل المتقدم، مثل جثة، زبالة، أو براز). يكون لون يرقات الذباب أبيض شاحباً، ويتراوح طولها بين ٣ و٩ ملم. تصبح أكثر رقة عند منطقة الفك ولا تملك أرجلاً. في نهاية المرحلة الثالثة من عملية طرحها للريش، تزحف اليرقات نحو مكان جاف ومنعش إذ تتحول إلى خادرة *يميل لونها إلى الحمرة*.

يعيش الذباب الراشد من أسبوعين إلى شهر في الطبيعة، أو

لوقت أطول في ظروف المختبر. بعد أن تنبثق من الخادرة، تتوقف الذبابة عن النمو. ليس الذباب الصغير ذباباً فتياً، وإنما هو ذباب لم يحظ بما يكفي من الغذاء خلال مرحلته اليرقانية.

بعد حوالي ٣٦ ساعة من انبثاقها من الخادرة تصبح أنثى الذباب جاهزة للتزاوج. يمتطي الذكر ظهرها ليحقنها بالمني. في العادة، لا تتزاوج الأنثى سوى مرة واحدة، مخزّنة المني لتستخدمه أكثر من مرة في طرح البيض. الذكور مناطقيون: يدافعون عن مساحة معينة ضد تطفل ذكور آخرين، ويسعون لامتطاء أي أنثى تقتحم تلك المساحة.

«بالإضافة إلى ذلك، الضحية من المشاهير. . .» أضاف فيربير.

«من هو؟

- ميشيل ويلبيك»

أمام غياب رد فعل مسؤوله، أضاف: «هو كاتب. أو بالأحرى كان كاتباً، وهو معروف جداً».

المذهل هو أن *الكاتب المعروف* يشكّل حالياً مصدراً غذائياً ليرقات كثيرة، قال جاسلان في سرّه، وبجهد شجاع على مستوى *السيطرة الذهنية*.

«أتعتقد أنه عليّ أن أذهب؟» سأل أخيراً مرؤوسه. «أن أذهب وألقي نظرة في الداخل؟»

تردد فيربيه طويلاً قبل أن يجيب. يتوجب على المسؤول عن التحقيق أن يطّلع دائماً، بنفسه، على مسرح الجريمة، كان جاسلان يؤكّد دوماً على ذلك خلال المحاضرات التي يعطيها في معهد إعداد المفوضين في سانت سير أو مونت دور.

الجريمة، وخصوصاً تلك التي ليست عنيفة ولا شنيعة، هي

شيء حميم جداً، يعبّر فيها المجرم بالضرورة عن شيء من شخصيته، ومن علاقته بالضحية.

هكذا، يوجد دائما تقريباً في مسرح الجريمة شيء فردي ومميز بمثابة توقيع للمجرم. وينطبق ذلك بشكل خاص، كان يضيف، على الجرائم العنيفة أو الطقوسية، التي تتطلب منا توجيه التحقيقات نحو البحث عن مضطرب عقلياً.

«لو كنت مكانك، لانتظرت وصول فرقة «تقنيي ساحة الجريمة»»، أجاب فيربيه أخيراً. «سوف يكون لديهم أقنعة معقمة، ما سيتيح لك، على الأقل، تجنب الرائحة». فكر جاسلان؛ كانت تلك تسوية جيدة.

«متى يصلون؟

- خلال ساعتين من الآن.»

كان العريف بيغودو لا يزال يدور حول نفسه، وقد توصل للاهتداء إلى الإيقاع الأمثل في حركاته الدائرية ولم يعد يبدو أن باستطاعته القيام بأي شيء مقلق، كان يحتاج فقط إلى أن يتم تمديده على سرير مستشفى أو حتى في منزله، ولكن مع إعطائه مهدئات قوية. كان مرؤوساه الإثنان، اللذان لا يزالان راكعين بجانبه، قد بدأ يهزان رأسيهما ويتأرجحان برخاوة تمثلاً بقائدهما. هما شرطيان من المنطقة الريفية، متطوعان، قال جاسلان في نفسه، بالكاد يمتلكان الكفاءة لتحرير مخالفة سير، أو احتيال متواضع على البطاقة الزرقاء (بطاقة بنكية لسحب الأموال)

«إذا سمحت...» قال لفيربيه. «بالانتظار، سوف أقوم بجولة في القرية. على سبيل الزيارة فقط، حتى آخذ انطباعاً حول الأجواء.

- تفضل، تفضل... أنت القائد...» ابتسم فيربيه ابتسامة

متعبة. «سوف أهتم بكل شيء، وأحرص على *استقبال الزوار* في غيابك.»

جلس مجدداً على العشب، تنفس لعدة مرات متلاحقة، وسحب من سترته كتاباً من سلسلة كتب الجيب - كانت رواية *أوريليا* لجيرار دو نرفال، لاحظ جاسلان. ثم استدار واتجه نحو القرية. قرية غاية في الصغر في الحقيقة، مجموعة من المنازل المستكينة في جوف الغابة.

٢

يشكّل مفوضو البوليس هيئة التصميم والإدارة التابعة للبوْليس الوطني، الذي يشكّل، بدوره، هيئة تقنية أعلى مشتركة بين الوزارات وتابعة لوزير الداخلية. هم مسؤولون عن إعداد وتنفيذ مبادئ العمل وعن إدارة الخدمات، التي يتولون مسؤوليتها التشغيلية والعضوية. لديهم سلطة على الموظفين الذين تمسّهم خدماتها. وهم يشاركون في إعداد وتنفيذ وتطوير البرامج والمشاريع المتعلقة بمواجهة قلة الأمان وبمكافحة التخريب. ويمارسون مسؤوليات القضاة التي منحت لهم بالقانون. ولديهم زي رسمي. ويتقاضون في أول حياتهم المهنية راتباً قيمته ٢٨٩٨ يورو.

كان جاسلان يسير ببطء، على طول طريق تقود إلى بستان كثيف الخضرة، غير اعتيادي، يغلب أن يكون مكتظاً بالثعابين والذباب - أو حتى، في أسوأ الأحوال، بالعقارب وبذبابة الخيل. لم تكن العقارب نادرة في منطقة الإيفون، وبعضها يغامر في سفره حتى حدود لواريه. كان قد قرأ ذلك على *معلومات للشرطة* قبل أن يأتي، موقع ممتاز، لا ينشر سوى معلومات مدقق فيها بعناية.

في المحصلة، نستطيع في الريف، على عكس ما قد يبدو،

توقع أي شيء، وفي أغلب الأحيان توقع الأسوأ، قال جاسلان لنفسه بحزن. القرية، بحدّ ذاتها، خلّفت لديه انطباعاً غاية في السوء: المنازل البيضاء ذات القرميد الأسود، النظيفة بشكل لا تشوبه شائبة، والكنيسة المرممة بشكل عديم الرحمة، ويافطات الإعلانات ذات المرح المزعوم، كل شيء كان يعطي انطباعاً بديكور، بقرية غير واقعية، شُيّدت خصوصاً لتأدية مشاهد مسلسلٍ تلفزيوني. عدا ذلك، لم يصادف أياً من السكان. في جو كهذا، باستطاعته التيقن من أن أحداً لم يكن قد رأى شيئاً، أو سمع شيئاً، مسبقاً. بدا جمع المعلومات كمهمة مستحيلة.

عاد أدراجه، مدفوعاً، إلى حدٍ ما، بالكسل. إن صادفت مخلوقاً بشرياً، مخلوقاً واحداً فقط، قال لنفسه بنزوة طفولية، سأنجح في كشف هذه الجريمة. للحظة، آمن بحظّه وهو يلمح مقهى، إسمه *لدى لوسي*، وبابه المطل على الشارع الرئيسي مفتوح. حثّ خطاه في ذلك الإتجاه، ولكن، في اللحظة التي كان يوشك فيها على اجتياز العتبة ظهرت في الفتحة ذراع (ذراع أنثى: هل تكون لوسي نفسها؟) أقفلت الباب بعنف. سمع صرير المفتاح يدور في الباب مرتين. باستطاعته أن يجبرها على إعادة فتح المحل، وعلى الإدلاء بشهادتها، فلديه سلطات الشرطة الضرورية لذلك؛ إلا أن الإجراء بدا له سابقاً لأوانه. في جميع الأحوال سوف يتولّى ذلك أحد أفراد فريق فيربيه.

فيربيه ذاته كان بارعاً في جمع الشهادات، ولم يكن أحد ممن يتعامل معهم ليكوّن انطباعاً أنه يتعامل مع شرطي، وحتى بعد أن يكون قد أظهر للناس بطاقته كانوا ينسونها بعد حين (كان إلى حد ما يعطي انطباعاً أنه طبيب نفسي أو مساعد في علم الأعراق البشرية)، ويثقون به بسهولة مقلقة.

إلى جانب لدى لوسي مباشرة يفضي شارع مارتن هايدغر نحو جزء من القرية لم يكن قد اكتشفه بعد. سلك ذلك الطريق، ليس من دون أن يتأمل في السلطة المطلقة تقريباً المتروكة لرؤساء البلدية في مجال تسمية شوارع مناطقهم. على زاوية الطريق المسدود ليبنيز، وقف أمام لوحة غريبة، ذات ألوان صارخة، مرسومة بالأكريليك على لوح من القصدير، تجسّد رجلاً رأسه رأس بطة، وعضوه الذكري هائل؛ ويكسو فرو سميك أسمر صدره وساقيه. أعلمته لوحة إعلانية أنه أمام المتحف الإبداعي المخصص لعرض الأعمال العفوية والإنتاج التصويري لمعتوهي ملجأ مونتارجيس. تزايد إعجابه بإبداع البلدية حين اكتشف، مع وصوله إلى ساحة بارمينيد، موقفاً جديداً لا يزيد عمر الطلاء الأبيض الذي يفصل بين أماكن ركن السيارات فيه عن أسبوع، مزوداً بنظام دفع إلكتروني يقبل بطاقات الاعتماد الأوروبية واليابانية. كانت سيارة وحيدة مركونة فيه من نوع ماسيراتي غران توريسمو لونها أخضر. دوّن جاسلان، لعلّ وعسى، رقم تسجيلها. ففي إطار أي تحقيق، كما يؤكد دائماً لطلابه في سانت سير أو مونت دور، من الأساسي أن يتم تدوين الملاحظات - في تلك المرحلة من عرضه كان يخرج من جيبه دفتر الملاحظات الخاص به، مقاس ١٠٥ × ١٤٨ ملم. لا يجب أن يمر يوم واحد من فترة التحقيق من دون أن نكون قد دوّنا ولو ملاحظة واحدة على الأقل، ولو بدت لكم الملحوظة التي دونتموها غير مهمة على الإطلاق، كان يقول لهم مشدداً. سوف يؤكد مسار التحقيق فيما بعد، وفي أغلب الأحيان تقريباً، عدم أهميتها، ولكن المهم ليس هنا: المهم هو أن يظل المرء نشيطاً، وأن يحافظ على مستوى أدنى من النشاط الفكري، لأن الشرطي عديم النشاط يصاب بالإحباط

ويصبح، بسبب ذلك، عاجزاً عن التصرف حين تبدأ الوقائع المهمة بالظهور.

الغريب أن جاسلان كان يردّد، من دون أن يدرك، الإرشادات ذاتها تقريباً التي أعطاها ويلبيك بخصوص مهنته ككاتب، خلال المرة الوحيدة التي وافق فيها أن يدير محترفاً حول الكتابة الإبداعية في جامعة لوفان لا نوف، في شهر نيسان ٢٠١١.

باتجاه الجنوب، كانت القرية تنتهي عند مستديرة إيمانويل كانط، التي تجسّد ابتكاراً حضرياً خالصاً، ذا تقشف جمالي كبير: دائرة بسيطة مكدّمة ذات لون رمادي مثالي لا تقود إلى أي مكان، ولم يتم تشييد أي منزل في محيطها. في مكان غير بعيد، كان ثمة نهر يتدفق ببطء. وكانت الشمس ترشق الحقول بأشعتها الساطعة أكثر فأكثر. وخلف سياج من الحور الرجراج، كان النهر يوحي بمساحة غامضة نسبياً. تابع جاسلان مجراه لأكثر من مئتي متر تقريباً قبل أن يردعه حاجز: مسطح واسع مائل من الباطون، يسمح جزؤه الأعلى على مستوى مجرى النهر بتغذية جدول متفرّع منه، بدا له صغيراً قبل أن يكتشف بعد عدة أمتار أنه عبارة عن بحيرة واسعة.

جلس بين العشب الكثيف، على ضفاف البحيرة. طبعاً كان يجهل ذلك، لكن هذا المكان من العالم حيث كان يجلس، متعباً، فريسةً لآلام أسفل الظهر ولهضمٍ يصبح أصعب فأصعب مع مرور السنوات، كان تحديداً هو المسرح الذي شهد لهو ويلبيك طفلاً، لهواً انفرادياً في أغلب الأحيان. في باله، لم يكن ويلبيك سوى قضية، قضية يشعر أنها ستكون شاقة. حين يتعلق الأمر بجرائم شخصيات مشهورة تصبح توقعات الجمهور حول حل القضية أعلى، وتظهر، خلال أيام قليلة، ميوله للإنتقاص من قيمة عمل الشرطة و

للسخرية من قلة فعاليته. الشيء الوحيد الأسوأ من ذلك والذي يمكن أن يصيب جهاز الشرطة هو أن تكون بين يديه جريمة قتل ذهب ضحيتها طفل، أو، أسوأ بعد، رضيع، ففي حالة الرّضّع يصبح الموضوع فظيعاً، ويجب الإمساك بقاتل الرضيع مباشرة، قبل أن يجتاز ناصية الشارع، وحتى مهلة ثماني وأربعين ساعة كانت تُعتبَر غير مقبولة من قبل الجمهور في هذه الحالة. نظر إلى ساعته فاكتشف أنه مرّ أكثر من ساعة منذ أن غادر، ولام نفسه للحظة لأنه ترك فيربيه وحيداً. كان سطح البحيرة مكسواً بالطحالب، بينما بدا لونها دامساً، وخطيراً.

٣

حين عاد إلى مسرح الجريمة كانت الحرارة قد هبطت قليلاً؛ وأحسّ أن عدد الذباب تراجع. وكان فيربيه متمدداً على العشب، متكئاً على سترته الملفوفة، لا يزال غارقاً في أوريليا، و يشبه مدعواً إلى حفلة غذاء في الطبيعة. «إنه صلب، هذا الولد...» ردد جاسلان لنفسه، للمرة العشرين ربما منذ تعرف إليه.

«هل رحل أفراد الشرطة؟» قال مستغرباً.

«جاء أحدهم وتكفل بهم. أشخاص من خلية المساعدة النفسية قدموا من مستشفى مونتارجيس.

– بهذه السرعة؟

– نعم، تفاجأت أنا أيضاً. لقد أصبح عمل الشرطة أصعب خلال السنوات الأخيرة، ولديهم الآن حوادث انتحار بقدر ما لدينا تقريباً؛ ولكن يجب الاعتراف بأن الدعم النفسي قد تطوّر جداً.

– كيف تعرف ذلك؟ من الإحصائيات حول حوادث الانتحار؟

– ألا تقرأ أبداً بيان اتصال قوات الأمن؟

– كلا...» جلس بثقل على العشب إلى جانب زميله. «لا أقرأ كثيراً، بشكل عام». بدأت الظلال تتمدد بين أشجار الزيزفون. استعاد جاسلان الأمل. وكان قد نسي تقريباً مادية الجثة المسجاة

على بعد أمتار قليلة حين توقفت بشكل مباغت سيارة بوجو لزملاء من «تقنيي مسرح الجريمة» أمام السور. وسرعان ما خرج منها رجلان، بحركة كاملة التناغم، يرتديان بدلات العمل البيضاء السخيفة التي تحيل إلى فريق مكافحة التلوث النووي.

كان جاسلان يكره تقنيي مسرح الجريمة المنتمين إلى الشرطة العلمية، بطريقتهم في العمل أزواجاً، وسياراتهم الصغيرة المعدة لهم خصوصاً والمكتظة بأجهزة غالية ومعقّدة، واحتقارهم الظاهر لهرمية المؤسسة المتخصصة بمعالجة الجريمة. ولكن، للأمانة، لا يسعى العاملون في الشرطة العلمية أبداً لأن يكونوا محبوبين، بل بالعكس، هم يجهدون ليتمايزوا بقدر ما يستطيعون عن أفراد الشرطة العاديين، مبرهنين في جميع الظروف عن العجرفة المستخفة التي يتسلّح بها التقني في مواجهة الشخص العادي، وهذا، من دون شك، يرمي إلى تبرير التضخم المتزايد لميزانيتهم السنوية. صحيح أن أساليبهم قد تطورت بشكل مذهل، أصبح باستطاعتهم اليوم رفع البصمات أو عينات الحمض النووي في ظروف لم تكن لتصدق منذ عدة سنوات، ولكن بماذا ندين لهم فيما يتعلق بهذا التطور؟ هم العاجزون عن اختراع أو حتى عن تحسين الأجهزة التي تتيح لهم الوصول إلى هذه النتائج. هم يكتفون باستخدامها، وهو أمر لا يتطلب أي ذكاء ولا أي موهبة خاصة، بل مجرد تأهيل علمي مناسب، كان من الأجدى تأمينه مباشرة لشرطة الميدان في الفصيلة الإجرامية. ذلك هو على الأقل الموقف الذي كان جاسلان يدافع عنه بانتظام، ومن دون نجاح حتى ذلك الحين، في التقارير السنوية التي كان يسلمها لمن هم أعلى منه. أصلاً لم يكن لديه أي أمل في أن يُسمَع، فقد كان تقسيم الإدارات قديماً ومكرّساً، لكنه كان يقوم بذلك في النهاية ليريح أعصابه فقط.

قام فيربيه، لائقاً ودمثاً، ليشرح الوضع للرجلين. كانا يهزان رأسيهما باقتضاب محسوب ليظهرا قلة صبرهما ومهنيتهما. وفي لحظة ما أشار إليه. كان بالتأكيد يعرّف به كمسؤول عن التحقيق. لم يجيبا بشيء، ولم يتحركا نحوه، بل اكتفيا بوضع قناعيهما. لم يكن جاسلان من المدققين في تفاصيل الهرمية التافهة، ولم يطالب يوماً بالالتزام الصارم بميزات الاعتبار الرسمية التي تتوجب على الآخرين تجاهه بوصفه مفوضاً، ولا أحد يستطيع الإدعاء بذلك، لكن هذين المهرجين قد بدآ يغضبانه. توجّه نحوهما، مبالغاً في إظهار الثقل الاعتيادي لمشيته، مثل قرد القبيلة المسن، وهو يصفر بصخب، منتظراً تحية لم تأت قبل أن يعلن: «سوف أرافقكما»، بنبرة لا تتوقع رداً. انتفض أحدهما، طبعاً، فهم معتادون على القيام بأعمالهم الصغيرة بهدوء، عبر احتكار مسرح الجريمة، من دون أن يدعوا أي شخص آخر يقترب من المحيط، وهم يدوّنون ملاحظاتهم الصغيرة على حواسيبهم المحمولة. ولكن ماذا يملكون للاعتراض هنا؟ لا شيء على الإطلاق. ناوله أحد الرجلين قناعاً. أدرك مجدداً وهو يضعه واقعية الجريمة، وأدركها أكثر وهو يقترب من المنزل. تركهما يتقدمان، ليسبقانه بعدة خطوات، ولاحظ برضى غامض أن غريبي الأطوار توقفا في مكانهما لحظة ولوج المنزل. لاقاهما ثم تجاوزهما، ودخل إلى غرفة الجلوس بيسر يشوبه بعض الارتياب. «أنا الجسد الحي للقانون» قال لنفسه. بدأ الضوء بالخفوت. كانت أقنعة الجراحين تلك ذات فعالية مذهلة، تقضي على الروائح بالكامل تقريباً. شعر، وراءه، أكثر مما سمع بوجود تقنيَّي مسرح الجريمة اللذين دلفا خلفه بجرأة إلى صالة الجلوس، قبل أن يتوقفا، على الفور تقريباً، عند عتبة الباب. «أنا الجسد الحي للقانون، جسد غير

كامل للقانون المعنوي» ردد لنفسه، وكأنه يردد تعويذة، قبل أن يرضى بأن يرى تماماً ما كانت عيناه قد سبق أن لمحتاه.

يحلّل الشرطي انطلاقاً من *الجسد*، وهو ما يتطلّبه تأهيله المهني، الجروح التي تلحق بالجسد، وحالة حفظ الجسد؛ ولكن الجسد، هنا، بمعناه الحرفي، لم يكن موجوداً. استدار ورأى خلفه تقنيي الشرطة العملية وقد بدآ يومئان بجسديهما ويدوران حول نفسيهما، تماماً مثل أفراد شرطة مونتارجيس. كان رأس الضحية سليماً، مقطوعاً بدقة، وموضوعاً على إحدى الكنبات أمام المدفأة. كانت قد تكونت بقعة صغيرة من الدم على المخمل الأخضر الداكن. في مواجهته على الكنبة، رأس كلب أسود طويل، مقطوع بدوره بدقة. الباقي كان مجزرة، مذبحة جنونية، أشلاء من اللحم والجلد مبعثرة على الأرض. إلا أن تعابير الرعب لم تكن بادية لا على رأس الرجل ولا على رأس الكلب، عوضاً عنها حلت تعابير عدم التصديق والغضب.

وسط أشلاء اللحم والجلد المختلطة لم يبق سوى ممر ضيق نظيف، عرضه حوالي خمسين سنتيمتراً، يقود نحو المدفأة المليئة بالعظم الذي لا تزال تلتصق به بعض بقايا اللحم. ولجه جاسلان بحذر، معتبراً أن المجرم هو من جهّزه. حين وصل إلى نهايته، استدار، معطياً ظهره للمدفأة، ورمى نظرة دائرية على غرفة المعيشة التي تصل مساحتها إلى حوالي ستين متراً مربعاً. كان سطح الموكيت كله ملطخاً بقطرات الدم، التي شكلت في عدة أماكن زخرفات مركّبة. حتى أشلاء اللحم نفسها، ذات اللون الأحمر المائل إلى السواد في بعض الأماكن، بدت وكأنها لم تُنثر عن عبث وإنما بحسب موتيفات صعبة التفكيك. شعر وكأنه أمام لعبة بازل.

لم يظهر أي أثر للخطوات. لقد تصرف القاتل بشكل ممنهج، إذ عمد إلى قصّ قطع اللحم التي يود وضعها في زوايا الغرفة، ثم عاد، شيئاً فشيئاً نحو الوسط، تاركاً طريقاً مفتوحاً نحو المخرج. سيتطلب الأمر التقاط بعض الصور، في محاولة لإعادة رسم الصورة الإجمالية للمشهد. ألقى جاسلان نظرة على تقنيي الشرطة العلمية. كان أحدهما لا يزال يدور في مكانه، وكأنه مسكون، بينما أخرج الآخر، في محاولة لاستعادة السيطرة، آلة تصوير فوتوغرافية رقمية من حقيبته، وأخذ يمرجحها على طرف ذراعه، من دون أن يبدو جاهزاً للمباشرة في التقاط الصور. تناول جاسلان هاتفه الخلوي.

«كريستيان؟ معك جان بيار. لدي خدمة أطلبها منك.

- أنا أسمعك.

- عليك أن تأتي لاصطحاب الشابين من الشرطة العلمية. منذ الآن هما خارج الخدمة، وهناك شيء محدد يتعلق بالصور في هذه القضية. يجب ألا يقوما بما يقومان به عادة من صور مقربة فقط، أحتاج إلى مناظر إجمالية لمختلف مجالات الغرفة، وإذا كان ذلك ممكناً، للغرفة بأكملها. لكن لا نستطيع طلب ذلك منهما مباشرة الآن، علينا انتظار أن يتمالكا نفسيهما قليلاً.

- سأتولى ذلك... ثم إن الفريق سيصل قريباً. حين اتصلوا بي كانوا عند مخرج مونتارجيس، وسيصلون خلال عشر دقائق.»

أقفل الخط، واستغرق في أفكاره: ذلك الولد يستمر في إدهاشه. سيصل فريقه بالكامل، بعد ساعات عديدة من وقوع الجريمة، وعلى الأرجح أنهم سيكونون على متن سياراتهم الخاصة. كان مظهره الروحي المتلاشي مخادعاً، فهو يتمتع بسلطة على فريقه،

ومما لا شك فيه أنه كان أفضل رئيس مجموعة عمل تحت إمرته. بعدها بدقيقتين رآه يلج الغرفة بتحفظ، ويربّت على كتفي عنصري الشرطة العلمية مجرجراً إياهما بكياسة نحو المخرج. كان جاسلان قد اقترب من نهاية مسيرته المهنية: لم يتبق لديه سوى عام واحد، ربما يستطيع تمديده لعامين أو ثلاثة، أربعة في أحسن الظروف. كان يعلم ضمنياً أنه لم يعد يُنتظَر منه اليوم بصورة أساسية أن يحل القضايا، وإنما، بالأحرى، أن يعيّن خلفاءه، أن يختار من بين زملائه من يقع على عاتقهم، من بعده، حلّها، وهو أمرٌ كان المفتش يفاتحه به علناً خلال محادثاتهما نصف الشهرية.

خرج فيربيه وعضوا جهاز «تقنيو مسرح الجريمة»؛ فوجد نفسه وحيداً في الغرفة. كان الضوء يخف أكثر فأكثر لكنه لم يشعر بالرغبة في إشعال الكهرباء، كان يشعر، من دون أن يجد تفسيراً لذلك، أن الجريمة وقعت في وضح النهار. من أين يأتيه ذلك الإحساس بأن ثمة شيئاً في هذه القضية يعنيه هو على وجه الخصوص، بصفة شخصية؟ تأمل لمرة جديدة الزخرفة المركبة التي تشكلها الأشلاء المتناثرة على أرضية الغرفة. لم يكن اشمئزازاً ذلك الذي شعر به بقدر ما كان نوعاً من الشفقة العامة على الكرة الأرضية بأكملها، على البشرية التي تستطيع، في كنفها، توليد هذا الكم من الفظاعة. والحق أنه كان متفاجئاً من قدرته على تحمل ذلك المشهد الذي أثار اشمئزاز تقنيي الشرطة العلمية حتى المعتادين على ما هو أسوأ في العادة. منذ عام، حين شعر أنه بدأ يلاقي صعوبة في تحمّل مشاهد الجريمة، لجأ إلى المركز البوذي في فينسين وسألهم إذا كانوا يوفرون ممارسة الـ *أسوبها*، أي تأمّل الجثة. في بادئ الأمر، حاول اللاما (الراهب البوذي) المسؤول أن يثنيه عن تلك الخطوة: فهي تتضمّن نوعاً من

التأمل شديد الصعوبة ولا يتلاءم مع الذهنية الغربية. وحين أطلعه على نوع مهنته أعاد النظر وطلب مهلة للتفكير. بعدها بأيام اتصل به ليقول له أن نعم، في حالته الخاصة، لا شك في أن الـ*أسوبها* ستكون مناسبة. هم لا يمارسونها في أوروبا، لأنها لا تتوافق مع الشروط الصحية: لكنه يستطيع إعطاءه عنوان دير سريلانكي يستقبل غربيين أحياناً. كرّس لذلك أسبوعين من إجازاته، بعد أن عثر (كان ذلك هو أصعب ما في الأمر) على شركة طيران ترضى بنقل كلبه. كل صباح، بينما كانت زوجته تذهب إلى الشاطئ، كان يقصد مقبرة جماعية حيث يودع حديثو الوفاة، من دون أي تدابير ضد الحيوانات المفترسة أو الحشرات. هكذا، استطاع، حاشداً أقصى طاقاته المعنوية وهو يحاول اقتفاء أثر أتباع بوذا المعتمدين وتشرّب عظاتهم حول ترسيخ الانتباه، أن يراقب عن كثب الجثة المتعفنة، وأن يتأمل بانتباه الجثة الممزقة، وأن يحدّق عن كثب في الجثة التي يلتهمها الدود. في كل مرحلة، كان عليه أن يردد لنفسه، ثماني وأربعين مرة: «هذا هو قدري، قدر البشرية جمعاء، لا أستطيع الإفلات منه».

الآن يدرك ذلك: كانت تجربة *أسوبها* تشكّل نجاحاً تاماً، لدرجة أنه لن يتردد في أن ينصح بها أي شرطي. لا يعني ذلك أنه أصبح بوذياً، وحتى لو أن مشاعر النفور الغرائزية التي تظهر عند رؤية جثة قد تراجعت بنسب كبيرة لديه، إلا أنه لا يزال يشعر بـ*الكره* تجاه القاتل، الكره والخوف، وكان يتمنى رؤية القاتل مهشماً، ممسوحًا من على سطح الكوكب. عند مروره بالباب لفّته خيوط الشمس الغائبة التي تضيء الحقل، وأسعده استمرار وجود ذلك الكره في نفسه، فهو كره ضروري، كما خطر له، من أجل إتمام عمل بوليسي فعّال. الدافع العقلاني، ذلك المتعلق بالبحث عن الحقيقة، لم يكن

يكفي عموماً؛ رغم أنه كان، في هذه الحالة، قوياً بشكل غير اعتيادي. كان يشعر أنه أمام فكر مركب، متوحش ولكنه عقلاني، أمام شخص مصاب بازدواج في الشخصية على الأرجح. سيكون عليهم، فور عودتهم إلى باريس، مراجعة ملفات *القتلة المتسلسلين*، وربما حتى طلب الإطلاع على ملفات أجنبية، فهو لا يذكر أن جريمة كهذه قد وقعت من قبل في فرنسا.

في اللحظة التي خرج فيها من المنزل رأى فيربيه، وسط فريقه، يعطيهم توجيهاته؛ ولشدة ما كان مأخوذاً بأفكاره لم يسمع صوت السيارات وهي تصل. كان هناك أيضاً رجل ضخم يرتدي بزة رسمية، لم يكن يعرفه - الأرجح أنه مندوب النائب العام في مونتارجيس. انتظر حتى انتهاء فيربيه من توزيع المهمات ليعيد له شرح ما يحتاج إليه: صور عامة لمسرح الجريمة، بعيدة وجامعة.

«سوف أعود إلى باريس»، أعلن لاحقاً. «أترافقني، كريستيان؟

- نعم، أعتقد أن كل شيء في مكانه. أنعقد اجتماعاً صباح غد؟

- ليس باكراً جداً. نحو الظهر، يكون أفضل.» كان يعرف أنهم سيعملون حتى وقت متأخر في تلك الليلة، حتى الفجر من دون شك.

٤

كان الليل يهبط حين ولجا الطريق العام رقم A10. ثبّت فيربيه محدد السرعة عند ١٣٠ كلم في الساعة، وسأله إن كان يزعجه أن يضع بعض الموسيقى؛ فأجاب بالنفي.

ليس هناك على الأرجح أي موسيقى تعبّر، مثل المقطوعات الأخيرة التي لحّنها فرانز ليتزت، عن ذلك الإحساس الجنائزي والرقيق لعجوزٍ فقد جميع أصدقائه، وانتهت حياته تقريباً، ليصبح أكثر انتماء للماضي، يشعر بدنو الموت نحوه، وكأنه أخ له أو صديق، وكأنه الوعد بعودةٍ إلى مسقط الرأس. في وسط صلاة *للملاك الحارس*، أخذ يفكر في شبابه، في سنوات دراسته حين كان طالباً بعد.

لسخرية القدر كان جاسلان قد أوقف دراسته للطب بين السنتين الأولى والثانية لأنه لم يكن يحتمل التشريح ولا حتى رؤية الجثث. جذبته فوراً دراسة القانون، وتقريباً مثل كل زملائه، كان ينوي ممارسة مهنة المحاماة، لكن طلاق والديه دفعه لتبديل رأيه. كان طلاق مسنين، فقد كان يبلغ العشرين من عمره، وكان ابناً وحيداً. في طلاق الشباب، غالباً ما يقلل وجود الأطفال الذين يجب تشارك

حراستهم والذين نحبهم بشكل أو بآخر رغم كل شيء، من عنف المواجهة؛ ولكن، في طلاق المسنين، حيث لا يبقى سوى المصالح المالية وقضايا الإرث، لا تعود شراسة القتال تعرف حدوداً. هكذا إذاً تسنّى له أن يدرك تماماً ماذا يعني، بالتحديد، أن يكون المرء محامياً، و أن يقدّر تماماً ذلك المزيج من المكر والتهاون الذي يلخص السلوك المهني للمحامي، وتحديداً لمحامٍ متخصص في مجال الطلاق.

استغرقت العملية أكثر من سنتين. سنتان من الصراع المستمر خلّفت لدى والديه كرهاً عنيفاً متبادلاً لدرجة أنهما لم يتقابلا مجدداً ولم يتحادثا، ولو على التلفون، حتى يوم مماتهما، وكل ذلك من أجل الوصول إلى اتفاقية طلاق تافهة بشكل مثير للاشمئزاز، كان من الممكن لأي أحمق أن يصوغها بعد اطلاعه على كتيّب *الطلاق للبائسين*. لطالما ردد لنفسه أنه لمن المذهل ألا يعمد المتواجهون في قضية طلاق غالباً إلى قتل أحدهما الآخر - أكان ذلك بشكل مباشر أم من خلال تعيين قاتل محترف. وانتهى به الأمر بأن يدرك أن الخوف من الشرطي كان، قطعاً، هو الركيزة الأساسية للمجتمع البشري، وبشكل ما كان من الطبيعي له أن يسجل اسمه في المسابقة الخارجية لمفوضية الشرطة. دخل بترتيب جيد، وكونه من أصول باريسية، خاض سنة التمرين في مفوضية الدائرة ١٣. كان التدريب صارماً. لا شيء، في جميع القضايا التي سوف يواجهها لاحقاً، سيتجاوز، بتعقيدها وغموضها، تصفية الحسابات داخل صفوف المافيا الصينية، التي سيتصدى لها منذ بداية حياته المهنية.

من بين طلاب معهد المفوضين في سانت سير أو مونت دور كثيرون كانوا يحلمون بالعمل في كيه ديزورفيفر، أحياناً منذ طفولتهم، وبعضهم قد دخل قطاع الشرطة من أجل ذلك حصرياً.

كانت المنافسة شديدة، حتى أنه فوجئ بقبول الطلب الذي قدمه لنقله إلى الفصيلة الإجرامية، بعد قضائه خمس سنوات خدمة في ثكنات المناطق. كان قد *انتقل* لتوه *لمساكنة* امرأة قابلها أثناء دراستها للاقتصاد، قبل أن تتجه إلى التعليم، وتعيَّن مساعدة في جامعة باريس دوفين؛ لكنه أبداً لم ينوِ الزواج منها، ولا حتى أن يوقّع معها عقد التضامن المدني (PACS)، فقد كانت الآثار التي تركها طلاق والديه لديه عصيّة على المحو.

«هل أوصلك إلى المنزل؟» سأله فيربيه بلطف. كانا قد وصلا إلى بورت دورليان. انتبه أنهما لم يتبادلا كلمة واحدة طوال الرحلة؛ ولشدّة ما كان تائهاً في أفكاره لم يلاحظ حتى التوقف المتكرر على بوابات العبور. في جميع الأحوال، كان الوقت لا يزال مبكراً جداً على قول أي شيء عن القضية: ستكون الليلة كفيلة بجلاء أفكارهم وبتجاوز الصدمة. لكنه لم ينجرّ وراء الأوهام: نظراً لفظاعة الجريمة، ولأن الضحية كانت شخصية، ستجري الأشياء بسرعة شديدة، وسرعان ما سيكون الضغط هائلاً. الصحافة لم تعلم بعد، لكن التكتم لن يدوم أكثر من ليلة واحدة: منذ هذه الليلة سيكون عليه أن يتصل بالمفتش على رقمه الخلوي. وهذا الأخير، سيتصل مباشرة على الأرجح بموظف إدارة البوليس.

كان يقيم في شارع غوفري سانت هيلير، على ناصية شارع بوليفو تقريباً، على بعد خطوتين من حديقة النباتات. مساءً، خلال نزهاتهما الليلية، هو وهيلين، كانا يسمعان أحياناً أصوات الفيلة، الزئير المؤثر للظبية. الأسود، الفهود، البوما الأميركي؟ كانا يعجزان عن التفريق بينها من الصوت. كانا يسمعان أيضاً، وخصوصاً خلال

الليالي التي يكون قمرها مكتملاً، العواء المشترك للذئاب، ما كان يغرق ميشو، كلبهما الموبر البولوني، في موجات من الرعب الوراثي، الذي لا يمكن تذليله. لم يكن لديهما طفل. بعد عدة سنوات من اتخاذهما قرار العيش معاً. وبينما كانت حياتهما الجنسية - بحسب العبارة المكرسة - «مرضية تماماً»، وهيلين لا تأخذ «أي تدبير معيّن»، قررا القيام باستشارة. بيّنت فحوصات مذلة ولكن سريعة أنه يعاني من العقم نتيجة ضعف البذرة. بدا اسم المرض، في هذه الحالة، ملطفاً: فقذفه، وكمياته معتدلة، إضافة إلى أنه لم يكن يحتوي على *نسبة كافية من الخلايا المنوية المخصّبة*. لم يكن يحتوي على *أيّ* خلايا منوية مخصّبة. قد يكون لضعف البذرة أسباب متنوعة جداً: دوالي الخصيتين، ضمور الخصيتين، نقص في الهرمونات، التهاب مزمن في البروستات، إنفلونزا، وأسباب أخرى. معظم الوقت، لا يكون لذلك المرض أي علاقة بالقوة الذكورية. بعض الرجال ممن لا ينتجون سوى القليل من خلايا المني المخصبة، أو لا شيء منها على الإطلاق، ينكحون *كالغزلان*، بينما يتمتع آخرون، عاجزون، بقذف غزير ومخصّب لدرجة تكفي لإعادة تأهيل أوروبا الغربية بالسكان: يكفي اجتماع هاتين الميزتين لوصف الذكر المثالي الذي تسوّقه الإنتاجات البورنوغرافية. لم يكن جاسلان في تلك الحالة الكاملة: إذا كان لا يزال قادرًا، بعد تخطيه عتبة الخمسين، على مكافأة زوجته بانتصابات متينة وثابتة، إلا أنه لم يكن بالتأكيد مجهزاً لمنحها *حماماً من المنيّ*، في حال انتابتها الرغبة في ذلك: قذفه، حين كان يحدث، لم يكن يتخطى سعة ملعقة القهوة.

ضعف البذرة، السبب الأساسي في العقم الرجالي، هو مرض صعب دائماً، وفي أغلب الأحيان تكون مداواته مستحيلة. لم يكن

يبقى سوى حلين: طلب خلايا المني المخصبة من مانح رجل؛ أو التبني بكل بساطة. بعد أن تناقشا في ذلك عدة مرات قررا التخلي عنه. هيلين، للأمانة، لم تكن متحرقة كثيراً للحصول على طفل، وبعد ذلك بعدة سنوات، ستكون هي من سيقترح عليه شراء كلب.

في مقطع يرثي فيه التدهور الفرنسي وتراجع معدل الولادات في فرنسا (الذي كان قد بدأ منذ منذ ثلاثينيات القرن الماضي)، يتصوّر الكاتب الفاشي دريو لاروشيل، بهدف انتقاده، خطاباً منحطّاً لزوج فرنسي من عصره، مفاده:

«ثم، يا كيكي، الكلب سيكون كافياً لتسليتنا...» كانت، في الصميم، من الرأي ذاته تماماً، كما انتهت بأن اعترفت لزوجها: الكلب ممتع أيضاً، حتى أنه أكثر إمتاعاً بكثير من الطفل، وإذا كانت قد نوت للحظة أن تحصل على طفل، فقد كان ذلك تعبيراً عن الانسياق وراء الأعراف، وأيضاً لتسعد والدتها بعض الشيء، ولكن في الحقيقة هي لا تحب الأطفال، ولم تحبهم يوماً. هو أيضاً لم يكن يحب الأطفال، فهو، حين يفكّر ملياً في الإمر، يكره أنانيتهم الطبيعية والمنهجية، وجهلهم البدائي بالقوانين، وفجورهم الهابط الذي يجبر على تربية مرهقة وتقريباً غير مجدية في أغلب الحالات. كلا، في جميع الأحوال، هو قطعاً لا يحب الأطفال، أطفال البشر.

سمع أزيزاً على يمينه ولاحظ فجأة أنهما قد أصبحا أمام منزله، منذ وقت طويل ربما. كان شارع بوليفو مقفراً تحت صف المصابيح.

«أعذرني يا كريستيان...» قال مبدياً انزعاجه. «كنت شارداً.

- لا مشكلة أبداً».

لم تكن الساعة سوى التاسعة، قال لنفسه وهو يصعد الدرج،

والأرجح أن تكون هيلين قد انتظرته لتناول الطعام. هي تحب الطبخ، وكان أحياناً يرافقها صباح أيام الآحاد حين كانت تقصد سوق موفوتار للتسوق. في كل مرة، كانت تسحره تلك الزاوية من باريس، التي تحتضن كنيسة سانت كيدار المتكئة على حديقتها الصغيرة، مع ديك مهيمن على قبتها، كما في كنائس القرى.

بالفعل، ما إن وصل إلى عتبة الطابق الثالث حتى استقبلته الرائحة المميزة لوجبة أرنب بالخردل والنباح العالي لميشو، الذي تعرّف على خطواته. أدخل المفتاح في القفل؛ زوجان قديمان، قال لنفسه، زوجان تقليديان، نموذج غير شائع كثيراً في عام ٢٠١٠، لدى من هم في مثل سنهما، ولكنه عاد ليشكل، على ما يبدو، بالنسبة للأصغر سناً، نموذجاً مرغوباً، مع أنه صعب المنال بوجه عام. كان يعي أنه يعيش في جزيرة غير محتملة الوجود من الغبطة والسلام، ويدرك أنهما قد صنعا نوعاً من العش الهانئ، بعيداً عن ضوضاء العالم، فيه من الرأفة ما يكاد يكون طفولياً، ويتعارض بشكل مطلق مع البربرية والعنف اللذين يواجههما كل يوم في عمله. كانا سعيدين معاً؛ كانا لا يزالان سعيدين معاً، وسيظلان كذلك على الأرجح، *إلى أن يفرق الموت بينهما*.

أخذ ميشو الذي كان يقفز وينبح من السعادة بين يديه، ورفعه إلى مستوى وجهه؛ تجمّد الجسد الصغير العالق في بهجة منتشية. إذا كانت أصول الكلاب الأليفة الموبرة تعود للعصور القديمة (تم إيجاد تماثيل كلاب موبرة في قبر الفرعون رمسيس الثاني)، إلا أن دخول الكلب الموبر البولوني إلى بلاط فرانسوا الأول كان من خلال هدية قدمها دوق دو فيراي. الشحنة، ومعها منمنمتان من كوريج، أعجبتا كثيراً الملك الفرنسي، الذي اعتبر الحيوان «أكثر مرحاً من مئة شابة

عذراء»، وأمد الدوق بمساعدة عسكرية حاسمة خلال غزوه لإمارة مانتو. بعدها أصبح الكلب الموبر هو الكلب المفضل لعدة ملوك مروا على فرنسا، من بينهم هنري الثاني، قبل أن يحل محله كلب الكرلان والكلب البطباط. على عكس الكلاب الأخرى مثل الشتلاند وكلب التيبيت، التي لم تبلغ مستوى *كلب مرافقة*، لما تحمله من تراث طويل بوصفها *كلاب عمل*، يبدو الكلب الموبر وكأنه لا سبب آخر لوجوده، من الأساس، سوى جلب السعادة والبهجة للبشر. هو يؤدي ذلك الواجب باستمرار، فتراه صبوراً مع الأطفال، رقيقاً مع العجّز، منذ سنوات لا تحصى. يعاني كثيراً من وحدته، وذلك أمر يجب أخذه بعين الاعتبار عند شراء الكلب الموبر: هو يعتبر أي غياب لسيده تخلياً. حين يشعر بذلك التخلي ينهار عالمه بالكامل، هيكلية وجوهر عالمه، في غضون لحظات، إذ يصبح عرضة لموجات اكتئاب حادة، ويرفض، في معظم الحالات، تناول الطعام. لذلك من غير المحبذ أبداً ترك كلب موبر وحده، ولو كان ذلك لعدة ساعات فقط. ذلك شيء انتهت الجامعة الفرنسية بتقبله، فأصبح باستطاعة هيلين أن تصطحب معها ميشو إلى صفوفها، هكذا جرت العادة، في ظل غياب أي ورقة رسمية تسمح بذلك صراحة.

كان يقبع في شنطة يدها بهدوء، ويتململ أحياناً طالباً الخروج. عندها كانت هيلين تضعه على المكتب، وسط بهجة الطلاب. هو يجوب المكتب لدقائق، ملقياً من وقت إلى آخر نظرة على سيدته، بينما يتفاعل أحياناً بتثاؤب أو بنباح مقتضب على جملة لشومبتر أو لكاينز؛ قبل أن يعود إلى الشنطة المرنة. في المقابل كانت شركات الطيران، تلك المؤسسات الفاشية في الصميم، ترفض التعامل بكل هذا التسامح، ما جعلهما، للأسف، يتراجعان عن أي مشروع سفر

بعيد. كانا يذهبان بالسيارة كل صيف خلال شهر آب/ أغسطس في رحلات تقتصر على اكتشاف فرنسا والبلدان المحاذية لها. بوصفها القانوني الذي يحيله الاجتهاد كلاسيكياً إلى مكان الإقامة الشخصي، لا تزال السيارة، بالنسبة لأصحاب الحيوانات الأليفة، كما بالنسبة للمدخنين، إحدى آخر مساحات الحرية، إحدى آخر *مناطق الاستقلالية المؤقتة* الممنوحة للبشر في بداية الألفية الثالثة هذه.

لم يكن هذا أول كلب موبر يقتنيانه، كانا قد اشتريا سلفه ووالده، ميشيل، خلال وقت قصير بعد أن أبلغ الأطباء جاسلان بطابع عقمه غير قابل للعلاج على الأرجح. كانا سعيدين جداً معاً، سعيدين لدرجة أنهما شعرا بصدمة حقيقية حين أصيب ميشيل بمرض الدودة القلبية وهو في سن الثامنة. والدودة القلبية هي مرض طفيلي، والحيوان الطفيلي هو دودة خيطية تعشش في البطين الأيمن للقلب وفي الأورطى الرئوي. أما العوارض فهي إحساس أسرع وأقوى بالتعب، ثم عطسة، وارتباكات قلبية قد تتسبب، ثانوياً، بفقدان الوعي. ينطوي العلاج على أخطار: عدة عشرات من الديدان، يصل مقاس بعضها إلى ثلاثين سنتيمتراً، تعيش معاً أحياناً في قلب الكلب. خشيا على حياته لعدّة أيام. فالكلب هو نوع من الطفل المميّز، أكثر طاعة وأكثر رقة، طفل تجمّد مكانه عند سن الرشد، لكنه أيضاً طفلٌ نعيش من بعده: أن نقبل بأن نحب كلباً، ذلك يعني القبول بحب كائن سيتم حتماً انتزاعه منا، والغريب أن ذلك شيء لم يكونا يدركانه أبداً قبل مرض ميشيل.

في اليوم التالي لشفائه قررا أن يمنحاه ذرّية. أبدى المربون الذين استشاروهم بعض التحفظات: لقد انتظرا طويلاً، لقد أصبح كلبهما عجوزاً بعض الشيء، يمكن أن تكون نوعية المني قد تدهورت. في

النهاية قبل أحدهم وهو يقيم قرب فونتينبلو. ومن اتحاد ميشيل مع أنثى شابة، اسمها ليزي لايدي دو هورتبيز، ولد جروان، ذكر وأنثى. وبوصفهما مالكي الفحل (بحسب العبارة المكرّسة)، يمنحهما العرف أن يختارا الجرو أولاً. اختارا الذكر، وسمّياه ميشو. لم يكن يبدو عليه أنه ورث أي عاهة، وعلى عكس ما تخوفا منه تقبل والده قدومه بشكل جيد جداً، من دون أن يبدي غيرة معينة.

مع ذلك لاحظا بعد عدة أسابيع أن خصيتي ميشو لم تنزلا بعد، ما كان قد بدأ يصبح غير طبيعي. استشارا طبيباً بيطرياً، ثم آخر: واتفق الاثنان على أن السبب هو كبر سن الوالد. الاختصاصي الثاني الذي قصداه طرح فكرة إجراء عملية جراحية قبل أن يغيّر رأيه، معلناً أنها ستكون خطرة ومستحيلة تقريباً. كانت تلك ضربة موجعة لهما، موجعة أكثر مما كان عليه عقم جاسلان نفسه. ذلك الكلب الصغير لن يحرم الذرّية فحسب، لكنه أيضاً لن يعرف أي إثارة، ولا أي إشباع جنسي. سيكون كلباً ناقصاً، عاجزاً عن نقل الحياة، منقطعاً عن النداء الأساسي لجنسه، ومحدوداً في الزمان - بشكل نهائي.

تدريجياً، اعتادا الفكرة، في الوقت نفسه الذي أدركا فيه أن كلبهما الصغير لن يفتقد تلك الحياة الجنسية التي حرم منها. في جميع الأحوال، ليس الكلب ماجناً أو ميالاً للخلاعة، ولا يُعرَف عنه أي نوع من التطور الإيروسي، ولا يعدو الإشباع الذي يشعر به لحظة الجماع كونه تنفيساً، مقتضباً وآلياً، لغرائز الحياة التي يملكها أي جنس حي. في جميع الأحوال تعتبر إرادة القوة بالأصل ضعيفة جداً لدى الكلب الموبر؛ لكن ميشو، المتخفف من أي قيد متعلق بتناسل النوع، كان يبدو أكثر طاعة، وأكثر رقة، وأكثر بهجة، وأكثر صفاء مما كان عليه والده. كان مبروكاً تماماً، بريئاً يخلو من أي شائبة،

وتتعلق حياته بكاملها بحياة سيّديه المعشوقين، ويشكل مصدراً للبهجة مستمر لا ينضب. آنذاك كان جاسلان على مشارف الخمسين. خلال تأمله لذلك الكائن الصغير، وهو يلهو بالدمى الصوفية على سجادة الصالون، كانت تجتاحه، أحياناً، رغماً عنه، أفكار سوداوية. لا ريب في أنه، بتأثير من الأفكار الشائعة في أوساط جيله، كان حتى ذلك الوقت يتطلع إلى الجنس كقوة إيجابية، وكمصدر اتحاد يتخطّى الانسجام بين الكائنات البشرية من خلال المسالك البريئة للمتعة المشتركة. على العكس من ذلك أصبح الآن يرى فيه عراكاً أكثر فأكثر، قتالاً عنيفاً يهدف للسيطرة، وللتخلص من المنافس، والمضاعفةِ العشوائية للجماع، من دون أي سبب آخر سوى ضمان الانتشار الأقصى للجينات. أصبح يرى فيه مصدر كل صراع، وكل مجزرة، وكل عذاب. أصبح الجنس يظهر له أكثر فأكثر كالمجسّد الأكثر وضوحاً وبديهية للشر. ولم تكن مهنته في البوليس لتساعد في تعديل وجهة نظره: فالجرائم التي لم يكن دافعها المال كان دافعها الجنس، كانت دائماً هذه أو تلك. بدت البشرية عاجزة عن تخيّل أي شيء أبعد من ذلك، على الأقل على المستوى الإجرامي. صحيح أن القضية التي اكتشفوها للتو تبدو مبتكرة للوهلة الأولى، لكنها الأولى من نوعها التي يصادفونها منذ ثلاث سنوات على الأقل. كان تشابه الدوافع الإجرامية لدى البشر مرهق في المجمل.

مثل معظم زملائه قلّما كان جاسلان يقرأ الروايات البوليسية. إلا أنه وقع العام الفائت على عمل لم يكن، على وجه الدقة، رواية، بل مجموعة ذكريات لمحقق سابق مارس المهنة في بانكوك، وقرر أن يستعيد سيرته المهنية على شكل ثلاثين قصة قصيرة. في جميع

الحالات تقريباً كان زبائنه غربيين وقعوا كلياً في حب شابة تايلاندية وأرادوا معرفة ما إذا كانت، كما تؤكد لهم دوماً، مخلصة لهم في غيابهم. وفي جميع الحالات تقريباً، كان يتضح أن للفتاة، التي تصرف أموالهم بمرح، عشيقاً أو أكثر، وطفلاً ناتجاً عن علاقة سابقة. بمعنى ما كان ذلك بالتأكيد كتاباً سيئاً، رواية بوليسية سيئة على أية حال: لم يقم المؤلف بأي جهد للتخيل، ولم يحاول أبداً تنويع الدوافع أو الحبكة؛ ولكن كانت تلك الرتابة القاتلة بالضبط هي ما يضفي على الكتاب النفحة الفريدة للأصالة، للواقعية.

«جان بيارا...» وصل صوت هيلين إليه مكتوماً، فعاد لوعيه الكامل، وانتبه أن زوجته كانت تقف أمامه، على بعد متر واحد، بشعرها المنسدل وفستانها المنزلي. كان لا يزال يحمل ميشو بين يديه المضمومتين، رافعاً ذراعيه على مستوى صدره، منذ وقت يصعب تحديده؛ كان الكلب ينظر نحوه بدهشة، ولكن من دون توجّس.

«أكل شيء على ما يرام؟ تبدو غريباً...

– وقعت على قضية غريبة.»

سكتت هيلين، منتظرة باقي الحديث. خلال خمسة وعشرين عاماً قضياها معاً لم يخبرها زوجها ولا مرة فعلياً عن يومياته في العمل. لأنهم يواجهون يومياً فظائع تتجاوز حجم رهافة الشعور الطبيعية، يؤثر السواد الأعظم من أفراد البوليس المحافظة على الصمت بعد أن يدخلوا منازلهم. الوقاية الأفضل بالنسبة لهم تكون في إفراغ ذهنهم تماماً، في محاولة إفراغ ذهنهم في تلك الساعات القليلة من الاستراحة التي تمنح لهم. يغرق بعضهم في الشراب، فينهون عشاءهم وهم في حالة تخدير كحولي متقدم لا يترك لهم

خياراً سوى الزحف باتجاه سرير نومهم. آخرون، من فئة الشباب تحديداً، يغرقون في الملذات، حتى يذوي منظر الجثث المعذبة والمشوهة وسط لحظات العناق. لا أحد منهم تقريباً يختار التحدث.

وفي ذلك المساء أيضاً، بعد أن وضع ميشو على الأرض، اتجه جاسلان نحو الطاولة، وجلس في مكانه المعتاد، منتظراً أن تأتي زوجته بطبق سلطة الكرفس بالخردل - وهو لطالما أحب طبق سلطة الكرفس بالخردل.

٥

في اليوم التالي ذهب إلى عمله راجلاً. انعطف من شارع فوسيه سانت برنارد ليتسكع على ضفاف الميناء. وتوقف طويلاً عند جسر لارشوفيشيه: من هنا، برأيه، يحظى المرء بأجمل مطلّ على كنيسة نوتردام.

كان صباحاً تشرينياً جميلاً، هواؤه منعش نقيّ. توقف أيضاً لبضع لحظات في سكوير جان الثالث والعشرين متأملاً السيّاح والمثليين وهم يتنزهون، أزواجاً في المجمل، يمسكون بأيادي بعضهم البعض أو يقبّلون بعضهم البعض.

وصل فيربيه إلى المكتب تقريباً في الوقت ذاته الذي وصل فيه هو. لاقاه على الدرج، عند حاجز المراقبة في الطابق الثالث. لن يكون هناك أبداً مصعد كهربائي في كيه ديزورفيفر، قال لنفسه باستسلام؛ مدركاً أن فيربيه يؤخر خطواته الواسعة، ممتنعاً عن تجاوزه عند المرحلة الأخيرة من الصعود.

كان لارتيغ أول من لاقاهما في مكتب الفريق. لم يبد أبداً بكامل لياقته، وكان وجهه الجنوبي المنطفئ والأملس مقبوضاً، قلقاً،

بينما هو، في العادة، شخص مرح: كان فيربيه قد كلفه بجمع شهادات على الأرض.

«فشل تام»، أعلن فوراً. «ليس لدي شيء. لا أحد سمع ولا أحد رأى شيئاً. لا أحد لاحظ حتى سيارة غريبة في القرية منذ أسابيع...»

بعدها بعدة دقائق وصل ميسييه، فحياهم، ووضع على المكتب شنطة الظهر التي كان يحملها على كتفه الأيمن. كان في الثالثة والعشرين من العمر؛ وبدخوله إلى الفرقة الإجرامية منذ ستة أشهر سرعان ما أصبح الولد المدلل للفريق.

كان فيربيه يحبه كثيراً، ويتغاضى عن الثياب المترهلة التي كان يرتديها: بنطلون رياضة بشكل عام، وكنزة قطنية، وسترة من القماش. تلك ملابس لم تكن تتواءم، بالمناسبة، مع وجهه الحاد والصارم، الذي قلما تعلوه ابتسامة؛ وإذا كان أحياناً يُطلَب منه مراجعة تصوره العام لهندامه فقد كان يقوم بذلك بصفة ودية. ذهب ليحضر زجاجة كوكاكولا لنفسه من الجهاز الأوتوماتيكي قبل أن يسلمهم نتيجة تحقيقاته. كانت خطوط وجهه مشدودة أكثر من العادة، ويعطي انطباعاً بأنه لم يغمض له جفن خلال الليل.

«بالنسبة للتلفون المحمول، لم يكن هناك من مشكلة أبداً...» أعلن، «لم يكن مشفراً حتى، لكنه أيضاً، لم يكن ذا أهمية. فيه محادثات مع ناشرته، مع الرجل الذي يزوّده بالوقود، وآخر كان من المفترض أن يركّب له زجاجاً مزدوجاً... فقط محادثات عملية أو مهنية. يبدو أن هذا الرجل لم يكن يحظى بحياة خاصة.»

كانت دهشة ميسييه، بشكل ما، غير ملائمة تماماً: فقد كان من

شأن تقرير يتناول محادثاته التلفونية الخاصة أن يعطي نتائج مشابهة تقريباً. إلا أنه، للحقيقة، لم يكن ينوي التعرض للقتل؛ وهناك اعتقاد عام يفيد بأن الضحية لديها دائماً في حياتها شيء يبرر الجريمة التي تعرضت لها، يفسرها: أن يكون شيء ما مهم يحدث أو أنه قد حدث على الأقل في مرحلة بعيدة من حياتها. «أما الكمبيوتر، فذلك موضوع آخر»، تابع. «أصلاً، كان قد زوده بكلمتي سر متعاقبتين من الكلمات غير البسيطة أبداً، كلمتي سر بأحرف صغيرة وأخرى كبيرة، برموز غير شائعة كثيراً... ثم إن جميع الملفات كانت مشفّرة. شفرات من العيار الثقيل. خلاصة الأمر أنني لم أستطع القيام بشيء فأرسلته إلى «فرقة التحقيق في تزوير تكنولوجيا المعلومات». من هو هذا الرجل، هل هو مصاب بارتياب مرضي؟

- هو كاتب...» قال فيربيه. «كانت تلك ربما طريقته في حماية نصوصه، خوفاً من أن يقرصنها أحد.

- نعم...» لم يبد ميسييه وكأنه اقتنع. «هذا المستوى من الحماية يحمل على التفكير في رجل يتبادل أفلام تعديات جنسية على أطفال.

- ليس هذا مستبعداً...» قال جاسلان معبّراً عن تحليلٍ عقلاني. تلك الملاحظة البسيطة، التي ألقيت من دون أي سوء نية، فاقمت من وطأة جو الاجتماع بتركيزها على حالة عدم اليقين البائسة التي تسيطر على هذه الجريمة. لم يكن لديهم، ويجب الإعتراف بذلك، أي شيء إطلاقاً: أي دافع بديهي، أي شهادة، أي ساحة للبحث. كانت تلك الجريمة تنذر بأنها من تلك القضايا المرهقة، التي يميّزها ملف فارغ، والتي يطول حلّها لسنوات أحياناً. هذا إذا وُجدَ لها حل - ولا تدين بذلك الحلّ سوى للصدفة البحتة، مثل

إلقاء القبض علي مجرم منحرف بسبب جريمة أخرى، واعترافه، خلال شهاداته، بارتكاب جريمة إضافية.

تحسنت الأمور قليلاً مع وصول أوريلي. هي فتاة جميلة شعرها مجعد، ووجهها منمّش. كان جاسلان يرى أنها مشتتة الذهن قليلاً، تنقصها بعض الصلابة، ولا يستطيع المرء الاعتماد عليها مئة بالمئة في عمل يحتاج إلى الدقة؛ لكنها كانت دينامية، ومزاجها مرح بشكل غير قابل للتعديل، وهو شيء قيّم في حياة أي فريق. كانت قد تسلمت للتو الاستنتاجات الأولى للشرطة العلمية. بدأت بأن ناولت جاسلان ملفاً سميكاً: «الصور التي طلبتها...» كان ذلك الملف حوالي خمسين صورة مسحوبة على ورق لمّاع، من مقاس A4. تمثُل كل واحدة منها مستطيلاً مقاسه أكثر من متر بقليل من أرضية الغرفة حيث وقعت جريمة القتل. كانت الصور واضحة، لا ظلال فيها، مأخوذة أفقياً، ولم تكن تتقاطع سوى قليلاً جداً بينما توازي كلها، مجموعةً، أرضيةَ الغرفة. كذلك كانت قد تلقت بعض الاستنتاجات المبدئية حول السلاح الذي تمّ به قطع رأسي الرجل والكلب اللذين كانا، كما لاحظ الجميع، بنظافة ودقة إستثنائيتين. تقريباً، لم يكن قد وقع قذف دماء رغم أنه كان من الممكن أن تكون الكنبة، والمنطقة بأكملها، مرشوشة.

كان القاتل قد أنجز جريمته مستخدماً سلاحاً خاصاً جداً، آلة لايزر قاطعة، نوعاً من السلك لقصّ الزبدة، مزوداً بلايزر بالأرغون (نوع من الغاز) يقطّع اللحم كاوياً الجرح أولاً بأول. تلك الآلة، التي يصل ثمنها إلى عشرات آلاف يورو، لم تكن موجودة سوى في غرف العمليات الجراحية في المستشفيات، حيث كانت تستخدم لحالات

البتر الصعبة. والأرجح أن مجمل أعمال تقطيع جسد الضحية إلى أشلاء كانت قد أُنجزَت، بحسب ما يبدو عليها من دقة ومن حدة في الشّرط، عبر استخدام أدوات الجراحة الاحترافية.

سرت همهمات رضا في المكتب. «هل يضعنا ذلك على ساحة قاتل ينتمي للعالم الطبي؟» افترض لارتيغ. «ربما» قال فيربيه. « في جميع الأحوال، يجب مراجعة المستشفيات لمعرفة ما إذا كانوا قد فقدوا معدات من هذا النوع، علماً أنه من الممكن طبعاً أن يكون القاتل قد استعارها لعدة أيام فقط.

- أي مستشفيات؟» سألت أوريلي.

«جميع المستشفيات الفرنسية، كبداية. وطبعاً، جميع العيادات أيضاً. كذلك يجب التأكد من المصنع نفسه عما إذا كان قد عقد صفقة بيع غير اعتيادية، لشخصٍ ما، خلال السنوات الأخيرة. لا أتوقع أن يكون هناك الكثير من المصنعين لهذا النوع من المعدات؟

- واحد. واحد فقط لجميع أنحاء العالم. هو شركة دانماركية.»

ما إن وصل الفريق ميشيل خوري، حتى وضعه زملاؤه في الجو. هو متحدرٌ من أصول لبنانية في نفس سن فيربيه. ممتلئ الجسم، متأنق، وهو، جسدياً، أبعد ما يكون عنه؛ لكنه كان يتشارك معه تلك الميزة النادرة جداً لدى أفراد الشرطة: *الإيحاء بالثقة*، وتحفيز البوح الأكثر حميمية من دون إبداء أي جهد ظاهر. كان قد عمل، في الصباح نفسه، على إنذار واستجواب أقارب الضحية.

«يعني، إذا ما صحّت تسميتهم بالأقارب...» قال موضحاً. «نستطيع القول إنه وحيد جداً. في رصيده طلاقان وطفل لم يكن يقابله. صلاته بعائلته مقطوعة منذ أكثر من عشر سنوات. كذلك ليس

لديه علاقات غرامية. ربما نعرف المزيد ونحن نشرّح محادثاته التلفونية، ولكن حتى الآن لم أجد سوى إسمين: تيريزا كريميزي، ناشرته، وفريديريك بابيدير، كاتب آخر. وأيضاً: تحادثت مع بابيدير هذا الصباح، كان يبدو منهاراً، بصدق كما أعتقد، لكنه، رغم ذلك، أخبرني أنهما لم يتقابلا منذ سنتين. الغريب أنه هو والناشرة رددا لي الشيء نفسه: كان لديه الكثير من الأعداء. سأقابلهما بعد ظهر اليوم، ربما أعرف منهما المزيد.

- الكثير من الأعداء...» تدّخل جاسلان بتأمّل. «هذا مثير، ففي العادة، لا يكون للضحايا أعداء، بل تراهم يتركون انطباعاً بأنهم كانوا محبوبين من الجميع... يجب حضور دفنه. اعترف أن ذلك لم يعد متبعاً كثيراً لكنه يسمح لنا أحياناً بمعرفة أشياء. الأصدقاء هم من يأتون إلى الدفن، لكن الأعداء أيضاً يأتون، يبدو أنهم يجدون متعة في ذلك.

- في الحقيقة...»، أشار فيربيه. «لا نعرف ما كان سبب موته؟ ماذا قتله بالضبط؟

- كلا» أجابت أوريلي. «يجب انتظار... تشريح الأشلاء.

- من غير الممكن أن يكون التقطيع قد حصل وهو لا يزال حياً؟

- بالتأكيد لا. فتلك عملية بطيئة، يمكن أن تستغرق ساعة.» اقشعرّ بدنها قليلاً واهتزت.

بعدها افترقوا ليتفرغ كل منهم لعمله. وجد جاسلان وفيربيه نفسيهما وحيدين في المكتب. انتهى الاجتماع أفضل مما بدأ: أصبح لكلٍ من أفراد الفريق أشياء يقوم بها؛ لم يكونوا قد حظوا فعلياً

بميدان بحث، لكنهم، على الأقل، أصبحوا يملكون اتجاهات محددة للبحث.

«لم ينشر شيء بعد في الإعلام، أشار فيربيه، لم يعرف أحد بعد.

- كلا» قال جاسلان، الذي ثبّت نظره على زورق يجتاز السين.

«غريب، كنت أعتقد أن ذلك سيحصل مباشرة.»

٦

وقع ذلك في اليوم التالي مباشرة. «الكاتب ميشيل ويلبيك مقتولاً بوحشية» عنونت *لو باريسيان*، التي خصصت نصف عمود، غير وافي المعلومات أيضاً، للحدث. صحفٌ أخرى خصّصت له المساحة ذاتها تقريباً، من دون أن تعطي المزيد من التفاصيل، مكتفية بنشر البيان الذي أصدره النائب العام في مونتارجيس. على ما يبدو لم ترسل أي منها محققاً ميدانياً. بعدها بقليل تم نشر تصريحات لشخصيات عديدة، لا سيما وزير الثقافة: جميعهم أعلنوا أنهم «مذهولون»، أو على الأقل «حزينون بعمق» بينما حيّوا ذكرى «المبدع العظيم، الذي سيبقى دائماً حاضراً في ذاكرتنا». في المحصّلة، كنا في الإطار الكلاسيكي لموت أحد المشاهير، مع ما يرافقه من اجترارٍ تواطئي ومن سفاهةٍ ملائمة، وكل ذلك لم يكن يفيدهم كثيراً. عاد ميشيل خوري خائب الظن من اجتماعاته مع تيريزا كريميزي وفريديريك بايبدير. كان حزنهما، بحسب رأيه، صادقاً لا يحتمل الشك. لطالما كان جاسلان يشعر بالصدمة إزاء الثقة الكاملة التي يؤكد بها خوري هذه الأشياء التي تنتمي، برأيه، للمجال المركب وغير الأكيد بشكل جلي للنفس البشرية. «كانت تحبه فعلاً»، كان يؤكد، أو: «صدقية حزنها لا تترك أي مجال للشك» وكان يقول ذلك

تماماً كما لو كان يذكر وقائع تجريبية من الممكن التدقيق فيها؛ الأغرب من كل ذلك هو أن مجريات التحقيق اللاحقة كانت تبيّن، بشكل عام، أنه على حق. «أنا أعرف البشر» قال له ذات مرة، بالنبرة ذاتها التي كان ليقول بها «أعرف القطط» أو «أعرف أجهزة الكمبيوتر».

لم يكن لدى الشاهدين شيء مفيد يخبرانه به. كان لويلبيك أعداء كثر، عادا ورددا على مسامعه، وحين طلب لائحة أكثر تفصيلاً أظهرا، عن غير وجه حقّ، بعض العدوانية والقسوة. تيريزا كريميزي، بحركة تململ من كتفيها، اقترحت أن ترسل له ملفاً صحفياً. ولكن، على سؤاله حول ما إذا كان أحد أعدائه قد يكون الفاعل، أجاب الاثنان بنفيٍ قاطع. وهي تعبّر بوضوح مبالَغ فيه، تقريباً كما كانت تتحدث مع مخبول، شرحت له تيريزا كريميزي أنها تتكلم هنا عن أعداء *أدبيين*، يعبّرون عن كرههم على مواقع الإنترنت، في مقالات صحف أو مجلات، وفي أسوأ الحالات في كتب، ولكن أياً منهم ليس قادراً على ارتكاب اغتيال جسدي، وليس ذلك لأسباب معنوية، تابعت بمرارة بارزة، بقدر ما هو ببساطة لأنهم لن يتحلوا بالشجاعة الكافية للقيام بذلك. كلا، ختمت في النهاية، ليس (شعر أنها كانت على وشك أن تقول «للأسف ليس») المجال الأدبي هو المكان الذي يجدر بهم البحث فيه عن المذنب.

قال له بايبدير الشيء ذاته تقريباً. «لدي كل الثقة في شرطة بلادي...» بدأ بالتأكيد، قبل أن ينفجر ضاحكاً بصوت عال، وكأنه قد وقع ضحية مقلب من الطراز الأول، لكن خوري صفح له ذلك، فقد كان واضحاً أن الكاتب متوتر، مشتت، ومرتبك تماماً جراء هذا الفقدان المباغت لزميله. بعدها، حدّد له أعداء ويلبيك بأنهم «تقريباً

جميع «قذري المنطقة الباريسية». بعد إصرار خوري، ذكر صحافيي موقع nouvelobs.com، مع إشارته إلى أنهه، وإن كان موته قد يسعدهم، ليس بينهم من يبدو له قادراً على التورط بأدنى مجازفة شخصية. «هل تتخيل ديديه جاكوب يتجاوز إشارة سير حمراء؟ حتى ولو كان على دراجة هوائية، لن يجرؤ على ذلك» ختم، مشمئزاً، مؤلف *رواية فرنسية*.

في المحصلة، اختتم جاسلان وهو يضع الشهادتين في ملف أصفر، هو وسطٌ مهني عادي، مليء بالغيرة والتنافس العاديين في أي وسط. وضع الملف الأصفر في قعر ملف «الشهادات»، وهو يدرك أنه يقفل في الوقت ذاته باب *الوسط* الأدبي في التحقيق، وأنه من دون شك لن يتواصل مجدداً مع أيٍ من أفراده.

كان يدرك أيضاً، بألم، أن التحقيق لا يزال بعيداً عن التطور. كان تقرير الشرطة العلمية قد وصلهم للتو: تم قتل الرجل، كما الكلب، بمسدس سيجسوير أم - ٤٥ مزوَّد بكاتم للصوت، برصاصة واحدة في الحالتين، على مستوى القلب، أُطلِقَت عبر وضع الفوهة على الصدر مباشرة. قبلها، كانت الضحيتان قد تلقتا خبطة قوية، بأداة راضّة وطويلة - قد تكون عصا بايسبول. جريمة دقيقة، نُفذَت من دون عنف غير ضروري. فتقطيع الجسد وتمزيقه لم يحصلا إلا لاحقاً، وقد استغرقا وقتاً طويلاً كما اتّضح من إعادة تمثيلٍ سريعةٍ للجريمة دامت لما يزيد عن سبع ساعات.

حين تم اكتشاف الجثتين، كانت قد مرت ثلاثة أيام على الوفاة. إذاً، كانت الجريمة قد وقعت نهار السبت، على الأرجح في منتصف

النهار. لم يقدّم تقرير الاتصالات الهاتفية التي قامت بها الضحية، والتي احتفظ عامل الهاتف بسجلّها، كما ينص القانون، لمدة عام، أي شيء. كانت اتصالات ويلبيك، في الواقع، قليلة جداً خلال تلك الفترة: ثلاثة وتسعين اتصالاً في المجمل؛ ولم يكن لأيٍ منها طابع شخصي.

٧

حُددَ موعد الدفن نهار الإثنين التالي. كان الكاتب قد ترك توجيهات غاية في الدقة بهذا الشأن، سجلها لدى الكاتب العدل، مرفقاً إياها بالمبلغ اللازم لإتمامها. لم يكن يرغب في الترميد وإنما أن يتم دفنه بشكل كلاسيكي. «أتمنى أن تحرّر الديدان هيكلي العظمي»، أشار، سامحاً لنفسه بإبداء ملاحظة شخصية على متن ورقة رسمية جداً: «لطالما حافظت على علاقة ممتازة بهيكلي العظمي، ويسعدني أن يتمكن بعد موتي من الانعتاق مما يقيده من لحم». تمنى أن يتم دفنه تحديداً في مقبرة مونبارناس، حتى أنه اشترى مسبقاً امتياز قطعة الأرض هناك. امتياز بسيط، لمدة ثلاثين عاماً، يصادف أنه على بعد أمتار من امتياز إيمانويل بوف.

كان جاسلان وفيربيه ملائمين لمراسم الدفن. بارتدائه الألوان الغامقة في أغلب الأحيان، وإلى حدٍ ما بهزالته، وبسحنته الباهتة بطبيعتها، لم يكن لدى فيربيه أي مشكلة في إبراز الحزن والرصانة اللذين يتطلبهما موقف كهذا. وبالنسبة لجاسلان فإن سلوكه المنهك، المستسلم، لرجلٍ يفقه الحياة، ولم يعد يستحوذ عليه أي وهم حيالها، كان مناسباً تماماً أيضاً. كانا، في الواقع، قد ارتادا معاً الكثير

من مراسم الدفن التي تخصّ الضحايا في بعض الأحيان، والزملاء في أحيانٍ أكثر: فبعض هؤلاء ينتحرون، بينما يقضي بعضهم الآخر خلال تأدية واجبه. في جميع الحالات كان الوضع مؤثراً جداً. إذ كان يتم منح الفقيد نيشاناً يُعلَق برزانة على التابوت بواسطة دبوس، بحضور ممثل رسمي من الصف الأول، وحتى، في أغلب الأحيان، بحضور الوزير. في النهاية، كان تكريم الراحل يعني تكريم الجمهورية نفسها.

التقيا عند العاشرة في مركز شرطة الدائرة السادسة. من نوافذ صالات الاستقبال في البلدية، التي قد فتحوها لهم للمناسبة، حظيا بمنظرٍ وافٍ جداً على ساحة سانت سوبليس. علم الحضور، وكانت تلك مفاجأة للجميع، أن كاتب *الجزيئيات الأساسية* الذي أظهر طوال حياته إلحاداً حازماً، كان قد تعمّد سراً في كنيسة في كورتنيي، قبل وفاته بستة أشهر. وفّر ذلك على السلطات الإكليروسية حيرة شاقة: فلأسباب إعلامية معروفة لم تكن تلك السلطات تحبذ تحييدها عن مراسم دفن الشخصيات المشهورة؛ إلا أن التزايد المنتظم للإلحاد، ونزعة تراجع حجم العمادات بما فيها العمادات الشكلية الصرفة حتى، والتخليد المتصلب لقواعدهم، كانت تدفعهم أكثر فأكثر نحو تلك النهاية المثبطة.

بعد أن تم إبلاغه برسالة إلكترونية، منح الكاردينال رئيس أساقفة باريس بحماسة مباركته لإقامة قداس عند الساعة الحادية عشرة، كما شارك شخصياً في صياغة العظة، التي ركزت على القيمة الإنسانية العالمية لأعمال الروائي، من دون أن تستحضر، سوى بتحفظ شديد، عمادته السرية في كنيسة في كورتنيي. جميع الطقوس، بما

فيها مناولة القربان وأساسيات أخرى، تستغرق حوالي الساعة؛ إذاً، سيكون الوقت ظهراً تقريباً حين يتم نقل ويلبيك *إلى مثواه الأخير*.

هنا أيضاً، كما أخبره فيربيه، كان الفقيد قد ترك توجيهات دقيقة جداً، وصلت إلى حد رسم نصب قبره: بلاطة بسيطة من حجر البازالت الأسود، على مستوى الأرض: شدد كثيراً على ألا تكون مرتفعة في أي حال من الأحوال، ولو كان ذلك لعدة سنتمترات. كانت البلاطة تحمل إسمه، من دون ذكر التاريخ ولا أي إشارة أخرى، مع رسم لشريط موبيوس، أنجزه قبل مماته لدى عامل رخام باريسي، وأشرف شخصياً على إتمامه.

«في المحصلة» أشار جاسلان، «لم يكن يحتقر نفسه...

- لديه كل الحق في ذلك» أجاب فيربيه بهدوء. «لم يكن كاتباً سيئاً، لعلمك...»

فوراً، خجل جاسلان من ملاحظته التي صاغها من دون سبب فعلي. ما فعله ويلبيك لنفسه لم يكن يتخطى، حتى أنه كان أقل، مما كان ليفعله أي وجيه من القرن التاسع عشر أو أي نبيل من العصور السابقة. وأدرك فوراً أنه، بعد التفكير في ذلك، لا يوافق أبداً على النزعة المتواضعة الحديثة، التي تنص على أن يرمَّد الشخص وأن يُنثر رماده في الطبيعة، كما لو أن ذلك لنظهر أكثر أننا سنعود إلى كنفها، وأننا سنمتزج بعناصرها من جديد. حتى في حالة كلبه، الذي نفق قبل ذلك بخمس سنوات، أصر يومها على دفنه - واضعاً بجانب جثته الصغيرة، لحظة الدفن، لعبة كان يحبها بشكل خاص - وعلى رفع نصب متواضع له في حديقة منزل والديه في منطقة بروتانيي، حيث توفي والده العام الماضي، والذي رفض بيعه، لعله يقضي فيه

هو وهيلين فترة ما بعد التقاعد. الإنسان *ليس* جزءاً من الطبيعة، لقد أصبح أرفع منها، والكلب، منذ أن أصبح أليفاً، قد ارتفع هو أيضاً عنها، هذا ما كان يعتقده في صميم نفسه. وكلما فكر في ذلك رأى فيه *إثماً*، رغم أنه لم يكن يؤمن بالله، *إثماً أنتروبولوجياً*، أن يتم نثر رماد كائن بشري في الحقول، والأنهر والبحر، وحتى في عين العاصفة، كما فعل، ولا يزال يذكر ذلك، الفحل ألان غيبو بيتريه، الذي اعتُبر في زمانه الشخص الذي أضفى على تقديم النشرة الجوية نفحة شبابية. الكائن البشري هو سريرة، ذمة فريدة، وفردية، لا يمكن استبدالها وتستحق بصفتها هذه نصباً، أو على الأقل نقشاً يحدّد وجودها في مكانٍ ما، في النهاية، شيئاً ما يؤكد ويحمل للقرون اللاحقة شهادة على وجودها، هذا ما كان جاسلان يعتقده في قرارة نفسه.

«لقد بدأوا بالوصول...» همس له فيربيه منتزعاً إياه من تأملاته. في الحقيقة، رغم أنها لا تزال العاشرة والنصف، كان حوالي ثلاثين شخصاً قد تجمّعوا أمام مدخل الكنيسة. من هم هؤلاء؟ مجهولون، على الأرجح أنهم من قراء ويلبيك.

كان يحدث، تحديداً في الجرائم المرتكبة بقصد الانتقام، أن يأتي المجرم لحضور مأتم ضحيته. لا يعتقد كثيراً أن هذه هي الحالة الآن، لكنه اتفق رغم ذلك مع مصوّرين، رجلين من الشرطة العلمية استقرا، مزودين بآلات تصوير وبعدسات مكبّرة، في شقة من شقق شارع فروادوفو تتمتع بمطل مثالي على مقبرة مونبارناس. بعدها بعشر دقائق رأى تيريزا غراميزي وفريديريك بايدبير يصلان سيراً على الأقدام. التقيا، تبادلا القبلات. الاثنان، فكّر، يتمتعان بسلوك

مناسب بشكل مميز. بجسدها الشرقي، كان يمكن للناشرة أن تكون إحدى تلك *النادبات* اللواتي لا يزال يستعان بهن في بعض مناسبات الدفن في منطقة حوض المتوسط؛ بينما بدا بايدبير غارقاً في أفكار سوداوية بصورة استثنائية. في الواقع، لم يكن عمر مؤلف *رواية* فرنسية يبلغ في ذلك الوقت سوى واحد وخمسين عاماً، وكانت تلك من دون شك هي إحدى أوائل مناسبات الدفن التي يحضرها وتخصّ أحد أفراد جيله. وتراه يستبعد، في سره، أن تكون الأخيرة؛ ويقول إنه، من الآن فصاعداً، لن تبدأ محادثاته الهاتفية مع أصدقائه بجملة «ماذا تفعل هذا المساء؟» وإنما ستكون تلك الجملة بالأحرى: «إحزر من مات؟»

بهدوء، خرج جاسلان وفيربيه من مبنى البلدية، وجاءا يختلطان بالحشد. كان عدد المجموعين قد أصبح حوالي خمسين شخصاً. عند الحادية عشرة إلا خمس دقائق تقدمت سيارة الموتى أمام الكنيسة. فان أسود بسيط من الهيئة العامة للجنازات. في اللحظة التي أخرج فيها الموظفان التابوت، سرت في الحشد همهمات ذهول وذعر. كان تقنيو الشرطة العلمية قد انكبوا على عمل مضن قوامه لمّ أشلاء اللحم المبعثرة على أرض ساحة الجريمة، وجمعها في أكياس بلاستيكية مغلقة بإحكام أرسلوها، مع الرأس السليم، إلى باريس. بعد أن انتهت الفحوصات، لم يبق من الجثة سوى كومة مضغوطة صغيرة، حجمها أقل بكثير من حجم جثة بشرية عادية، فاعتقد موظفو الهيئة العامة للجنازات أنه من الأنسب استخدام تابوت للأطفال، يبلغ طوله متراً وعشرين سنتمترا. تلك الرغبة المنطقية كانت ربما جديرة بالثناء في المبدأ، لكن المفعول الذي أحدثته حين أخرج الموظفان التابوت في فناء الكنيسة كان مثيراً للشفقة بشكل

مطلق. سمع جاسلان فيربيه وهو يكتم لهاث ألم، وحتى هو، رغم كل الصلابة التي يتحلى بها، انقبض قلبه؛ بينما انفجر عدد من الحضور بالبكاء.

كان القداس نفسه بالنسبة له، كالعادة، لحظة ملل تام. فهو قد فقد أي تواصل مع الإيمان الكاثوليكي منذ سن العاشرة، ورغم العدد الكبير لمناسبات الدفن التي حضرها لم ينجح في استئناف تلك العلاقة مجدداً. في الصميم، لم يكن يفهم شيئاً، ولم يكن يلتقط بالضبط ما يريد الكاهن التحدث عنه؛ كان ثمة ذكر للقدس التي بدت له خارج الموضوع، ولكن، ربما يكون لذكرها دلالة رمزية، قال لنفسه. إلا أن عليه الاعتراف بأن الطقوس بدت له ملائمة، وأن الوعود المتعلقة بحياة أخرى تظل موضع ترحيب من دون جدال في هذه الحالة. في الصميم، يبدو تدخّل الكنيسة مشروعاً أكثر في حالة دفنٍ مما هو عليه في حالة ولادة أو في حالة زواج. فهنا تبدو الكنيسة في مكانها تماماً، إذ *لديها ما تقوله* عن الموت - أما بالنسبة للحب فذلك قابل للتشكيك.

عادة، في مناسبات الدفن، يقف الأعضاء القريبون من العائلة بجانب التابوت ليتلقوا العزاء؛ ولكن هنا لل توجد عائلة. بعد أن انتهى القداس عاد الموظفان وأمسكا مجدداً بالتابوت الصغير - ومجدداً انتابت جاسلان قشعريرة أسف - لوضعه في سيارة الفان. تفاجأ بتجمّع حوالي خمسين شخصاً في فناء الكنيسة كانوا ينتظرون خروج الحشد من داخلها - الأرجح أنهم من قراء ويلبيك الذين ينفرون من أي شعائر دينية.

لم يتم اتخاذ أي إجراءات استثنائية، لم تغلق أي طريق، ولم

يتخذ أي تدبير خاص بالسير، وسارت عربة الموتى مباشرة نحو مقبرة مونبارناس، يرافقها حشد يتكوّن من مئة شخص تقريباً سيراً على الأرصفة، فمروا بجانب حدائق اللوكسمبورغ من شارع غينمير ثم أخذوا شارع فافان، وبريا، ساروا باتجاه بولفار راسباي قبل أن يأخذوا الطريق المختصر من شارع هيغانز. إنضم جاسلان وفيربيه إليهم. كان بينهم أشخاص من جميع المهن، من جميع الخلفيات، منفردين في أغلب الأحيان، وأزواجاً في بعض الحالات؛ أشخاص لا يبدو وكأن شيئاً يجمعهم في الصميم، أشخاص لا يمكننا اكتشاف أي قاسم مشترك بينهم. عندها أدرك جاسلان فجأة أنهم يضيعون وقتهم. كان هؤلاء من قراء ويلبيك، ذلك كل ما في الأمر، ومن الصعب تصديق أن يكون أيّ منهم هو المتورط في هذه الجريمة. طظ، قال لنفسه، على الأقل هي نزهة ممتعة؛ فالطقس الجميل لا يزال يخيّم على المنطقة الباريسية، والسماء تبدو ذات زرقة عميقة، شتوية تقريباً.

بتعليمات من الكاهن على الأرجح، كان حفارو القبر ينتظرون وصولهم ليبدأوا بالحفر. أمام القبر ازدادت حماسة جاسلان لمراسم الدفن لدرجة أنه اتخذ القرار الحاسم والنهائي بأن يطلب هو أيضاً أن يتم دفنه، وأن يتصل بالكاتب العدل منذ اليوم التالي حتى يوضح ذلك بدقة في وصيته. وقعت أول جروف التراب على التابوت. رمت امرأة منعزلة، ثلاثينية، وردة بيضاء - النساء شيء جيد في النهاية، قال لنفسه، فهن يفكرن في أشياء لن تخطر على بال أي رجل أبداً. في مراسم الترميد هناك دائماً أصوات ماكينات، وآلات الحرق الغازية التي تصدر ضجة فظيعة، بينما يسود هنا الصمت التام

تقريباً، لا يتخلله سوى الوقع المطمئن للتراب وهو يرتطم بالخشب وينتشر بهدوء على سطح التابوت. وسط المقبرة لم يكن صوت السير مسموعاً تقريباً. وكلما ملأ التراب الحفرة أصبح الصوت مكتوماً أكثر، خافتاً أكثر؛ ثم وضعوا البلاطة.

٨

وصلته الصور في اليوم التالي، عند منتصف الصبيحة. مهما أزعجه اعتداد أفراد الشرطة العلمية بأنفسهم عليه الاعتراف بأنهم يقومون بعمل ممتاز في العموم. فالصور واضحة، مضاءة جيداً، ذات نقاء ممتاز رغم أنها التُقطَت عن مسافة، هكذا كان من السهل التعرف تماماً على وجه كل شخصٍ كلّف نفسه عناء الذهاب لحضور دفن الكاتب. مع الصور المطبوعة، سلّموه أيضاً يو أس بي يحوي نسخاً رقمية منها. أرسلها فوراً إلى فرقة التحقيق في تزوير تكنولوجيا المعلومات عبر البريد الداخلي، مع كلمة يطلب منهم فيها المقارنة بينها وبين صور المجرمين المعروفين. فقد أصبحت تلك الفرقة مزودة الآن بمعدات لمعرفة الوجوه تسمح لهم بإنجاز تلك العملية في غضون دقائق معدودة. لم يكن يؤمن بها كثيراً، لكن عليه على الأقل أن يجرّب.

وصلت النتائج مع حلول المساء، بينما كان يتأهب للعودة إلى منزله؛ وكانت، كما كان يتوقع، سلبية. في الوقت ذاته، أضافت فرقة التحقيق في تزوير تكنولوجيا المعلومات تقريراً من ثلاثين صفحة يتعلق بمحتوى حاسوب ويلبيك - الذي توصلوا، أخيراً، إلى فك شيفرته. أخذه معه إلى المنزل ليقرأه بهدوء.

استقبله نباح ميشو الذي ظل لحوالي ربع ساعة على الأقل يقفز في جميع الاتجاهات، ورائحة طبق سمك القد المطبوخ على الطريقة الرومانية - كانت هيلين تحاول أن تنوع في النكهات، من تلك البورغونية حتى الألزاسية، ومن تلك الخاصة بالمطبخ البروفنسالي إلى تلك الخاصة بالمنطقة الجنوب - شرقية؛ كانت متمكنة جداً أيضاً من المطابخ الإيطالية، والتركية والمغربية، كما أنها قد تسجلت لتوّها في محترف لتلقين طبخ الشرق الأقصى نظمته بلدية الدائرة الخامسة. اقترب منها وقبّلها؛ كانت ترتدي فستاناً حريرياً جميلاً. «سيكون جاهزاً بعد عشر دقائق من الآن، إذا كنت تريد. . .» قالت له. كانت تبدو مسترخية، سعيدة، مثل كل المرات التي لا يكون عليها فيها أن تذهب إلى الكلية خلال النهار - كانت عطلة عيد جميع القديسين قد بدأت لتوها. على مرّ السنين تراجع اهتمام هيلين بالاقتصاد كثيراً.

كانت النظريات التي تحاول تفسير الظواهر الاقتصادية، وتتوقع تطورها تبدو لها غير متسقة أكثر فأكثر وعلى القدر ذاته تقريباً من المغامرة. هكذا أصبحت أشدّ ميلاً إلى اعتبارها تجريباً ليس إلا. من المدهش، كما كانت تقول أحياناً، أن تكون ثمة جائزة نوبل تُمنَح لفرع الاقتصاد، وكأن ذلك الاختصاص يستطيع ادعاء الجدية المنهجية ذاتها، والدقة الذهنية ذاتها اللتين تتمتع بهما الكيمياء أو الفيزياء. اهتمامها بالتعليم أيضاً تراجع كثيراً. في المجمل، لم تعد شريحة الشباب تهمها كثيراً، كان طلابها من مستوى ثقافي هابط بشكل مريع، حتى ليتساءل المرء عما دفع بهم لمتابعة علمهم. في الصميم كانت تعرف الجواب الوحيد، وهو أنهم يريدون كسب المال، أكثر ما يستطيعونه من مال؛ رغم بعض أنواع الشغف الخيري القصير الأمد، كانت تلك هي المسألة الوحيدة التي تحرّكهم فعلياً.

خلاصة الأمر أنه من الممكن تلخيص حياتها المهنية بعملية تلقينها حماقات متناقضة لمغفلين وصوليين، ولو أنها كانت تتجنب صياغة الواقع لنفسها بهذا القدر من الصراحة. وقد عاهدت نفسها بتقاعد مبكر ما إن يترك زوجها السلك الإجرامي - من ناحيته، لم يكن هو في الحالة نفسها، فهو لا يزال يحب عمله بالمقدار ذاته، وتبدو له الجريمة والشر كمواضيع ملحة، لا تزال أساسية كما كانت يوم التحق بالسلك منذ ثمانية وعشرين عاماً.

أدار التلفزيون، كان ذلك موعد النشرة الإخبارية. قفز ميشو إلى جانبه على الكنبة. بعد سرد وقائع هجوم انتحاري قاتلٍ بصورةٍ استثنائية شنّه إنتحاريون في الخليل، انتقل المذيع إلى الأزمة التي تهز البورصات المالية منذ بضعة أيام، والتي تهدد، بحسب بعض الأخصائيين، بأن تكون أسوأ من تلك التي وقعت عام ٢٠٠٨؛ في المحصلة، كان الموجز كلاسيكياً جداً. كان يتحضر لتغيير القناة حين جاءت هيلين، تاركة المطبخ، لتجلس على يد الكنبة. وضع أداة التحكم من يده؛ فذلك هو المجال الذي تعمل فيه في النهاية، قال لنفسه، ربما يهمها قليلاً.

بعد جولة أفق على البورصات الأساسية، طالعنا في الأستديو خبير. استمعت هيلين إليه بانتباه، وعلى شفتيها ابتسامة غامضة. كان جاسلان يتأمل نهديها من فتحة ثوبها: صحيح أنهما ثديان معالجان بالسيليكون، زرعاهما منذ عشر سنوات، إلا أنها كانت عملية ناجحة، إذ قام الجراح بعمله جيداً. كان جاسلان تماماً مع فكرة تكبير الثديين بالسيليكون، فتلك عملية تدل على وجود نوع من *الرغبة الإيروسية* لدى المرأة، وهي، في الحقيقة، الشيء الأكثر أهمية في العالم على

المستوى الإيروسي الذي يؤخر من عشرة إلى عشرين عاماً عملية تلاشي الحياة الجنسية بين الزوجين. بعد إنجاز عملية التكبير، كانت هناك مفاجآت، معجزات صغيرة: في المسبح، خلال إقامتهما في منتجع خلال الرحلة الوحيدة التي قاما بها في الجمهورية الدومينيكية (ميشيل، كلبهما الأول، لم يسامحهما أبداً عليها، فتعهدا بعدم تكرار التجربة، إلا في حال اكتشفا منتجعاً يرضى باستقبال الكلاب - ولكن، للأسف، لم يجدا أياً منها). خلاصة الأمر أنه كان خلال تلك الرحلة مذهولاً وهو يتأمل نهدي زوجته المصوّبين نحو السماء في تحدٍ جريء للجاذبية، بينما تتمدد على ظهرها بجانب بركة السباحة. يصبح النهدان المكبّران سخيفين حين يكون وجه المرأة مجعداً بشكل عنيف، وحين يكون باقي جسمها متدهوراً، مدهناً ومترهلاً: لكن ذلك لم يكن حال هيلين. فقد ظل جسدها نحيفاً، وردفاها متماسكين، بالكاد هبطا قليلاً، وشعرها البني المحمرّ سميكاً ومجعداً في حلقات منسدلة بأناقة على كتفيها. في المحصلة كانت امرأة جميلة جداً، وفي المحصلة كان محظوظاً، محظوظاً جداً.

على المدى الطويل جداً طبعاً يصبح الثدي المكبَّر بالسيليكون مضحكاً، ولكن على المدى الطويل جداً أيضاً لا نعود نفكر في هذه الأشياء، بل نفكر في سرطان الرحم، وفي نزيف الشريان الأورطي، وفي مواضيع أخرى مشابهة. نفكر أيضاً في نقل الإرث، وفي اقتسام الممتلكات غير القابلة للنقل بين الورثة الإفتراضيين. خلاصة الأمر أنه تكون لدينا مواضيع أخرى نهتم بها غير النهدين المكبرين بالسيليكون، لكنهما لم يصلا إلى هناك بعد، قال لنفسه، ليس تماماً، سيمارسان الحب ربما هذا المساء (أو بالأحرى في صباح اليوم التالي، هو يفضل الصباح، فذلك يضعه في مزاج جيد طوال النهار)،

من الممكن القول إنه لا *يزال أمامهما بعض السنوات الجميلة يتطلعان إليها*.

انتهى الموضوع الاقتصادي، وتم الانتقال إلى الإعلان عن مسلسل كوميدي رومانسي سيبدأ عرضه في اليوم التالي على الشاشات الفرنسية. «هل سمعت ما قاله الرجل، الخبير؟» سألت هيلين. «هل انتبهت لتكهناته؟» كلا، في الحقيقة، لم يسمع شيئاً على الإطلاق، كان مكتفياً بتأمل نهديها، لكنه امتنع عن مقاطعتها.

«خلال أسبوع من الآن سيكتشفون أن كل هذه التكهنات خاطئة. سيرسلون بطلب خبير آخر، أو حتى الخبير ذاته، ليقوم بتشخيصات جديدة، متحلياً بالثقة ذاتها...» كانت تهز رأسها، آسفة، مشمئزة تقريباً. «كيف يمكن الوثوق باختصاص لا يسمح حتى بالقيام بتكهنات ممكن التحقق من دقتها، واعتباره *علماً*؟»

لم يكن جاسلان قد قرأ بوبر، ولم يملك جواباً شافياً يجيبها به: لذلك اكتفى بوضع يد على فخذها. ابتسمت له قبل أن تقول: «سيكون الطعام جاهز فوراً» وعادت إلى موقدتها، لكنها فتحت الموضوع مجدداً خلال العشاء. قالت لزوجها إن الجريمة تبدو لها كتصرف بشري بامتياز، مرتبط طبعاً بالمناطق الأكثر غموضاً في المسألة البشرية، لكنه يظل بشرياً. الفن، إذا ما أردنا تناول مثلٍ آخر، كان موصولاً بكل شيء: بالمناطق المظلمة وبالمناطق المضيئة، وبالمناطق الوسطية. الاقتصاد لا يرتبط بشيء تقريباً، سوى بأكثر ما هو آلي، وأكثر ما هو متوقَع، وأكثر ما هو ميكانيكي لدى الكائن البشري. ليس فقط أنه لم يكن علماً، بل لم يكن تقريباً أي شيء على الإطلاق. لم يوافقها الرأي، وقال لها ذلك. بعد طول عشرته

للمجرمين، يستطيع أن يؤكد لها أن الأمر يتعلق بأشخاص هم من أكثر الأشخاص آلية وقابلية للتوقع الذين من الممكن لنا تخيّلهمم. تقريباً في جميع الحالات، هم يقتلون من أجل المال، ومن أجل المال فقط، وذلك أصلاً ما يجعل إلقاء القبض عليهم في غاية السهولة. على العكس من ذلك، لا أحد تقريباً يعمل *فقط* من أجل المال. هناك دائماً دوافع أخرى لديه: الأهمية التي تُعقَد على عمله، التقدير الذي قد يتعلق بذلك العمل، علاقات المودة مع الزملاء... كذلك، لا أحد تقريباً لديه سلوكيات استهلاك عقلانية تماماً. على الأرجح أن يكون ذلك الالتباس الأساسي في دوافع المنتجين، كما المستهلكين، هو ما يجعل النظريات الاقتصادية غاية في عدم الدقة وفي النهاية خاطئة. بينما من الممكن التعامل مع كشف الجرائم كعلم، أو على الأقل، كاختصاص عقلاني. لم تجد هيلين شيئاً تجيبه به. فلطالما كان وجود وسطاء اقتصاديين غير عقلانيين هو *الجانب المظلم*، والعثرة السرية لأي نظرية اقتصادية. ورغم أنها قد وصلت إلى مرحلة الحفاظ على مسافة من تخصّصها، كانت النظرية الاقتصادية لا تزال تجسّد مساهمتها في أعباء الأسرة، ووضعها في الجامعة، وهي منافع رمزية بمجملها. جان بيار على حق: هي أيضاً، بدورها، لا تتصرف كـ *وسيط اقتصادي عقلاني*. تمددت على الكنبة، وتأملت كلبها الصغير الممدد على ظهره، وبطنه في الهواء، جذلاً، عند الزاوية المنخفضة ناحية اليسار على سجادة الصالون.

في وقت لاحق ذلك المساء تناول جاسلان تقرير فرقة التحقيق في تزوير تكنولوجيا المعلومات عن حاسوب الضحية. الملاحظة الأولى كانت أن ويلبيك، رغم ما ردده في مقابلات عديدة، لا يزال

يكتب؛ ويكتب كثيراً أيضاً. إلا أن ما كان يكتبه كان غريباً بعض الشيء: يشبه الشعر، أو الإعلان السياسي، في النهاية، لم يفهم شيئاً تقريباً من النصوص التي أُدرجَت في التقرير. يجب إرسال كل هذا للناشرة، قال لنفسه. أما باقي الحاسوب فلم يكن يحتوي شيئاً مفيداً.

كان ويلبيك يستخدم خاصية «دليل العناوين» في حاسوبه من ماركة ماكنتوش. أدرج فيه كل محتوى دليل العناوين الخاص به، وكان ذلك مثيراً للشفقة: كان هناك في المجمل ثلاثة وعشرون اسماً من بينهم اثنا عشر حرفياً، وطبيب، وموفرو خدمات آخرون. كذلك كان يستخدم برنامج «الأجندة». هنا أيضاً لم يكن الحال أفضل، كانت الملاحظات عموماً من نوعية «أكياس زبالة»، «تسليم وقود». في المجمل، نادراً ما صادف أحداً حياته بهذه الفظاعة. حتى ذاكرة مواقع الإنترنت التي يزورها لم تكشف شيئاً مثيراً للاهتمام. لم يكن يدخل لأي موقع متخصص في الاستغلال الجنسي للأطفال، ولا حتى أي موقع بورنوغرافي؛ زياراته الأكثر جرأة كانت لمواقع ملابس داخلية نسائية وإيروسية، مثل (جميلة وجذابة) belle et sexy أو librette.com. هكذا، كان المسكين يكتفي بتأمل فتيات يرتدين الميني جوب الضيقة أو القمصان الشفافة، فشعر جاسلان تقريباً بالخجل لأنه قرأ هذه الصفحة. الجريمة، كما يبدو بشكل قاطع، لن تكون سهلة الحل. رذائل الناس هي ما يقودهم لقاتليهم، رذائلهم أو أموالهم. ويلبيك كان يملك المال، ربما أقل مما كان يعتقد، ولكن لا شيء، على ما يبدو، قد سُرِقَ، حتى أن المحققين قد وجدوا في المنزل دفتر شيكاته، وبطاقته الزرقاء، ومحفظة جيب فيها بعض مئات من اليورو. نام في اللحظة التي كان يحاول فيها إعادة قراءة بيانات الضحية السياسية، على أمل أن يجد لها تفسيراً أو معنى.

٩

منذ اليوم التالي، استعرضوا الأسماء الأحد عشر الموجودة في دفتر العناوين التابع لملف خاص في جهاز الكمبيوتر الذي تمتلكه الضحية. إلى جانب تيريزا كريميزي وفريديريك بايبدير، اللذين كان قد تم استجوابهما، كان الأشخاص التسعة الباقون من النساء.

إذا كان موظفو الهاتف لا يحتفظون بالرسائل القصيرة سوى لمدة عام فليس هناك من حدود للإحتفاظ بالبريد الإلكتروني، خصوصاً في الحالات التي يختار فيها المستخدم، كما هي حال ويلبيك، أن لا يخزّنها على حاسوبه الخاص وإنما داخل مساحة القرص التي منحها لها مزوّده؛ وفي تلك الحالة حتى تغيير الجهاز يتيح الحفاظ عليها. على خادم المعلوماتية *me.com* كان ويلبيك يحظى بقدرة تخزين شخصية سعتها أربعون غيغا؛ وعلى إيقاع مراسلاته الحالي كان يحتاج إلى سبعة آلاف سنة لاستنفادها. ويحيط غموض قانوني بالرسائل الإلكترونية، بواقع معرفة ما إذا كانت تعتبر مراسلات شخصية أم لا. وقد سخّر جاسلان جميع أفراد طاقمه، من دون أي تأخير، لقراءة بريد ويلبيك، قبل موعد الإنابة القضائية، وتعيين قاضٍ للتحقيق، لأنه إذا كان النائب العام ووكلاؤه دمثين بشكل عام فبإمكان قضاة التحقيق أن يكونوا مزعجين بشكل رهيب، حتى في حالة تحقيق حول جريمة قتل.

بعد أن عمل أعضاء الفريق حوالي عشرين ساعة في اليوم توصلوا بحلول نهار الخميس التالي إلى التعرف على النساء التسع. فرغم أن مراسلات ويلبيك على الإنترنت كانت قليلة جداً قبل مماته مباشرة، إلا أن تلك المراسلات كانت، في أوقات أخرى، كثيفة جداً، وفي مراحل معينة، خصوصاً تلك التي تتبع صدور كتاب جديد له، كان يتلقى مراسلات بمعدل ثلاثين رسالة في اليوم. كان التنوع الجغرافي مثيراً للإعجاب: فتاةٌ إسبانية، واحدة روسية، واحدة صينية، أخرى تشيكوسلوفاكية، ألمانيتان - وطبعاً، ثلاث فرنسيات. عندها تذكر جاسلان أنه يتعامل مع كاتب تُرجمَت أعماله في جميع أنحاء العالم. «لذلك حسناته بالتأكيد...» قال للارتيغ، الذي انتهى لتوّه من وضع اللائحة. قالها على سبيل إراحة الضمير، كما نقول مزحة متوقعة؛ ففي الحقيقة لم يكن أبداً ليحسد الكاتب. كن جميعاً عشيقات قديمات، لا تترك طبيعة مراسلاتهن مجالاً للشك في ذلك - كنّ أحياناً حتى عشيقات قديمات جداً، تعود علاقاتهن به في بعض الأحيان إلى ما قبل ثلاثين عاماً.

تبيّن أن الوصول إليهن سهل: لا يزال يتبادل معهن جميعاً الرسائل، التافهة والرقيقة، التي تستحضر مآسي حيواتهن الصغيرة أو الكبيرة، وأفراحهن أيضاً في بعض الأحيان.

رضيت الفرنسيات الثلاث فوراً بالحضور إلى كي ديزورفيفر - رغم أن إحداهن تقطن في بربينيان، والثانية في بوردو والثالثة في أورليان. أما الأجنبيات فلم يرفضن الحضور، ولكن طلبن المزيد من الوقت لترتيب أوضاعهن.

استقبلهن جاسلان وفيربيه بشكل منفصل حتى يتمكنا من رصد

انفعالاتهن؛ وكانت انفعالاتهن متشابهة بشكل لافت للنظر. جميعهن لا يزلن يشعرن بحنان كبير تجاه ويلبيك. «كنا نتبادل الرسائل عبر البريد الإلكتروني في أحيان كثيرة. . .» أفدن. امتنع جاسلان عن ذكر اطّلاعه المسبق على تلك الرسائل. لم تُطرَح ولا مرة إمكانية أن يلتقي بهن مجدداً، لكن كان يبدو عليهن أنهن كن ليرضين بذلك عند الاقتضاء. ذلك رهيب، قال لنفسه، رهيب: النساء لا ينسين *عشاقهن السابقين*، كان ذلك واضحاً. حتى هيلين لديها *عشاق سابقون*، رغم أنه التقاها يافعة، لكنه كان هناك، رغم ذلك، *عشاق سابقون*؛ ماذا قد يحدث إذا ما عادت والتقت أحدهم صدفة؟ ذلك هو الجانب السيئ من العمل في التحقيقات البوليسية، إذ يضطر المرء، غصباً عنه، إلى مواجهة مسائل شخصية صعبة. أما على مستوى البحث عن القاتل فلم تفدهم المقابلات في شيء. لقد عرفت تلك النساء ويلبيك، عرفنه جيداً وعن كثب حتى، لكن جاسلان شعر أنهن لن يقلن المزيد - وكان يتوقع ذلك. فالنساء يبقين متحفظات جداً عن هذه المسائل، وحتى لو لم يعدن يشعرن بالحب تجاه الشخص تظل ذكرى حبهن غالية جداً عليهن. ولكن، في جميع الأحوال، هن لم يقابلنه منذ سنوات، منذ عشرات السنوات بالنسبة لبعضهن، ومجرد فكرة أن يكنّ قد فكرن في قتله، أو أن يكنّ على معرفة بأحد محتمل أن يفكر في قتله، لم تكن واردة.

زوج، أو عاشق غيور، بعد كل سنوات الفراق تلك؟ كلا، لم يظن ذلك للحظة. حين نعلم أنه كان لزوجاتنا عشاق سابقون، ونكون مبتلين بالغيرة من ذلك، نعلم أيضاً أن قتلهم لن يجدي في شيء - وأن ذلك حتى لن يكون له تأثير سوى إعادة إحياء الجرح. في النهاية، كان سيخصص، رغم كل شيء، واحداً من أفراد طاقمه

للعمل على ذلك - من دون كدّ، بدوام جزئي. طبعاً لم يكن يفترض أن تكون تلك هي الحالة؛ لكنه كان يعرف أيضاً أننا قد نخطئ التقدير أحياناً. هكذا، حين سأله فيربيه: «هل نكمل مع الأجنبيات أيضاً؟» مضيفاً: «طبعاً سيكون ذلك مكلفاً، سيكون علينا إرسال أشخاص، لكن خيارنا مبرّر تماماً، فهذه قضية قتل رغم كل شيء»، أجاب من دون تردد بأن لا، ليس هناك داعٍ لذلك. كان في تلك اللحظة في مكتبه، يقلّب عشوائياً، كما فعل عشرات المرات خلال الأسبوعين الأخيرين، الصور التي اتُخذَت للأرض في ساحة الجريمة - قطرات حمراء وسوداء متشعبة ومتداخلة - وتلك التي تعود للأشخاص الذين حضروا دفن الكاتب - صور مقربة لا غبار عليها تقنياً لكائنات بشرية وجوهها حزينة.

«يبدو عليك الحزن، جان بيار... لاحظ فيربيه.

- نعم، أشعر أننا نتخبط، ولم أعد أعرف ماذا عليّ أن أفعل. إجلس، كريستيان.»

تأمل فيربيه للحظة رئيسه وهو يستمر في تقليب الصور بشكل آلي، من دون أن ينظر إليها بالتفصيل، وكأنه يلعب بالورق.

«عمَّ تبحث بالظبط في هذه الصور؟

- لا أعرف، أشعر أن هناك شيئاً ما لكنني عاجز عن تحديده.

- باستطاعتنا محاولة استشارة لوران.

- ألم يُحل على التقاعد؟

- إلى حدٍ ما، لا أفهم وضعه الوظيفي تماماً؛ هو يقضي بضع ساعات أسبوعياً في العمل. في جميع الأحوال، لم يتم استبداله.»

لم يكن غيوم لوران سوى شرطي عادي، لكنه كان يتمتع بتلك القدرة الغريبة المتمثلة بذاكرة فوتوغرافية بصرية مطلقة: كان يكفيه أن يرى صورة أحد ما، ولو كان ذلك في صحيفة، حتى يتعرّف إليه بعدها بعشر سنوات أو بعشرين سنة. كان هو من يلجأون إليه قبل اختراع برنامج التصفح، الذي يتيح مقارنة فورية لصور المشتبه فيهم مع تلك الواردة في ملفات أصحاب السوابق؛ طبعاً موهبته الخاصة لم تكن تطبَّق فقط على المجرمين، بل أيضاً على أي شخص يمكن أن يكون، تحت أي ظرف كان، قد رأى صورته.

ذهبا لزيارته في مكتبه يوم الجمعة التالي. كان رجلاً قصيراً وسميناً، يعطي انطباعاً بأنه قضى كل حياته في مكتب. وهو ما كانت عليه الحال تقريباً: بعدما لاحظ المسؤولون قدرته الغريبة تم تحويله مباشرة إلى الفرقة الإجرامية، وإعفاؤه من أي مهمة أخرى.

شرح له جاسلان ما يريدانه منه. فلنكبّ على العمل فوراً، مدققاً في الصور التي التُقطَت يوم الدفن واحدة واحدة. أحياناً، كان يمر سريعاً على إحدى الصور، وفي أحيان أخرى كان يطيل النظر، عن كثب، لمدة دقيقة تقريباً، قبل أن يضعها جانباً. كانت قوة تركيزه مخيفة؛ كيف يعمل دماغه؟ كان تأمله وهو يقوم بذلك شديد الغرابة.

بعد عشرين دقيقة، تناول صورة، وأخذ يتأرجح على كرسيّه من الأمام إلى الوراء. «لقد سبق أن رأيته... رأيت هذا الرجل من قبل...» همس بصوت غير مسموع تقريباً. انتفض جاسلان بحركة عصبية لكنه امتنع عن مقاطعته. استمر لوران في التأرجح من الأمام إلى الخلف لوقت بدا له طويلاً جداً، وهو يردد من دون انقطاع، وبصوت خفيض: «لقد رأيته... لقد رأيته...» وكأنها تعويذة خاصة، إلى أن توقف بشكل مباغت، وناول جاسلان صورة رجلٍ

أربعيني خطوط وجهه رقيقة، وسحنته بيضاء جداً، وشعره معتدل الطول وأسود.

«من هو هذا؟» سأل جاسلان.

«جاد مارتان هو اسمه، متأكد من ذلك. أين رأيت الصورة، لا أستطيع أن أؤكد مئة في المئة، لكن أعتقد أنني رأيتها في «لو باريسيان»، التي أعلنت افتتاح معرض. هذا الرجل يرتبط بالوسط الفني، بشكل أو بآخر.»

١٠

فاجأ موت ويلبيك جاد في الوقت الذي كان يتوقع فيه من يوم إلى آخر خبراً سيئاً يتعلق بوالده. بخلاف عادته، كان هذا الأخير قد اتصل به في نهاية أيلول/سبتمبر وأخبره بأنه سوف يمر لرؤيته. كان الآن مستقراً في مأوى طبي في فيزينيه، يحتل قلعة كبيرة يعود بناؤها لعهد نابوليون الثالث، أكثر أناقة وأغلى بكثير من تلك السابقة التي أقام فيها. كانت، إلى حدٍ ما، مكاناً يؤمّن احتضاراً أنيقاً ذي تكنولوجيا عالية. كانت الشقق واسعة وفي كل منها غرفة نوم وصالون، ولكل نزيل تلفزيون كبير شاشته إل.سي.دي مع اشتراك في الكابل وفي القمر الصناعي، وجهاز دي.في.دي، واتصال سريع بالإنترنت. كان هناك منتزه يضمّ بحيرة يسبح فيها البط، ودروب جيدة الهندسة تتبختر فيها الإيلة. كان متاحاً لهم أيضاً، إذا أرادوا ذلك، الاهتمام

بزاوية من الحديقة مخصصة لكل منهم، حيث يمكنهم زرع الخضراوات والأزهار فيها - لكن قلة كانوا يطلبون ذلك. تطلب الأمر معركة من جاد حتى يجعله يرضى بهذا التغيير، وقد أصرّ مراراً أنه لم يكن هناك من داعٍ للانكباب على ادّخارات دنيئة - ليفهمه أنه الآن، قد أصبح *ثرياً*. طبعاً، لم تكن المؤسسة تستقبل

سوى الأشخاص الذين، خلال حياتهم، كانوا ينتمون إلى الطبقات الأعلى في البورجوازية الفرنسية؛ «حقراء ومتباهون»، كما سمّاهم ذات مرة والد جاد، الذي يظل فخوراً بشكل غامض بأصوله الشعبوية.

لم يفهم جاد في بادئ الأمر لِمَ استدعاه والده. بعد نزهة قصيرة في المنتزه - فقد أصبح الآن يمشي بصعوبة. جلسا في غرفة تحاكي بديكورها، وبآنياتها الخشبية وبكنباتها الجلدية، نادياً إنكليزياً. طلبا القهوة، فقُدمَت لهما في إبريق من المعدن الفضي، يرافقها وعاء من الكريما وصحن من الحلويات. كانت الغرفة فارغة، باستثناء رجل طاعن في السن يجلس وحيداً أمام كوب من الشوكولاتة الساخنة، يومئ برأسه ويبدو وكأنه على وشك أن يسقط نائماً. كان شعره الأبيض طويلاً ومجعداً، وكان يرتدي زياً فاتح اللون، ويلف على رقبته منديلاً حريرياً، يذكّر بفنان غنائي النزعة ولّت أيامه - مطرب أوبريت مثلاً، حاز على أكبر النجاحات في مهرجان لامالول بان - خلاصة الأمر أنه كان من الممكن تخيله في مؤسسة من نوعية «العجلة تدور» أكثر مما يمكن تخيّله في منزل كهذا، لا شبيه له في فرنسا، ولا حتى في الكوت دازور، بل يجب الوصول حتى موناكو أو سويسرا لنجد ما هو بمستواه.

تأمّل والد جاد المسنَّ الجميلَ بصمت، لوقت طويل، قبل أن يتوجه بالحديث إلى ابنه.

«هو محظوظ...» قال في النهاية. «لديه مرض يتيم نادر جداً - تآكل الأعصاب وتلفان الغشاء الذي يغلفها، أو شيء ما من هذا القبيل. لا يعاني أبداً. يشعر باستمرار بالإرهاق، ينام طول الوقت، حتى أثناء الطعام؛ أو حين يقوم بنزهة، تراه يجلس بعد عدة أمتار

على مقعد وينام في مكانه. ينام كل يوم أكثر فأكثر، في النهاية لن يستفيق أبداً. حتى النهاية، هناك من هم محظوظون...»

استدار نحو ابنه، وحدّق مباشرة في عينيه. «شعرت أنّ من الأفضل أن أُخطرك بالأمر، ولم يبدُ لي من المناسب إخبارك على التلفون. لقد تواصلت مع مؤسسة في سويسرا. قررت أن أخضع للقتل الرحيم.»

لم يقم جاد بأي نوعٍ من ردّ الفعل، ما أفسح المجال لوالده في تطوير محاججته، التي تتلّخص في أنه قد سئم الحياة.

«ألست مرتاحاً هنا؟» سأل ابنه أخيراً بصوت يرتجف.

بلى، كان مرتاحاً هنا، ومن المستحيل أن يكون أفضل حالاً، لكن ما يجب أن يضعه في رأسه هو أنه لم يعد باستطاعته أن يكون *في أي مكان*، وأنه لم يعد يستطيع أن يكون مرتاحاً *في الحياة* بشكل عام (هنا، بدأ هدوء أعصابه ينفد، وأصبح إيقاع صوته حاداً وغضوباً إلى حدٍ ما، لكنّ المغني العجوز كان قد غرق في كبوته، وكان كل شيء هادئاً في الغرفة). إذا اختار إكمال حياته سيتطلب ذلك منه تغيير شرجه الاصطناعي. في المحصلة، لقد ضاق ذرعاً بتلك المزحة. ثم إنه يشعر بوجع، ويتألم كثيراً.

«الا يعطونك المورفين؟» استغرب جاد. ولكن، بالطبع هم يعطونه المورفين، بالكميات التي يطلبها، فهم يفضلون أن يكون النزلاء هادئين، ولكن هل هي حياة، تلك التي يقضيها المرء مخدّراً تحت تأثير المورفين؟

في الحقيقة، كان جاد يفكر أن نعم: كانت حتى لتكون حياة يُحسد المرء عليها، لا قلق فيها ولا مسؤوليات، خالية من الرغبات

ومن المخاوف، قريبة من حياة النبات، نستطيع التمتع خلالها بمداعبات الشمس والنسمات. لكنه كان يشك في أن يقاسمه والده وجهة نظره تلك. فهو رئيس مؤسسة سابق، ورجل نشيط، هذا النوع من الأشخاص غالباً ما تكون لديهم مشكلة مع المخدرات، قال لنفسه.

«ثم بماذا يعنيك هذا الموضوع أصلاً؟» هتف والده بعدوانية (عندها، انتبه جاد أنه لم يكن يسمع، منذ وقت، مهاترات العجوز). تردّد، وردّ مراوغاً بأن نعم، بمعنى ما، لديه انطباع بأن ذلك يعنيه قليلاً. «على الأقل، من غير المسلي أن يكون المرء إبن منتحر...» أضاف. تلقى والده الصفعة، وانكمش على نفسه قبل أن يجيب بعنف: «لا شأن لهذا بذاك!»

أن تكون ابناً لوالدين منتحرين، تابع جاد غير آبه بالمقاطعة، يضعك حتماً في موقف غير مستقرّ، غير مريح: موقف شخص تفتقر علاقته بالحياة إلى الصلابة، بطريقة ما. تكلم طويلاً، بانسياب سيفاجئه لاحقاً حين سيستعيده، لأنه، في النهاية، هو نفسه لا يحتفظ للحياة إلا بحب متردد، ومن المعروف عنه عموماً أنه شخص متحفظ وحزين. لكنه فهم سريعاً أن الوسيلة الوحيدة للتأثير على والده هي في مناجاة حسّ الواجب لديه - فلطالما كان والده رجل واجب، في الصميم، وحدهما العمل والواجب كانا يعنيانه خلال حياته. «أن يدمر الإنسان المثل الأخلاقية العليا الكامنة في نفسه يعني أن يطرد من كل ما يتعلق به من العالم، تلك المثل» ردد بشكل آلي من دون أن يفهم الجملة تماماً، مأخوذاً بأناقتها التشكيلية، ومغذياً إياها بحجج عامة: تدهور الحضارة الذي يمثله اللجوء المعمّم إلى القتل الرحيم،

والنفاق والطابع *السيئ* بوضوح في الصميم لمشجعيه الأكثر شهرة، والتفوق الأخلاقي للعلاجات المسكنة.

حين غادر المأوى نحو الساعة الخامسة كان الضوء قد خفت، مصبوغاً بانعكاسات ذهبية رائعة. كانت عصافير الدوري تقفز في العشب المتلألئ بالندى، والغيوم اللامعة بين الأحمر القاني والقرمزي تصنع أشكالاً ممزقة، غريبة، ناحية الغروب. كان من المستحيل، في ذلك المساء، إنكار وجود جمالٍ معيّنٍ للعالم. هل كان والده حساساً تجاه هذه الأشياء؟ طوال حياته لم يبدِ أدنى اهتمامٍ بالطبيعة؛ ولكن ربما فعل وهو يكبر، من يعرف؟ حتى هو، حين كان يزور ويلبيك، لاحظ أنه قد بدأ يحب الريف - الذي لم يكن، قبل ذلك الحين، يعني له شيئاً. ضغط برعونة على كتف والده قبل أن يطبع قبلة على خده الخشن - في تلك اللحظة المحددة، شعر أنه ربح الجولة، ولكن في المساء ذاته، وخلال الأيام التي تلت، اعتراه الشك. لن يكون من المفيد أن يتصل به مجدداً، ولا أن يزوره مجدداً - كان ذلك ليشكّل خطورة في استفزازه. تخيله جامداً على قمة، متردداً من أي جهة يقع. كان ذلك آخر قرار مهم عليه أن يتخذه في حياته، وكان جاد يخشى، هذه المرة أيضاً كما في المرات السابقة حين كان يصادف مشكلة ما في إحدى الورش، أن يختار *استخدام الوسائل الناجعة*.

في الأيام اللاحقة، لم يكن لاضطرابه إلا أن يزداد؛ في كل لحظة الآن، كان يتوقع أن يتلقى اتصالاً من مديرة المأوى: «والدك سافر إلى زيوريخ عند العاشرة من صباح اليوم، وقد ترك لك

رسالة.» هكذا، حين أخطرته امرأة على الهاتف بوفاة ويلبيك، لم يفهم مباشرة، واعتقد أن هناك خطأ ما. (لم تعرّف مارلين عن نفسها في البدء وهو لو يتعرف إلى صوتها. لم تكن تعرف أكثر مما هو مذكور في الصحف، لكنها اعتقدت أنه من الجيد أن تخبره لأنها افترضت - عن حق أيضاً - أنه لا يقرأ الصحف). وحتى بعد أن أنهى الاتصال ظل يعتقد، لوهلة، أن ثمة خطأ ما، لأن علاقته بويلبيك لم تكن بالنسبة إليه إلا في بداياتها، وكان دائماً يتصور أن لقاءات كثيرة تنتظرهما في المستقبل، وأنهما ربما يصبحان على إثرها *أصدقاء*، طبعاً إلى الحد الذي يصلح فيه ذاك التعبير لأشخاص من نوعهما. صحيح أنهما لم يكونا قد التقيا منذ أن سلمه لوحته في بداية كانون الثاني/يناير وهو الآن في تشرين الثاني/نوفمبر. صحيح أيضاً أنه لم يكن هو من اتصل به أولاً ولا هو من اتخذ مبادرة اللقاء، لكنه كان رجلاً يكبره بعشرين عاماً، وبالنسبة لجاد كان امتياز السن الوحيد، امتياز السن الوحيد والحزين، يُعطي المرء الحق في أن يدعه *الناس بسلام*. لم يكن يتمنى شيئاً أكثر من أن يتصل به ويلبيك، لأنه حتى بعد لقائهما الأخير، شعر أنه لا يزال لديه الكثير من الأشياء ليقولها له، وأشياء أكثر ليسمعها منه. في جميع الأحوال، لم يكن قد قام بشيء منذ بداية ذلك العام: فقط أخرج كاميرته، من دون أن يرتب ريشه ولا قماشاته. خلاصة الأمر أنه كان في حالة شك قصوى. لم ينتقل من منزله أصلاً، رغم أن ذلك أمر كان مقدوراً عليه بسهولة.

بسبب تعبٍ طفيفٍ كان يشعر به نهار الدفن لم يفهم شيئاً من القداس. كان فيه حديثٌ عن الألم ولكن أيضاً عن الأمل وعن البعث، وفي النهاية كانت الرسالة ملتبسة. على الدروب المرتّبة

لمقبرة مونبارناس، المدروسة هندسياً، والمرصوفة بالحصى بشكل مضبوط، بدت الأشياء، من ناحية أخرى بوضوحها المطلق: كانت العلاقة مع ويلبيك قد انتهت، بسبب *قوة قاهرة*. والأشخاص المجموعون حوله، الذين لم يكن يعرف أيا منهم، بدوا غارقين في اليقين ذاته. وحين أعاد التفكير في تلك اللحظة، أدرك فجأة، بيقين تام، أن والده سيمضي حتماً في مشروعه المميت؛ وأنه، أولاً أو آخراً، سيتلقى ذلك الاتصال من المديرة، وأن الأشياء ستنتهي على هذا الشكل، من دون خاتمة ولا تفسير، وأن الكلمة الأخيرة لن تنطق أبداً، وأنه لن يبقى هناك سوى ندم، لن يبقى سوى تعب.

شيء آخر، مع ذلك، كان ينتظره. فبعد عدة أيام اتصل به شخص اسمه فيربيه. كان صوته لطيفاً وممتعاً، لا يشبه أبداً الصوت الذي قد يتخيله لشرطي. أخبره أنه لن يكون هو، وإنما مسؤوله، المفوّض جاسلان، هو من سيستقبله في كيه ديزورفيفر.

١١

كان المفوّض جاسلان «في اجتماع»، كما قيل له عند وصوله. انتظر في قاعة صغيرة مقاعدها بلاستيكية خضراء، متصفحاً عدداً قديماً من *قوات الشرطة*، قبل أن يخطر له النظر من النافذة: كان المطلّ على جسر نوف وكي دو كونتي، ثم على جسر الفنون في مستوى أبعد، خلاباً. في الضوء الشتوي، بدا نهر السين جامداً، وسطحه رمادي منطفئ. تتمتع قبة المعهد بأناقة حقيقية، اعترف بينه وبين نفسه، وهو مرغم بعض الشيء. طبعاً لا يمكن، بأي شكل من الأشكال، تبرير إعطاء شكل دائري لمبنى ما؛ على المستوى العقلاني، كان ذلك ببساطة مساحة ضائعة. ربما كانت الحداثة غلطة، قال جاد لنفسه للمرة الأولى في حياته. هي، بالإضافة إلى ذلك، مسألة بلاغية محض: فالحداثة قد انتهت في أوروبا الغربية منذ مدة لا بأس بها.

دخل جاسلان مسرعاً، فانتزعه من أفكاره. بدا متوتراً، وحتى عصبياً. في الحقيقة، كانت صبيحته قد مُنيَت بخيبة جديدة: إذ لم تفضِ مقارنة أسلوب القاتل مع ملفات القتلة المتسلسلين إلى شيء على الإطلاق. لم تتمَ الإشارة لا في أوروبا ولا في الولايات المتحدة ولا في اليابان إلى قاتل يقطّع ضحاياه إرباً ويبعثر أشلاءهم

في الغرفة. كانت جريمة غير مسبوقة. «المرة، تبدو فرنسا سبّاقة...» أشار لاتيغ في محاولة فاشلة منه لترطيب الأجواء.

«أنا آسف» قال. «مكتبي مشغول في هذه الأثناء. هل أقدم لك القهوة؟ ليست سيئة المذاق، لقد ابتعنا آلة جديدة منذ وقت قليل.»

عاد بعد دقيقتين وبيده فنجانان صغيران فيهما قهوة ممتازة بالفعل. من المستحيل توقع عمل بوليسي جدي، أكد لجاد، من دون آلة مناسبة لصنع القهوة. ثم طلب منه أن يحدثه عن علاقته بالضحية. سرد جاد تاريخ العلاقة: مشروع العرض، نص الكاتالوج، البورتريه الذي رسمه للكاتب... بينما كان يتكلم شعر بمحدثه وهو يتكدّر ويخور في مقعده البلاستيكي.

«أرى ذلك... في النهاية، لم تكونا مقربين بشكل خاص...» استخلص المفوض.

كلا، لا نستطيع قول ذلك، وافقه جاد الرأي؛ لكنه أصلاً لا يشعر، في جميع الأحوال، أن ويلبيك كان ممن لديهم ما يسمّى بـ *أصدقاء حميميين*، على الأقل خلال الجزء الأخير من حياته.

«أعرف أعرف...» بدا جاسلان مصاباً بإحباط تام. «لا أعلم ما الذي دفعني لتأمل المزيد... أعتقد أنني أزعجتك من دون داعٍ. لكننا سندخل إلى مكتبي في جميع الأحوال، لنأخذ أقوالك كتابة.»

كان سطح مكتبه مغطى بالكامل تقريباً بصور ساحة الجريمة، التي، للمرة الخمسين ربما، قد عاينها من دون جدوى طوال فترة الصباح. اقترب جاد بفضول، تناول إحدى الصور ليتأملها. كبت جاسلان حركة تعبّر عن المفاجأة.

«اعذرني...» قال جاد، مرتبكاً. «أفترض أنه ليس لدي الحق في رؤية ذلك.

- في الحقيقة، إن سرّية التحقيق تشمل مبدئياً هذه الصور، ولكن تفضل أرجوك، إذا كان من الممكن أن تذكّرك بشيء. . .»

عاين جاد عدة صور مكبَّرة، جميعها متشابهة تقريباً بالنسبة لجاسلان: قطرات دم، أشلاء، لعبة بازل عديمة الشكل. «هذا غريب. . .» قال أخيراً. «وكأنها عمل لبولوك؛ لكن بولوك قد عمل تقريباً باللون الأحادي. صحيح أنه استخدم الألوان في بعض الأحيان، ولكن ليس غالباً.

- من هو بولوك؟ أعذر قلة ثقافتي.

- جاكسون بولوك هو رسام أميركي من مرحلة ما بعد الحرب. تعبيري تجريدي، أحد قادة الحركة حتى. كان متأثراً جداً بطقوس الديانة الشامانية. مات عام ١٩٥٦.»

تأمله جاسلان بانتباه، وباهتمام مفاجئ.

«وما هي هذه الصور؟» سأل جاد. «أقصد: ماذا تمثّل في الحقيقة؟»

تفاجأ جاسلان بشدة الصدمة التي وقعت على جاد. فما إن قرَّب منه كنبة حتى انهار عليها، مرتجفاً، يرتعش من الانقباضات. «لا تتحرك. . . يجب أن تشرب شيئاً ما» قال. انطلق مسرعاً نحو مكتب فريق فيربيه وعاد فوراً وبيده زجاجة لاغافولان وكأس. من المستحيل تخيّل عمل بوليسي جدي من دون مخزون كحولي من نوعية جيدة، تلك كانت قناعته، لكنه في هذه المرة امتنع عن التصريح بذلك. ابتلع جاد كأساً كاملاً، بجرعات طويلة، قبل أن تهدأ ارتجافاته. أجبر جاسلان نفسه على الانتظار، كابتاً حماسته.

«أعرف أن هذا مروّع. . .» قال أخيراً. «إنها إحدى أبشع

الجرائم التي مرّت علينا. هل تعتقد...» تابع بحذر «هل تعتقد أن القاتل قد يكون متأثراً بجاكسون بولوك؟»

صمت جاد لعدة ثوانٍ، وهو يومئ برأسه غير مصدق، قبل أن يجيب: «لا أعرف، لكن هذا يشبهه، بالفعل. هناك عدد غير قليل من الفنانين استخدموا أجسادهم في نهاية القرن العشرين، وبعض أنصار فن *الجسد* قدموا أنفسهم كورثة لبولوك، في الحقيقة. لكن جسد الآخرين... ليس هناك غير ناشطين فيينا الذين تخطوا الحدود خلال الستينيات لكن ذلك بقي محدوداً جداً في الزمن، ولم يعد له أي تأثير اليوم.

- أعرف جيداً أن هذا قد يبدو عبثياً...» أصرّ جاسلان. «لكن في المرحلة التي وصلنا إليها... أتعرف، ربما لا يجب علي أن أخبرك، لكن التحقيق يغرق تماماً، لقد مر شهران على اكتشافنا للجثة ولا نزال عند النقطة الصفر.

- أين وقعت الجريمة؟

- في منزله في لواريه.

- آه نعم، كان عليّ أن أعرف السجادة.

- هل زرته في منزله، في لواريه؟»

هذه المرة، لم يستطع كبح حماسته.

كان ذلك هو أول شخص، من بين من استجوبوهم، يعرف مكان إقامة ويلبيك. حتى ناشرته، لم تزره هناك أبداً: حين كانا يلتقيان، كانا يقومان بذلك دوماً في باريس.

«نعم، مرة واحدة» أجاب جاد بهدوء. «لأعطيه لوحته.»

خرج جاسلان من مكتبه واستدعى فيربيه. في الرواق، لخص له ما قد عرفه للتو.

«يبدو هذا مثيراً للاهتمام» قال فيربيه مفكراً. «حقاً مثيراً للاهتمام. أكثر من كل ما عرفناه حتى الآن كما يبدو لي.

- كيف نستطيع المضي قُدماً؟» سأله جاسلان.

باشرا باجتماع ارتجالي في مكتبه؛ كانت أوريلي، ولارتيغ، وميشيل خوري حاضرين. ميسيه كان غائباً، مأخوذاً بتحقيق أثار شغفه على ما يبدو - مراهقٌ مصابٌ بعصاب ذهني، نوع من الأوتاكو (تعبير ياباني يستخدم للدلالة على أشخاص مهووسين، تحديداً بألعاب الفيديو وأفلام التحريك) يستمد على ما يبدو أسلوبه الإجرامي من على الإنترنت (بدأ الفريق يفقد حماسته للقضية، قال جاسلان في نفسه، بدأوا يستسلمون لاحتمال فشل...) اندفعت الاقتراحات في جميع الاتجاهات لمدة لا بأس بها من الزمن - لا أحد منهم يعرف أي شيء عن الأوساط الفنية. لكن فيربير هو من ألقى الفكرة الحاسمة: «أعتقد أن باستطاعتنا العودة معه إلى لواريه. إلى ساحة الجريمة. ربما يرى هناك شيئاً لم ننتبه له نحن.»

نظر جاسلان إلى ساعته: كانت الثانية والنصف من بعد الظهر، وكان وقت الغذاء قد مرّ. ولكن، قبل كل شيء، كانت ثلاث ساعات قد مرّت على الشاهد وهو ينتظر وحيداً، في مكتبه.

حين دخل الغرفة، رمقه جاد بنظرة شاردة. لم يبدُ عليه أبداً أنه ضجران: كان جالساً خلف مكتب المفوض، يتفحص الصور باهتمام شديد. «أتعلم...» قال أخيراً، «ليست سوى تقليد متواضع جداً لبولوك. الأشكال والألوان موجودة، لكن المجموع مرتب بشكل آلي، لا توجد هناك أي طاقة، ولا أي انطلاقة حيوية.»

تردد جاسلان، من غير المطلوب صدّه. «هذا مكتبي...»

انتهى بأن يقول، بعد أن عجز عن إيجاد صيغة أفضل. «آه، عفواً!»، هبّ جاد واقفاً، مفسحاً له المجال، من دون أن يبدو عليه انزعاج كبير. عندها عرض عليه فكرته. «لا مشكلة في ذلك» أجاب جاد فوراً. اتفقا على الذهاب منذ الغد، في سيارة جاسلان الخاصة. وهما يتفقان على موعد، لاحظا أنهما يسكنان على بعد أمتار من بعضهما البعض.

«شخص غريب...» قال جاسلان لنفسه بعد رحليه، ومثل مرات كثيرة سابقة، فكر في جميع هؤلاء الناس الذين يعيشون معاً في قلب مدينة واحدة، من دون اهتمامات ولا انشغالات مشتركة، يسلكون طرقاً شاسعة وغير متداخلة، ويجمعهم أحياناً الجنس أو (أكثر فأكثر) الجريمة. ولكن، للمرة الأولى، لا تنتج تلك الفكرة - التي كانت تبهره في بداية حياته المهنية كشرطي، والتي تمده بتلك الرغبة في الحفر، في معرفة المزيد، في الذهاب حتى أعمق نقطة في تلك العلاقات الإنسانية - لم تنتج تلك الفكرة لديه سوى تعب غامض.

١٢

رغم أنه لا يعرف شيئاً عن حياته، تفاجأ جاد عند رؤية جاسلان خلف مقود مرسيدس كلاس A. والمرسيدس كلاس A هي سيارة مثالية لزوجين لا أولاد لديهما، يعيشان في المدينة أو في محيط المدينة، ولا يبخلان على نفسيهما من وقت إلى آخر بمغامرة في *فندق جذاب*؛ لكنها أيضاً قد تلائم زوجين شابين ذوي مزاج محافظ - وهنا، ستكون تلك على الأغلب هي المرسيدس الأولى التي يقتنيانها. بصفتها واجهة أحد خطوط الإنتاج التي أطلقتها الشركة ذات رمز النجمة، هي سيارة تخالف، سراً، وجهتها الأساسية إذ أنها كانت موجهة لكبار السن في الأساس إلا أن الشباب كانوا هم من تهافتوا على شرائها منذ طرحها في السوق؛ هذا بينما تبدو المرسيدس برلين كلاس C والمرسيدس برلين كلاس E أكثر نموذجية. بشكل عام، المرسيدس هي سيارة من لا يهتمون كثيراً بالسيارات، من يفضلون الأمن والراحة على *الإحساس بالقيادة* - هي أيضاً سيارة من يمتلكون، طبعاً، قدرات شرائية عالية بما يكفي. منذ أكثر من خمسين عاماً - رغم القوة التجارية الضاربة المؤثرة لتويوتا، ورغم منافسة أودي - ظلت البورجوازية العالمية، بمجملها، وفية للمرسيدس.

كان السير انسيابياً على أوتوستراد الجنوب، فاحتفظ الاثنان بالصمت. يجب *كسر الجليد*، قال جاسلان لنفسه بعد مرور نصف ساعة، من المهم إراحة الشاهد، غالباً ما كرّر ذلك خلال محاضراته في سانت سير أو مون دور. كان جاد غائباً تماماً، تائهاً في أفكاره - إلا إذا كان، ببساطة، يكبو. يحيّره هذا الشاب، ويثير إعجابه قليلاً. عليه أن يعترف أن مهنته كرجل شرطة لم تتح له أن يلتقي، في شخص *المجرمين*، سوى بكائنات بسيطة وسيئة، عاجزة عن أي تفكير مبدع وعن أي تفكير بشكل عام، حيوانات منحطة، من الأفضل، لمصلحتهم كما لمصلحة الآخرين ولمصلحة أي احتمال في إقامة مجتمع بشري، قتلهم فور إلقاء القبض عليهم، ذلك كان على الأقل - بشكل متزايد أكثر فأكثر - رأيه. في النهاية، لم يكن ذلك من شأنه، بل من شأن *القضاة*. عمله هو كان يقتصر على اقتفاء أثر الطريدة، ثم جلبها بهدف وضعها تحت أقدام القضاة، وبشكل أكثر عمومية، تحت أقدام *الشعب الفرنسي* (هم يعملون باسمه، تلك هي على الأقل، الصيغة المكرّسة). في إطار عملية صيد، تكون الفريسة التي توضع تحت أقدام الصياد ميتة في أغلب الأحيان - إذ تكون حياتها قد انتهت خلال عملية التقاطها، وأجهزت رصاصة صوّبَت في المكان المناسب على وظائفها الحيوية؛ أحياناً تكمل أنياب الكلاب المهمة. أما في إطار التحقيق البوليسي فيكون المذنب الذي يُسلَّم للقاضي حياً تقريباً - ما كان يسمح لفرنسا أن تحافظ على درجات عالية في تصنيفات احترام حقوق الإنسان التي تنشرها بشكل منتظم منظمة العفو الدولية. ويكون على القاضي - المرؤوس من *الشعب الفرنسي*، الذي يمثله بشكل عام، والذي يخضع له تحديداً في حالة الجرائم الخطيرة التي تستتبع التئام هيئة *محلفين*، وكانت

تلك هي الحال دائماً تقريباً في القضايا التي يتولاها جاسلان - أن يبت مصيره. ثمة اتفاقيات دولية مختلفة تمنع (وحتى في الحالة التي يكون فيها *الشعب الفرنسي* قد صوّت بأكثرية في هذا الاتجاه) قتله.

بعد أن اجتازا حاجز سانت أرنوتا إيفلين اقترح على جاد أن يتوقفا لشرب القهوة. أحدثت الاستراحة التي توقفا عندها على الأوتوستراد لدى جاسلان انطباعاً ملتبساً. من عدة نواحٍ، إذ كانت تحاكي بصراحة المنطقة الباريسية: كانت تشكيلة المجلات والجرائد اليومية واسعة جداً - ستتقلص بسرعة كلما دخل أكثر في عمق المقاطعة - بينما تقتصر الصور الأساسية المقترحة على السائقين، للذكرى، على برج إيفل وكنيسة ساكريه كور مأخوذين بلقطات متنوعة. ومن ناحية أخرى، كان من الصعب الإدعاء بأنه في *ضاحية*: فتخطي حدود الحاجز، كما حدود آخر منطقة للبطاقة البرتقالية، كان يحدد رمزياً نهاية الضاحية وبداية *المناطق*؛ أصلاً، هنا تبدأ إرهاصات المنتجات المناطقية بالظهور (عسل غاتينيه، مفرومة الأرنب). خلاصة الأمر أن تلك الاستراحة كانت تمتنع عن تحديد انتمائها، ولم يرق ذلك كثيراً لجاسلان. رغم ذلك أخذ حلوى البراونيز بنكهة الشوكولا مع قهوته، واختارا لهما مكاناً من بين مئات الطاولات الفارغة.

كان من الضروري إيجاد مدخل للحديث؛ عطس جاسلان ثلاث مرات متلاحقة. «أتعلم...»، بادر أخيراً، «أنا ممتن لك لأنك قبلت أن ترافقني. لم تكن مضطراً لذلك أبداً

- أجد أن مساعدة الشرطة أمر ضروري» أجاب جاد بجدية.

«إذاً...» ابتسم جاسلان، من دون أن ينجح في إثارة رد فعل مماثل لدى محدثه. «ذلك يسعدني، طبعاً، لكن مواطنينا عموماً هم أبعد ما يكونون عن التفكير مثلك...

- أنا أؤمن بالشر» تابع جاد بنبرة مماثلة. «أؤمن بالذنب، وبالعقاب.»

على ذلك، ظل جاسلان فاغر الفم؛ لم يكن أبداً يتخيل أن يأخذ الحديث ذلك المنحى.

«أتؤمن بمثالية العقوبات؟» سأل، مشجعاً. اقتربت منهما نادلة مسنة مسؤولة عن مسح الطاولات وحدجتهما بنظرات سيئة. لم تكن مرهقة ويائسة فقط، وإنما بدت مشحونة أيضاً بعدائية تجاه العالم بمجمله، كانت تعصر الممسحة في السطل وكأن تلك العملية تختزل، بالنسبة إليها، العالم: فهو مجرد مكان مريب مغطى بقذارات متنوعة.

«لا أعرف» أجاب جاد بعد فترة. «بصراحة، لم أطرح أبداً هذا السؤال على نفسي. تبدو لي العقوبات عادلة لأنها طبيعية وضرورية، لأنه من الطبيعي أن يخضع المذنب لعقاب، حتى يحلّ التوازن، لأنه من الضروري أن يعاقَب الشر. لماذا؟ ألا تؤمن بها أنت؟» تابع ببعض العدوانية حين لاحظ أن محدثه يلتزم الصمت. «رغم أنها مهنتك...»

نجح جاسلان في السيطرة على نفسه حتى يشرح له أن لا، تلك كانت مهمة *القاضي*، يساعده *محلفون*. هذا الرجل، قال في سره، قد يشكّل عضواً لا يرحم في هيئة محلفين. هناك *فصل في السلطات*، قال مشدداً على العبارة، ذلك هو أحد أسس دستورنا.

هز جاد رأسه بسرعة في إشارة إلى أنه فهم جيداً، لكن ذلك بدا له

نقطة تفصيلية. فكّر جاسلان في المباشرة بنقاش حول عقوبة الموت، ليس لهدف محدد، وإنما فقط لمتعة الحديث، ثم تراجع: من الواضح أن هذا الرجل يواجه صعوبة في تحديد المسائل. حل الصمت مجدداً بينهما.

«رافقتك أيضاً» تابع جاد «لأسباب أخرى، أكثر شخصية. لأنني أريد أن يتم إلقاء القبض على قاتل ويلبيك، وأريده أن يلقى عقابه. هذا مهم جداً بالنسبة لي.

- رغم أنكما لم تكونا مرتبطين لهذه الدرجة...» أصدر جاد نوعاً من الغمغمة المتألمة، ففهم جاسلان أنه قد لمس للتو نقطة حساسة. على بعد أمتار منهما مر رجل يكاد يكون بديناً، يضع زياً رمادياً شاحباً، ويحمل بيده طبقاً من البطاطا المقلية. بدا وكأنه يعمل في المجال التقني التجاري: بدا وكأنه على وشك الانهيار من التعب. قبل أن يجلس، وضع إحدى يديه على صدره وظل جامداً لعدة لحظات، وكأنه بانتظار أزمة قلبية وشيكة. «العالم بائس» قال جاد في النهاية. «ومن ارتكب تلك الجريمة قد زاد من بؤسه».

١٣

عند وصولهما إلى سوب (كان ذلك هو اسم القرية التي قضى فيها الكاتب آخر أيام حياته) خطر لهما، تقريباً في اللحظة ذاتها، أن شيئاً لم يتغيّر. أصلاً، لم يكن هناك من داعٍ لأن يتغير شيء: كانت القرية لا تزال مجمدة في إطار مثاليتها الريفيّة ذات التوجه السياحي، وستظل كذلك من قرن إلى قرن، مع الإضافة غير الصارخة لبعض عناصر الحياة المريحة مثل تمديدات الإنترنت ومواقف السيارات؛ إلا أنها لن تستطيع أن تظل كما لو أن هناك كائناً ذكياً موجوداً ليرعاها ويحافظ عليها، وليحميها من اعتداءات العناصر، ومن نَهَم النبات المدمر.

كانت القرية لا تزال مقفرة مثل المرة السابقة، مقفرة بسكون يكاد يبدو بنيوياً. هكذا بالضبط سيبدو العالم، قال جاد لنفسه، إثر انفجار قذيفة نيوترونية بين المجرّات.

هكذا، يتسنى للمخلوقات الفضائية التغلغل في الطرقات الهادئة والمرتبة للقرية والتمتع بجمالها المدروس. وإذا كانت تلك المخلوقات تتمتع بحاسة جمالية ولو بدائية فسوف تدرك سريعاً أهمية الصيانة، وستبدأ بالترميمات الضرورية؛ كانت تلك فرضية مطمئنة ومحتملة في الوقت ذاته.

ركن جاسلان سيارته بهدوء أمام المدخل. خرج جاد، وتحت تأثير البرد الذي قرسه تذكر زيارته الأولى، والكلب الذي قفز ونبح في استقباله، وتخيل رأس الكلب مقطوعاً، ورأس معلمه مقطوعاً أيضاً، فأدرك هول الجريمة ولعدة لحظات، ندم على مجيئه، ثم تمالك نفسه، فهو يشعر برغبة في أن يكون مفيداً. طوال حياته كان يشعر بالرغبة في أن يكون مفيداً، ومنذ أن أصبح ثرياً، تفاقمت تلك الرغبة. هنا، كانت لديه فرصة سانحة في أن يكون مفيداً في شيء ما، وهذا لا يُنكَر، باستطاعته المساعدة في إلقاء القبض على قاتل والتخلص منه، باستطاعته أيضاً مساعدة هذا الشرطي العجوز اليائس والمكتئب، الذي أصبح يقف حالياً إلى جانبه، يبدو عليه بعض القلق، بينما يقف في الضوء الشتائي، جامداً، محاولاً السيطرة على تنفسه.

لقد عملوا جيداً وبشكل لافت على تنظيف ساحة الجريمة، قال جاسلان لنفسه وهو يدخل غرفة المعيشة، ويتخيل زملاءه وهم يلمون أشلاء اللحم المبعثرة واحدة واحدة. لم يعد هناك حتى آثار دماء على السجادة، فقط هنا وهناك بعض البقع الفاتحة اللون والباهتة. عدا ذلك، لم يكن المنزل قد تغير أبداً، فقد تعرّف تماماً إلى ترتيب الأثاث. جلس على إحدى الكنبات، متجنباً النظر إلى جاد. يجب ترك الشاهد بسلام، يجب احترام تلقائيته، وعدم ردع الانفعالات والأحاسيس التي قد تنتابه، يجب أن تسخّر نفسك تماماً لخدمته حتى يخدمك هو أيضاً بدوره.

بالفعل، كان جاد قد ذهب باتجاه إحدى الغرف، متحضراً لزيارة جميع أرجاء المنزل. ندم جاسلان لأنه لم يصطحب معه فيربيه: فهو يتمتع *بالإحساس*، هو شرطي يتمتع *بالإحساس*، وكان ليتقن التعامل

مع فنان. بينما أنه، هو، ليس إلا شرطياً عادياً، مسناً، متعلقاً بشغف بزوجته التي تكبر في السن يوماً بعد يوم، وبكلبه العاجز.

ظل جاد يروح ويجيء بين الغرف، ويعود بانتظام نحو غرفة المعيشة، غارقاً في تأمل المكتبة التي أدهشه محتواها وأثّر فيه أكثر مما فعل خلال زيارته الأولى. ثم توقف أمام جاسلان، الذي انتفض تقريباً، وهبّ واقفاً، رغم أن سلوك جاد لم يكن فيه ما يقلق؛ فقد كان يقف، بيدين مشبوكتين خلف ظهره، مثل تلميذ يتحضر لإلقاء درس حفظه.

«لوحتي غير موجودة، قال أخيراً.

- لوحتك؟ أي لوحة؟» سأل جاسلان محموماً، رغم إدراكه أنه كان يجب أن يعرف، أنه كان يجب أن يعرف *بشكل بديهي*، وأنه لم يعد يمتلك تماماً جميع أدواته. كانت تنتابه ارتعاشات؛ ربما كان على وشك أن يصاب بإنفلونزا، أو بما هو أسوأ بعد.

«اللوحة التي رسمتها له. التي أهديتها له. لم تعد هنا.»

استغرق جاسلان بعض الوقت ليحلل المعلومة، كانت عجلات دماغه تدور ببط وشعر بتدهور حالته أكثر فأكثر، كان يكاد يموت من التعب، فتلك القضية ترهقه حتى آخر نفس، وتطّلب الأمر منه وقتاً غير معقول ليسأل السؤال الأساسي، الوحيد المهم: «أكانت غالية الثمن؟»

«نعم، لا بأس بثمنها» أجاب جاد. «كم؟» فكر جاد لعدة ثوانٍ قبل أن يجيب: «حالياً، تصنيفي يرتفع قليلاً، ليس سريعاً جداً. برأيي تسعمئة ألف يورو.

- ماذا؟.. ماذا قلت للتو؟... كان يصرخ تقريباً

- تسعمئة ألف يورو.»

إرتمى جاسلان على الكنبة وظل جامداً، خائر القوى، يتمتم من وقت لآخر كلمات غير مفهومة.

«هل ساعدتك؟ سأل جاد متردداً

- لقدْ تم حلّ القضية.» أفشى صوته إحباطاً، وحزناً فظيعاً. «لقد سبق أن وقعت جرائم قتل من أجل خمسين ألف، عشرة آلاف، أحياناً ألف يورو. لكن، تسعمئة ألف يورو...»

عادا باتجاه باريس بعد ذلك بقليل. سأل جاسلان جاد إن كان يستطيع القيادة، إذ لم يكن يشعر أنه في حال جيدة. توقفا في الاستراحة ذاتها التي توقفا عندها في طريق الذهاب. من دون سبب ظاهر، كان شريط أبيض وأحمر يعزل بعض الطاولات. ربما يكون العامل البدين الذي التقياه منذ قليل قد تعرّض لأزمة قلبية، في النهاية. أخذ جاد مجدداً قهوة؛ كان جاسلان يريد تناول مشروب كحولي لكنهم لم يكونوا يبيعون الكحول. انتهى بأن اكتشف قنينة نبيذ أحمر في دكان محطة الوقود، في منطقة المنتجات المناطقية؛ لكن لم تكن لديهم فتاحة. اتجه نحو الحمامات، أغلق على نفسه باب إحدى المقصورات، وبضربة واحدة، كسر عنق الزجاجة على طرف كرسي الحمام، ثم عاد إلى الكافيتيريا وبيده زجاجته المكسورة؛ كان قميصه قد تلطخ ببعض النبيذ. كان كل ذلك قد استغرق وقتاً غرق جاد خلاله في أحلام اليقظة أمام بار السّلطات، إلى أن اختار في النهاية طبقاً فيه جبنة تشيدر ولحم الحبش البارد مع زجاجة سبرايت.

كان جاسلان قد سكب كأسه الأولى، وكرعها جرعة واحدة؛ وبعد أن ارتاح قليلاً أكمل برويّة كأسه الثانية. «جعلتني أشعر

بالجوع. . .» قال. ذهب يشتري سندويشاً بنكهة أعشاب البروفانس، ثم عاد وسكب، وهو يتناوله، كأساً ثالثة. في اللحظة ذاتها دخلت الكافيتيريا مجموعة من الصبية الإسبان ترجّلوا لتوّهم من حافلة، وهم يتكلمون بصوت مرتفع جداً. والفتيات، في غاية الحماسة، يصرخن. لعل معدلات الهرمونات كانت مرتفعة بشكل غير معقول. كان الفريق على الأرجح في رحلة مدرسية، لعلهم كانوا في زيارة لمتحف اللوفر، وبوبورغ، وهذا النوع من الأشياء. انتابت جوسلان قشعريرة وهو يفكر أنه كان من الممكن له أن يكون والد مراهق مماثل.

«قلت إن القضية حُلَّت» أشار جاد. «لكنك لم تجد القاتل. . .»

شرح له كيف أن سرقة الأعمال الفنية هي مجال خاص جداً، وأن هيئة متخصصة تأخذه على عاتقها: المكتب المركزي لمكافحة الإتجار غير المشروع بالأعمال الفنية وبالسلع الثقافية. طبعاً، سيظلون مسؤولين عن التحقيق، فالسرقة تتعلق بجريمة في نهاية الأمر، لكن حالياً، يجب انتظار ما يمكن أن يدلي به المكتب. قليل جداً من الأشخاص يعرفون أين يجدون الأعمال حين تكون من ضمن المجموعة الخاصة لأحد جامعي اللوحات، وأقل منهم أيضاً من لديهم القدرة على التزود بلوحة سعرها مليون يورو؛ يعني أننا نتحدث، عالمياً، عن حوالي عشرة آلاف شخص.

«أفترض أن باستطاعتك إعطاء وصف دقيق للوحة.

- طبعاً، لدي كل ما قد تحتاجون إليه من صور.»

سوف يتم على الفور إدراج لوحته في الـ«تريما»، قاعدة بيانات الأعمال الفنية المسروقة، التي يجب مراجعتها إجبارياً عند إتمام أي

عملية تتجاوز قيمتها خمسين ألف يورو، وكانت العقوبات في حال عدم الالتزام بذلك ثقيلة، كما أكد له، لذا تصبح الآن إعادة بيع الأعمال الفنية المسروقة أصعب فأصعب. كان تمويه عملية السرقة تلك تحت غطاء جريمة طقوسية فكرة بارعة، مع ذلك، ولو لم يتدخل جاد لكانوا لا يزالون يتخبطون دون حلّها حتى الآن. ولكن، الآن، ستتخذ الأشياء منحى آخر. عاجلاً أم آجلاً ستظهر اللوحة في السوق، ولن يكون من الصعب عليهم تتبع الخيط.

«رغم ذلك، لا تشعر بالرضا تماماً. . . لاحظ جاذ.

- هذا صحيح». وافقه جاسلان وهو ينهي القنينة. في البداية، بدت تلك الجريمة غاية في العنف ولكن مميزة. كان من الممكن لنا أن نتخيّل أننا أمام جريمة عاطفية، أو أزمة جنون ديني، أو عدة أشياء. من المثير للإحباط قليلاً، في النهاية، أن نعود ونقع على الدافع الإجرامي الأكثر انتشاراً، والأكثر عالمية: المال. سوف يتم في العام المقبل ثلاثين عاماً في قطاع الشرطة. كم مرة، طوال سيرته المهنية تعامل مع جريمة لم يكن المال دافعها؟ كان باستطاعته عد تلك المرات على أصابعه. ذلك مطمئن بمعنى ما، فهو يثبت أن الشر المطلق كان نادراً لدى الكائن البشري. ولكن في ذلك المساء، من دون أن يعرف لماذا، وجد ذلك حزيناً بشكل خاص.

١٤

في النهاية، عاش سخّانه أكثرَ من ويلبيك، قال جاد لنفسه وهو يعود إلى المنزل، ويتأمل الآلة التي تستقبله وهي تشخر مثل حيوان فاجر.

عاش أيضاً أكثر من والده، كما استطاع أن يحدس بعدها بأيام. كان الميلاد سيحل بعد أسبوع من الآن، ولم يتلق أي خبر بعد عن الرجل المسن، فقرر الاتصال بمديرة المأوى. أخبرته أن والده سافر إلى زيورخ منذ أسبوع، من دون أن يعطي موعداً محدداً لعودته. لم يشُب صوتَها أي قلق خاص، فانتبه جاد فجأة إلى أن زيوريخ ليست فقط ذلك المكان الذي يؤوي جمعية تتعهّد للعجّز بتنفيذ عمليات القتل الرحيم، لكنها أيضاً مكان إقامة أشخاص أغنياء، بل حتى أغنياء جداً، من بين الأغنى عالمياً. على الأرجح أن الكثير من النزلاء لديهم هناك عائلة أو أشخاص هم على علاقة بهم، لذا فإن سفر أحد نزلائها إلى هناك لن يبدو لها سوى أمر طبيعي جداً. أغلق الخط، محبطاً، وحجز تذكرة على الخطوط الجوية السويسرية لليوم التالي.

وهو ينتظر إقلاع رحلته في صالة الركوب الضخمة، الكئيبة، والمميتة هي أيضاً، في مطار رواسي ٢، تساءل فجأة عما هو ذاهب لفعله في زيوريخ. كان والده قد مات، بطبيعة الحال، منذ عدة أيام،

والأرجح أن رماده قد طفا على مياه بحيرة زيوريخ. كان قد علم من خلال بحثه على الإنترنت أن *دينيتاس* (اسم المجموعة التي تتولى تنفيذ القتل الرحيم)، تواجه شكوى إحدى الجمعيات البيئية المحلية. ليس بسبب أعمالها، فعلى العكس من ذلك، وجود *دينيتاس* يسعد هؤلاء البيئيين، الذين يعلنون *تضامنهم التام مع نضالها*؛ لكن كمية الرماد والعظام البشرية التي كانوا يلقون بها في مياه البحيرة كانت، بحسب ما يرون، كثيرة، ومن شأنها تشجيع تكاثر نوع من سمك الشبوط البرازيلي، وصل أخيراً إلى أوروبا، على حساب السمك النهري، الأومبل، والأنواع المحلية عموماً.

كان باستطاعة جاد أن يختار أحد القصور على ضفاف البحيرة، مثل ويدر أو *بار أو لاك*، لكنه شعر أنه لن يحتمل رفاهية مفرطة. اكتفى بفندق قريب من المطار، واسع وعملي، تابع إدارياً لمنطقة غلاتبروغ. علماً أنه كان غالياً بدوره، وبدا مريحاً جداً، ولكن، هل يوجد في سويسرا فنادق رخيصة أصلاً؟ أو فنادق غير مريحة؟

وصل عند العاشرة ليلاً تقريباً، وكان الصقيع جليدياً، لكن غرفته كانت مريحة ودافئة، حميمية، رغم الواجهة الكئيبة للمؤسسة. كان مطعم الفندق قد أغلق للتو؛ طالع قليلاً قائمة طعام خدمة *الغرف*، قبل أن يدرك أنه ليس جائعاً؛ وأنه عاجز عن استهلاك أي شيء. فكر للحظة في أن يشاهد فيلماً بورنوغرافياً، لكنه غفا قبل أن يفهم طريقة تشغيل الـ«دفع بحسب المشاهدة».

في اليوم التالي، عند استيقاظه، كان المحيط يسبح في سحابة بيضاء. ليس باستطاعة الطائرات الإقلاع، أخبره عامل الاستقبال، فقد شُلّت الحركة في المطار. قصد بوفيه الإفطار، لكنه لم يتمكن

سوى من ابتلاع كوب القهوة ونصف قطعة من الخبز بالحليب. بعد أن درس لوهلة خطته - كانت معقدة، فالجمعية موجودة هي أيضاً في إحدى ضواحي زيوريخ، ولكن مختلفة - تخلى عن تلك الخطة، وقرر أن يأخذ تاكسي. كان سائق التاكسي يعرف جيداً إيفانغشتراسيه؛ نسي جاد أن يدوّن الرقم، لكن السائق طمأنه إلى أنه شارع قصير. كان قريباً من محطة قطار شفيرتزنباخ، كما أعلمه، ويحاذي أصلاً السكة الحديدية. شعر جاد بالانزعاج عند تفكيره أن السائق يرى فيه على الأرجح مرشحاً *للانتحار*. على الرغم من أن الرجل - وهو خمسيني ثقيل، يتحدث الإنجليزية بلكنة سويسرية ألمانية حادة - كان يحدجه من وقت إلى آخر، من خلال مرآته، بنظرات فاجرة ومتواطئة قلما تتواءم مع فكرة موتٍ مهيب. لكنه سرعان ما فهم السبب حين توقف التاكسي عند مطلع شارع إيفانغشتراسيه، أمام مبنى ضخم، نيو بابلي، تزيّن مدخله رسومات إيروسية مغرقة في الكيتش، وسجاد أحمر رثّ وشجيرات نخيل مزروعة في أحواض خاصة. كان بشكل واضح أمام بيت دعارة. شعر جاد بارتياح عميق من أنه قد رُبطَ بينه وبين بيت دعارة وليس بينه وبين مؤسسة متخصصة في القتل الرحيم. سدّد الأجرة، تاركاً بقشيشاً كبيراً، وانتظر أن يلتف السائق مسافة نصف دائرة حتى يمضي قدماً في الشارع.

تتباهى مؤسسة *دينيتاس* بأنها، في لحظات الذروة، تلبي طلبات مئة زبون في اليوم. لم يكن متأكداً تماماً من أن *بابيلون أف. كي.كي* ريلاكس *أوز* تستطيع التباهي بحضور مماثل، رغم أن ساعات العمل فيها أكثر - *دينيتاس* تفتح في ساعات العمل المكتبية بشكل أساسي، مع ليلة مسائية تستمر حتى التاسعة مساء أيام الأربعاء - وأن جهوداً تزيينية كبيرة - ذات ذوق مشكوك فيه طبعاً، ولكن كبيرة - قد تم بذلها

لتزيين بيت الدعارة. على العكس من ذلك، كانت *دينيتاس* - انتبه جاد لذلك ما إن وصل أمام المبنى، على بعد خمسين متراً تقريباً - قد أقامت مركزها في مبنى من الإسمنت الأبيض، عادي بشكل لا يحتمل التشكيك، يحاكي شكله أسلوب لو كوربوزييه، ببنائه ذي العواميد والروافد الذي يحرّر الواجهة، ويشبه في النهاية، وفي ظل غياب أي زخرفة تزيينية، أي مبنى من آلاف المباني الإسمنتية البيضاء التي تشكّل الضواحي شبه السكنية في أي مكان على سطح الكوكب. يظل هناك اختلاف صغير، يكمن في نوعية الإسمنت، وهنا باستطاعتنا أن نكون واثقين: الباطون السويسري كان أرفع شأناً، بشكل لا يقارن، من الإسمنت البولوني، أو الإندونيسي أو المدغشقري. فواجهة المبنى خالية من أية شائبة ومن أي تشقق يشوّه الواجهة، رغم أنه قد مر على الأرجح أكثر من عشرين عاماً على تشييده. كان واثقاً من أن والده قد توقّف عند تلك الملاحظة، ولو أنها سبقت موته بساعات.

في اللحظة التي كان يوشك فيها على ضرب الجرس، خرج رجلان يرتدي كل منهما قميصاً وبنطالاً من القطن، وهما يحملان تابوتاً من الخشب الفاتح. الطراز الخفيف وغير المكلف بصراحة. وضعاه في سيارة فان بيجو بارتنر كانت تقف أمام المبنى، من دون أن يعيرا أي انتباه لجاد، وعادا أدراجهما فوراً، تاركين باب السيارة مفتوحاً. بعد ذلك بدقيقة، عادا وهما يحملان التابوت الثاني، المشابه للأول، ووضعاه بدوره في السيارة. كانا قد عطلا آلية إغلاق الباب لتسهيل عملهما. تأكد له ذلك: *بابيلون أف. كي. كي ريلاكس أوز* كان أبعد من أن يعرف حركة كبيرة كهذه. كانت القيمة التسويقية للعذاب وللموت قد تجاوزت تلك الخاصة بالمتعة وبالجنس، قال جاد لنفسه، والأرجح أنه لهذا السبب ذاته كان داميان هيرست قد

خطف، منذ عدة سنوات ماضية، من جيف كونز، مركزه الأول عالمياً في سوق الفن. صحيح أنه فشل في إنجاز تلك اللوحة التي كان يجب أن تجسّد تلك الواقعة، فشل حتى في إكمالها، إلا أنها تظل لوحةً قابلةً للتخيل، وبإمكان أحد غيره أن ينفّذها - كان سيتطلب ذلك، من دون شك، رساماً أفضل. في حين بدا له أن أي لوحة ستكون عاجزة عن التعبير بوضوح عن فرق الدينامية الاقتصادية بين هاتين المؤسستين، اللتين تبعدان عن بعضهما البعض عشرات الأمتار، بينما تقعان على الرصيف ذاته لشارعٍ عادي، حزينٍ بالأحرى، يحاذي سكة الحديد في إحدى ضواحي زيوريخ. في تلك الأثناء، تم إدخال تابوت ثالث في السيارة. من دون أن ينتظر وصول الرابع، دخل جاد المبنى، وصعد عدة درجات حتى بسطة الدرج الذي تفضي إليه أبوابٌ ثلاثة. فتح ذاك الكائن لجهة اليمين، المكتوب عليه *فارتسال*، وعبر منه إلى قاعة انتظار جدرانها قشدية، وأثاثها بلاستيكي بالٍ - تشبه قليلاً، للأمانة، تلك التي انتظر فيها في كي ديزورفيفر، باستثناء أنه في هذه المرة لم يكن ثمة *مطلّ مفتوح على جسر الفنون*، بل كان المنظر من النوافذ لا يفضي سوى على ضاحية سكنية مجهولة. كانت مكبرات الصوت المثبتة أعلى الجدران تبثّ موسيقى خافتة، صحيح أنها حزينة، لكن نستطيع أن نطلق عليها وصف رزينة - كانت على الأرجح مقطوعات لباربر.

لا شك في أن الأشخاص الخمسة المجموعين هنا كانوا من *المرشحين للانتحار*، لكن من الصعب وصفهم بالمزيد. حتى أعمارهم كانت صعبة التحديد. قد تكون بين خمسين وسبعين عاماً - ليسوا طاعنين في السّن إذاً، والأرجح أن والده، حين جاء إلى هنا، اعتُبر عميد دفعته. أحد الرجال، بشاربه الأبيض وسحنته المتوردة،

كان على ما يبدو إنكليزياً؛ لكن الآخرين كان يصعب تحديدهم حتى ولو كان ذلك لناحية أصولهم. ثمة رجلٌ هزيل، ذو جسد لاتيني، وسحنة صفراء ضاربة إلى السمرة، ووجنتين غائرتين بشكل فظيع - الوحيد في الحقيقة الذي يعطي انطباعاً بأنه مصاب بمرض خطير - كان يقرأ بشغف (رفع رأسه باقتضاب عند دخول جاد ثم عاد وغرق فوراً في مطالعته) جزءاً من مغامرات سبيرو ، من السلسلة الإسبانية؛ من المؤكد أنه يأتي من بلدٍ ما في أميركا الجنوبية. تردّد جاد، ثم اختار في النهاية أن يتوجه بالحديث إلى امرأة في الستينيات من عمرها تبدو ربة منزل نموذجية من منطقة ألغاو، وتعطي انطباعاً بأنها تملك كفاءات استثنائية في مجال الحياكة. أخبرته أنه توجد فعلياً غرفة للاستقبال، ويجب أن يخرج ويدخل مجدداً من الباب الأيسر عند بسطة الدرج. لم يكن هناك أي إشارة على الباب. دفعه جاد. على سبيل الزينة، كانت فتاة (حتماً لديهم ما هو أفضل في *بابيلون أف. كي.كي ريلاكس أوز*) تنتظر خلف منصّتها وهي تملأ بمشقة ظاهرة شبكة كلمات متقاطعة. شرح لها جاد طلبه، الذي بدا وكأنه صدمها: لا يأتي الأقارب بعد الوفاة، أجابته. أحياناً، قبل الوفاة، نعم، لكن أبداً ليس بعدها.

رددت تلك الجملة بالإنكليزية لعدة مرات متتالية، وهي تمضغ كلماتها بصعوبة. بدأ هذا المركز يثير أعصابه. رفع من نبرته وهو يكرّر أنه لم يكن يستطيع الحضور قبل ذلك، وأنه مصرٌّ على لقاء أحد من الإدارة، فهو يمتلك الحق في مراجعة ملف والده. فعلت كلمة *الحق* تلك فعلها؛ بامتعاض واضح، رفعت سماعة هاتفها. بعد دقائق دخلت الغرفة امرأة أربعينية، ترتدي بزة رمادية فاتحة اللون. لقد راجعت الملف: في الحقيقة، حضر والده صباح الإثنين ١٠

كانون الأول/ ديسمبر؛ وتمت العملية بشكل «طبيعي للغاية»، كما أضافت. من المؤكد أنه وصل مساء الأحد، في التاسع من ديسمبر، قال جاد لنفسه. أين قضى ليلته الأخيرة؟ هل دلل نفسه بالإقامة في بو دو لاك؟ تمنى ذلك، من دون أن يصدقه تماماً. كان واثقاً من أنه *أقفل حسابه قبل أن يخرج*، وأنه *لم يخلّف وراءه شيئاً*.

أصرّ أكثر، وتوسّل. كان مسافراً حين حدث ذلك، كما ادّعى، لم يكن باستطاعته أن يكون حاضراً، الآن يريد معرفة المزيد، المزيد من التفاصيل حول اللحظات الأخيرة التي قضاها والده. انتهت المرأة، التي بدت منزعجة بوضوح، بأن استسلمت، فدعته لمرافقتها. تبعها في رواق طويل معتم، مكتظ بخزائن أرشيف معدنية، قبل أن يدخلا مكتبها، المضيء والعملي، والذي يفضي على نوعٍ من الحديقة العامة.

«هاك ملف والدك...» قالت له مناولة إياه ملفاً رقيقاً. بدا تعبير *ملف* مبالغاً فيه: كان عبارة عن ورقة مكتوب عليها على الوجهين، بالسويسرية الألمانية.

«لا أفهم شيئاً... عليّ ترجمة هذا.

– ولكن، ماذا تريد بالضبط؟» كان هدوؤها يتصدّع من دقيقة إلى أخرى. «لقد قلت لك أن كل شيء نظامي!

– أفترض أنه خضع لفحص طبي؟

– بطبيعة الحال». مما استطاع جاد قراءته في التقارير، كان الفحص الطبي يقتصر على قياس الضغط وعلى بضعة أسئلة غامضة، نوع من فحص *الدافع*، مع فارق بسيط هو أنه، في هذه الحالة، كان فحصاً لا يرسب فيه أحد، بل كان الجميع ينجح، لتُقفَل القضية بشكل منهجي في غضون ما يقل عن عشر دقائق.

«نحن نلتزم تماماً بالقانون السويسري، قالت المرأة، الجليدية أكثر فأكثر.

- ماذا حصل للجثمان؟

- حسناً، مثل السواد الأعظم من زبائننا، اختار والدك الترميد. نفّذنا ما تمنّاه؛ ثم نثرنا رماده في الطبيعة.»

هكذا إذا، قال جاد لنفسه؛ والده يشكّل حالياً غذاء لسمك الشبوط البرازيلي في زيوريخسي.

استردت المرأة الملف، معتقدة، على ما يبدو، أن المقابلة انتهت، وقامت لتضعه في مكانه. جاد أيضاً وقف، لكنه اقترب منها، وصفعها بعنف. أصدرت نوعاً من النشيج المكتوم جداً، لكن لم يتسن لها الوقت الكافي للقيام برد. فقد تابع جاد بصفعة على الذقن، وبسلسلة من اللكمات السريعة. بينما كانت تدور في مكانها، محاولة التقاط أنفاسها، تراجع ليأخذ مداه، ورفسها بكامل قوته على مستوى معدتها. هذه المرة، انهارت، مرتطمة بعنف وهي تسقط بزاوية المكتب المعدنية؛ حدث كسر واضح. لعل العامود الفقري تلقى ضربة، قال جاد لنفسه. مال نحوها: كانت دائخة، تتنفس بصعوبة، لكن تتنفس. اتجه بسرعة نحو المخرج، يعتريه الخوف من أن يطلق أحد ما إنذاراً، لكن موظفة الاستقبال لم تكد ترفع عينيها عن كلماتها المتقاطعة. ففي الحقيقة، كان العراك صامتاً جداً. لم تكن المحطة تبعد سوى مئتي متر. في اللحظة التي دخلها، توقف قطارٌ على أحد الأرصفة. صعد من دون أن يشتري تذكرة، ولم يتم ضبطه، إلى أن نزل في المحطة المركزية لزيوريخ.

عند وصوله إلى الفندق، لاحظ أن المشهد العنيف ذاك قد أعاد له لياقته. كانت تلك هي المرة الوحيدة في حياته التي يلجأ فيها لممارسة عنف جسدي تجاه أحد ما: أشعره ذلك بالجوع. تناول عشاءه بشهية كبيرة، كان من جبن مذوّب مع لحم العجل وجانبون جبلي، أرفقهما بنبيذ ممتاز من منطقة فاليه.

في صباح اليوم التالي كان الطقس الجميل قد خيّم مجدداً على زيوريخ، وكانت طبقة ثلج رقيقة تغطي الأرض. قصد المطار، متوقعاً إلى حد ما أن يتم اعتقاله عند نقطة الجوازات، لكن شيئاً من هذا لم يحدث. وفي الأيام التالية لم يتلقَّ أي أخبار جديدة. استغرب عدم تقدمهم بشكوى؛ الأرجح أنهم لا يريدون، بأي طريقة من الطرق، أن يجذبوا الأنظار إلى نشاطاتهم. ربما كان هناك ما هو حقيقي في تلك الاتهامات المنشورة على الإنترنت والتي تتناول الإثراء الشخصي لأعضاء الجمعية. كانت تكلفة عملية القتل الرحيم تُحدَّد بخمسة آلاف يورو، بينما تصل تكلفة الجرعة القاتلة من مادة بينتوباربيتال الصوديوم التي تستخدم في عمليات القتل الرحيم إلى عشرين ألف يورو، يليها ترميد غير مكلف طبعاً، ليس أكثرَ. في سوق تُعَدُّ في عز انتشارها، وتعتبَر فيها سويسرا في وضعية شبه المحتكر، لا شك في أنهم قد اغتنوا فعلياً بشكل فاحش. هبطت حماسته سريعاً، مفسحة المجال لموجة من الحزن العميق، فأدرك أنها نهائية. بعد ثلاثة أيام من عودته، ولأول مرة في حياته، قضى ليلة الميلاد وحده. وقام بالشيء نفسه ليلة رأس السنة. وفي الأيام التي تلت، كان وحده أيضاً.

الخاتمة

بعد بضعة أشهر، أُحيل جاسلان على التقاعد. في الحقيقة، حصل ذلك في وقته الطبيعي، رغم أنه لطالما اعتقد قبل ذلك أنه حين يحين الموعد، سوف يطلب تمديداً من سنة أو سنتين على الأقل. كانت قضية ويلبيك قد زعزعته عميقاً، وكأن ثقته بنفسه، وبقدرته على إتمام واجبه المهني، قد تفتّتت. لم يوجه إليه أحد أي انتقاد، بل على العكس من ذلك عُيّنَ لما تبقّى من حياته برتبة مفوّض مقاطعة. لن يؤدي عملاً بصفته الجديدة، لكن مرتّب تقاعده سيرتفع. نُظّمَت له حفلة وداع، حفلة مهيبة حتى، دعيت الفرقة الإجرامية بأكملها لحضورها، وألقى خلالها مدير الشرطة خطاباً رسمياً. خلاصة الأمر أنه كان يغادر *مكرَّماً ممجداً*، أريد له أن يشعر أنه كان، إذا ما تأملنا مجمل سيرته، شرطياً جيداً. وهذا صحيح، فهو يعتقد أنه كان، في معظم الوقت، شرطياً شريفاً، شرطياً عنيداً في جميع الأحوال، والعناد ممكن أن يكون في النهاية الصفة البشرية الوحيدة القيّمة ليس فقط في مهنة الشرطي بل في كثير من المهن أيضاً، على الأقل في جميع تلك التي تتعلق بمفهوم الحقيقة.

•

قبل عدة أيام من رحيله الفعلي، دعا فيربيه إلى الغذاء، في

مطعم صغير في ساحة دوفين. كان ذلك نهار الإثنين في ٣٠ نيسان/ أبريل، وكان كثير من الناس في إجازة، وباريس هادئة، ولم يكن في المطعم سوى بضع أزواج من السيّاح. كان الربيع قد حلّ فعلاً وتفتحت البراعم وأخذت ذرّات الغبار وغبار الطلع ترقص في الضوء. جلسا حول طاولة على المصطبة، وطلبا كأسين باستيه قبل الطعام. «أتعلم» قال بينما كان النادل يضع أمامهما الكأسين، «لقد أفسدتُ الأمور فعلاً في هذه القضية، من البداية حتى النهاية. لو لم يلاحظ ذلك الآخر اختفاء لوحته، لكنا لا نزال نتخبط حتى الآن.

– لا تكن قاسياً على نفسك؛ ففي النهاية كنت أنت من واتته فكرة اصطحابه إلى ساحة الجريمة.

– كلا كريستيان...» أجاب جاسلان بهدوء. «يبدو أنك نسيتَ، لكن هذه الفكرة واتتك أنت.

– أنا عجوز جداً...» تابع بعدها بقليل. «ببساطة، أصبحت عجوزاً على هذه المهنة. الدماغ يصاب بالشلل مع الوقت، مثل كل الباقي؛ بل أسرع من الباقي حتى، على ما يبدو لي. في الأصل، لم يُصمَّم الإنسان حتى يعيش ثمانين أو مئة عام؛ بل على الأكثر خمسة وثلاثين أو أربعين عاماً، كما في أزمنة ما قبل التاريخ. لهذا تتحمل بعض الأعضاء مرور الزمن – بشكل لافت حتى – في حين تنهار أخرى ببطء – ببطء أو بسرعة.

– ماذا تنوي أن تفعل؟» سأل فيربيه محاولاً تغيير الموضوع. «ستبقى في باريس؟

– كلا، سأستقر في بروتاني. في المنزل الذي عشت فيه مع والديّ قبل المجيء إلى باريس.» في الحقيقة، كان ثمة ما لا بأس به من الأعمال التي يجب إنجازها قبل الاستقرار في ذلك المنزل. من

المذهل، قال جاسلان لنفسه، التفكير في جميع هؤلاء الناس المنتمين إلى ماضٍ قريب، وحتى قريب جداً - أي ذوويه - الذين عاشوا الفترة الأطول من حياتهم في ظروفٍ معيشية لم تعد تبدو مقبولة اليوم: لا حوض استحمام ولا دشّ، ولا نظام تدفئة فعّال في الواقع. في جميع الأحوال، على هيلين أن تنهي عامها الدراسي الجامعي؛ لن يتسنى لهما الانتقال إلا مع نهاية الصيف. هو لا يحب أعمال التصليح المنزلية، قال لفيربيه، لكن البستنة، نعم، يمنّي نفسه ببهجة حقيقية وهو يعتني بخضراوات حديقته.

«ثم»، قال وشفتاه تفتران عن نصف ابتسامة «سوف أقرأ روايات بوليسية. تقريباً، لم أقم بذلك أبداً طوال سنوات نشاطي، هنا سوف أحاول الإنكباب على ذلك. لكنني لا أشعر برغبة في قراءة الأميركيين ولديّ شعور بأن هذا تحديداً ما هو منتشر في السوق. أتعرف كاتباً فرنسياً تنصحني بقراءته؟

- جونكيه» أجاب فيربيه من دون أدنى تردد. «تييري جونكيه. برأيي، هو الأفضل في فرنسا.»

دوّن جاسلان الاسم على مفكرته بينما كان النادل يحضر له سمك الصول الذي طلبه. كان الطعام لذيذاً. لم يتكلما كثيراً لكنه شعر بالسعادة لوجوده مع فيربيه للمرة الأخيرة، وكان ممتناً له لعدم تفوّهه بسخافات عن إمكانية أن يلتقيا مجدداً، وأن يحافظا على التواصل. فهو سيذهب ليستقر في الريف بينما سيظل فيربيه في باريس، وسيصبح شرطياً جيداً، شرطياً جيداً جداً حتى، والأرجح أنه سيترقى ليصبح رئيساً من الآن حتى نهاية السنة، وقائداً فيما بعد؛ لكنهما لن يلتقيا مجدداً، أبداً.

طالت جلستهما في ذلك المطعم، بينما غادر جميع السيّاح. أنهى جاسلان الحلوى التي طلبها - شارلوت بالمارون غلاسيه. وأضاء شعاع انساب بين أغصان الدلب المكان ببهاء.

«كريستيان...» قال بعد تردد، وتفاجأ حين لاحظ أن صوته يرتجف. «أريدك أن تعدني بشيء: لا تتخلَّ عن قضية ويلبيك. أعرف أن القرار الأخير ليس لنا في النهاية، لكن أريدك أن تستحث أعضاء مكتب مكافحة الإتجار غير المشروع بالأعمال الفنية بانتظام، وأن تخبرني حين يصلون إلى شيء.»

أومأ فيربيه برأسه، واعداً.

مرت أشهر، ولم يظهر للوحة أي أثر في الشبكات المعتادة، فبدا أكثر فأكثر أن القاتل لم يكن لصاً محترفاً، وإنما جامع لوحات، تصرّف لحسابه الخاص، من دون أي نية في التخلص من الغرض المسروق. كان ذلك أسوأ سيناريو ممكن. تابع فيربيه تحقيقاته لجهة المستشفات، ووسّعها نحو العيادات الخاصة - على الأقل تلك التي تجاوبت معهم؛ فقد ظل استخدام الأداة الجراحية المتخصصة هو ميدانهم الجدّي الوحيد.

لم يتم حل القضية إلا بعد ثلاث سنوات، وقد حصل ذلك بالصدفة. خلال دورية على أوتوستراد A8 باتجاه نيس - مارسيي، حاولت فرقة من الشرطة اعتراض سيارة بورش ٩١١ كاريرا كانت تسير بسرعة ٢١٠ كلم في الساعة.

هرب السائق، ولم يتوصلوا إلى إيقافه إلا عند فريجوس. اتضح أنها سيارة مسروقة، وأن الرجل في حالة سكر، كما أنه معروف جيداً *لدى الشرطة*.

كان باتريك لو براوزيك قد أدين عدة مرات في السابق بسبب جُنَحٍ تافهة وصغيرة نسبياً. تجارة بغاء، اعتداء وضرب - لكن إشاعة

عنيدة كانت تنسب إليه تخصصاً غريباً كـ متاجر غير شرعي بالحشرات.

هناك أكثر من مليون نوع من الحشرات، كل عام يُكشَف ما هو جديد منها، خصوصاً في المناطق الإستوائية. وبعض الهواة الأثرياء مستعدون لدفع مبالغ كبيرة، وحتى طائلة، لقاء نموذج جميلٍ لنوع نادر - قد يكون نافقاً قد خضع لعملية استحياء (ميت وقد أُكسِب مظهر الحياة)، أو حيّاً، وهي الحالة المفضلة طبعاً. تخضع عمليةِ أسر تلك الحيوانات وتصديرها لاحقاً لقواعد غاية في الصرامة، كان لو براوزك قد توصل حتى الآن للالتفاف عليها - إذ لم يتم أبداً إلقاء القبض عليه بالجرم المشهود، وظل يبرّر رحلاته المنتظمة إلى غينيا الجديدة، أو سومطرة أو غويانا الفرنسية، بشغفه بالغابات والحياة الوحشية. في الحقيقة، كان الرجل يتمتع بمزاج مغامر، ويبرهن دائماً عن شجاعة بدنية حقيقية. فقد كان يتوغّل وحيداً، وأحياناً لعدة أسابيع، في بعض الغابات الأكثر خطورة على الكوكب، مزوّداً ببعض التموينات، وبسكين قتال، وبحبوب تعقيم المياه.

هذه المرة، وجدوا في صندوق السيارة حقيبة قاسية مكسوّة بجلد طري مثقوب بعدة فجوات للتهوئة؛ كانت الخروم غير مرئية تقريباً، وللوهلة الأولى، بدا ذلك الشيء وكأنه حقيبة عادية تماماً لموظّفٍ من رتبةٍ عالية.

في الداخل، وُجِدَت خمسون حشرة تفصل بينها فواصل من زجاج الوقاية، تعرّف أفراد الشرطة من بينها فوراً على أم أربعة وأربعين، وعنكبوت، وأبو مقص عملاق؛ بينما لم يتم تحديد الأجناس الباقية سوى بعد ذلك بعدة أيام، من قِبَل متحف التاريخ الطبيعي في نيس. قدموا اللائحة لمتخصص - المتخصص الفرنسي

الوحيد، في الحقيقة، بهذا النوع من الجنح. أجرى تقييماً سريعاً: بحسب سعر السوق، يمكن إتمام صفقة تتناول الكمية كلها بحوالي مئة ألف يورو.

اعترف لو براوزيك بالوقائع بسهولة. كان على خلاف مع أحد زبائنه - جرّاح من مدينة كان - حول تسديد ثمن عملية تسليم سابقة، وقد جلب عيّنات إضافية وعاد للتفاوض معه. إلا أن المناقشة لم تدر جيداً، فقد ضرب الرجل فأوقعه ورأسه إلى الوراء ما جعله يرتطم بطاولة مخنفضة من الرخام. اعتقد لو براوزيك أنه مات. «كان ذلك حادثاً»، قال مدافعاً عن نفسه، «لم تكن أبداً لديّ النية في قتله». جنّ جنونه في لحظتها، وبدلاً من أن ينادي تاكسي ليعيده من حيث جاء، سرق سيارة ضحيته. هكذا، انتهت مسيرته كمرتكب للجنح بالطريقة ذاتها التي كانت عليها لسنوات: بالحماقة والعنف.

كان القطاع المحلي للشرطة القضائية في نيس هو من تحرّك نحو فيلا أدولف بيتيسو، الطبيب المقيم في كان. كان يقطن شارع كاليفورنيا، على هضبة كان، ويملك ٨٠٪ من أسهم عيادته، المتخصصة في الجراحة التجميلية والترميمية للذكور. كان يعيش وحيداً. ويبدو أنه يملك وسائل مالية ضخمة، فبركة السباحة والحديقة كانتا في أفضل حال لناحية الصيانة، بينما يتكوّن منزله من حوالي عشر غرف.

لم تقدم لهم غرف الطابق السفلي والطابق الأول أي جديد تقريباً. فقد كانت تعكس الحياة الكلاسيكية والمتوقعة لبورجوازي كبير مقبل على الملذات وغير فائق الأناقة، ممدد حالياً، برأسه

المهشم، وسط بركة من الدماء، على سجادة الصالون. لم يكن لو براوزيك يكذب على ما يبدو: كان الأمر يتعلق، بكل بساطة، بمناقشة أعمال انتهت نهاية سيئة، ولم يكن من الممكن اتهامه بأي نوع من سبق الترصّد والتخطيط. رغم ذلك، سيُحكَم طبعاً، على الأقل بعشرة أعوام.

في المقابل، كان القبو يحمل لهم مفاجأة حقيقية. كانوا جميعهم تقريباً أفراد شرطة ذوي عودٍ صلب، وذوي خبرة، فلطالما كانت منطقة نيس معروفة بمعدلات الجنح المرتفعة فيها، والتي ازدادت ارتفاعاً بعد ظهور المافيا الروسية؛ ولكن لا القائد بارديش، الذي كان على رأس الفريق، ولا أيّ من أفراد طاقمه، كان قد رأى شيئاً كهذا من قبل.

كانت جدران الغرفة الأربعة، من عشرين متراً على عشرة، مؤثثة بالكامل تقريباً بخزائن ذات واجهات زجاجية يصل ارتفاعها لمترين. داخل تلك الأرفف، اصطفت بانتظام سلسلة من البقايا البشرية الفظيعة، المسلّط عليها الضوء. أعضاء تناسلية مزروعة على صدور، أذرع جنين صغيرة تشكّل امتداد أنوف، فتبدو مثل أبواق. تشكيلات أخرى كانت عبارة عن صهارة أعضاء بشرية ملتصقة ومخاطة ببعضها البعض، متشابكة، تحيط برؤوس مكشّرة. كل ذلك كان محفوظاً بوسائل لا يعرفون عنها شيئاً، لكن مظهرها كان واقعياً بشكل غير معقول: الوجوه المشطوبة، والمستأصلة في الأغلب كانت مجمدة في تكشيرة ألم فظيعة، بينما تحيط أطواق من الدم الجاف بأماكن البتر. كان بيتيسو منحرفاً خطيراً، يمارس انحرافه على مستوى غير اعتيادي، والأرجح أن ثمة تواطؤات واتفاقيات، وتجارة بالجثث، وبالأجنة أيضاً. ستكون هذه قضية طويلة، قال بارديش، في الوقت

ذاته الذي كان أحد أعوانه، وهو شرطي شاب التحق حديثاً بالفرقة، يهوي بهدوء على الأرض، مغشياً عليه، مثل وردة مقطوفة، على بعد عدة أمتار منه.

خطر له أيضاً أن هنالك مفاجأة رائعة للوبراوزيك: فمحامٍ بارع لن يجد صعوبة في استغلال الوقائع وفي وصف الطابع الوحشي للضحية، ما من شأنه بالتأكيد التأثير على قرار هيئة المحلّفين.

كانت تحتل وسط الغرفة طاولة ضخمة، يبلغ حجمها على الأقل خمسة أمتار على عشرة. داخلها، وفي مقصورات زجاجية شفافة، كانت مئات الحشرات تتخبّط، مصنّفة بحسب نوعها. حين شغّل أحد أفراد الشرطة عن غير قصد أداة تحكم كانت على طرف الطاولة، انفتح غطاء إحدى المقصورات: فاندفعت عشرات العناكب، تسير على أرجلها المخملية، نحو المقصورة المجاورة، لتشرع في تهشيم الحشرات التي تسكنها - من نوع أم أربعة وأربعين حمراء كبيرة. هكذا إذاً كان الدكتور بيتيسو يشغل أمسياته، بدل أن يتلهى مثل معظم زملائه بحفلات الجنس الجماعي التافهة مع مومسات سلافيات. كان، بكل بساطة، يعتقد أنه إله: يتصرف مع شعوبه من الحشرات كما يتصرف الله مع الشعوب الإنسانية.

أغلب الظن أن الأمور كانت لتتوقف عند هذا الحد لولا تدخل لو غيرن، وهو شرطي شاب بريتاني، نُقلَ منذ وقت غير بعيد إلى نيس، ويسعد بارديش أن يكون قد ضمه إلى فريقه. قبل أن يلتحق بقطاع الشرطة، كان لو غيرن قد قضى عامين في كلية الفنون في رين، وفي لوحة فحمية صغير معلقة على الجدار، في إحدى

المساحات القليلة المتروكة من الواجهات، تعرّف إلى لوحة تمهيدية لفرانسيس بايكون. في الحقيقة، كان هناك أربعة أعمال فنية معلقة في القبو، وبالتحديد في زوايا القبو الأربع تقريباً. إلى جانب لوحة بايكون، كان هناك نموذجان من أعمال التطرية التي أنجزها فون هاغن - نموذجان منفّران بحد ذاتهما. وأخيراً، كانت هناك لوحة شك لو غيرن في أنها ليست سوى لوحة جاد مارتان الأخيرة، «ميشيل ويلبيك، كاتب».

بعد العودة إلى مركز الشرطة، راجع بارديس فوراً ملف «قاموس البحث الإلكتروني والتصويري في المجال الفني» (TREIMA): كان لو غيرن على حق، في كل شيء. كان عملا التطرية قد تم اكتسابهما بطريقة مشروعة تماماً؛ أما لوحة بايكون التمهيدية، فقد كانت مسروقة، منذ عشر سنوات، من متحف في شيكاغو. كان اللصوص الذين سرقوا العمل قد أُوقِفوا منذ سنوات، لكنهم رفضوا رفضاً قاطعاً الإدلاء بأسماء الزبائن، وهم قلة في الوسط المذكور، الذين اشتروا منهم اللوحات. كان رسماً متواضعاً، تم شراؤه في الفترة التي كان سوق بايكون فيها في تراجع بسيط، ولا شك في أن بيتيسو قد دفع فيها نصف الثمن المتداول في السوق، وتلك هي النسبة المتبعة عادة؛ بالنسبة لرجل دخله بهذا المستوى، كان ذلك إنفاقاً مهماً، ولكن لا يزال من الممكن تكبّده. في المقابل، ذُهل بارديش من الأسعار التي وصلت إليها أعمال جاد مارتان؛ فحتى بنصف ثمنها، لم يكن جرّاحٌ ليمتلك، في أي حال من الأحوال، القدرة على اقتناء إحداها.

مباشرة، اتصل بمكتب مكافحة الإتجار غير المشروع بالمقتنيات الفنية. هناك أحدث اتصاله صخباً مهماً: فالموضوع يتعلق، ببساطة،

بأكبر قضية تعاملوا معها خلال السنوات الخمس الأخيرة. وكلما كان تسعير لوحات جاد مارتان يرتفع بشكل جنوني كانوا يتوقعون قُرب ظهور اللوحة مجدداً، في السوق؛ لكن ذلك لم يحصل، مما زاد من حيرتهم.

نقطة إيجابية إضافية لصالح لو براوزيك، قال بارديش لنفسه: فهو قد غادر منزل الضحية وبحوزته صندوق صغير تم تقييمه بمئة ألف يورو، وبورش لا تتجاوز ذلك المبلغ، تاركاً وراءه لوحة قيمتها ١٢ مليون يورو. ذلك السلوك الذي ينمّ عن الخبل، والارتجال، والجريمة غير المقصودة، لن يتعذر على محامٍ بارع إبرازه، حتى ولو جهل المغامر قيمة ما كان بمتناول يده.

بعد ذلك بربع ساعة اتصل مدير المكتب شخصياً به، ليهنئه بحرارة وليعطيه رقم هاتف - المكتب والخليوي - القائد فيربيه، المكلّف بالتحقيق في الفرقة الإجرامية.

إتصل فوراً بالزميل. كان الساعة تتجاوز التاسعة بقليل، لكنه كان لا يزال في مكتبه، يتحضر للمغادرة. بدا ارتياحه عميقاً جداً وهو يتلقى الخبر. كان قد بدأ يعتقد أنهم لن يصلوا أبداً إلى حلّ القضية، قال، والقضية غير المحلولة مثل جرح قديم، أضاف بلهجة نصف ممازحة، فهي لا تتركك أبداً بسلام، شيٌ يتوقع أن يكون بارديش يعرفه تمام المعرفة.

نعم، بارديش يعرف ذلك؛ وقد وعده، قبل أن يقفل الخط، بأن يرسل له في الغد تقريراً مقتضباً.

في اليوم التالي، قبيل الظهيرة، تلقى فيربيه رسالة ألكترونية تكمّل اكتشافاتهم. عيادة الدكتور بيتيسو هي من إحدى العيادات التي أجابت على تحقيقهم، أشار في معرض حديثه؛ أقروا بامتلاكهم لمشرط يعمل على اللايزر، لكنهم أكدوا أن الآلة موجودة لديهم في العيادة. وجد الرسلة، وكانت موقعة من بيتيسو شخصياً. خطر له للحظة أن بوسعهم الاندهاش من أن تكون عيادة متخصصة في الجراحة التجميلية تمتلك جهازاً يُستخدَم في عمليات البتر؛ ولكن، في الحقيقة، لا شيء في عنوان العيادة يحدّد اختصاصها؛ وقد تلقوا مئات الأجوبة. كلا، جزم في النهاية، لم يكن هناك من لوم جدي يمكن أن يوجهوه لأنفسهم في هذه القضية.

قبل أن يتصل بجاسلان في منزله في بريتاني، توقف للحظات عند شكل القاتلين. كان للو براوزيك جسم متوحش في الأساس، لا يبدو عليه انشغاله بأية وساوس، ولا تبدو عليه قسوة حقيقية أيضاً. كان مجرماً عادياً، مجرماً من أولئك الذين نصادفهم كل يوم. أما بيتيسو فقد كان مفاجئاً: وسيم، ملوَّح بالشمس بطريقة دائمة على الأرجح، يبتسم أمام الهدف، ويعبر عن ثقةٍ تخلو من العقد. في الحقيقة، كان يمتلك بالضبط ذالك الشكل الذي يمتلكه جرّاح تجميل يقطن في شارع كاليفورنيا. بارديش على حق: كان نموذج الشخص الذي يقع عادة في شباك فرقة الأخلاق، وليس في شباك الفرقة الإجرامية أبداً.

الإنسانية غريبة أحياناً، قال لنفسه وهو يضرب الرقم؛ ولكن للأسف، هي غريبة بالمعنى *الغريب والمثير للتقزز* في أغلب الأحيان، ونادراً ما تكون غريبة بمعنى *الغريب والمثير للإعجاب*.

رغم ذلك، شعر بالارتياح، والسكينة، وكان يعلم أن جاسلان

سيشعر بذلك أكثر منه حتى؛ وأنه الآن فقط يستطيع *الاستمتاع بتقاعده* فعلياً. ولو أن ذلك حصل بطريقة غير مباشرة وغير اعتيادية، إلا أن المذنب قد عوقب؛ وحلّ التوازن. الآن، أصبح من الممكن طي الصفحة.

كانت توجيهات ويلبيك في وصيته واضحة: في حال توفي قبل جاد مارتان، تعاد اللوحة لهذا الأخير. لم يتعذب فيربيه في الوصول إلى جاد بالتلفون: كان في منزله، وكلا، لم يزعجه اتصاله. في الحقيقة نعم، أزعجه الاتصال قليلاً، فقد كان يشاهد مختارات من *عصابة* بيسكو على *قناة ديزني*، لكنه امتنع عن قول ذلك.

وصلت اللوحة التي ارتبطت بجريمتي قتل إلى جاد من دون تدابير خاصة، في سيارة عادية تابعة للبوليس. وضعها على حامل اللوحات، في وسط الغرفة، قبل أن يعود إلى اهتماماته، التي كانت في تلك الأثناء هادئة جداً: كان ينظف عدساته الإضافية، ويقوم ببعض الترتيبات. كان عقله يعمل ببطء معقول، ولم يكتشف أن اللوحة تزعجه سوى بعد مرور عدة أيام، وأنه لا يشعر بالراحة في وجودها. لم يكن السبب الوحيد هو رائحة الدم التي بدت وكأنها تطفو حوله كما تطفو حول التحف الشهيرة، وحول الأشياء التي تحفز العواطف الإنسانية عموماً؛ بل كانت تحديداً نظرة ويلبيك التي بدت له تعبيريتها المفرطة متناقضة، غير طبيعية، الآن وقد مات الكاتب، ورأى بنفسه ذرّات التراب ترتطم واحدة تلو الأخرى على تابوته، وسط مقبرة مونبارناس. حتى ولو أنه لم يعد يتحملها، كانت

لوحة رائعة من دون ريب، وانطباع الحياة الذي أضفاه الرسام عليها كان مذهلاً، وهنا يصبح من الحماقة أداء دور التواضع. ولكن، أن يكون سعرها قد وصل إلى ١٢ مليون يورو، فتلك قضية أخرى، لطالما رفض الإدلاء بأي تصريح بشأنها، باستثناء مرة واحدة قال فيها لصحافيٍ أصرّ بشكل خاص على سؤاله: «لا يجب التفتيش عن معنى ما لا معنى له». حينها، اكتشف أنه قد وصل، من دون أن يعي ذلك، إلى الخلاصة ذاتها التي وصل إليها الفيلسوف وتغنشتاين في كتابه *تراكتاتوس*. *«عن ذلك الذي لا أستطيع التحدث عنه، يتعيَّن عليّ السكوت»*.

في المساء نفسه اتصل بفرانز ليشرح له الأحداث، وليعلمه بنيته إعادة طرح «ميشيل ويلبيك، كاتب» في السوق.

عند وصوله إلى شي *كلود*، في شارع شاتو دي رانتييه، انتابه إحساس واضح وغير قابل للنقاش، بأنها المرة الأخيرة التي سيدخل فيها ذلك المكان؛ عرف أيضاً أن ذلك سيكون لقاءه الأخير مع فرانز الذي كان مكوّماً على نفسه، في مكانه المعتاد، أمام كأس من النبيذ الأحمر؛ بان عليه الكبر، وكأن هموماً كبيرة انهمرت على رأسه. طبعاً كسب الكثير من المال في تلك الأثناء، لكنه بالتأكيد يقول لنفسه إنه لو كان قد انتظر عدة سنوات بعد، لكان كسب عشر مرات أكثر؛ ومن دون شك أيضاً أنه قد قام بـ *استثمارات*، هي مصدر الإزعاج الذي لا بدّ منه. بشكل عام، بدا وكأنه لا يحسن تحمّل وضعه المادي الجديد، كما هي الحال غالباً مع الأشخاص المنحدرين من أصول فقيرة: لا تسعد الثروة سوى من عرفوا بحبوحة ما، من تحضروا لها منذ طفولتهم؛ ولكن حين تقع على شخص عرف بدايات صعبة،

فأول إحساس يعتريه، ويتوصل أحياناً لمقاومته، قبل أن يعود ويغرقه تماماً، هو بكل بساطة *الخوف*. من ناحيته، تقبّل جاد، الذي ترعرع في وسط مرتاح مادياً، والذي عرف النجاح سريعاً، من دون أي تشويش يذكر، أن يكون في حسابه الجاري مبلغ ١٤ مليون يورو. حتى المصرفي الذي يتعامل معه لم يكن يزعجه كثيراً. فمنذ الأزمة المالية الأخيرة، التي جاءت أسوأ بمراحل من تلك التي حلّت عام ٢٠٠٨، والتي تسببت بإفلاس «كريدي سويس» و«رويال بنك أوف سكوتلاند» من دون أن نتحدث عن مجموعة من المؤسسات المالية الأخرى الأقل أهمية، والمصرفيون *يتلطّون*، هذا أقل ما يمكن أن يقال. كانوا طبعاً لا يزالون يحتفظون بخدع التدجيل التي يؤهّلهم تكوينهم المهني لممارستها، لكنهم الآن أصبحوا، حين نعلمهم أننا غير مهتمين بأي نوع من الاستثمار، يتراجعون فوراً، مصدرين تنهيدة استسلام، ويرتّبون بهدوء الملف الصغير الذي كانوا قد حضّروه، وكأنهم يعتذرون؛ بينما تمنعهم آخر بقايا التبجّح المهني التي لا يزالون يحتفظون بها من اقتراح دفتر حساب تصل مكافأته لـ ٠,٤٥٪.

بشكل عام، كنا نعيش فترة غريبة إيديولوجياً، بدا فيها جميع من في أوروبا الغربية مقتنعين بأن الرأسمالية قد أدينت، حتى أنها قد رُبطَت بمدة انتهاء صلاحية وشيكة، وعلى أية حال من دون أن تتوصل أحزاب اليسار المتطرف إلى جذب من هم أبعد من زبائنها المعتادين من المازوشيين النزقين. وكأن غيمة من الرماد قد غطت العقول.

تناقشا لدقائق حول وضع سوق الفن، الذي كان جنونياً إلى حد ما. فكثير من الخبراء يرون أن فترة أكثر هدوءاً ستلي مرحلة هستيريا

المراهنات التي سبقت، ينمو خلالها السوق بهدوء، وبانتظام، وبإيقاع طبيعي؛ حتى أن بعضهم توقع أن يصبح الفن *قيمة تشكل ملاذاً آمناً*. كانوا مخطئين. «لم يعد هناك قيمة تشكّل ملاذاً آمناً»، كما عنونت مجلة *فاينانشيل تايمز* إحدى افتتاحياتها أخيراً؛ وقد أصبحت المراهنات في مجال الفن أكثر كثافة، وأكثر فوضوية وغدت محمومة أكثر، إذ كانت الأسعار تتشكل وتتفكك كالبرق، وأصبح تصنيف *آرت برايس* يتم الآن على قاعدة أسبوعية.

تناولا كأسا ثانية من النبيذ، ثم ثالثة. «أستطيع أن أجد شارياً. . .» قال فرانز أخيراً. «أكيد سيستغرق ذلك بعض الوقت. فبحسب مستوى الأسعار الذي وصلت إليه، لم يتبق الكثيرون. . .»

لم يكن جاد مستعجلاً، في جميع الأحوال. تباطأ الحديث بينهما حتى توقف تماماً. تبادلا النظرات ببعض الأسف. «لقد مررنا بأشياء. . . معاً» حاول جاد أن يقول باذلاً مجهوداً أخيراً، لكن صوته انطفأ قبل انتهاء الجملة حتى. في اللحظة التي وقف فيها مغادراً، قال له فرانز: «طبعاً لاحظت أنني لم أسألك عما تفعله هذه الأيام.

- نعم لاحظت».

في الحقيقة، كان يدور حول نفسه، هذا أقل ما قد يقال فيه. كان متعطلاً لدرجة أنه، منذ عدة أسابيع، أخذ يتحدث مع سخّانه. والأخطر - انتبه لذلك أول من أمس فقط - أنه أصبح الآن ينتظر من السخان أن يجيبه. فالجهاز أصبح يصدر أصواتاً متنوعة أكثر فأكثر: أنين، شخير، قرقعات ناشفة، وأزيز بأنغام متنوعة وعلى مستويات صوتية متنوعة، حتى أصبح من الممكن توقّع توصّلها بين يوم وآخر للنطق. ففي النهاية، كان ذلك الجهاز رفيقه الأقدم.

بعد ذلك بستة أشهر، قرر جاد أن ينتقل للعيش في منزل جديه في منطقة كروز. أدرك بعناء، وهو يقوم بذلك، أنه يتبع نفس الطريق الذي سلكه ويلبيك قبل ذلك بعدة سنوات. كان يردد، محاولاً إقناع نفسه، أن هناك فوارق عديدة. أولاً، كان ويلبيك قد انتقل إلى لواريه آتياً من إيرلندا، أي أن القطيعة الفعلية بالنسبة له كانت قد حصلت قبل ذلك، يوم غادر باريس، ذلك المركز الاجتماعي لنشاطه ككاتب ولصداقاته، نستطيع افتراض ذلك على الأقل، وغادر إلى إيرلندا. القطيعة التي يقوم بها جاد الآن، وهو يغادر المركز الاجتماعي لنشاطه الفني، كانت من النوع ذاته. والحق يقال إنه، في الواقع، كان قد قام بذلك بشكل أو بآخر. ففي الأشهر الأولى من تحقيقه الشهرة العالمية وافق على الاشتراك في مهرجانات البينالي، وعلى حضور حفلات افتتاح معارض، وعلى خوض عدة مقابلات إعلامية - حتى أنه، في إحدى المرات، أعطى محاضرة ولو أنه لم يعد يحتفظ بأي ذكرى عنها الآن. بعد ذلك، دخل في عزلة، وتجاهل الرد على الدعوات وعلى الرسائل، وفي أقل من سنتين كان قد وقع مجدداً في تلك الوحدة المكبّلة، ولكن الضرورية والغنية بنظره، فهي تشبه قليلاً ذلك الفراغ «الزاخر باحتمالات لا يمكن إحصاؤها» الذي تؤمن به العقيدة

البوذية. باستثناء أن الفراغ، حالياً، لا يولّد سوى الفراغ، ولذلك السبب تحديداً كان يسعى إلى تغيير مكان سكنه، على أمل أن يجد ذلك الحافز الغريب الذي دفعه في الماضي ليضيف أشياء جديدة، توصف بـ *الفنية*، إلى الأشياء الطبيعية أو الاصطناعية التي لا تحصى والموجودة في العالم. لم يكن الموضوع يتعلق، كما في حالة ويلبيك، بالشروع في البحث عن حالة طفولة افتراضية. أصلاً، هو *لم يقض* طفولته في كروز، وإنما بعض عطلات الصيف التي لم يعد يحتفظ عنها بذكرى محددة، سوى تلك المتعلقة بسعادة مبهمة، صاخبة.

قبل أن يغادر المنطقة الباريسية، كان عليه أن يؤدي مهمة أخيرة، متعبة، كان قد أجّلها قدر المستطاع. منذ عدة أشهر، كان قد عقد اتفاق بيع يتناول منزل رانسي مع آلان سيمون، الذي يرغب إنشاء مؤسسته فيه. كان هذا الأخير قد كوّن ثروة بفضل موقع على الإنترنت لتحميل رسائل الترحيب وخلفيات الشاشة في التلفونات المحمولة. كنشاط، يبدو هذا العمل وكأنه لا شيء، أو أنه بالأحرى شيء بسيط، لكن صاحبه أصبح، في غضون سنوات قليلة، الأول في هذا المجال عالمياً. وقّع عقوداً حصرية مع عدة شخصيات، وأصبحنا نستطيع، عبر مبلغ زهيد، من خلال موقعه، أن نحمّل على تلفوناتنا المحمولة أصوات باريس هلتون، ديبوا شانيل، ديمتري ميدفيديف، باف دادي، وكثير من الآخرين. كان يتمنى أن يستخدم المنزل كمقر رسمي لمؤسسته - وجد المكتبة «سوبر راقية» - وأن ينشئ أكشاكاً حديثة في المنتزه. بحسب رأيه، تنطوي رانسي على «طاقة من الجنون»، يعتقد أن باستطاعته توجيهها؛ تلك كانت طريقته

في رؤية الأشياء. شكّك جاد في دوافعه، ورأى أنه يبالغ في اهتمامه بالضواحي الفقيرة، لكنه كان شخصاً من أولئك الذين يبالغون في كل شيء ولو كان ذلك مجرد شراء صندوقٍ من مياه «فولفيك».

في جميع الأحوال، كانت لديه طاقة ثرثرية لا يستهان بها، وكان قد جرف أقصى ما يستطيع من كل المساعدات المحلية أو القومية المتوفرة؛ حتى أنه كاد يخدع جاد بثمن العملية التجارية، لكن هذا الأخير استعاد السيطرة، فانتهى الآخر باقتراح ثمن معقول. بطبيعة الحال، لم يكن جاد يحتاج لهذا المال، لكنه وجد أنه من غير اللائق لذكرى والده أن يبخّس من قيمة هذا المكان الذي حاول هذا الأخير أن يعيش فيه، وأن يبني فيه *حياة عائلية*، ولو كان ذلك لعدة سنوات فقط.

كان هواء عنيف يصفر من الغرب حين سلك المخرج المفضي إلى رانسي. كانت عشر سنوات قد مرت على آخر مرة جاء فيها. أصدر الباب بعض الصرير، لكنه فُتح من دون مشقة. كانت أغصان شجر الحور والصفصاف تتحرك تحت سماء رمادية داكنة، ولا يزال من الممكن اقتفاء أثر الممشى بين كتل العشب ونبات القراص والعلّيق. خطر له، بنفور غامض، أن هذا هو المكان الذي قضى فيه سنواته الأولى، وأشهره الأولى حتى، وكأن ملفات الزمن كانت تنغلق عليه مصدرة ضجيجاً مكتوماً؛ هو لا يزال شاباً، قال لنفسه، لم يعش حتى الآن سوى النصف الأول من تدهوره.

لم تكن دفات الشبابيك البيضاء تحمل أي آثار كسر، ودار المفتاح في القفل المصفّح في الباب الرئيسي من دون مشقة؛ كان

ذلك مذهلاً. أكيد أن ثمة إشاعة تفيد بأنه ليس في هذا المنزل ما يُسرَق، وأنه لا يستحق حتى محاولة سرقة، قد سرت في البلدات المجاورة. ذلك صحيح، ليس هناك شيء - ولا أي شيء قابل للبيع، ولا أي جهاز إلكتروني حديث؛ هناك فقط أثاث ضخم، غير أنيق. أما مجوهرات والدته النادرة فقد حملها والده معه - إلى منزل التقاعد في بولونيا، ثم إلى منزل فيزينيه. استلم جاد الصندوق إثر وفاة والده؛ فوضعه فوراً في أعلى خزانةٍ، رغم إدراكه أنه ربما كان من الأفضل إيداعه في مصرف «الائتمان البلدي» وإلا سيقع عليه مجدداً، عاجلاً أم آجلاً، ما سيسبب له مشاعر حزينة، لأنه إذا كانت حياة والده غير مبهجة، فماذا يمكن القول عن حياة والدته؟

تعرّف بسهولة إلى طريقة ترتيب الأثاث، وإلى تشكيل الغرف. تلك الوحدة السكنية، التي كان من الممكن لها استيعاب عشرة أشخاص، لم تحتضن، وهي في أوجّ تألقها، سوى ثلاثة - ثم شخصين، ثم واحداً، وفي النهاية لا أحد. تساءل للحظات حول السخان. طوال طفولته ومراهقته لم يسمع حديثاً يتناول مشاكل قد يكون يعاني منها السخان؛ وخلال الإقامات المقتضبة التي كان قد قام بها وهو شاب، لدى والده، لم تُثَر هذه المسألة يوماً. ربما كان والده قد حظي بسخان إستثنائي، سخان «بقدمين من الفولاذ، أعضاؤه متينة كعواميد معبد القدس»، كما يصف الكتاب المقدس المرأة الحكيمة.

على إحدى تلك الكنبات الوثيرة الجلدية طبعاً، التي تحميها من جرارة بعد ظهرٍ صيفي شبابيك زجاجها مضلّع، قرأ مغامرات سبيرو وفانتازيو، أو قصائد ألفرد دو موسيه. عند هذه الخاطرة فهم أن عليه أن يتحرك بسرعة، فاتجه نحو مكتب والده.

وجد رسومات الكرتون من دون صعوبة، ما إن فتح الخزانة الأولى. كان هناك حوالي ثلاثون واحدة، مقاس كل منها ٥٠ سنتم على ٨٠، يغطيها ذلك النوع من الورق ذي الموتيفات الحزينة السوداء والخضراء التي كانت تغطي دائماً الكراتين المخصصة للرسم خلال القرن الماضي. كانت مقفلة بشرائط سوداء مستهلكة، على وشك التفتت، ومحشية، لدرجة الانفجار، بمئات الأوراق من مقاس A2. إنها تحوي بالتأكيد سنوات من العمل. تناول أربعة تحت إبطيه ونزال، وفتح صندوق سيارته الأودي. عند الجولة الثالثة من نقل أعمال والده، لاحظ طيفاً أسود كبيراً يراقبه، على الناحية الأخرى من الشارع، وهو يتحدث على هاتفه المحمول. كان يشكّل كتلة مثيرة، برأس حليقة، وطوله تجاوز المتر والتسعين ويصل وزنه لحوالي مئة كيلو، لكن خطوط وجهه كانت صبيانية، والأرجح أن عمره لا يصل إلى ستة عشر عاماً. افترض جاد أن آلان سيمون يحمي استثماره، وفكر للحظة أن يذهب للاستقصاء، لكنه تراجع عن ذلك، آملاً أن يؤدي الوصف الذي يقدمه لمحدثه، عن الأسود، إلى التعرف عليه. كان ذلك هو الحال كما يبدو، لأن الآخر لم يقم بشيء لمقاطعته، بل اكتفى بمراقبته حتى أكمل تعبئة أغراضه.

تسكع لدقائق أخرى في المكان من دون أن يشعر بأي شيء محدد، على أية حال، كان يعرف أنه لن يعود أبداً إلى هذا المنزل الذي، سيتغير كثيراً في جميع الأحوال، والأرجح أن يعمد ذاك الحمار الذي اشتراه إلى تكسير *الفواصل* فيه وإلى إعادة طلي كل شيء بالأبيض. لكن شيئاً لم ينفع، ولم ينجح أي شيء في ترك أثر في نفسه، وهو يمشي بين العشب بحزن لزج. أغلق البوابة بعناية وهو خارج. كان الأسود قد رحل. فجأة، سكن الهواء، وتجمدت

أغصان الحور، وحلّت لحظة من الصمت التام. دار نصف استدارة، دخل شارع ليغاليتيه، ووجد بسهولة طريقه إلى مدخل الأوتوستراد.

لم يكن جاد معتاداً على التصاميم، والمخططات، والقصاصات التي يوضح فيها المهندسون خصائص المباني التي يصممونها؛ بالإضافة إلى أن أول تخطيط اكتشفه، في كرتون الرسم الأول، تسبب له بصدمة. لم يكن ذلك يشبه المبنى السكني في شيء، وإنما كان أقرب لشبكة عصبية، تفصل فيها ما بين الوحدات السكنية ممرات طويلة مقوّسة، مسقوفة أو في الهواء الطلق، تتشعب على شكل نجمة. كانت الوحدات بأحجام متنوعة جداً، وبأشكال دائرية أو بيضوية بالأحرى - ما فاجأ جاد؛ فقد كان يتخيل والده أكثر التزاماً بالخط المستقيم.

نقطة أخرى صاعقة استوقفته هي الغياب التام للنوافذ؛ في المقابل كانت الأسقف شفافة. هكذا، بعدما يعودون إلى بيوتهم، ينقطع سكان تلك المدينة عن أي تواصل بصري مع أي معلم من العالم الخارجي - سوى السماء.

ورقة الكرتون الثانية كانت مخصصة لمناظر تفصيلية من داخل المساكن. المفاجأة الأولى هي أنه لم يكن هناك أثاث تقريباً - وقد استعيض عنه بالاستخدام المنهجي لفوارق صغيرة في مستويات الأرضية. هكذا، كانت المناطق المخصصة للنوم عبارة عن حُفر مستطيلة عمقها حوالي أربعين سنتمتراً، وكان يجب النزول إلى السرير لا الصعود إليه. بالطريقة ذاتها، كانت أحواض الاستحمام عبارة عن مغاطس مستديرة كبيرة، تلاقي حافتها مستوى الأرض.

تساءل جاد عما كان والده ينوي استخدامه من موادّ؛ وخلص إلى أنها ستكون على الأرجح مواد بلاستيكية، البوليستيرين من دون شك، التي من الممكن تشكيلها بالحرارة على أي رسم تخطيطي.

عند حوالي التاسعة مساء، سخّن طبقاً من اللازانيا في المايكروويف. تناول وجبته على مهل، بعد أن أرفقها بزجاجة من النبيذ الأحمر العادي. تساءل إذا ما كان والده قد صدّق فعلياً أن مشاريعه قد تجد لها ممولاً، وأنها قد تعرف أي نوع من التنفيذ. في البدء، نعم، صدّق ذلك من دون شك. كانت تلك الفكرة البسيطة بحد ذاتها مفجعة، بقدر ما بدا بديهياً فيما بعد أنه لا يملك أية حظوظ. على أية حال لا يبدو أنه وصل يوماً إلى مرحلة صناعة المجسّم.

أكمل زجاجة النبيذ قبل أن يغوص مجدداً في مشاريع والده، وهو يشعر أن التمرين سيكون محبطاً أكثر فأكثر بعد. في الحقيقة، مع إخفاقاته المتلاحقة من دون شك، عمد المهندس جان بيار مارتان للهروب إلى الأمام في نطاق الخيال، مضاعفاً المستويات، والتشعبات، وتحديات الجاذبية، وهو يتصور، من دون أية مخاوف حول إمكانية تحقيق التصميم، أو حول ميزانيته، قلاعاً بلورية وغير محتملة التنفيذ على الأرض.

عند السابعة صباحاً اطّلع جاد على محتوى الكرتونة الأخيرة. كان النهار يطلع، متردداً بعد، على ساحة الألب؛ بينما يعد الطقس بيوم رمادي، متلبد، يستمرّ حتى المساء على الأرجح. كانت الرسومات الأخيرة التي أنجزها والده لا تحاكي في أي حال من

الأحوال مبنى جاهزاً للسكن، على الأقل من قبل البشر. كانت سلالم لولبية مثيرة للدوار تصعد نحو السماوات، حتى تصل إلى جسور مشاة معلّقة، شفافة، تصل بين مبانٍ غير منتظمة، رمحية الشّكل، بياضها مبهر، تذكّر أشكالها ببعض أشكال السحاب.

في الصميم، قال جاد لنفسه بحزن وهو يقفل الملف، لم يكفّ والده يوماً عن محاولاته بناء بيوت لعصافير الخطاف.

لم يكن لجاد أي أوهام حول الاستقبال الذي سيفرده له أهالي قرية جدّيه. فقد لاحظ منذ كان يجوب *الداخل الفرنسي العميق* برفقة أولغا لسنوات خلت أنه خارج بعض المناطق السياحية جداً مثل آخر البلاد البروفنسالي أو منطقة لا دوردوني، كان سكان الريف عموماً غير مضيافين، وعدوانيين وحمقى. إذا كان المرء يريد تلافي التعديات المجانية، وبشكل أكثر عمومية المتاعب، خلال رحلته، فعليه، من جميع النواحي، تفادي *الخروج عن الدروب المطروقة*. وذلك البغض الكامن ببساطة تجاه العابرين لا يلبث أن يتحول إلى كراهية واضحة وصريحة بمجرد أن يقتني هؤلاء مسكناً. على سؤال ما إذا كان باستطاعة غريب عن البلد أن يحوز على تقبل الناس له في منطقة ريفية فرنسية، كانت الإجابة: *أبداً*. إلا أنهم لم يكونوا، بذلك، يعبّرون عن عنصرية ما، ولا عن كره للأجانب. فبالنسبة لهم كان الشخص الباريسي غريباً مثله مثل ألمانيٍ من الشمال، أو مثل سنغالي. والغرباء، هم لا يحبونهم أبداً.

أعلمته رسالة موجزة من فرانز أن «ميشيل ويلبيك، كاتب» قد بيعت لتوّها - لمضاربٍ هندي يعمل في قطاع الهواتف النقالة. هكذا أضيفت ستة ملايين يورو للتو إلى حسابه في البنك. بطبيعة الحال،

كان ثراء الأجانب - الذين كانوا يدفعون لقاء اقتناء العقار مبالغ لا يحلم السكان حتى بتجميعها - أحد الأسباب الرئيسية وراء الحقد الذي يشعر به السكان تجاههم. في حالة جاد، سيكون من شأن هويته كـ *فنان* مفاقمة الموقف: فهو قد كوّن ثروته، بنظر مزارعٍ من كروز، من خلال وسائل مشكوك فيها، على حافة الاحتيال. من ناحية أخرى، هو لم يشتر ملكيته، بل *ورثها* - وبعضهم لا يزالون يذكرونه في المرحلة التي أقام فيها، خلال عدة عطل صيفية، في منزل جدته. فمنذ ذلك الوقت كان ولداً متوحشاً، وقليل التواصل مع من حوله؛ كما أنه لم يقم بشيء، منذ وصوله ليتم تقبله. بل بالعكس تماماً.

كان منزل جديه يفضي من الخلف إلى حديقة كبيرة جداً، تقارب مساحتها الهكتار. حين كانا لا يزالان حيين هما الاثنان كانت مزروعة بكاملها - ثم، رويداً رويداً، كلما تدهورت قوى جدته التي ترمّلت، وكلما اقتربت أكثر من انتظارٍ خنوعٍ في البداية، ثم متحمسٍ فيما بعد، لملاقاة الموت، كانت المساحات المزروعة تتقلص، ويتم إهمال المزيد من المربعات المزروعة خضاراً، لحساب زحف العشب البرّي. الخلف، غير المسوّر، كان يفضي مباشرة إلى حرج غراندمونت - تذكر جاد أنه، ذات مرة، احتمت في حديقتهم ظبية كانت تتعرض لملاحقة صيادين. بعد عدة أسابيع من وصوله علم أن أرضاً من خمسين هكتاراً محاذية لأرضه، ومشجّرة بالكامل تقريباً، معروضة للبيع، فاشتراها من دون تردد.

بسرعة، سرت ضجة عن باريسي معتوه بعض الشيء يشتري من دون أن يناقش السعر، ليجد جاد نفسه في نهاية السنة مالكاً لمساحة من سبعمئة هكتار، بضربة واحدة. بالتلال التي تتخللها،

والوعورة المسيطرة على بعض الأماكن منها، كانت أرضه مكسوة تماماً تقريباً بشجر الزان والكستناء والبلوط؛ يتوسطها مستنقع قطره خمسون متراً.

انتظر مرور موجات الصقيع الكبيرة، ثم شيّد حاجزاً من الأسلاك الشائكة طوله حوالي ثلاثة أمتار، سيّجه تماماً. وضع في أعلى السياج سلكاً كهربائياً يغذيه مولّد ذو طاقة منخفضة. كانت الطاقة التي تغذيه غير كافية لتكون قاتلة، لكنها مناسبة لصدّ من يحاول تسلق السياج - هي ذاتها، في الواقع، تلك المستخدمة في السياج المكهرب الذي يمنع قطعان الأبقار من ترك مرعاها. بهذا كان في إطار الشرعية تماماً، كما أشار لأفراد الشرطة الذين جاؤوا لزيارته مرتين، للاستفسار عن التغييرات التي طالت المنطقة. رئيس البلدية أيضاً زاره بدوره، ولفت نظره إلى أنه بحرمانه الصيادين، الذين يلاحقون الظباء والخنازير البرية في هذه الغابات منذ أجيال، من حق المرور في ممتلكاته، سيستثير من حوله عداوات كثيرة. بعد تلك المحادثة بفترة وجيزة، استعان بشركة هندسة مدنية لشق طريق تجتاز ملكيته من طرف لآخر، حتى تصل إلى بوابة آلية تفضي مباشرة إلى أوتوستراد 50D. من هنا، لم يكن سوى على بعد ثلاثة كيلومترات من مدخل الأوتوستراد 20A. اعتاد على شراء حاجياته من كارفور ليموج، حيث كان واثقاً أنه لن يلتقي أحداً من سكان القرية. عموماً، كان يرتاده صباح الثلاثاء من كل أسبوع، بمجرد أن يفتح أبوابه، بعد أن لاحظ أن تدفق الناس حينها يكون الأخف مقارنة بأي ساعةٍ أخرى من النهار. أحياناً، كان يستفرد بالمخزن الكبير، وكأنه له وحده - ما كان يبدو له بمثابة دنوٍّ لا بأس به من السعادة.

كذلك، وضعت شركة الهندسة المدنية حول المنزل طرمقاً (مادة

تشبه الإسفلت تستعمل لتعبيد الطرق) رمادياً عرضه عشرة أمتار. أما في المنزل نفسه فلم يقم بأي تعديل.

كلفته كل هذه الأعمال ما يزيد قليلاً عن ثمانية ملايين يورو. قام بعملية حسابية فوجد أنه لا يزال لديه، إلى حد كبير، ما يكفيه ليعيش حتى نهاية حياته - حتى ولو كان ذلك على افتراض أنه سيعيش طويلاً. مصروفه الأساسي سيكون، بصورة خاصة، الضريبة على الثروة. أما الضريبة على الدخل فلن يخضع لها. فهو ليس لديه أي مدخول، ولم يكن ينوي أن ينتج، عن جديد، أعمالاً فنية مخصصة للتسويق.

ومرّت السنوات، كما يقال.

ذات صباح، وهو يستمع إلى الراديو بالصدفة - لم يكن قد قام بذلك منذ ثلاث سنوات على الأقل - علم جاد بوفاة فريديريك بايبدير، عن عمر يناهز ستين عاماً. فارق الحياة في منزله على ساحل الباسك، وهو محاط، بحسب المحطة، بـ«محبة أهله». صدّق جاد ذلك من دون صعوبة. ففي الحقيقة، كان لدى بايبدير ما يستثير محبة الآخرين، كان لديه «آخرون» على الأقل؛ وهو شيء لم يكن موجوداً لدى ويلبيك ولا لديه: نوع من الألفة مع الحياة.

بهذه الطريقة غير المباشرة، ونوعاً ما بالتداعي، أدرك أنه قد بلغ هو أيضاً عمر الستين. كان ذلك مذهلاً: لم يكن يعي أنه شاخ لهذه الدرجة. فالمرء ينتبه لتقدمه في السن عبر علاقاته بالآخرين، ومن خلالهم؛ أما بالنسبة إليه فهو يميل دائماً لرؤية نفسه من صنف الأبديين. لقد ابيضّ شعره، وحفرت التجاعيد وجهه، لكن ذلك حصل من دون أن يشعر به أحد ومن دون أن يواجهه به أحد مباشرة، من خلال استعادة صور من شبابه. هنا صعق جاد للمفارقة: هو الذي أنجز خلال حياته الفنية آلاف الصور، لم يكن يمتلك صورة واحدة شخصية له. كذلك لم يفكر يوماً في رسم البورتريه الخاص به، فهو أبدا لم يعتبر نفسه، بأي شكل من الأشكال، موضوعاً فنياً قيماً.

لم تكن البوابة الجنوبية لملكيته، التي تفضي إلى القرية، قد فُتحَت منذ أكثر من عشر سنوات. إلا أنها فُتحت بسهولة رغم ذلك، ونوّه جاد، لمرة جديدة، باستخدامه تلك الشركة الليونية التي نصحه باستخدامها أحد زملاء والده القدامى.

لم يكن يذكر شاتولو لو مارشيه سوى بشكل غامض، كانت في ذاكرته قرية صغيرة مزعجة، قرية عادية من ريف فرنسا، لا أكثر. لكن، منذ أن خطى خطواته الأولى في شوارع الضيعة اعتراه الذهول. أولاً، كانت القرية قد كبرت كثيراً، وكان عدد المنازل قد تضاعف مرتين أو أكثر. وكانت تلك المنازل أنيقة، محاطة بالورود، ومبنية وفق التزام مهووس بالمسكن التقليدي الليموزيني. وفي جميع أنحاء الشارع الرئيسي تنتشر محلات تبيع المنتجات المحلية والأشغال الحرفية. وخلال مئة متر أحصى ثلاثة مقاهٍ تقدم صلات بالإنترنت بأسعار زهيدة. وكأننا في كوه في في، أو في سان بول فانس، أكثر مما نحن في قرية ريفية في كروز.

توقف في الساحة الرئيسية وهو يشعر بدوار خفيف. تعرّف إلى المقهى المقابل للكنيسة، أو بالأحرى إلى *مكان* المقهى. فديكوره، بمصابيحه التي تعود لمرحلة الآرت نوفو (الفن الجديد)، وطاولاته من الخشب الداكن ذات القواعد المصنوعة من الحديد المعالج (فير فورجيه)، ومقاعده الجلدية، كان يحاكي من دون شك مناخ مقهى باريسي من «الزمن الجميل». إلا أن كل طاولة كانت مزوّدة بوصلاتٍ لكمبيوتر محمول شاشته ٢١ بوصة، وبشحنات كهربائية تحترم المعايير الأوروبية والأميركية، وكتيّب يقدّم إرشادات الإتصال بالشبكة الكروزية - كان المجلس العام قد موّل إطلاق محطة قمرٍ صناعي بغرض تحسين سرعة الاتصال بالإنترنت في المقاطعة، كما علم جاد

عند اطّلاعه على الكتيّب. طلب كأساً من النبيذ الزهري من منطقة مونوتو سالون، تناوله وهو مستغرق في التفكير بما طرأ عليه من تحولات. في تلك الساعة الصباحية لم يكن المقهى يحظى بالكثير من الرواد. كانت عائلة صينية تنهي فطورها *الليموزيني*، المسعّر بثلاثة وعشرين يورو للشخص، كما لاحظ جاد وهو يتفحص قائمة الأسعار. أقرب منه بقليل، كان رجل ملتحٍ ضخم، يلمّ شعره على شكل ذيل حصان، يتفقد رسائله الإلكترونية؛ رمق جاد بنظرة متوجسة، عاقداً حاجبيه، وتردد في التوجه إليه بالحديث، ثم غرق مجدداً في جهازه. أكمل جاد كأس النبيذ، وخرج. ظل للحظات متأملاً وراء مقود سيارته الأودي الكهربائية الرياضية المتعددة الأغراض - كان قد بدّل سيارته ثلاث مرات خلال السنوات العشرين الأخيرة، لكنه ظل مخلصاً للماركة التي عرف معها أول بهجاته الحقيقية في القيادة.

خلال الأسابيع التي تلت، اكتشف على مهل، عبر خطوات صغيرة، من دون أن يغادر منطقة ليموزان - باستثناء مرور سريع في دوردوني، وآخر أسرع بعد في جبال روديز - ذلك البلد، فرنسا، الذي كان، بشكل غير قابل للنقاش، بلده. بطبيعة الحال، كانت فرنسا قد تغيّرت كثيراً. على الإنترنت، حظي لعدة مرّات بعدة نقاشات مع فندقيين، ومع عاملين في قطاع المطاعم، أو مع أصحاب مهن حرة أخرى (صاحب كاراج في بيريجو، مومساً من ليموج)، إلا أن كل شيء تأكد عند الانطباع الأول الباهر الذي انتابه وهو يعبر قرية شاتلو لو مارشيه: نعم لقد تغيرت البلاد، وتغيرت في العمق. فسكان المناطق الريفية التقليديون قد اختفوا بالكامل تقريباً. حلّ محلهم

سكان جدد، آتين من مناطق مدينية، تحركهم شهية حيوية للمؤسسة وقناعات بيئية معتدلة أحياناً، وقابلة للتسويق. أخذوا على عاتقهم مسؤولية إعادة تأهيل *المنطقة الخلفية للساحل* بالسكان. وتلك المحاولة، التي سبقتها محاولات أخرى كثيرة لم تكن مجدية، والمبنية هذه المرة على معرفة دقيقة بقوانين السوق، وعلى قبولهم الواضح، قد نجحت تماماً.

السؤال الأول الذي طرحه جاد على نفسه - وفي ذلك، كما هو واضح، أنانية الفنان النموذجية - كان أن يعرف ما إذا كانت «سلسلة المهن البسيطة» لا تزال، بعد مرور عشرين عاماً على إنجازها، تحتفظ بأهليتها. في الحقيقة، ليس تماماً. «مايا دوبوا، مساعِدة في مجال الإدارة عن بعد» لم يعد لها من مسوّغ للوجود : فقد أصبحت الإدارة عن بعد، خصوصاً في مجال الإبقاء اللاسلكي، عملية خارجية بنسبة ١٠٠٪ - تتم تحديداً في إندونيسيا وفي البرازيل.

في المقابل، كانت «إيميه، فتاة مرافقة» لا تزال تحافظ على كامل راهنيتها. حتى أن الدعارة كانت قد عرفت، على المستوى الإقتصادي، ازدهاراً حقيقياً، سببه، تحديداً في بلدان أميركا الجنوبية وروسيا، استمرار صورة متخيلة لـ *الباريسية*، كما لنشاط المهاجرات من إفريقيا الغربية الذي لا يكلّ. ففرنسا، وللمرة الأولى منذ سنوات ١٩٠٠ أو ١٩١٠، عادت لتصبح وجهة مختارة لـ *السياحة الجنسية*.

مهن جديدة، أيضاً، كانت قد ظهرت - هي بالأحرى، مهنٌ قديمة قد استعيدَت من جديد، مثل صناعة الحديد الفنية، وصناعة الأواني النحاسية؛ حتى أن بستنة المستنقعات عادت للظهور في بعض الحالات. في جابريل لي بورد، وهي بلدة تبعد خمسة كيلومترات

عن بلدة جاد، ظهر مجدداً بيطار (الرجل الذي يصنع نعول الأحصنة) - فمنطقة كروز، بشبكتها من الدروب المصانة جيداً، وغاباتها، والفرجات الحرجية التي تحويها، مناسبة تماماً للنزهات الفروسية.

بشكل أكثر عمومية، كانت فرنسا، على المستوى الاقتصادي، تتدبر أمرها. مع تحولها لبلد زراعي وسياحي على وجه الخصوص، برهنت عن قوة لافتة خلال الأزمات المتنوعة التي تلاحقت، تقريباً من غير انقطاع، خلال السنوات العشرين الأخيرة. كانت هذه الأزمات عنيفة بشكل متزايد، وغير متوقعة بشكل هزلي - هزلي على الأقل من وجهة نظر إله هازئ، تسلّى من دون ضوابط بالتقلبات المالية التي أغرقت فجأة في البحبوبة، ثم في المجاعة، بلداناً كاملة بحجم إندونيسيا، أو روسيا أو البرازيل: أي شعوب مكوّنة من مئات ملايين البشر. بوصفها لا تملك سوى بيع الفنادق الجذابة، والعطور ولحم الخنزير المفروم. ما يُطلَق عليه *فن الحياة* - تصدّت فرنسا من دون صعوبة لجميع هذه المطبّات. من سنة إلى أخرى كانت جنسية الزبائن تتبدّل، هذا كل ما في الأمر.

مع عودته إلى شاتلو لو مارشيه، اعتاد جاد القيام بنزهة يومية، في نهاية الصبيحة، في شوارع القرية. كان يتناول بعض المقبلات في مقهى الساحة (الذي حافظ، بشكل يثير الفضول، على اسمه القديم *حانة الرياضات*) قبل أن يعود لتناول الغذاء في المنزل. وسرعان ما أدرك أن كثيراً من السكان الجدد يتعرفون إليه على ما يبدو - أو على الأقل قد سمعوا به من قبل - ويتأملونه من دون عداوة معيّنة. في الواقع، لم يكن السكان الجدد للمناطق الريفية يشبهون أسلافهم في شيء أبداً. لم يكن القدر المحتوم هو ما دفعهم للانكباب على صناعة

السلال الحرفية، أو ترميم كوخ ريفي أو صناعة الأجبان، بل كان مشروعاً مؤسساتياً، وخياراً اقتصادياً مدروساً وعقلانياً. كانوا متعلمين، ومتسامحين، وأنيسين، يتعايشون من دون صعوبة محددة مع الغرباء الموجودين في مناطقهم - أصلاً كان ذلك لمصلحتهم، لأن هؤلاء يشكلون زبائنهم الأساسيين. معظم المنازل التي لم يعد لمالكيها من شمال أوروبا القدرة على الاعتناء بها كانت قد استُرجعَت. طبعاً، كان الصينيون يشكلون مجتمعاً منغلقاً على نفسه بعض الشيء، ولكن في الحقيقة ليس لهذه الدرجة، فقد كانوا أقل انغلاقاً من أسلافهم الإنكليز - كما أنهم، على الأقل، لم يكونوا يفرضون استخدام لغتهم. كانوا يظهرون احتراماً مبالغاً فيه، يصل إلى حدود التبجيل تقريباً، *للعادات المحلية* - التي قلّما كان السكان الجدد يعرفون عنها شيئاً، قبل أن يجتهدوا، عبر نوع من التقليد التكييفي، في إعادة إنتاجها؛ هكذا، كنا نشهد عودة واضحة أكثر فأكثر لأطباق، ورقصات، وحتى أزياء، محلية. بناء على ذلك، كان الروس طبعاً هم من يشكلون الزبائن المرحّب بهم أكثر من الجميع. فهم لن يجادلوا أبداً حول سعر أحد أطباق المقبلات، أو مسكناً 4x4. كانوا ينفقون بسخاء، بشكل فضفاض، لإخلاصهم لاقتصاد بوتلاتش(*) اخترق من دون صعوبة الأنظمة السياسية المتعاقبة في بلادهم.

كان ذلك الجيل الجديد يبدو أكثر محافظةً، وأكثر احتراماً للمال وللهرمية الاجتماعية المكرّسة من قبَل كلّ من سبقوه. بشكل مستغرب، كانت معدلات الولادة قد ارتفعت هذه المرة فعلياً في

(*) نسق اقتصادي يقوم على تبادل الهدايا (المترجمة).

فرنسا، حتى من دون أن نأخذ بعين الاعتبار الهجرة، التي كانت في جميع الأحوال قد هبطت تقريباً إلى الصفر منذ انقراض آخر الوظائف الصناعية والتقليص الجذري لتدابير الحماية الاجتماعية الذي طرأ مع بداية عام ٢٠٢٠. مع توجههم نحو البلدان الصناعية الجديدة، كان المهاجرون الأفارقة يتعرضون الآن لسفر محفوف بالمخاطر. وبعبورهم المحيط الهندي وبحر الصين كانت بواخرهم غالباً ما تهاجَم من قبل القراصنة، الذين يجردونهم من آخر ادّخاراتهم، هذا إذا لم يرموهم في البحر بكل بساطة.

ذات صباح، حين كان جاد يحتسي برشفات صغيرة كأسه من نبيذ شابليه، خاطبه الملتحي ذو الشعر الملموم على شكل ذيل حصان - أحد أوائل السكان الذين لاحظهم في القرية. كان هذا الأخير، من دون أن يتعرّف إلى عمله بالتحديد، تعرّف إليه ک *فنان*. هو أيضاً كان يرسم قليلاً، كما أخبره، مقترحاً إطلاعه على أعماله.

الميكانيكي العتيق في أحد كاراجات كوربوفوا قد استدان حتى يستقر في القرية، حيث أنشأ مؤسسة لتأجير الدراجات النارية - فوراً، خطر ذلك الكرواتي من شارع ستيفان بيشون، ومحله لتأجير الـ«سكوتر» المائي، على بال جاد. كان الميكانيكي شغوفاً بدراجة الـ «هارلي دايفدسون»، وخلال ربع ساعة، كان على جاد تحمّل وصف المركبة التي تتبوأ العرش في كاراجه، وشرح الطريقة التي يتبعها للحفاظ عليها وتجديدها عاماً بعد عام.

كانت الدراجات النارية، برأيه، «محركات جميلة» تتيح «نزهات ممتعة». وعلى مستوى الصيانة أشار بنيّة طيبة إلى أنها في النهاية أقل إلزامية مما هي عليه في حالة اقتناء حصان. كانت الأعمال جيدة في المحصلة، ولا شيء يدعو للتذمر.

كانت لوحاته، المستوحاة على الأرجح من قصص *الخيال البطولي*، تمثّل في معظمها محارباً ملتحياً يمتطي حصاناً آلياً مؤثراً، يجسّد، كما يبدو بوضوح، تأويلاً جديداً للهارلي التي يملكها، عبر أسلوب يحاكي *مسلسلات الفضاء الخارجي*. فيها، يحارب أحياناً قبائل الزومبي اللزجة وأحياناً جيوشاً من العسكر الآليين. أما بعض اللوحات التي تمثّل إلى حد ما *استراحة المحارب* فتكشف عن خيال إيروسي ذكوري نموذجي قوامه مومسات شرهات، بشفاه نهمة، يتحركن أزواجاً بشكل عام. في المحصلة، كانت عبارة عن قصص شخصية، ورسومات ذاتية خيالية؛ إلا أن تقنيته المتعثرة لم تكن تتيح له، للأسف، الوصول إلى المستوى الفرطواقعي(*) أو ذلك المتقن المطلوب لإنجاز *الخيال البطولي*. في المجمل، نادراً ما رأى جاد شيئاً بهذه القباحة. بحث عن تعليق مناسب خلال ما يزيد عن ساعة، بينما كان الآخر يخرج لوحاته من الكرتونة بلا كلل، متمتماً أن الأمر يتعلق بأعمال «ذات قوة رؤيوية هائلة». أضاف مباشرة أنه لم يحافظ على أي صلة مع الأوساط الفنية. ما كان، من ناحية أخرى، هو الحقيقة المطلقة.

(*) تيار فني من أصل أميركي يستلهم في الرسم والنحت نتائج التصوير الفوتوغرافي (المترجمة).

كانت شروط إنجاز العمل التي شغلت جاد مارتان خلال السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته لتظل مجهولة تماماً بالنسبة إلينا لو لم يكن، قبل وفاته بأشهر، قد وافق على مقابلة صحافية شابة تعمل لحساب *آرت بريس*. ورغم أن الحوار يحتل أكثر من أربعين صفحة من المجلة تقريباً، إلا أنه لا يتحدث فيه - بشكل حصري تقريباً - سوى عن الإجراءات التقنية المستخدمة لإنجاز الصور انطلاقاً من أفلام الفيديو. تلك الإنجازات الغريبة التي قام بها في آخر حياته، المحفوظة اليوم في متحف الفن المعاصر في فيلادلفيا، والتي لا تشبه أعماله السابقة في شيء، ولا حتى أي عمل آخر معروف، بينما تستمر، بعد انقضاء ثلاثين عاماً، في إثارة الإعجاب الممزوج بالارتباك لدى الزوار.

حول معنى تلك الأعمال التي شغلته طوال الفترة الأخيرة من حياته، يرفض الإدلاء بأي تعليق. «أريد أن أحلّل العالم... أريد ببساطة أن أعرض العالم...» كرّر خلال ما يزيد عن صفحة للصحافية الشابة المشلولة أمام صعوبة الرهان، والتي تبدو عاجزة عن صدّ تلك الثرثرة الخرفة. وربما يكون هذا أفضل، فثرثرة جاد مارتان تظهر هرمة وحرة، وتركّز تحديداً على مسائل فتحة العدسة في آلة

التصوير، ومدى فعالية البرامج التقنية ومدى تكاملها مع بعضها البعض.

حوار لافت، «انمحت فيه الصحافية الشابة خلف موضوعها»، كما علّقت بجفاء *لوموند* التي كانت تموت غيظاً لأنها لم تحظ بتلك المقابلة الحصرية. حوار أثمر تعيين تلك الصحافية في منصب رئيسة تحرير مساعدة في المجلة التي تعمل فيها بعد الحوار بعدة أشهر - تحديداً، في اليوم الذي أُعلنَت فيه وفاة جاد مارتان.

وحتى ولو أن صفحات عديدة قد أُفردَت لها، إلا أن معدات التصوير التي استخدمها جاد لم يكن فيها، بحد ذاتها، ما هو مميز فعلاً: مسند كاميرا ثلاثي القوائم من ماركة مانفروتو، آلة تصوير فيديو نصف احترافية ماركة باناسونيك - كان قد اختارها لتناسب الإضاءة الاستثنائية للاقط الكهربائي الذي يستخدمه، والذي يتيح التصوير في عتمة شبه تامة - وقرص صلب سعته ٢ تيرا أوكتيه موصول بفتحة كاميرا الفيديو المخصصة لجهاز الـ «يو. أس. بي»، ناقل المعلومات. على امتداد سنوات عشر، عند كل صباح باستثناء أيام الثلاثاء (التي كان يخصصها للتسوّق)، كان جاد مارتان يحمّل هذه المعدات في صندوق سيارته الأودي ويجوب الطريق الخاصة التي شقها لنفسه في ملكتيه. لم يكن من الممكن المغامرة وتجاوز تلك الطريق: الأعشاب، العالية جداً والتي تتخللها شجيرات الشوك، كانت سرعان ما تقود إلى غابة كثيفة، يتعذر اختراق أشجارها المتشابكة. كان أثر الدروب التي من الممكن أن تكون اخترقت الغابة ذات يوم قد انمحى منذ زمن. وكانت ضفاف المستنقع، المكسوّة

بأعشاب سويّة ومنبسطة تنبت بصعوبة على أرض إسفنجية، هي المكان الوحيد الذي ظلّ ارتياده عملياً بشكل ما.

رغم حيازته لتشكيلة واسعة من العدسات، كان يستخدم دائماً تقريباً «شنايدر أبو سينار»، الذي يتحلى بميزة مدهشة: فهو يفتح على ١,٩ مع حفاظه على تركيز أقصى يصل إلى ١٢٠٠ ملمتر، بما يعادل ٢٤ × ٣٦. لم يكن اختياره للموضوع يتم «وفق أي استراتيجية معدّة مسبقاً»، كما أكد، عدة مرات، للصحافية الشابة؛ كان «بكل بساطة يتبع إغراء اللحظة». في جميع الأحوال، كان يستخدم في كل مرة تقريباً أبعاداً بؤرية عالية جداً، فيركز أحياناً على غُصن من شجرة حور يتلاعب به الهواء، وأحياناً على خصل عشبية، أو طرف عوسجة من القراص، أو سطح تربة صالحة للزراعة، رطبة، تقع بين مستنقعي ماء. بعد أن يضبط الإطار، كان يوصل تغذية كاميرا الفيديو بقبس ولاعة السجائر الكهربائية في سيارته، ويديرها، ثم يعود إلى منزله راجلاً، بعد أن يترك محرك السيارة دائراً لساعات، وأحياناً لما تبقى من اليوم، وللّيل الذي يليه - فسعة القرص الصلب كانت تتيح له تخزين الصور بشكلٍ متواصل لمدة أسبوع تقريباً.

تُعتبَر الأجوبة التي ترتكز على استحضار «إغراء اللحظة» مخيبة تحديداً لمجلة تعنى بالمعلومة العامة، لذلك تحاول الصحافية الشابة، هذه المرة، أن تعرف المزيد: إن الصور الملتقطة في يومٍ ما لا بدّ أن تؤثر على تلك التي تلتقط في الأيام التالية، قالت في محاولة للتكهن؛ لا بد من أن مشروعاً كان يتبلور، ويتشكل، بهذه الطريقة. كلا، أبداً، أجابها مارتان بإصرار: لم يكن يعرف، كل صباح، في اللحظة التي يدير فيها محرك سيارته، ما كان ينوي تصويره؛ كل يوم، بالنسبة له، كان يوماً جديداً.

دامت مرحلة عدم التيقن التام تلك، كما أشار، حوالي عشر سنوات. بعدها، كان يعالج الصور التي يحصل عليها بحسب أسلوب يتعلق تحديداً بالمونتاج، حتى ولو كان ذلك نوعاً خاصاً جداً من المونتاج، لا يحتفظ من خلاله أحياناً إلا بلقطات قليلة من تصوير مدته ثلاث ساعات؛ لكنه يظل مونتاجاً يتيح له الحصول على تلك الأطر النباتية المتحركة، بمرونتها المتوحشة، المسالمة والقاسية في الوقت عينه، والتي تشكّل من دون شك التجربة الأكثر اكتمالاً في الفن الغربي، على مستوى تمثيل وجهة النظر النباتية حول الكون.

كان جاد مارتان «قد نسي»، هذا ما يؤكده على أية حال، السبب الذي دفعه، بعد مرور عشر سنوات كرّسها لتصوير النبات فقط، إلى العودة لتصوير الأدوات الصناعية: في البداية صوّر تلفوناً محمولاً، ثم لوحة مفاتيح كمبيوتر، فمصباحاً للمكتب، وأشياء أخرى، متنوعة جداً في البداية، قبل أن يركّز شيئاً فشيئاً، إلى أن أصبح يتناول بشكل حصري تقريباً، الأدوات التي تحتوي على مكوّنات إلكترونية. من دون شك، تظل الصور التي التقطها للوحة الأم (mother board) في كمبيوترات مهملة، هي الأكثر تأثيراً، إذ يستحضر تصويره لها، من دون أي إشارة للمقاييس، قلاعاً مستقبلية غريبة. كان يصوّر تلك الأشياء في قبوه الخاص، على خلفية رمادية حيادية من شأنها أن تختفي بعد إدراجها في أفلام الفيديو. ولكي يسرّع عملية التحلل كان يرشّ عليها مادة الحمض الكبريتي المذوّب، التي كان يشتريها معبأة في زجاجات - وهي خلطة تُستخدَم في العادة، كما يلفت، للتعشيب. ثم، هنا أيضاً، كان يلجأ للمونتاج، إذ يقتطع بعض الأطر التصويرية على مراحل طويلة؛ وتكون النتيجة مختلفة تماماً عما هي

عليه في حالة المونتاج البسيط المعجَّل، من حيث إن عملية التحلل، بدل أن تكون مستمرة، تتحقق على مراحل، عبر صدمات مفاجئة.

بعد خمسة عشر عاماً من التصوير والمونتاج، كان لديه حوالي ثلاثة آلاف نموذج، غريبة نوعاً ما، مدّتها بمعدل ثلاث دقائق؛ إلا أن عمله لم يتطور بالفعل إلا لاحقاً، حين بدأ يبحث عن برنامج لإنجاز طباعة فوق أخرى. فبعد أن استخدم خصوصاً في المراحل الأولى من إنتاجات السينما الصامتة، كان ذلك النوع من الطباعة قد اختفى تماماً لدى السينمائيين المحترفين ولدى منتجي الفيديو الهواة، وحتى لدى أولئك الذين يعملون في المجال الفني. كانت تلك الطريقة تعتبر من التأثيرات الخاصة التي عفا عليها الزمن، لناحية عدم واقعيتها التي عادت وأصبحت مطلوبة الآن على ما يبدو. بعد أيام عديدة من البحث انتهى به الأمر إلى اكتشاف *برنامج مجاني* للنوع البسيط من تلك الطباعة. تواصل مع المؤلف الذي يعيش في إلينوي، وسأله إن كان يقبل، بعد أن حدد مكافأة، أن يطور له نسخة أكثر اكتمالاً من برنامجه. اتفقا على الشروط، وبعد أشهر قليلة كان لدى جاد مارتان جهاز خاص، لاستخدامه الخاص، لم يكن له شبيه في السوق. بارتكازه على مبدأ يشبه كثيراً مبدأ طبقات الصورة على فوتوشوب، كان البرنامج يتيح تركيب ما يناهز ستة وتسعين شريط فيديو فوق بعضها البعض، مع ضبط الإضاءة في كلٍ منها، لناحية التشبع والتباين؛ ومع إمكانية إبراز كل منها تدريجياً على المستوى الأول، أو جعله يتلاشى في عمق الصورة. كان ذلك الجهاز هو ما أتاح له الحصول على تلك المسطحات الفاتنة حيث تبدو الأدوات الصناعية وكأنها تختنق، بينما يغمرها تعاظم الطبقات النباتية تدريجياً. أحياناً،

كانت تعطي انطباعاً وكأنها تقاوم، وتحاول العودة إلى السطح؛ إلى أن تحملها موجة من العشب ومن أوراق الشجر، فتعود وتغطس في قلب الحمم النباتية، في الوقت ذاته الذي تتفتت فيه أسطحها، مظهرة معالجاتها الإلكترونية الصغيرة، والبطاريات وشرائح الذاكرة.

كانت صحة جاد تتدهور. منذ مدة لم يعد يقوَ على تناول شيء سوى منتجات الحليب والأغذية الحلوة المذاق، وبدأ يشك في أنه، مثل والده، سوف يصيبه سرطان في القنوات الهضمية. وقد أثبتت تحاليل أجراها في مستشفى ليموج ذلك التشخيص، لكنه رفض تلقي العلاج، وخوض علاج إشعاعي أو علاجات أخرى ثقيلة، مكتفياً بتناول جرعات هائلة من المنوّمات وأدوية تريحه وتخفف من أوجاعه التي تزداد بشكل خاص مساءً. كتب وصيته، ناقلاً ثروته إلى جمعيات عديدة تُعنى بحماية الحيوانات.

في الفترة ذاتها تقريباً، أخذ يلتقط بالفيديو صور جميع الأشخاص الذي عرفهم، من جنفييف إلى أولغا مروراً بفرانز، وميشيل ويلبيك، ووالده، وآخرين أيضاً، وفي الحقيقة كل من كان بحوزته صور لهم. كان يرتّب الصور على مشمّع رمادي مشدود داخل إطار معدني، ويصوّرها وهي أمامه، تاركاً هذه المرة التحلل الطبيعي يعمل بنفسه. مع تعرّضها مداورة للمطر ولأشعة الشمس، كانت الصور تنفتل، وتتعفن في بعض الأماكن، ثم تتفتت إلى نثرات صغيرة، حتى تتحلل تماماً في غضون بعضة أسابيع. لمزيد من الغرابة، اشترى تماثيل صغيرة على شكل كائنات بشرية، وأخضعها للعملية ذاتها. كانت التماثيل أكثر مقاومة، ما تطلب منه، بغية تسريع تحللها، استخدام زجاجات الحمض الكبريتي التي بحوزته مجدداً.

كان الآن يتغذى حصرياً بالأغذية السائلة، وفي كل مساء، تأتي ممرضة وتعطيه حقنة من المورفين.

بهذه الطريقة، كان جاد مارتان يغادر حياة لم ينخرط فيها تماماً. في هذه المرحلة كانت تعود إليه بعض الصور، والغريب أنها كانت بالأخص صور نساء، رغم أنه لم يكن ثمة ما هو استثنائي في حياته الجنسية. جنفييف، جنفييف اللطيفة، والمسكينة أولغا كانتا تلاحقانه في أحلامه. حتى أنه تذكّر مارت تايفير التي عبّرت له علانيةً عن رغبتها، على إحدى شرفات بور غريمو، في اللحظة التي نزعت فيها حمّالة صدرها من ماركة لوجابي، كاشفة عن نهديها أمامه. كان عمرها خمسة عشر عاماً في ذلك الوقت وكان هو في الثالثة عشر. في المساء نفسه مارس العادة السرية، في حمامات الشقة التي خُصّصَت لإقامة والده حتى يراقب عن كثب العمل في الورشة، وفاجأه ما وجده في ذلك من متعة. ذكريات أخرى لنهود طرية، ألسنة رشيقة، وفروج ضيقة، عادت إليه. في النهاية، لم يحظ بحياة سيئة لهذا الحد.

منذ ثلاثين عاماً مضت (وتلك هي الإشارة الوحيدة التي تتخطى المستوى التقني والتي يعطيها في مقابلة *آرت برس*)، قام جاد برحلة إلى رورغبايت، حيث نُظمَ معرضٌ استعادي كبير لأعماله. من ديسبورغ إلى دورتموند، مروراً ببوخم وغيلسينكيرشين، كانت معظم مصانع الحديد والصلب القديمة قد تحوّلت إلى أماكن عرض فني، وعروض مسرحية وحفلات موسيقية، في الوقت ذاته الذي كانت فيه السلطات المحلية تحاول تعزيز *سياحة صناعية* ترتكز على إعادة بناء

أسلوب الحياة العمالي الخاص ببداية القرن العشرين. في الحقيقة، كانت كل تلك المنطقة، بأفران الصهر التي تحويها، وبأنقاضها، وبسككها الحديدية التي لم تعد مستخدمة والتي تستمر عربات القطار المركونة فوقها في عملية تعرّضها للصدأ، وبتراصف بيوتها الصغيرة المتشابهة والأنيقة، التي تزينها أحياناً حدائق عمالية، تشبه خزاناً من العهد الصناعي الأول في أوروبا. كان جاد مبهوراً وقتها بكثافة الغابات الخطيرة التي أحاطت بالمعامل، بعد مرور ما لا يزيد على قرن على تعطّلها. كان يتم فقط تأهيل تلك التي كان من الممكن مواءمتها مع دورٍ ثقافي مستحدَث، بينما كانت الأخرى تتصدع شيئاً فشيئاً. تلك المباني الصناعية العملاقة، حيث كان يتركز فيما مضى أساس قدرة الإنتاج الألمانية، كانت قد أصبحت صدئة، نصف منهارة، تحتل محترفاتها القديمة نباتات تتسلل بين الأنقاض لتغطيها، شيئاً فشيئاً، بدغل منيع.

نستطيع النظر إلى الأعمال التي شغلت السنوات الأخيرة من حياة جاد مارتان على الشكل الآتي - وهذا هو التفسير الأكثر مباشرة - تأمّل نوستالجي في انقضاء العصر الصناعي في أوروبا، وبشكل أكثر عمومية، تأمّل نوستالجي في الطابع القابل للهلاك والعابر لأية صناعة إنسانية. إلا أن ذلك التفسير يظل غير كافٍ لوصف الاضطراب الذي يعترينا ونحن نتأمل تلك التماثيل الصغيرة من ماركة بلايموبيل، المثيرة للشفقة والتائهة وسط مدينة مستقبلية غامضة وهائلة، مدينة تتفتت هي أيضاً بذاتها وتتفكك، إلى أن تذوي في عظمة امتداد نباتي لا نهاية له. وأيضاً ذلك الإحساس بالخراب، الذي يتمكن منا ونحن نتأمل صور الكائنات البشرية التي رافقت جاد

مارتان خلال حياته الدنيوية وهي تتحلل تحت تأثير التغيرات المناخية لتستحيل أشلاء، بينما تبدو في الصور الأخيرة من السلسلة، وكأنها ترمز إلى الإبادة المعمّمة للنوع البشري. فهي تغوص، وتبدو للحظات وكأنها تقاوم، قبل أن تختنق تماماً تحت طبقات النبات المتراكبة. ثم يهدأ كل شيء، ولا يعود هناك سوى عشب يتهادى في الهواء. لقد حقق النبات نصراً مطلقاً.

شكر

عادة لا يكون لديّ مَن أشكره، لأنني أقوم بأبحاث قليلة، بل حتى قليلة جداً إذا ما قورنتُ بكاتب أميركي. ولكن في هذه الحالة بهرتني الشرطة وفتنتني، فرأيت أن من الضروري القيام بالمزيد.

لذلك، يسرني هذه المرة أن أشكر تيريزا كريميسي، التي أنجزت الخطوات الضرورية، كما أشكر المدير هنري مورو، وقائد الشرطة بيار ديبوا، الذين استقبلوني بمحبة في كيه ديزورفيفر، وأمدّوني بملاحظات مفيدة جداً تتعلق بمهنتهم الصعبة.

طبعاً من غير الضروري التذكير بأنني قد احتفظت بحرية تغيير الوقائع، وبأن الأفكار المعبَّر عنها لا تلزم سوى الشخصيات التي عبَّرت عنها؛ وبأننا في إطار عمل من صنع الخيال.

هذا الكتاب

عادة لا يكون لديّ مَن أشكره، لأنني أقوم بأبحاث قليلة، بل حتى قليلة جداً إذا ما قورنتُ بكاتب أميركي. ولكن في هذه الحالة بهرتني الشرطة وفتنتني، فرأيت أن من الضروري القيام بالمزيد.

لذلك، يسرني هذه المرة أن أشكر تيريزا كريميسي، التي أنجزت الخطوات الضرورية، كما أشكر المدير هنري مورو، وقائد الشرطة بيار ديبوا، الذين استقبلوني بمحبة في كيه ديزورفيفر، وأمدّوني بملاحظات مفيدة جداً تتعلق بمهنتهم الصعبة.

طبعاً من غير الضروري التذكير بأنني قد احتفظت بحرية تغيير الوقائع، وبأن الأفكار المعبَّر عنها لا تلزم سوى الشخصيات التي عبَّرت عنها؛ وبأننا في إطار عمل من صنع الخيال.

